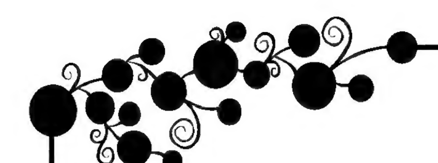


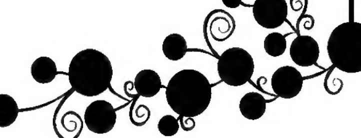
موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

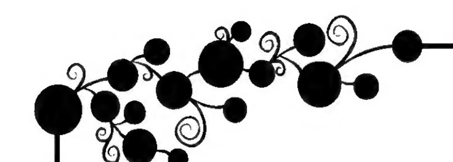
تأليف
أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف
د. سليمان الدريع

المجلد الخامس
شبهات عن القرآن وعلومه

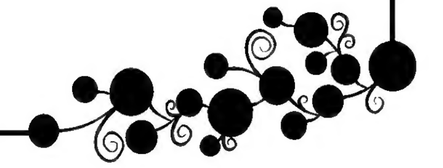
دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

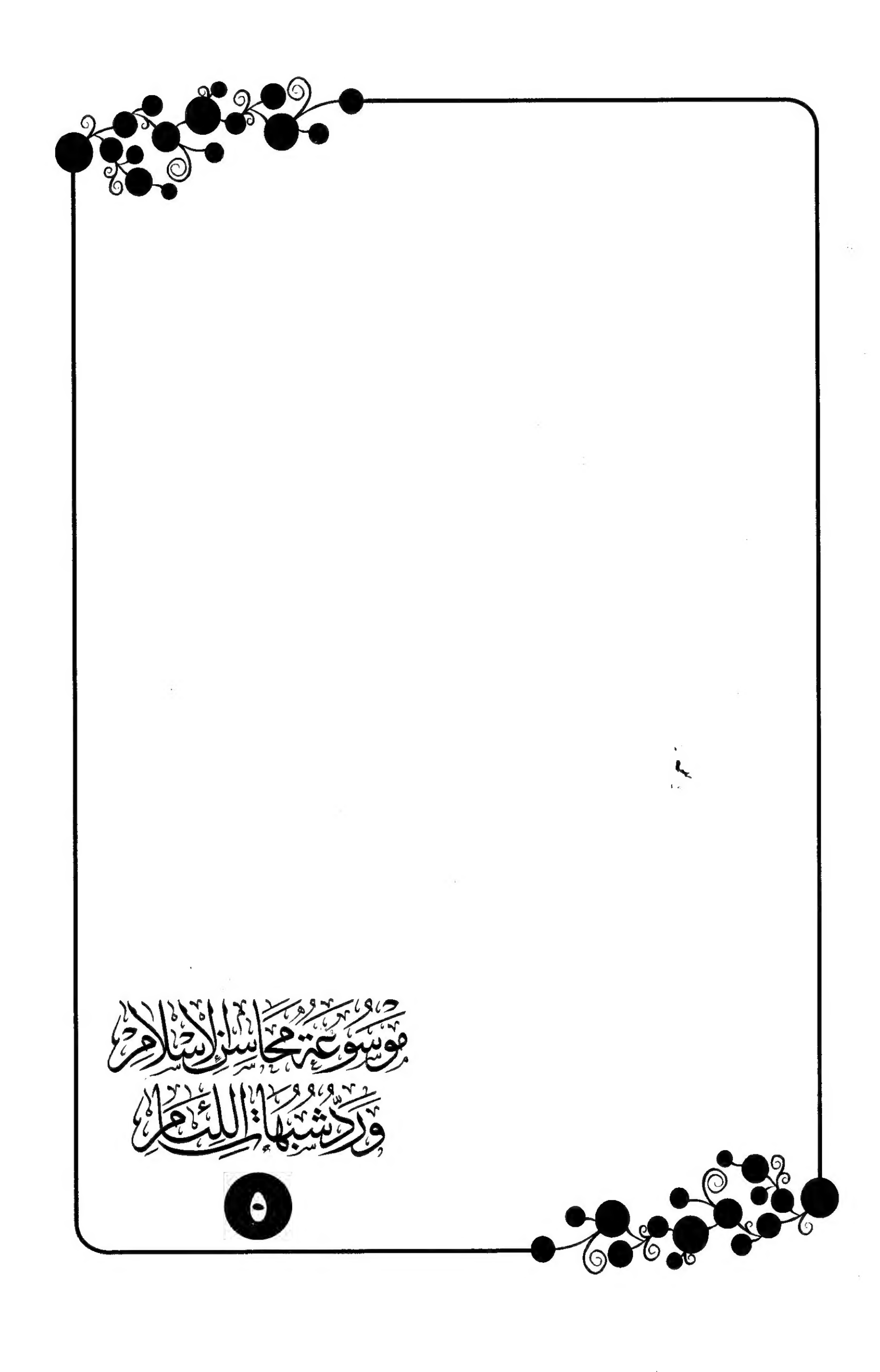






بسم الله الرحمن الرحيم




موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام
٥



١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م



(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

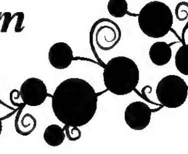


للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠



تابع
شبهات علوم القرآن

٢٠- شبهات جمع القرآن.

الباب الأول: مقدمة جمع القرآن.

وتشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: بيان معنى جمع القرآن الكريم.

المبحث الثاني: كيف حفظ الله القرآن؟

المبحث الثالث: مراحل جمع القرآن، والفرق بين كل مرحلة.

الباب الثاني: الرد على الشبهات.

الفصل الأول: الطعن في الإجماع على جمع القرآن.

الشبهة الأولى: عدم مشاركة علي بن أبي طالب ﷺ في الجمع.

الشبهة الثانية: اعتراض ابن مسعود على كيفية جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ.

الشبهة الثالثة: حرق المصاحف، واختلاف مصاحف الصحابة.

الفصل الثاني: الطعن في التوثيق في صحة الجمع.

الشبهة الأولى: لماذا لم يُجمع القرآن في عهد النبي ﷺ؟

الشبهة الثانية: لم يَجمع القرآن إلا أربعة.

الشبهة الثالثة: حول اختلاف ألحان العرب في المصاحف، وألحان اللغات.

الشبهة الرابعة: حول أول من جمع القرآن.

الشبهة الخامسة: تخطئة ابن عباس، وعائشة، وسعيد بن جبير للكُتَّاب.

الفصل الثالث: شبهات تطعن في سقوط شيء من القرآن:

الشبهة الأولى: شبهة قتل القُرَّاء.

الشبهة الثانية: سورتي الخلع والحفد.

الشبهة الثالثة: آية الرجم.

الشبهة الرابعة: آيتي التوبة والأحزاب.

الشبهة الخامسة: شبهة لو أن لابن آدم واديًا.

الشبهة السادسة: محو ابن مسعود المعوذتين والفاتحة من المصحف.

وإليك التفصيل

الباب الأول: مقدمة جمع القرآن.

المبحث الأول: بيان معنى جمع القرآن الكريم.

معنى الجمع في اللغة: الجَمْع: مصدر الفعل "جَمَع"، قال الراغب الأصفهاني: الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضِهِ من بعض، يقال: جمعته فاجتمع[1].

وقال ابن منظور: جَمَعَ الشيءَ عن كل تفرقة يجمعه جمعا، واستجمع السيل: اجتمع من كل موضع، وجمعت الشيء: إذا جئت به من ههنا وههنا، وتجمَّع القوم: اجتمعوا أيضا من ههنا وههنا[2].

قال ابن فارس: الجيم والميم والعين أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على تضامِّ الشيء[3].

معنى جمع القرآن في الاصطلاح؛ يطلق جمع القرآن:

تارة على حفظه في الصدور، وتارة على كتابته. [4]

ثم إن علماء الشرع أطلقوا جمع القرآن على أربعة معانٍ؛ وهي:

١ - حفظ القرآن في الصدور.

٢ - تأليف سور القرآن الكريم.

٣ - تأليف الآيات في السورة الواحدة من القرآن الكريم.

٤ - كتابة القرآن الكريم في الصحف والمصاحف.

أما الإطلاق الأول؛ فقد حصل في عصر النبي ﷺ حيث حفظ القرآنَ الكريمَ عن ظهر قلبِ النبيُّ ﷺ وجمعٌ من أصحابه ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأُهُ[5].

---

(١) المفردات (٩٦).

(٢) لسان العرب ٨/ ٥٣ مادة "جمع".

(٣) مقاييس اللغة ١/ ٤٧٩.

(٤) تاريخ القرآن الكريم١/ ٢٠.

(٥) البخاري (٥).

وعن قَتَادَةُ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ، كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيٌّ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. قُلْتُ لأَنَسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي.[1]

وأما الإطلاقان الثاني والثالث، فقال الزركشي: قال أبو الحسين أحمد بن فارسٍ في كتاب المسائل الخمس: جمع القرآن على ضربين: أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطُّوال، وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة ﷺ. وأما الجمع الآخر؛ فضمُّ الآي بعضها إلى بعضٍ، وتعقيب القصة بالقصة، فذلك شيءٌ تولاَّه رسول الله ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه[2].

وأما الإطلاق الرابع، فيتضمن مرحلتين: الأولى جمع متفَرِّقِهِ في صحفٍ، وهو ما حدث في عصر الصِّدِّيق. والثانية: جمع تلك الصحف في مصحفٍ واحدٍ، وهو ما حدث في عصر عثمان ابن عفان[3].

المبحث الثاني: كيف حفظ الله القرآن؟

والجواب أن الله حفظ القرآن بعدة أمور منها:

الأول: العناية بحفظ كتاب الله تعالى في السماء ثم في الأرض.

أولا: حفظ القرآن الكريم في السماء:

لقد حظي كتاب الله ﷻ بالحفظ والعناية منذ أن كان في السماء حيث أودعه الله كتابًا مكنونًا، وأقسم الله تعالى على هذه الحقيقة بقسم عظيم فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٥: ٨٠)، وقال ﷻ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٣، ١٦).

(١) البخاري (٣٨١٠)، مسلم (٢٤٦٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٥٩: ٢٣٧.

(٣) جمع القران في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث ١/ ١١.

﴿فِي صُحُفٍ﴾ يتعلق بقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن. [١]
يعني: أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماء. أو مرفوعة المقدار ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين، لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرين[٢]، وذلك كله حفظ من الله لكتابه.[٣] ويؤكد الله تعالى وصفه بكونه محفوظًا في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢). من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم[٤].

ثانيًا: حفظ القرآن الكريم في طريقه إلى الأرض:

لما بيَّن تعالى كمال القرآن وجلالته، نزَّهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس فقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ قد أُبعِدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل عليه السلام، أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٥]. فحفِظه بالحرس الأقوياء من الملائكة، وبالكواكب التي تحرق وتمنع من أراد استراق السمع قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ٨-١٠)، يخبر تعالى عن

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠.
(٢) الكشاف ٤/ ٧٠٣.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٩١١، الكشاف ٧/ ٢٣٤.
(٤) تفسير السعدي ١/ ٩١٨.
(٥) تفسير السعدي ١/ ٥٩٨.

الجن حين بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن. فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه وقال ﷻ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: ٧- ١٠).

ثالثا: حفظ القرآن الكريم على الأرض والعناية بحفظه في عهد النبي ﷺ:

لقد حفظ الله ﷻ القرآن الكريم على الأرض بواسطة رسول الله ﷺ الذي استقبله فأحسن الاستقبال، وحفظه أتم حفظ، وقام به خير قيام، وبلّغه أحسن بلاغ والشواهد على ذلك كثيرة منها:

١-بلغ من حرص النبي ﷺ على استظهار القرآن وحفظه أنه كان يحرك لسانه فيه في أشد حالات حرجه وشدته؛ وهو يعاني ما يعانيه من الوحي وسطوته، وجبريل في هبوطه عليه بقوته، يفعل الرسول كل ذلك استعجالا لحفظه وجمعه في قلبه، مخافة أن تفوته كلمة أو يفلت منه حرف، وما زال كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه. فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما؛ فحرك شفتيه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه[1].

قال ابن كثير: هذا تعليم من الله لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن، كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صدرك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله ﷻ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا[2].

٢- إخبار الله ﷻ ووعده للنبي ﷺ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦)[3].

٣- حرص النبي ﷺ على تلاوة القرآن الكريم وترتيله في كل أوقاته، فكان يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة عبادةً، وتلاوةً، وتدبرًا لمعانيه، حتى تفطرت قدماه الشريفتان[4] من كثرة القيام امتثالًا لأمر الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ

(١) البخاري (٥)، مسلم (٤٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٧٩.

(٤) البخاري (٤٥٥٧)، مسلم (٧٣٠٢).

أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل: ١ – ٤).

٤- مدارسة جبريل ﷺ القرآن للرسول ﷺ ومع تكفل الله ﷻ للنبي ﷺ بحفظه وجمعه في صدره حتى لا يضيع منه شيء، فإن جبريل ﷺ لم يكتف بتبليغ الرسول ﷺ القرآن، بل كان يقرأه النبي ﷺ على جبريل ﷺ في كل عام مرة حتى يزداد ثبات قلب النبي ﷺ به، وليطمئن جبريل ﷺ أكثر على ما بلغه به. أخرج البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: "كان النبي ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يَعْرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآنَ، فإذا لقيه جبريلُ كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة".[1]

وعندما دنا أجل النبي ﷺ عارضه جبريل بالقرآن مرتين. فعن عائشة، عن فاطمة: "أَسَرَّ إِلَيَّ النبيُّ ﷺ أن جبريل يُعارِضُني بالقرآن كلَّ سنة، وأنَّه عارضني العام مرتين، ولا أُراهُ إلاّ حضر أجلي"[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: " كان يَعْرِضُ على النبي ﷺ القرآن كل عام مرةً، فعرضَ عليه مرتين في العام الذي قبض، وكان يعتكف كلَّ عام عشرًا، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبِض"[3].

٥- قراءة النبي ﷺ القرآن على غيره من الصحابة. عن أنس بن مالك ﷺ: " قال النبي ﷺ لأُبَيٍّ: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: وسماني؟ قال "نعم" قال، فبكى "، وفي لفظ قال: " الله سماني لك؟ قال: " الله سماك" فجعل أُبَيٌّ يبكي ".[4]

٦- تعليم النبي ﷺ القرآن بنفسه؛ فقد باشر النبي ﷺ تعليم المسلمين القرآن بنفسه، وأمره الله ﷻ بأن يقرأه على الناس على مُكْثٍ، أي: تؤدَة وتمهل؛ كي يحفظوا لفظه ويفقهوا معناه. كما قال تعالى ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

(١) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٦٢٦٤).

(٣) البخاري (٤٧١٢).

(٤) البخاري(٤٩٦٠)، مسلم (٧٩٩).

وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال: والله لقد أَخذتُ من في رسولِ الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة[١].

وعنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ وأُنْزِلتْ عليه والمرسلات، وإنا لنتلقَّاها من فِيه[٢].

وعن ابن عمر ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يعلمنا القرآن، فإذا مَرّ بسجود القرآن سجد وسجدنا معه"[٣].

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: "كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنا التشهد كما يُعَلِّمنا السورة من القرآن"، وفي رواية ابن رُمْح "كما يُعَلِّمنا القرآن"[٤].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: " كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنا الاستخارة في الأمور كما يُعَلِّمُنا السورة من القرآن".[٥]

ومن هنا كان النبيُّ ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره المنيف، ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن، وكان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه، وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة[٦].

٧- الحث على تعلم القرآن وتعليمه: القرآن صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وهو كلامه الذي خاطب به نبينا محمدًا ﷺ، ولا يزال خطابه مستمرًا لنا، ومن هنا تنبع أهميته. ورتب الله الأجر العظيم والجزاء الجزيل على تلاوة القرآن، وعلى تدبره، وعلى تعلمه وتعليمه. فعن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**"[٧].

---

(١) البخاري ٦/ ١٠٢.

(٢) البخاري (١١٠٩).

(٣) أحمد ٢/ ١٥٧، وإسناده صحيح.

(٤) مسلم (٤٠٣).

(٥) البخاري ٢/ ٥١.

(٦) مناهل العرفان ١/ ٢٤١.

(٧) البخاري (٥٠٢٧).

قال ابن كثير: وقد كان أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُلَمِي الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ممن رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس من إمارة عثمان إلى أيام الحجاج، قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث يعلم فيه القرآن سبعين سنة رحمه الله، وأثابه، وآتاه ما طلبه ورامه آمين(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"**(٢).

٨ – الترغيب في حفظ القرآن عن ظهر قلب: وإذا ثبتت الفضيلة لقارئ القرآن فلا شك أن حفظ القرآن عن ظهر قلب أعلى مرتبة وأشرف منزلة؛ لأن القرآن قد استقر في قلب حافظه، يقرؤه في كل مكان وزمان لا يشعر من حوله بقراءته، فيسلم بإذن الله من الوقوع في الرياء.

عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **"مثل الذي يقرأ القرآن -وهو حافظ له- مع السفرة الكرام البررة"**(٣).

٩ – تشجيعه ﷺ على تلاوة القرآن وحفظه: لمَّا كان ﷺ مهتمًا بتلاوة القرآن وحفظه – وكان ذلك شغله الشاغل- وجَّه أتباعه إلى ذلك، وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على ذلك. منها قوله ﷺ: **"اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه"**(٤).

وقوله ﷺ: **"يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها"**(٥).

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير (١٣٢).

(٢) مسلم(٧٠٢٨).

(٣) البخاري (٤٦٥٣)، مسلم (١٨٩٨).

(٤) مسلم (١٨٢٥).

(٥) أحمد ٢/ ١٩٢، وأبو داود(١٤٦٤)، والترمذي(٢٩١٤)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة(٢٢٤٠).

وقوله ﷺ: "**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**"[١]، وقوله ﷺ: "**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**"[٢].

١٠ - أمره ﷺ لمن حفظ القرآن أن يتعاهده حتى لا يتفلت منه: فكما أمر ورغب ﷺ في حفظ القرآن - كما سبق- أمر ﷺ بتعهد القرآن ومراجعة حفظه باستمرار، حتى لا يتفلت ويُنسى، ومما ورد في ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه عنه ابن عمر رضي الله عنه: "**إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعَقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت**"[٣]، وفي رواية لمسلم من حديث موسى بن عقبة رضي الله عنه: "**وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره وإذا لم يقم به نسيه**"[٤].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**بئس ما لأحدهم يقول: نسيت آية كَيت وكَيت، بل هو نُسِّي، استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النَّعَمِ بعقلها**".[٥]

(أي: تفلُّتًا وتخلصًا).[٦]

١١ - ترغيبه ﷺ بتحسين الصوت بالقراءة: حُسن الصوت بالقراءة مطلوب، وتزيين الصوت بالقراءة سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ولكن ينبغي ألا يتجاوز هذا التحسين الحد المطلوب، ومما ثبت عن الرسول ﷺ في الحث على تحسين الصوت بالقراءة والتغني بالقرآن ما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به**"[٧].

---

(١) مسلم (٧٩٨).

(٢) الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧).

(٣) البخاري (٥٠٣١)، ومسلم (٧٨٩).

(٤) مسلم (٧٨٩).

(٥) البخاري(٥٠٣٣)، ومسلم(٧٩١).

(٦) فَصَى الشيء من الشيء: فصله، وفصَّيتُه: خلَّصتُه. لسان العرب لابن منظور ١٥/ ١٥٦.

(٧) البخاري(٧٥٤٤)، ومسلم(١٧٩٥).

وعن أبي بُرْدة، عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"يا أبا موسى لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود"**[١].

وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم فيه حِرص النبي ﷺ على استماع القراءة بالصوت الحسن، فعن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى، لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا من مزاميرآل داود[٢].

ولقد كان صوته ﷺ حسنًا؛ بل أحسن الأصوات بقراءة القرآن الكريم، وذلك كما جاء في رواية البراء ﷺ قال: "سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحدًا أحسن منه صوتًا"[٣].

١٢ - حرص الصحابة ﷺ على كثرة قراءته: كان النبي ﷺ يتلوا الآيات على الصحابةﷺ فور نزولها، وكانوا يحفظونها ويتلونها في الصلوات ومختلف العبادات مرارًا وتكرارًا في آناء الليل وأطراف النهار. كما في قصة تزويج عمرو بن العاص لابنه عبد الله وفيه أن النبي ﷺ سأله قائلا: "كيف تصوم؟ " قال: قلت: أصوم كل يوم. قال: "وكيف تختم؟ " قال: كل ليلة، قال: "صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر"، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: "صم ثلاثة أيام في الجمعة" قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: " أفطر يومين وصم يومًا، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: "صم أفضل الصوم، صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة"، فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذاك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئًا فارق النبي ﷺ عليه"[٤].

---

(١) البخاري (٥٠٤٨).

(٢) مسلم (٧٩٢).

(٣) البخاري (٧٥٤٦)، ومسلم (٤٦٤).

(٤) البخاري (٥٠٥٢).

ولعل نهي الرسول ﷺ هذا بسبب أنه يخشى على أمته من الملل، فإذا طال العمر دبَّ الوهن إلى جسم الإنسان وقد يصيبه الفتور، ولكن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

ومما يدل على أن الرسول ﷺ إنما نهى عن الإسراع في القراءة خوفًا على أتباعه من الملل، ما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **"يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل"**[١].

١٣- حرص الصحابة على تعلم القرآن من النبي ﷺ وتلاوته وتعليمه: فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: أنهم يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يُخلِّفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآن والعمل جميعًا.[٢]

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا عجز أحدهم عن تفريغ وقت لتحصيل القرآن الكريم مباشرة من فم رسول الله ﷺ أناب عنه من يحصل عنه. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلتُ جئتهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعلَ مثل ذلك.[٣]

وكان من نتيجة ذلك أنْ كثُرَ الحفاظ في عهد النبي ﷺ.

وكانوا يعرضون على النبي ﷺ القرآن ويقرؤونه عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: "اقرأ عليَّ، قلتُ: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١) قال: أمسك، فإذا عيناه تذرفان "[٤].

---

(١) مسلم (١١٥٩).

(٢) أحمد٥/ ٤١٠. وإسناده حسن.

(٣) البخاري (٨٩)، مسلم(١٤٧٩).

(٤) البخاري (٤٣٠٦)، مسلم(٨٠٠).

وكان مسجده ﷺ عامرًا بتلاوة القرآن يضج بأصوات الحفاظ فأمرهم ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[١].

عن البياضي أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: إن المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن[٢].

وكان كل حافظ للقرآن ينشر ما حفظه، ويعلمه للأولاد والصبيان والذين لم يشهدوا نزول الوحي، امتثالًا لأمره ﷺ: "بَلِّغوا عني ولو آية"[٣]، فشاع حفظه بين الرجال والنساء، حتى إن المرأة المسلمة كانت ترضى سورة من القرآن أو أكثر مهرًا لها، ومما ورد في ذلك حديث سهل بن سعد ﷺ قال: "أتت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ، فقال: ما لي في النساء من حاجة، فقال رجل: زوجنيها، قال: أعطها ثوبًا، قال لا أجد، قال: أعطها ولو خاتمًا من حديد، فاعتلَّ له، فقال: ما معك من القرآن؟ قال: كذا وكذا، قال فقد زوجتكها بما معك من القرآن"[٤].

وخير دليل على كثرة الحفاظ في زمن الرسول ﷺ أنه قُتل منهم في بئر معونة المعروفة بـ "سرية القراء" سبعون رجلًا[٥]، كما قُتل منهم يوم اليمامة في عهد أبي بكر الصديق ﷺ سبعون قارئًا، وذكر أبو عبيد في كتابه "القراءات" عددًا كبيرًا من القراء أصحاب النبي ﷺ، فذكر كثيرًا من المهاجرين، وكثيرًا من الأنصار، وبعض أزواج النبي ﷺ[٦].

وقد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب جم غفير من الصحابة، منهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذلك أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود،

---

(١) جمع القرآن الكريم حفظًا وكتابةً (٢١) د. علي بن سليمان العبيد.

(٢) مالك ٢/ ١٠٩: ١١٠، أحمد ٤/ ٣٤٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٠٣).

(٣) البخاري (٣٢٧٤).

(٤) البخاري (٤٧٤١).

(٥) البخاري(٢٦٤٧)، مسلم(٦٧٧).

(٦) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٤٢، والإتقان في علوم القرآن ١/ ١٩٥.

وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك، ومجمِّع بن جارية، وأبو زيد الأنصاري، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم[١].

هؤلاء بعض من عُرفوا واشتهروا ومن لم يُعرف أكثر وأكثر. فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ، وَذَكْوَانُ، وَعُصَيَّةُ، وَبَنُو لِحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ، غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَبَنِي لِحْيَانَ[٢].

وثبت أنه قُتل في وقعة اليمامة كثير من القراء، ويدل على ذلك قول عُمَرَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ[٣].

لم يكن هم الصحابة حفظ ألفاظ القرآن فحسب؛ بل جمعوا إلى حفظ اللفظ فهم المعنى المراد، وتدبر الآيات، والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام والآداب. قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.[٤]

ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة الواحدة، وهذا هو السر فيما رُوي أن ابن عمر رضي الله عنهما أقام على حفظ سورة البقرة ثمان سنين[٥].

ويتبين من هذا أن الله ﷻ حفظ القرآن على الأرض بواسطة رسول الله ﷺ، ثم أصحابه رضوان الله عليهم، والتابعين، وكافة المؤمنين بعد ذلك.

---

(١) راجع غاية النهاية في طبقات القراء.

(٢) البخاري (٣٠٦٤).

(٣) البخاري (٤٧٠١).

(٤) أحمد ٥/ ٤١٠، وإسناده حسن.

(٥) البخاري (٤٧٠٤).

رابعًا: ثبوت القرآن مكتوبًا في عهد النبي ﷺ.

كتابة القرآن الكريم:

كانت الكتابة قليلة بين أصحاب النبي ﷺ ولكن ثبت أن عددًا منهم تعلموا القراءة والكتابة، وكتبوا القرآن، فمنهم من كتب صحيفة لنفسه، وتجردت منهم طائفة لكتابة القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ وهم كَتَبَة الوحي الذين أرصدهم لذلك، ومن أشهر هؤلاء؛ بل هو إمام الكُتَّاب وسيدهم: زيد بن ثابت رضي الله عنه، فقد ثبت عن البراء: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: "ادع لي زيدًا، وليجئ باللوح والدواة والكتف أو الكتف والدواة" ثم قال: "اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾"[1].

وفي الصحيح كذلك أن أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- اختاراه لجمع القرآن وكتابته. قال زيد رضي الله عنه: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه[2]. قال ابن حجر رحمه الله: نعم قد كتب الوحي لرسول الله ﷺ جماعة غير زيد بن ثابت. أما بمكة فلجميع ما نزل بها؛ لأن زيد بن ثابت إنما أسلم بعد الهجرة، أي أن جميع ما نزل قبل الهجرة كتبه كتاب آخرون غير زيد الأنصاري المدني الذي أسلم بالمدينة. وقال ابن حجر: وأما بالمدينة فأكثر ما كان يكتب زيد، ولكثرة تعاطيه ذلك أطلق عليه: الكاتب بلام العهد. . . وقد كتب له قبل زيد بن ثابت: أُبيُّ بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة، وأول من كتب له من قريش بمكة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وممن كتب له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأَبَّان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومُعَيقيب بن أبي فاطمة، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وشُرَحبيل ابن حسنة، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.[3]

ومن كلام ابن حجر هذا يتبين لنا كثرة عدد من كتب للنبي ﷺ.

---

(١) البخاري (٤٩٩٠).

(٢) البخاري(٤٩٨٦).

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٣٩ بتصرف.

ومزيدًا في التحفظ، والاحتياط للقرآن، ولئلا يختلط به غيره من الكلام نهى ﷺ عن كتابة شيء عنه غير القرآن الكريم:

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمْحه، وحدثوا عني ولا حرج"[١].

قال ابن كثير: أي لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه أن لا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم. فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن ما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا ولله الحمد والمنة[٢].

ومزيدًا في التحري والدقة في الكتابة مراجعته ﷺ للكُتَّاب بعد كتابتهم لما ينزل، قال زيد بن ثابت ﷺ: "كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يُملي عليَّ، فإذا فرغتُ، قال: اقرأه، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه"[٣].

ومما يدل على أن القرآن كان مكتوبًا في العهد النبوي ما ورد من الأحاديث الدالة على وجود القرآن الكريم مكتوبا في عهد النبي ﷺ. ومن ذلك، حديث ابن عمر ﷺ "أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسَافر بالقرآن إلى أرض العدو"[٤].

وفي لفظ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسافروا بالقرآن، فإني لا آمنُ أن يناله العدو"[٥].

وغير ذلك من الأخبار الدالة على أن القرآن الكريم كان مكتوبا في عهده ﷺ.

الأمر الثاني: خصائص للقرآن دعت إلى حفظه.

ولعل من أبرز دواعي حفظه - غير تكفل الله ﷻ بحفظه - ما يلي:

---

(١) مسلم (٣٠٠٤).

(٢) فضائل القرآن(٣٢).

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني في الكبير(٤٨٨٩)، والأوسط(١٩١٣)، والخطيب في الجامع(١٤٠٦) من طريق سعيد بن سليمان، عن أبيه سليمان بن زيد، عن زيد به. وإسناده ضعيف. فيه سليمان بن زيد: مقبول، وهذا حيث يتابع وإلا فهو لين، ولم يتابعه أحد.

(٤) البخاري (٢٩٩٠)، مسلم(١٨٦٩).

(٥) مسلم (١٨٦٩).

١-سهولة حفظ القرآن الكريم وتيسيره، فكان من رحمة الله على خلقه أن يسر لهم حفظ القرآن الكريم، ليجعل من ذلك سببًا مانعًا من ضياع شيء منه، فكما قال ﷻ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩). فقد قال أيضًا ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧). [١]

٢-مجيء القرآن الكريم معجزًا متميزًا في نظمه، فريدًا في أسلوبه، لا يطاوله كلام البلغاء، ولا تدنو منه فصاحة الفصحاء، وكان الصحابة ينتظرونه بشغف ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما كان أعداء الرسول ﷺ يحرصون على سماعه، إما للبحث عن نقط ضعف فيه تعينهم على مغالبته أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي، ويمكننا أن نتصور إذن مدى الاهتمام الذي كان يثيره القرآن في نفوس المؤمنين والكافرين على السواء. [٢]

٣- تشريع قراءة القرآن الكريم في الصلاة فرضًا كانت أم نفلًا، سرًّا أم جهرًا، مما جعلهم يحرصون على حفظ القرآن الكريم لأداء هذه العبادة. عن حذيفة ﷺ قال: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا، إذا مَرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مَرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع"[٣].

٤- ارتباط القرآن الكريم بالتشريعات؛ فإن كثيرًا من آياته تحوي أحكامًا في العبادات: كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وأحكامًا في المعاملات كالبيع والشراء والدَّين، وأحكاما في سائر أمور الحياة، فلا بد أن يستظهروه ليعملوا بمقتضاه[٤].

---

(١) جمع القرآن الكريم حفظًا وكتابةً ١/ ٢٦.

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم (٣٤)، وأضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف (٢٨: ٣٦).

(٣) مسلم (٧٧٢).

(٤) انظر أضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف (٢٨: ٢٩).

مما سبق يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن القرآن أصبح مظهرًا عظيمًا من مظاهر المجتمع الإسلامي ملأ على المسلمين حياتهم، يتلونه آناء الليل وآناء النهار في صلواتهم، وخلواتهم، ويحتكمون إليه في معاملاتهم، ويورثونه لمن بعدهم جيلًا بعد جيل. فعن الأعمش، قال: مر أعرابي بعبد الله بن مسعود، وهو يقريء قومًا القرآن، أو قال: وعنده قوم يتعلمون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد ﷺ[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله يقسم وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد. فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا يا أبا هريرة: فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا، قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ[٢].

وبهذا نستطيع أن نقول: إن القرآن لم تتوقف تلاوته، ولم تنقطع كتابته على وجه الأرض يومًا أو بعض يوم منذ أنزله الله وشرع قراءته في الصلاة؛ فهو يتلى آناء الليل وآناء النهار، في المحاريب والكتاتيب، ويدون بالمحابر والدفاتر، فأنَّى له أن يصير منه حرف في نطاق العدم أو تزل به قدم.

الأمر الثالث: طرق تحمل القرآن في أعلى درجات التوثيق.

وطرق الأخذ والتحمل تأتي على أنواعٍ، ذكر المحدثون أنها ثمانية وهي باختصار:

السماع من لفظ الشيخ، القراءة على الشيخ، الإجازة، المناولة، المكاتبة، الإعلام، الوصية، الوجادة.

ولكل واحد من هذه الأقسام عند علماء الحديث مبحث خاص وأمثلة ليس هذا محل ذكرها.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١/ ١٠.

(٢) المعجم الأوسط ٢/ ١١. وحسن إسناده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٩.

والذي يعني القراء من هذه الأقسام ثلاثة وهي: السماع من لفظ الشيخ، والقراءة على الشيخ، والإجازة وهو ما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

الأول: العرض على الشيخ.

وهو قراءة الطالب على الشيخ، وعرض القارئ على المقرئ(١).

وهو سنة عن رسول الله ﷺ كما ثبت في الحديث "أنه ﷺ كان يقرأ على جبريل ويعارضه القرآن في كل رمضان فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين"(٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِأُبَيٍّ: "**إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ. قَالَ: الله سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: الله سَمَّاكَ لِي. قَالَ: فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي**"(٣).

قال أبو عبيد: معنى هذا الحديث عندنا أن رسول الله ﷺ إنما أراد بذلك العرض على أُبَيٍّ أن يتعلم منه القراءة ويتثبت فيها، وليكون عرض القرآن سنة، وليس هذا على أن يستذكر النبي ﷺ منه شيئًا بذلك العرض(٤).

وعرض عبد الله بن مسعود ﷺ على رسول الله ﷺ حينما طلب منه الرسول ﷺ أن يقرأ عليه كما تقدم.

قال أبو عبيد: وإنما نرى القراء عرضوا القراءة على أهل المعرفة بها، ثم تمسكوا بما علموا منها مخافة أن يزيغوا عما بين اللوحين بزيادة أو نقصان، ولهذا تركوا سائر القراءات التي تخالف الكتاب، ولم يلتفتوا إلى مذاهب العربية فيها إذا خالف ذلك خط المصحف،

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح (٦٢)، تقريب النووي (٢).

(٢) البخاري (٦٢٨٦)، مسلم (٢٤٥٠): أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ وَلاَ أراني إِلاَّ قَدْ حَضَرَ أَجَلِي.

(٣) البخاري (٣٨٠٩)، مسلم (٧٩٩).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيدص ٢١٥.

وإن كانت العربية فيها أظهر بيانا من الخط، ورأوا تتبع حروف المصاحف، وحفظها عندهم كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها[١].

وعرض آخرون من الصحابة على رسول الله ﷺ ذكرهم الذهبي في طبقاته[٢].

وهكذا فإن من طالع كتب تراجم القراء يرى أن منهج العرض هو منهج الطلبة النابهين، والقراء المنتهين فلا يعدلون به عن السماع من الشيخ إلا عند تعذره كأن يكون الشيخ على سفر أو ازدحم عليه الطلبة.

الثاني: السماع من لفظ الشيخ.

وهو أن يقرأ الشيخ، والطالب يستمع، وبهذه الطريق تلقى رسول الله ﷺ القرآن عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل، فكان جبريل يقرأ ورسول الله ﷺ يستمع فإذا فرغ جبريل أعاد رسول الله ﷺ ما سمع عرضًا على جبريل، فتحصل له مرتبتان:

مرتبة الاستماع للفظ الشيخ، ومرتبة العرض والقراءة على الشيخ.

وطريق كهذا هو في أعلى مراتب الأخذ والتحمل. قال تعالى مبينا كيفية تلقي نبيه للقرآن: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة١٩: ١٧)، وكان ﷺ يتلو ما نزل عليه على أصحابه ويعلمهم إياه قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران ١٦٤)، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

وقد تقدم قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تأويل قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام صـ ٢١٧.

(٢) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي.

ولا تعارض بين ما اختاره القراء من تقديم طريقة العرض على الشيخ وبين صنيع رسول الله ﷺ في تعليم أصحابه وإقرائهم ما نزل عليه وتلقي بعض التابعين عن طريق التلقين والسماع من الشيخ.

فأصحاب رسول الله ﷺ كانت فصاحتهم وطباعهم السليمة تقتضي قدرتهم على الأداء ومحاكاة رسول الله ﷺ في كل ما سمعوا منه؛ لأنهم هم الذين نزل القرآن بلغتهم[١].

فلما فسد اللسان وغلبت العجمة، وتعذر مع التلقين أن يأتي الطالب للقراءة بالكيفية والهيئة التي سمع من الشيخ إلا بعد دربة ومران وجهد رجح علماء القراءات العرض على السماع.

قال ابن الجزري: ولا يجوز له أن يقرئ إلا بما سمع أو قرأ. فإن قرأ الحروف المختلف فيها أو سمعها؛ فلا خلاف في جواز إقرائه القرآن العظيم بشرط أن يكون ذاكرًا كيفية تلاوته به حال تلقيه من شيخه مستصحبًا ذلك.

الثالث: الإجازة.

وهي: إِذْنُ الشيخ للطالب في الرواية عنه مروياته التي لم يقرأها ولم يسمعها منه[٢].

وهي أنزل من طريقي العرض و السماع بلا خلاف.

قال ابن الجزري: جوز العمل بها الجعبري مطلقًا، قال: وعندي أنه لا يخلو إما أن يكون تلا بذلك، أو سمعه؛ فأراد أن يعلي السند، أو يكثر الطرق فجعلها متابعة، أولا؛ فإن كان فجائز حسن، فعل ذلك العلامة أبو حيان في كتابه التجريد وغيره عن أبي الحسن ابن البخاري وغير متابعة. ومنعها من القراء: الحافظ أبو العلاء الهمذاني وجعله من أكبر الكبائر، قال القسطلاني: كأنه أراد بذلك المنع إن لم يكن الشيخ أهلا؛ لأن في القراءات أمورا لا تحكمها إلا المشافهة.

قلت: ما ذهب إليه الحافظ ابن الجزري من تقييد جواز الرواية بها بكمال الأهلية هو

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية ٧٠/ ٣٦٥

(٢) انظر تفصيلاً الكفاية ١/ ٣١١، المحدث الفاصل ١/ ٤٣٥، الإلماع ١/ ٨٨، فتح المغيث ٢/ ٦٥، تدريب الراوي ٢/ ٢٩، الباعث الحديث ١/ ١٠.

الصواب، فإن من أحكم القراءة، وأتقن الرواية، وضبط الخلاف، وعُرف عنه التمكن في ذلك إن طلب الإجازة ممن لم يقرأ عليه أو قرأ عليه البعض ولم يكمل ليعلو إسناده أو لتكثر طرقه فله أن يروي بها متى أجيز.

وقد اقتصر علماء القراءات على هذه الأنواع الثلاثة من طرق الأخذ والتحمل دون غيرها مما ذكره علماء الحديث، وإن وجد فلا اعتداد به ولا اعتبار له عندهم ولم يأخذوا به(١).

هذا وإن المطالع لمقدمات كتب القراءات المعتبرة الجامعة للروايات والطرق التي تلقى بها أولئك الأئمة يقف مشدودا أمام ذلك الكم الهائل من الأسانيد التي أحيطت بالعناية والرعاية حتى تصل إلى منتهاها؛ بل إن علماء القراءات مازالوا يحتفظون بأسانيدهم المتصلة إلى الرسول ﷺ حتى الآن.

ومثل هذا التحري يقال في التحريرات أيضًا؛ لأنّ المحررين مجمعون على تواتر ما في كتاب النشر جملة إلاّ أنّ حرصهم على عدم الخلط بين الروايات والطرق جعلهم يختلفون في بعض المسائل، وهذا يدلّ على بلوغهم أعلى مراتب الحرص والاعتناء بالقرآن الكريم ولا يزيد ذلك إلاّ شرفاً للأمّة المحمدية، ولا شكّ أنّ المبالغة في الاعتناء أولى من التساهل.

المبحث الثالث: مراحل جمع القرآن، والفرق بين كل مرحلة.

جُمِع القرآن ثلاث مرات وهي:

المرحلة الأولى: جمع القرآن في عهد النبي ﷺ.

كتب القرآن كله في عهد رسول الله ﷺ لكن لم يجمع في موضع ولم ترتب سوره.

قال الحاكم: جُمع القرآن ثلاث مرات. إحداها: بحضرة النبي ﷺ، ثم أخرج بسنده عن زيد بن ثابت ﷺ، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، نؤلف القرآن من الرقاع. الحديث(٢).

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية ٧٠/ ٣٧٠- ٣٧٩.

(٢) الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٦٨، مسند أحمد ٥/ ١٨٤، و الترمذي (٣٩٥٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٥٤)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٦٦.

قال البيهقي: وهذا يشبه أن يكون أراد به تأليف ما نزل من الكتاب الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ، ثم كانت مثبتة في الصدور، مكتوبة في الرقاع واللِّخَاف والعسب، فجمعها منها في صحف بإشارة أبي بكر وعمر، ثم نسخ ما جمعه في الصحف، في مصاحف بإشارة عثمان بن عفان ﷺ على ما رسم المصطفى ﷺ، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى رفيقه الأعلى إلا والقرآن كله كان مكتوبًا، مرتب الآيات في سورها، غير أنه لم يكن مرتب السور، ولا مجموعًا في مصحف واحد، ولا موجودًا في مكان واحد، بل كان مفرقًا لدى الصحابة، وكان ذلك لما كان يتوقع من نزول ناسخٍ لآية حكمًا أو تلاوة[(١)].

المرحلة الثانية: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق.

لما تُوفي الرسول ﷺ سار خلفاؤه الراشدون على منهجه واستنوا بسنته، وسلكوا طريقته في العناية بالقرآن الكريم، واتجهت جهودهم أفرادًا وجماعات للعناية بالقرآن الكريم، ومن ذلك جمعه وترتيبه وكان ذلك في عهدَيّ أبي بكر الصديق ﷺ، وعثمان بن عفان ﷺ.

تاريخ هذا الجمع:

وكان هذا الجمع بعد معركة اليمامة، في السنة الثانية عشر من الهجرة. وتدلنا الروايات التي وردت حول وقعة اليمامة وحديث جمع القرآن الكريم على مدى العناية والاهتمام من الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم، فكان حفظ القرآن الكريم شعارًا لهم في وقعة اليمامة، حيث كانوا يتنادون به، ويشجعون أنفسهم أمام قوة عدوهم بعبارات تدل على حفظهم للقرآن الكريم، وكان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة (يا أصحاب سورة البقرة)[(٢)].

وعن سالم مولى أبي حذيفة، أنه كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة، فقيل له: إنا نخاف عليك. كأنهم يعنون الفرار، فقال: "بئس حامل القرآن أنا إذًا"[(٣)].

وقول أبي حذيفة: "يا أهل القرآن: زينوا القرآن بالفعال"[(١)].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٨/ ٢٣٢، وانظر الإتقان في علوم القرآن١/ ١٦٤.

(٢) عبد الرزاق ٥/ ٢٣٢(٩٤٦٥)، وابن أبي شيبة٦/ ٥٤٧ (٣٣٧٢٤).

(٣) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١/ ١١٢، أسد الغابة١/ ٤١٠.

فدلَّ ذلك على مدى اهتمامهم بالقرآن الكريم حيث جعلوه من أولويات عملهم، وهذا الحرص من الصحابة رضوان الله عليهم لم يقتصر على عهد رسول الله ﷺ، بل تعداه وأشد إلى ما بعد وفاته ﷺ.

بواعث الجمع وأسبابه:

بعدما تولى أبو بكر رضي الله عنه إمارة المسلمين واجهته أحداث جسيمة، خصوصًا ما كان من قِبَلِ أهل الردة، وما دار بعد ذلك من حروب طاحنة ومعارك عنيفة، خصوصًا ما كان في موقعة اليمامة. حيث استشهد فيها عدد كبير من الصحابة، منهم أكثر من سبعين من قراء الصحابة، فاشتد ذلك على الصحابة، ولا سيما على عمر رضي الله عنه فاقترح على أبي بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن خشية ضياعه بموت الحفاظ وقتل القراء، فتردد أبو بكر لأول الأمر ثم شرح الله صدره لما شرح له صدر عمر رضي الله عنه، فكان هو أول من جمع القرآن بين اللوحين وكان أحد الذين حفظوا القرآن كله ويتضح ذلك من الحديث الذي صح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه وكان من كُتَّاب الوحي، وقال فيه: "أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بكرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليمامةِ وعندهُ عُمرُ، فقالَ أبو بكرٍ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامةِ بالنّاس، وإِنِّي أخشَى أن يستَحرَّ القَتْلُ بالقرّاءِ في المواطن، فيذْهبَ كثيرٌ من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمعَ القرآن. قال أبو بكر قلتُ لعمرَ: كيفَ أفعلُ شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ. فقال عمرُ: هو والله خيرٌ. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالسٌ لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ، عاقلٌ، ولا نتهمك، كنتَ تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ. فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبلٍ من الجبال ما كانَ أثقلَ عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلتُ: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خيرٌ. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرحَ الله له صدر أبي بكرٍ وعمر. فقمتُ فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، والعسُبِ، وصدور الرجال، حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع

(١) تاريخ الطبري٢/ ١٥٩، الكامل في التاريخ ١/ ٣٧٤، البداية والنهاية٦/ ٣٢٤.

خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحدٍ غيره ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم ﴾ (التوبة: ١٢٨) إلى آخرهما وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عمر حتى توفّاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر".[(١)]

وعلى هذا، فقد بدأ جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه سنة ١٢هـ.

سبب تردد أبي بكر الصديق في قبول عرض عمر رضي الله عنه بجمع القرآن.

نلحظ في الحديث الذي رواه البخاري أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تردد - في أول الأمر - في قبول عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن الكريم. ولعل السبب في ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه ظن أن جمع القرآن الكريم كله في مصحف واحد بدعة في الدين، فخاف أن يحدث فيه ما لم يفعله الرسول ﷺ أو يأمر به، ولذلك قال رضي الله عنه: "كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ".

قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولًا، ثم زيد بن ثابت ثانيًا؛ لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ﷺ[(٢)].

ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ يقنع أبا بكر بصواب الفكرة، وأن في هذا الأمر خيرًا، ولم يزل به حتى اقتنع بأهمية ذلك، ولذا قال: "فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك".

وبنفس الطريقة اقتنع زيد في آخر الأمر حيث قال: "لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما".

قال ابن حجر: وقد تسول لبعض الروافض أنه يتوجه بالاعتراض على أبي بكر بما فعله من جمع القرآن في المصحف، فقال: كيف جاز أن يفعل شيئًا لم يفعله الرسول ﷺ؟

والجواب: أنه لم يفعل ذلك إلاّ بطريق الاجتهاد السائغ الناشئ عن النصح منه لله

---

(١) البخاري (٤٣١١، ٤٦٠٣، ٦٦٥٤).

(٢) فتح الباري ١١/٩.

ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وقد كان النبي ﷺ أذن في كتابة القرآن، ونهى أن يكتب معه غيره، فلم يأمر أبو بكر إلاّ بكتابة ما كان مكتوبًا. ثم قال: وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد من فضائله، وينوه بعظيم منقبته لثبوت قوله ﷺ: "**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**" فما جمع القرآن أحد بعده إلاّ وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة[1].

ومن هنا يتبين أن عمل أبي بكر رضي الله عنه لم يكن بدعة في الدين، ويكفي دليلًا على ذلك إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على استحسان عمله ومشاركتهم فيه، وقد عبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك بقوله: "أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمعه بين اللوحين[2].

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع.

ترجع أسباب اختيار أبي بكر وعمر لزيد بن ثابت رضي الله عنه لأمور منها:

١ - أنَّه كان من حُفَّاظ القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ.

٢ - أنَّه شهد العَرضة الأخيرة للقرآن الكريم، ذكر البغوي، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِي أنه قال: قرأ زيد بن ثابت عن رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين إلى أن قال عن زيد بن ثابت أنه شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كَتَبة المصاحف رضي الله عنهم.[3]

٣ - أنه من كُتَّاب الوحي للرسول ﷺ؛ بل هو أشهرهم وأكثرهم كتابة للوحي.

٤ - خصوبة عقله، وشدة ورعته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعِظم أمانته ويشهد

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٩.

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ١٦٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٠، ٣٥٤ وأبو عبيد في فضائل القرآن (١٥٥)، وابن أبي داود في المصاحف ١/ ١٦٦، وحسن إسناده الحافظ في الفتح ٩/ ١٢ وأورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٥ وقال عنه: إسناده صحيح. وانظر: أضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف ٤٥-٤٧، جمع القرآن الكريم حفظا وكتابةً ١/ ٤٣.

(٣) ذكر ذلك البغوي في شرح السنة ٤/ ٥٢٥، ٥٢٦، والسيوطي في الإتقان ١/ ٥٩.

لذلك قول أبي بكر ﷺ له: "إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ". وقول زيد بن ثابت ﷺ: "فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن". فما أحراه بجمع القرآن وأولاه.

خطة الجمع: استثقل زيد بن ثابت المهمة، إلا أنه حينما شرح الله له صدره باشر بها، وبدأ بجمع القرآن بوضع خطة أساسية للتنفيذ، اعتمادًا على مصدرين هامين:

الأول: ما كُتب أمام الرسول ﷺ وبإملاء منه، وكان زيد نفسه من كُتَّاب الوحي.

الثاني: ما كان محفوظًا لدى الصحابة، وكان هو أيضًا من حفاظه في حياته ﷺ وكان لا يقبل شيئًا من المكتوب، أو المحفوظ حتى يجتمع فيه شرطان:

١ - أنه مما كتب بين يدي الرسول ﷺ، وذلك بشهادة شاهدين عدلين[١].

٢ - أنه مما ثبت في العرضة الأخيرة، ولم تنسخ تلاوته. [٢]

---

(١) الإتقان١/ ٥٨.

(٢) يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ١/ ١٧١ من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن، فقام في الناس، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعُسُب، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان، فقتل وهو يجمع ذلك إليه، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به. وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شاهدان، فجاء خزيمة بن ثابت فقال: إني قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. قالوا: وما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى آخر السورة، قال عثمان: فأنا أشهد أنهما من عند الله فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: اختم بها آخر ما نزل من القرآن فختمت بها براءة، وإسناده ضعيف. يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب لم يسمع من عمر.

وله شاهد أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ١/ ١٥٧ عن هشام بن عروة عن أبيه، أن أبا بكر قال لعمر، ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. وإسناده فيه انقطاع، قال الحافظ: رجاله ثقات مع انقطاعه. الفتح ٩/ ١٤.

ويشهد له أيضًا ما أخرجه البخاري في قصة الجمع في عهد عثمان. عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد أن زيد ابن ثابت ﷺ قال: نسخت الصحف في المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ=

قال الحافظ: وكأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن. [١]

قال أبو شامة: وكان غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتب بين يدي النبي ﷺ، لا من مجرد الحفظ. ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده، ولذلك قال في الحديث الذي أوردناه عن البخاري سابقًا، إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة، أي: لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، مع أن زيدًا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، زيادة في التوثق، ومبالغة في الاحتياط[٢].

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن في صحف بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة، وأجمعت الأمة على ذلك دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف، ولعمر في الاقتراح، ولزيد في التنفيذ، والصحابة في المعاونة والإقرار.

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده مدة حياته، ثم حفظها عمر بعده حتى شهادته، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة والدها، حتى طلبها منها عثمان رضي الله عنه ليستنسخ منها مصاحفه اعتمادًا عليها، ثم ردها إليها إيفاء بالعهد الذي أعطاها إياه، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم حينما ولي المدينة فأبت، ثم لما توفيت رضي الله عنها سنة ٤٥هـ حضر مروان جنازتها، ثم طلب من أخيها

= يقرأ بها فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين وهو قوله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (البخاري: ٢٦٥٢). ففي التنبيه على أن شهادة خزيمة تعدل شهادة رجلين إشارة إلى أنهم اشترطوا هذا الشرط لا سيما والقائم بالجمع في العهدين واحد وهو زيد. وبهذه الشواهد يرتقي إلى الحسن والله أعلم.

(١) فتح الباري ٩/ ١٤، ١٥، الإتقان ١/ ١٦٢.

(٢) الإتقان ١/ ١٦٢.

عبد الله بن عمر ﷺ فبعث بها إليه فأخذها مروان وأمر بإحراقها[١].

سمات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق ﷺ.

كان من نتائج الجمع في العهد البكري أن سجل كامل القرآن الكريم وقيد بالكتابة، وزال الخوف من ضياعه بوفاة حملته وقرائه. وحفظ كله في موضع واحد، بعد ما كان مبعثرًا في أماكن متفرقة. وأجمع الصحابة كلهم على ما سجل فيه. وأصبح بمنزلة وثيقة وسجل يُرجع إليه وقت الضرورة. وزالت شبهة بدعة الجمع من أذهان كثير من الصحابة[٢].

لذلك اتسم جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق بعدة سمات من أبرزها:

أولًا: جمع القرآن على أدق وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبيت العلمي.

ثانيًا: أنه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته، وتجريده مما ليس بقرآن. [٣]

ثالثًا: أنه جمع في مصحف واحد.

رابعًا: موافقته لما ثبت في العرضة الأخيرة.

خامسًا: إجماع الصحابة على صحته ودقته، وعلى سلامته من الزيادة والنقصان، وتلقيهم له بالقبول والعناية، حتى قال علي بن أبي طالب ﷺ: "أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع بين اللوحين". [٤]

سادسًا: أنّ هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق. واختلف العلماء في السور أكانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان ﷺ؟.

سابعًا: اتفق العلماء على أنه كُتبَ نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر؛ لأنه إمام المسلمين.

---

(١) المصاحف: ١/ ١٧٧: ١٧٩، الفتح: ٩/ ١٦، ٢٠، مناهل العرفان: ١/ ٢٥٢.

(٢) جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين د. عبد القيوم عبد الغفور السندي ١/ ٣٣.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ١٧٨.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

ثامنًا: تسميته بالمصحف، بعد أن أتم زيد جمع القرآن الكريم أطلق على هذا المجموع "المصحف" فالمصحف يطلق على مجموع الصحائف المدون فيها القرآن الكريم، أما القرآن فهو الألفاظ ذاتها.

تاسعًا: أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها. ولا يطعن في ذلك التواتر ما مر عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند خزيمة أو أبي خزيمة، كما لا ينافي ذلك أن الصحابة كانت لهم صحف أو مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر.[1]

خبر هذا المصحف.

دل الحديث الذي أخرجه البخاري على أن الصحف التي جمع فيها القرآن سُلمت إلى أبي بكر الصديق ﷺ فحفظها عنده، حتى توفي سنة ١٣هـ، ثم آلت إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب ﷺ، حتى توفي سنة ٢٣هـ وبعد وفاته بقيت عند ابنته حفصة بنت عمر أم المؤمنين ﵄؛ لأن عمر ﷺجعل أمر الخلافة من بعده شورى، فبقيت عندها إلى أن طلبه عثمان بن عفان ﷺ لنسخها ثم أعادها إليها مرة أخرى.

وبقيت عندها حتى أرسل مروان بن الحكم يسألها إياها فامتنعت، ولما توفيت سنة ٤٥هـ أرسل مروان إلى أخيها عبد الله بن عمر ﷺ ساعة رجعوا من جنازة حفصة ﵄ ليُرْسِلَنّ إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه، فأمر بها مروان فشققت، فقال مروان: "إنما فعلتُ هذا؛ لأن ما فيها قد كتب، وحفظ بالمصحف فخشيت إن طال بالناس زمان أن يَرْتاب في شأن هذه الصحف مرتاب، أو يقول: إنه قد كان شيء منها لم يكتب"[2].

المرحلة الثالثة: جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان ﷺ.

أسباب جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان ﷺ:

١- اتسعت الفتوحات في زمن عثمان، واستبحر العمران الإسلامي، وتفرق المسلمون في

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ١٧٨، وسوف يأتي الرد والبيان لهذه الشبهة بالتفصيل.

(٢) المرشد الوجيز (٥٢)، فتح الباري٩/ ٢٠.

الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف؛ بل كان هذا الشقاق أشد لبُعد عهد هؤلاء بالنبوة، وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه، ويصدرون جميعًا عن رأيه، واستفحل الداء حتى كفَّر بعضُهم بعضًا، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، ولم يقف هذا الطغيان عند حد؛ بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على سواء. أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال: لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافًا[(١)].

وصدق عثمان فقد كانت الأمصار النائية أشد اختلافًا ونزاعًا من المدينة والحجاز[(٢)].

٢ - غزو أرمينية وأذربيجان: في عام خمس وعشرين من الهجرة النبوية اجتمع أهل الشام وأهل العراق في غزو أرمينية وأذربيجان.

قال الذهبي: وفيها جاشت الروم حتى استمد أمراء الشام من عثمان مددًا فأمدهم بثمانية آلاف من العراق، فمضوا حتى دخلوا إلى أرض الروم مع أهل الشام، وعلى أهل العراق سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري[(٣)].

وكان حذيفةُ بن اليمان من جملة من غزا معهم، وكان على أهل المدائن من أعمال العراق.

---

(١) ابن أبي داود في المصاحف ١/ ٢٠٤ وأورده عنه الحافظ في الفتح ٩/ ١٨ وإسناد رجاله ثقات إلا أن أبا قلابة كثير الإرسال ولم يصرح بمن حدثه. يراجع ترجمته في تهذيب الكمال ١٨/ ٤٠١، تهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٦، التقريب ٢/ ٣٠٤.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢١٦ – ٢١٧.

(٣) تاريخ الإسلام ٣/ ٣٠٩.

وكان أهل الشام يقرؤن بقراءة أبي بن كعب، وكان أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، فتنازع أهل الشام وأهل العراق في القراءة، حتى خطَّأ بعضهم بعضًا، وأظهر بعضهم إكفار بعضٍ، والبراءة منه، وكادت تكون فتنة عظيمة. وكان السبب وراء هذا الخلاف عدم مشاهدة هؤلاء نزولَ القرآن، وبُعْدهم عن معاينة إباحة قراءته بأوجه مختلفة، فظنَّ كلٌّ منهم أن ما يقرأ به غيره خطأ لا يجوز في كتاب الله، فكادت تكون تلك الفتنة[1].

قال مكي بن أبي طالب: وكان قد تعارف بين الصحابة ﷺ على عهد النَّبِيّ ﷺ، فلم يكن ينكر أحدٌ ذلك على أحدٍ لمشاهدتهم من أباح ذلك، وهو النَّبِيّ ﷺ. فلمَّا انتهى ذلك الاختلاف إلى ما لم يعاين صاحبَ الشرع، ولا علِم بِما أباح من ذلك، أنكر كلُّ قومٍ على الآخرين قراءتَهم، واشتد الْخصام بينهم[2].

رأى هذا الخلاف العظيم حذيفة بن اليمان ﷺ، إضافةً إلى ما رآه من الاختلاف بين الناس في القراءة في العراق، ففزع إلى عثمان بن عفان ﷺ، وأنذره بالخطر الداهم، وانضم ذلك إلى ما عاينه عثمان من الخلاف بين المعلمين وكذلك بين الغلمان، فصدّق ذلك ما كان استنبطه من أن من كان أبعد من دار الخلافة بالمدينة فهو أشدُّ اختلافًا.

عن ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ حَدَّثَهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمانِ ﷺ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ ﷺ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشام فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى[3].

وعن زيد بن ثابت: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمانِ قَدِمَ مِنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا، فَلَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ حَتَّى أَتَى عُثْمَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ النَّاسَ! فَقَالَ عُثْمَانُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: غَزَوْت فَرْجَ أَرْمِينِيَةَ، فَحَضَرَهَا أَهْلُ الْعِرَاقِ، وَأَهْلُ الشَّامِ، فَإِذَا أَهْلُ الشَّامِ يقرءون بِقِرَاءةِ أُبَيٍّ، فَيَأْتُونَ

(١) مناهل العرفان ١/ ١٧٨، تحفة الأحوذي ٨/ ٤١٠ بتصرف يسير.

(٢) الإبانة عن معاني القراءات (٤٨-٤٩).

(٣) البخاري(٤٩٨٧).

بِمَا لَمْ يَسْمَعْ أَهْلُ الْعِرَاقِ، فَيُكَفِّرُهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ، وَإِذَا أَهْلُ الْعِرَاقِ يقرؤون بِقِرَاءةِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَيَأْتُونَ بِمَا لَمْ يَسْمَعْ أَهْلُ الشَّامِ، فَيُكَفِّرُهُمْ أَهْلُ الشَّامِ. قَالَ زَيْدٌ: فَأَمَرَنِي عُثْمَانُ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ مُصْحَفًا[1].

فكانت هذه الْحادثة هي أهم الأسباب التي بعثت على جمع القرآن في زمن عثمان، فقد أكدت ما ظنه من أن أهل الأمصار أشد اختلافًا مِمَّن كان بدار الخلافة بالْمدينة وما حولَها[2].

لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووضْع حد لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها وألا يعتمدوا سواها، وبذلك يرأب الصدع، ويجبر الكسر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي في ظلام هذا الاختلاف، ومصباحهم الكشاف في ليل تلك الفتنة، وحَكَمهم العدل في ذاك النزاع والمراء، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء.[3]

خطة الجمع.

أولا: مصادر هذا الجمع.

١- أمر عثمان بإحضار كل ما كان موجودًا في أيدي الناس مما كتب بين يدي النبي ﷺ، أخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، وتقولون قراءة أبي، وقراءة عبد الله. يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك؛ فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن،

(١) رواه الطحاوي في تأويل مشكل الآثار ٤/ ١٩٣، وذكره الحافظ في الفتح٨/ ٦٣٣، وأصله في البخاري (٤٣١١).

(٢) جمع القرآن (١٠٣ – ١٠٦).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢١٦ – ٢١٧.

حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلًا رجلًا فناشدهم لسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم[(١)].

٢- تم العرض والمقابلة بعد ذلك على الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر رضي الله عنه، حيث أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه بإحضارها من حفصة بنت عمر أم المؤمنين حيث قال لها: "أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك"[(٢)].

وفي رواية الطحاوي للحديث ما يدل على أن المقابلة كانت تابعة لعملية الجمع قال زيد: ثم عرضته، يعني المصحف، عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئا، وأرسل عثمان إلى حفصة أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها إليها، فأعطته، فعرضت المصحف عليها فلم يختلفا في شيء، فردها عليها وطابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا المصاحف[(٣)].

ثانيًا: اختيار لجنة الجمع في العهد العثماني.

١-كان المعيار الأول في ترشيح واختيار لجنة الجمع هو الإتقان والدقة، فلما فرغ عثمان من جمع ما كان في أيدي الناس قال: " من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد وليكتب زيد، فكتب زيد، وكتب مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب محمد يقول: قد أحسن"[(٤)].

وفي رواية الطحاوي، قال زيد: فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفًا، وقال: إني جاعل معك رجلًا لبيبًا فصيحًا[(٥)].

---

(١) المصاحف لابن أبي داود ١/ ٢٠٨من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق السبيعي، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس. ومن طريق غيلان عن أبي إسحاق قال: سمع عثمان قراءة أبي وعبد الله ومعاذ. بنحوه. وقال الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ١/ ٣٩: إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٤٩٧٨).

(٣) مشكل الآثار للطحاوي ٧/ ١٣٧.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

(٥) سبق تخريجه.

٢- لم تقتصر اللجنة على هذين الرجلين فقد صح أن عثمان ﷺ اختار أربعة من الصحابة لنسخ المصاحف هم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة من قريش(١).

وقيل: إن عثمان اختار اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار منهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت(٢).

قال ابن حجر: وكأن ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد للمعنى المذكور فيهما في رواية مصعب ثم احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق، فأضافوا إلى زيد من ذُكر، ثم استظهروا بأُبيٍّ بن كعب في الإملاء(٣).

قلت: ويشهد لهذا الجمع ما أخرجه الطحاوي عن زيد ﷺ قال: ثم عرضته، يعني المصحف، عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئًا، وأرسل عثمان إلى حفصة أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها إليها، فأعطته، فعرضت المصحف عليها فلم يختلفا في شيء، فردها عليها وطابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا المصاحف.(٤)

ثالثًا: منهج الجمع.

١- الأصل أن تتفق اللجنة بالإجماع على ما يكتب، أما عند الاختلاف في كتابة شيء فإنهم يكتبونه بحرف قريش. حيث قال عثمان بن عفانﷺ للرهط القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم"(٥).

فالمقصود بالاختلاف هنا من حيث الرسم والكتابة، لا من حيث الألفاظ والكلمات، ويدل عليه قوله "فاكتبوه" فيكون المعنى: إذا اختلفتم أنتم وزيد في رسم كلمة، فاكتبوها

---

(١) البخاري (٤٩٨٧).

(٢) وقد ذكر الحافظ ابن حجر نقلًا عن ابن أبي داود أسماء تسعة من أعضاء هذه اللجنة ممن صرح بأسمائهم. الفتح ٩/ ١٩، جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين(٢١).

(٣) فتح الباري ٩/ ١٩.

(٤) المشكل ٧/ ١٣٧.

(٥) البخاري (٣٥٠٦).

بالرسم الذي يوافق لغة قريش ولهجتها[١].

٣- الإشراف المباشر من عثمان بن عفان ﷺ على الجمع حيث كان يتفقد اللجنة باستمرار، ويتعاهدهم على الدوام.

عن كثير بن أفلح أنه قال: وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخروه، قال محمد، فقلت لكثير - وكان فيمن يكتب-: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا، قال محمد: فظننت ظنًا إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهدًا بالعرضة الآخرة فيكتبونها على قوله[٢].

٤- رجوع اللجنة إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فيما يحتاجون إليه للتأكد من كتابته وكيفية ذلك. قال زيد: فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفا، وقال: إني جاعل معك رجلًا لبيبًا فصيحًا، فما اجتمعتما فيه فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إليَّ، فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص فلما بلغ: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت. قال زيد: "فقلت أنا: التابوه، وقال أبان: التابوت، فرفعنا ذلك إلى عثمان فكتب: التابوت. [٣]

وأخرج البخاري أن ابن الزبير (أحد أعضاء اللجنة) قال: قلت لعثمان بن عفان ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ (البقرة: ٢٤٠). قال: قد نسختها الأخرى، قلت: فلِمَ تَكْتُبُها؟ أَوَتَدَعُها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئًا من مكانه"[٤].

٤- استيثاق اللجنة مما يكتبونه وبخاصة فيما تعددت فيه القراءة حيث كانوا يسألون مشاهير الصحابة عن كيفية القراءة به لا عن قرآنيته، فإن ذلك عرف في جمع أبي بكر؛ لأن عثمان ﷺ أراد أن تكتب المصاحف في مجموعها على جميع القراءات التي قرأها الرسول ﷺ

---

(١) المقنع في رسم المصاحف للداني، في رحاب القرآن ١/ ١٥٣، معجم القراءات القرآنية ١/ ٤٥، جمع القرآن الكريم حفظا وكتابةً (٥٩).

(٢) كتاب المصاحف١/ ١٠٥، وابن كثير في فضائل القرآن ١/ ٣٩، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) الترمذي(٣١٠٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) البخاري (٤٥٣٠).

ليقضي على الفتنة التي حدثت بين المسلمين؛ بسبب جهلهم هذه القراءات. يدل على ذلك ما أخرجه الطحاوي عن أبي قلابة قال: حدثني رجل من بني عامر يقال له أنس بن مالك ﷺ قال: "اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فبلغ عثمان فقال: "عندي تكذبون به وتختلفون فيه فمن نأى عني كان أشد تكذيبًا، وأكثر لحنًا "، وقال لأصحاب محمد ﷺ: اجتمعوا فاكتبوا للناس، قال: فكتبوا، قال: فحدثني أنهم إذا تدارءوا في آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلانًا، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة، فيقال: " كيف أقرأك رسول الله ﷺكذا وكذا؟ ، فيقول: كذا، وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لها مكانا".
قال الطحاوي: فهذا في التوكيد فوق ما في حديث خارجة، والله نسأله التوفيق(١).

أي أن مهمة الجمع لم تكن قاصرة على أعضاء اللجنة الأربعة المنصوص عليهم في حديث خارجة بن زيد فحسب؛ بل تتسع الدائرة حتى تشمل كل من سمع من رسول الله شيئًا ولو قليلًا زيادة في التوكيد.

٥- كتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله ﷺ كما صرح به غير واحد من أئمة السلف كمحمد بن سيرين، وعبيدة السلماني، وعامر الشعبي(٢).

٦- الكتابة تمت بشكل يجمع ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة في العرضة الأخيرة، وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل، وعدم التنقيط. قال ابن الجزري "وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام، متضمنة لها لم تترك حرفًا منها" إلى أن قال "وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له"، ثم قال: "فكتب الصحابة المصاحف على لفظ لغة قريش والعرضة الأخيرة، وجردوا المصاحف عن النقط والشكل لتحتمله صورة ما بقي من الأحرف السبعة"(١)، ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي ﷺ(٢).

---

(١) مشكل الآثار ٧/ ١٣٨.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ١٦.

٧- إحراق ما عدا هذه النسخ: كما في حديث حذيفة ﵁:"فرد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق"(٣).

وأخيرًا: الفرق بين جمع القرآن في مراحله الثلاثة.

تستطيع مما سبق أن تفرق بين مرات جمع القرآن في عهوده الثلاثة: عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر ﵁، وعهد عثمان ﵁، فالجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ولكن مع بعثرة الكتابة وتفرقها بين عسب، وعظام، وحجارة، ورقاع، ونحو ذلك حسبما تتيسر أدوات الكتابة، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن وإن كان التعويل يومئذ على الحفظ والاستظهار. أما الجمع في عهد أبي بكر ﵁ فقد كان عبارة عن نقل القرآن، وكتابته في صحف مرتب الآيات أيضًا مقتصرًا فيه على ما لم تنسخ تلاوته مستوثقًا له بالتواتر والإجماع، وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعًا مرتبًا خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه. وأما الجمع في عهد عثمان ﵁ فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية، ملاحظا فيها تلك المزايا السالف ذكرها، مع ترتيب سوره وآياته جميعا، وكان الغرض منه إطفاء الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن، وجمع شملهم، وتوحيد كلمتهم، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل(٤).

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣١.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٥.

(٣) البخاري (٤٧٠٢).

(٤) مناهل العرفان١/ ٢٦٢.

الباب الثاني: الرد على الشبهات.

ويشتمل على هذه الفصول:

الفصل الأول: الطعن في الإجماع على جمع القرآن.

ويشتمل على هذه الشبهات:

الشبهة الأولى: عدم مشاركة علي بن أبي طالب ﷺ في الجمع.

الشبهة الثانية: اعتراض ابن مسعود ﷺ على كيفية جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ.

الشبهة الثالثة: حرق المصاحف، واختلاف مصاحف الصحابة.

الشبهة الأولى: عدم مشاركة علي بن أبي طالب ﷺ في الجمع.

نص الشبهة:

يقولون: لماذا لم يشارك علي ﷺ في جمع القرآن، مع أن له من المؤهلات ما تجعله أولى بهذه المهمة الجليلة من غيره؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسألة تقديرية، ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق.

الوجه الثاني: زيد لم يكن وحده الذي قام بالمهمة.

الوجه الثالث: هذا السؤال لا محل له من الإعراب.

الوجه الرابع: جمع القرآن في مرحلتيه بعلم وإقرار من علي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ لزيد ﷺ أصدق.

إن المسألة تقديرية، ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ لزيد ﷺ أصدق، وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر، كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا التي توافرت

في زيد حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية؟[١].

الوجه الثاني: زيد ﷺ لم يكن وحده الذي قام بالمهمة.

أضف إلى ذلك أن عثمان ﷺ ضم إليه ثلاثة، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم، وناهيك في عثمان ﷺ أنه كان من حفاظ ومعلمي القرآن[٢].

الوجه الثالث: هذا السؤال لا محل له من الإعراب.

هذا السؤال لا محل له من الإعراب؛ لأنه لو فُرض أن عليًا ﷺ أدرج اسمه ضمن فريق العمل في جمع القرآن لكان السؤال قائمًا: لماذا لم يدرج فلان وفلان من الصحابة وهلم جرًا؟ ، فلا ينبغي أن يسأل هذا السؤال؛ لأن المهم أن الجمع كان بمثابة فرض كفاية على الأمة، فقام به بعض فلا حرج على الباقين، والصحابة كلهم عدول.

الوجه الرابع: جمع القرآن في مرحلتيه بعلم وإقرار من علي ﷺ.

كان جمع القرآن في مرحلتيه بعلم وإقرار من علي ﷺ، ولو كان في الأمر أدنى ريبة لأبدى نصحه، وسجل اعتراضه نصحًا للأمة، ولكن صح عن على أنه قال: أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمعه بين اللوحين[٣].

وأخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح من طريق سويد بن غفلة قال: قال علي ﷺ: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا[٤].

الشبهة الثانية: اعتراض ابن مسعود ﷺ على كيفية جمع القرآن في عهد عثمان

نص الشبهة:

يقولون: ورد أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: يا معشر المسلمين أُعزل عن نسخ المصاحف، ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سبق تخريجه في مقدمة جمع القرآن.

(٤) المصاحف ١/ ٢٠٥ وراجع الفتح٩/ ١٨.

قالوا: وهو يعني بهذا الرجل زيد بن ثابت، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن، وهذا يدل بالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة، ولم يبلغ حد التواتر[1].

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول. كلام ابن مسعود لا يدل على الطعن، وإنما يدل على أنه أحق بهذا من غيره.

الوجه الثاني: مبررات ترشيح زيد دون ابن مسعود.

الوجه الثالث: لم يوافق ابنَ مسعود على غل المصاحف وإخفائها أحدٌ من الصحابة.

الوجه الرابع: إذا سلمنا أن ابن مسعود أراد الطعن في صحة جمع القرآن لا نسلم أنه داوم على هذا الطعن والإنكار.

الوجه الخامس: إنكار ابن مسعود كان شهادة لحرفه بالصحة.

الوجه السادس: على تسليم كلام ابن مسعود وأنه داوم عليه ولم يرجع عنه، لا يدل على إبطال تواتر القرآن.

الوجه السابع. قول ابن مسعود: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ؛ هذا اعتقاده.

وإليك التفصيل

الوجه الأول. كلام ابن مسعود لا يدل على الطعن، وإنما يدل على أنه أحق بهذا من غيره.

إن كلام ابن مسعود هذا لا يدل على الطعن في جمع القرآن؛ إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع؛ لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد في هذا الباب.

ومما يشهد لذلك: ما صح عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: لما أمر عثمان ﷺ في المصاحف بما أمر به، قام عبد الله بن مسعود خطيبًا، فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٦١) ثم قال: على قراءة من تأمروني أن أقرأ؟ " أتأمروني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت، فو الذي نفسي بيده، لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وزيد بن ثابت عند ذلك يلعب مع الغلمان، وَالله لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النبي ﷺ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ الله، ـ ثم استحيى مما قال ـ فقال: وما أنا بخيرهم، ولو أعلم أن أحدًا أعلم مني لرحلت إليه ثم نزل. قال شقيق: فجلست في حِلَق أصحاب محمد ﷺ فما سمعت أحدًا يرد ذلك عليه ولا يعيبه"[1].

وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر، غير أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق من تقدير ابن مسعود له، كيف وقد كان لزيد مؤهلات، ومزايا توافرت فيه حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية، أضف إلى ذلك أن عثمان ضم إليه ثلاثة، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم، وناهيك في عثمان أنه كان من حفاظ ومعلمي القرآن، وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود كان منصبًا على طريقة تأليف لجنة الجمع لا على صحة نفس الجمع مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يكبر زيدًا بزمن طويل إذ كان عبد الله مسلمًا وزيد لا يزال ضميرًا مستترا في صلب أبيه، وليس هذا بمطعن في زيد فكم ترك الأول للآخر، ولو كان الأمر بالسن لاختل كثير من نظام الكون، ثم إن كلمة ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أباه كان كافرًا ولكن هذا ليس بمطعن فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفارًا وخرجوا من أصلاب آباء كافرين والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، ويقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨)[2].

فقول ابن مسعود هذا؛ لا يدل على عدم جواز جمع القرآن في المصحف، ولا على أنه كان مخالفًا في الجمع، وكل ما يدل عليه أنه يرى أنه أحق من زيد بجمع القران لسوابقه في الإسلام، مع كمال ثقته في زيد وأهليته للنهوض بما أسند إليه. [3]

---

(١) البخاري (٥٠٠٠)، مسلم (٢٤٦٢).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

(٣) المدخل لدراسة القران الكريم لأبي شهبة (٢٥٦).

الوجه الثاني: مبررات ترشيح زيد دون ابن مسعود.

قال ابن حجر: والعذر لعثمان في ذلك أنه فعله بالمدينة وعبد الله بالكوفة، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر. وأيضًا؛ فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفًا واحدًا، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت كما تقدم لكونه كان كاتب الوحي فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره. (١)

قال الذهبي: قلت: إنما شق على ابن مسعود لكون عثمان ما قدمه على كتابة المصحف، وقدم في ذلك من يصلح أن يكون ولده، وإنما عدل عنه عثمان لغيبته عنه بالكوفة، ولأن زيدًا كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فهو إمام في الرسم، وابن مسعود إمام في الأداء، ثم إن زيدًا هو الذي ندبه الصديق لكتابة المصحف وجمع القرآن فهلا عتب على أبي بكر؟ ، وفي مصحف ابن مسعود أشياء أظنها نسخت، وأما زيد فكان أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ عام توفي على جبريل(٢).

الوجه الثالث: لم يوافق ابنَ مسعود على غل المصاحف وإخفائها أحدٌ من الصحابة

قال الزهري: فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبي ﷺ(٣).

وعن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: أتى عليَّ رجل وأنا أصلي، فقال: ثكلتك أمك ألا أراك تصلي، وقد أمر بكتاب الله أن يمزق كل ممزق، قال: فتجوزت في صلاتي وكنت أجلس فدخلت الدار ولم أجلس، ورقيت فلم أجلس، فإذا أنا بالأشعري وحذيفة وابن مسعود يتقاولان، وحذيفة يقول لابن مسعود: ادفع إليهم هذا المصحف. قال: والله لا أدفعه إليهم أقرأني رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة ثم أدفعه إليهم والله لا أدفعه إليهم(٤).

---

(١) فتح الباري ٩/ ١٩.

(٢) سير أعلام النبلاء١/ ٤٨٨، وراجع تاريخ مدينة دمشق ٣٣/ ١٤٠.

(٣) الترمذي (٣١٠٤)، وهذا جزء من حديث الزهري، عن أنس عن حذيفة في قصة جمع عثمان للقرآن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٤٧، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروي عن مسروق أنه قال: كان عبد الله وحذيفة وأبو موسى في منزل أبي موسى، فقال حذيفة: أما أنت يا عبد الله بن قيس فبُعثت إلى أهل البصرة أميرًا ومعلمًا، فأخذوا من أدبك ومن لغتك ومن قراءتك، وأما أنت يا عبد الله بن مسعود فبُعثت إلى أهل الكوفة معلمًا فأخذوا من أدبك ومن لغتك ومن قراءتك. فقال عبد الله: أما أني إذا لم أضلهم وما في كتاب الله آية إلا أعلم حيث نزلت، وفيمن نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لرحلت إليه(١).

ولا يستشكل على هذا قول أبي وائل: فجلست في حلق أصحاب محمد ﷺ، فما سمعت أحدًا يرد ذلك عليه ولا يعيبه؛ لأن نفي سماعه هو لا يستلزم ثبوت النفي مطلقًا.

الوجه الرابع: إذا سلمنا أن ابن مسعود أراد الطعن في صحة جمع القرآن لا نسلم أنه داوم على هذا الطعن والإنكار.

بل قال هذا وقت غضبه، فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد بن ثابت؛ قال الذهبي: وقد ورد أن ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد(٢).

وبدليل ما صح عنه من قراءات متواترة عنه(٣).

الأدلة على رجوع ابن مسعود عن رأيه في جمع عثمان.

أخرج ابن أبي داوود في المصاحف: - باب رضاء عبد الله بن مسعود بجمع عثمان ﷺ المصاحف- قال: حدثنا عبد الله بن سعيد، و محمد بن عثمان بن حسان العامري عن فلفلة الجعفي قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنّا لم نأتك زائرين ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٤١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٣/ ١٣٤. والطبراني في الكبير (٨٤٣١) كلهم من طريق إسماعيل بن بهرام الكوفي عن سعيد عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق به. وتوبع سعيد بن الخمس تابعه أبو عوانة اليشكري عند البزار في مسنده (١٩٦٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣/ ١٣٤). وإسناده صحيح لكنه موقوف.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٨٨.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف -أو حروف- وإن الكتاب قبلكم كان ينزل -أو نزل- من باب واحد على حرف واحد معناهما واحد(١).

ومما يشهد لهذا الأثر ما ذكره ابن الأثير في التاريخ: عن موقف الأمة من جمع عثمان قال: فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ، وإن أصحاب عبد الله ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس، فقام فيهم ابن مسعود وقال: ولا كل ذلك، فإنكم والله قد سبقتم سبقًا بينًا فأربعوا على ظلعكم (أي لا تتنكبوا ما لا تطيقون) ولما قدم علي الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس علي المصحف فصاح وقال: اسكت فعن ملأ منا فعل ذلك فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله(٢).

الوجه الخامس: إنكار ابن مسعود كان شهادة لحَرْفِه بالصحة.

لأنه أخذه عن رَسُول الله ﷺ، وليس في ذلك طعنٌ على حرف زيد من حيث هو، وإنَّما غاية ما هنالك أنه لا يرى ترك حرفه لحرف أحدٍ غيره. قال الباقلاني: ليست شهادة عبد الله

---

(١) المصاحف لاين أبي داود (٦٩)

قال ابن كثير في فضائل القرآن ١/ ٣٩: وهذا الذي استدل به أبو بكر رحمه الله على رجوع ابن مسعود فيه نظر من جهة أنه لا تظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه والله أعلم. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٤٩: على أن ابن أبي داود ترجم باب رضي ابن مسعود بعد ذلك بما صنع عثمان لكن لم يورد ما يصرح بمطابقة ما ترجم به، فالله أعلم.

قلت: ولعل وجه الدلالة من ذلك أن ابن مسعود حين شُكي إليه ما صنع عثمان لم يزد على أن بين للسائلين سنة الله في إنزال الكتب السابقة على حرف واحد، وأن القرآن خرج عن هذه السنة فنزل على سبعة أحرف؛ تخفيفًا عن هذه الأمة، وبهذا يكون ما صنعه عثمان ليس بدعًا من الأمر؛ لأنه أعاد القرآن إلى سيرة الكتب الأولى، وهذا إقرار من ابن مسعود بصحة ما فعل عثمان، وإلا لسجل اعتراضه في هذا المقام، وهذا استدلال عميق يدل على عمق فقه ابن أبي داود رحمه الله في تبويبه.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٩.

لحرفه وأنه أخذه من فم رَسُول الله طعنًا على حرف غيره، ولكنه عنده حجةٌ في أنه لا يَجِب عليه تركه، وتحريق مصحف هو فيه[١].

أخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن عبد الله قال: " لقد قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، أفأنا أدع ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟" [٢].

الوجه السادس: على تسليم كلام ابن مسعود وأنه داوم عليه ولم يرجع عنه، لا يدل على إبطال تواتر القرآن.

لا نسلم أنه يدل على إبطال تواتر القرآن؛ فإن التواتر يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشروطه، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود ما دام جم غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرة وفي عهد عثمان مرة أخرى[٣].

الوجه السابع. قول ابن مسعود: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ، هذا اعتقاده.

إن قول ابن مسعود: وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسولِ الله أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ الله، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ. ليس قطعًا على أنه ليس فيهم من هو أعلم منه بكتاب الله، وإنما هو اعتقاد ابن مسعود رضي الله عنه، وهو غير معصوم في هذا الاعتقاد(٤).

الشبهة الثالثة: حرق المصاحف واختلاف مصاحف الصحابة.

نص الشبهة:

يقولون إن عثمان رضي الله عنه حرق المصاحف التي في أيدي الناس وهذا يدل على عدم الثقة به.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن عثمان رضي الله عنه حرق المصاحف الأخرى؛ لئلا يقع بسببها اختلاف.

---

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن (٣٦٤).

(٢) المصاحف ١/ ١٨٣، وهو صحيح بشواهده. يراجع المصدر نفسه (١٨٤) وما بعدها.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ١٩٧.

(٤) نكت الانتصار لنقل القرآن (٣٦٤).

الوجه الثاني: عثمان ﷺ ما فعل هذا من رأيه مجردًا؛ بل استشار أولًا.

الوجه الثالث: لم ينكر عليه أحد في هذا العمل؛ بل قبلوه.

الوجه الرابع: استجابة الصحابة لعثمان ﷺ.

الوجه الخامس: عثمان ﷺ من الخلفاء الراشدين فوجب اتباع سنته كما أمر النبي ﷺ.

الوجه السادس: مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن عثمان ﷺ حرق المصاحف الأخرى؛ لئلا يقع بسببها اختلاف

بعد أن تم نسخ المصاحف العثمانية، أمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ بإرسالها إلى الأقطار الإسلامية الشهيرة، وأرسل مع كل مصحف مقرئًا من الذين توافق قراءته في أغلبه قراءة أهل ذلك القطر، وذلك لأن التلقي أساس في قراءة القرآن، وأمر أن يحرق كل ما عداها من الصحف أو المصاحف الشخصية الموجودة لدى الصحابة مما تخالفها؛ ليستأصل بذلك سبب الخلاف والنزاع بين المسلمين في قراءة كتاب الله، فاستجاب لذلك الصحابة ﷺ، فجمعت المصاحف والصحف وحرقت أو غسلت بالماء. [1]

ففي الحديث أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشام في فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ في الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا في الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا في الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا في الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ في شيء مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ في الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ

(١) مناهل العرفان: ١/ ٢٦١.

فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ[١].

قال الجعبري: ونزل تحريقه ما سواها على مصاحف الصحابة ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يكتبون فيها التفسير الذي يسمعونه من النَّبِيّ ﷺ، ويحتمل ذلك نحو الرقاع؛ لئلا ينقلها من لا يعرف ترتيبها، فيختلَّ، لا الصحف، لاحتمال الرجوع إليها.[٢]

والمصاحف التي أحرقها فيها أشياء من منسوخ التلاوة وقد أبقاه بعض الصحابة، وترتيب السور على غير الترتيب الذي في العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل ﷺ على النبي ﷺ، وفي بعض المصاحف تفسيرات لبعض الصحابة؛ لذلك أمر عثمان بإحراق تلك المصاحف، وكتب المصحف الوحيد وفيه القراءات، ولم يلغ القراءات الثابتة عن النبي ﷺ[٣].

قال الزركشي: ولقد وفق لأمر عظيم، ورفع الاختلاف، وجمع الكلمة، وأراح الأمة[٤].

والمصاحف التي حرقها عثمان هي مصاحف قد أودعت ما لا يحل قراءته[٥].

---

(١) البخاري(٤٩٨٧).

قال ابن حجر فتح الباري٨/ ٦٣٧: فِي رِوَايَة الْأَكْثَر "أَنْ يُخْرَق" بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة، وَلِلْمَرْوَزِيّ بِالْمُهْمَلَةِ وَرَوَاهُ الْأَصِيلِيّ بِالْوَجْهَيْنِ، وَالْمُعْجَمَة أَثْبَت. وَفِي رِوَايَة الْإِسْمَاعِيلِيّ "أَنْ تُمْحَى أَوْ تُحْرَق" وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَة شُعَيْب عِنْد اِبْن أَبِي دَاوُدَ وَالطَّبَرَانِيّ وَغَيْرهمَا "وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُحَرِّقُوا كُلّ مُصْحَف يُخَالِف الْمُصْحَف الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ، قَالَ: فَذَلِكَ زَمَان حُرِّقَتْ الْمَصَاحِف بِالْعِرَاقِ بِالنَّارِ" وَفِي رِوَايَة سُوَيْد بْن غَفَلَةَ عَنْ عَلِيّ قَالَ: "لَا تَقُولُوا لِعُثْمَان فِي إِحْرَاق الْمَصَاحِف إِلَّا خَيْرًا" وَفِي رِوَايَة بُكَيْر بْن الْأَشَجّ "فَأَمَرَ بِجَمْعِ الْمَصَاحِف فَأَحْرَقَهَا، ثُمَّ بَثَّ فِي الْأَجْنَاد الَّتِي كَتَبَ" وَمِنْ طَرِيق مُصْعَب بْن سَعْد قَالَ: "أَدْرَكْت النَّاس مُتَوَافِرِينَ حِين حَرَّقَ عُثْمَان الْمَصَاحِف، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ - أَوْ قَالَ - لَمْ يُنْكِر ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَد" وَفِي رِوَايَة أَبِي قِلَابَةَ "فَلَمَّا فَرَغَ عُثْمَان مِنْ الْمُصْحَف كَتَبَ إِلَى أَهْل الْأَمْصَار: إِنِّي قَدْ صَنَعْت كَذَا وَكَذَا وَمَحَوْت مَا عِنْدِي، فَامْحُوا مَا عِنْدكُمْ" وَالْمَحْو أَعَمّ مِنْ أَنْ يَكُون بِالْغَسْلِ أَوْ التَّحْرِيق، وَأَكْثَر الرِّوَايَات صَرِيح فِي التَّحْرِيق فَهُوَ الَّذِي وَقَعَ، وَيَحْتَمِل وُقُوع كُلّ مِنْهُمَا بِحَسَبِ مَا رَأَى مَنْ كَانَ بِيَدِهِ شَيْء مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ جَزَمَ عِيَاض بِأَنَّهُمْ غَسَلُوهَا بِالْمَاءِ ثُمَّ أَحْرَقُوهَا مُبَالَغَة فِي إِذْهَابهَا.

(٢) جمع القرآن في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث: محمد شرعي أبو زيد ١/ ١٦٤.

(٣) مجلة الراصد ١ – ٣٥.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٩.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.

وفي الجملة إنه إمام عدل غير معاند ولا طاعن في التنزيل، ولم يحرق إلا ما يجب إحراقه[1].

الوجه الثاني: عثمان ﷺ ما فعل هذا من رأيه مجردًا؛ بل استشار أولا.

لم يفعل ما فعل من هذا الأمر الجلل إلا بعد أن استشار الصحابة واكتسب موافقتهم؛ بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم.

عن العيزار بن جرول الحضرمي قال: لما خرج المختار كنا هذا الحي من حضرموت أول من تسرع إليه، فأتانا سويد بن غفلة الجعفي فقال: إن لكم عليَّ حقًا، وإن لكم قرابة، والله لا أحدثكم اليوم إلا شيئًا سمعته من المختار، أقبلت من مكة وإني لأسير، إذ غمزني غامز من خلفي، فإذا المختار فقال لي: يا شيخ ما بقي في قلبك من حب ذلك الرجل - يعني عليًا -؟ ، قلت: إني أشهد الله أني أحبه بسمعي وقلبي وبصري ولساني. قال: ولكني أشهد الله أني أبغضه بقلبي وسمعي وبصري ولساني. قال: قلت: أبيت والله إلا تثبيطًا عن آل محمد ﷺ، وترثيثًا في إحراق المصاحف، (أو قال حراق، هو أحدهما يشك أبو داود)، فقال سويد: والله لا أحدثكم إلا شيئًا سمعته من علي بن أبي طالب ﷺ سمعته يقول: " يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرًا (أو قولوا له خيرًا) في المصاحف وإحراق المصاحف، فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعًا، فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت. قال: فقيل: أي الناس أفصح، وأي الناس أقرأ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت، فقال: ليكتب أحدهما ويمل الآخر، ففعلا وجمع الناس على مصحف " قال: قال علي: والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل[2].

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.

(٢) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٧٧)، وأخرجه البيهقي في سننه ٢/ ٤٢ من طرق عن محمد بن أبان عن علقمة بن مرثد عن العيزار بن جرول به. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٣٥.

رضي الله عن الجميع وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع[(١)].

الوجه الثالث: لم ينكر عليه أحد في هذا العمل؛ بل قبلوه.

لم ينكر عليه أحد ذلك؛ بل رضوه وعدُّوه من مناقبه حتى قال علي ﷺ: لو وليت ما ولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل.

عن مصعب بن سعد قال: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد"[(٢)].

الوجه الرابع: استجابة الصحابة لعثمان ﷺ.

فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعًا على المصاحف العثمانية حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولًا مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها. وبعدئذ طهر الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع وأصبح مصحف ابن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، ومصحف عائشة، ومصحف علي، ومصحف سالم مولى أبي حذيفة أصبحت كلها وأمثالها في خبر كان، مغسولة بالماء، أو محروقة بالنيران، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا.

وعثمان ﷺ فقد أرضى -بذلك العمل الجليل- ربه، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم، ولن يقدح في عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية فقد علمت وجهة نظره في ذلك[(١)].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٢.

(٢) **صحيح**. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ ١٥٦، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٠، وابن أبي داود في المصاحف (٤١) من طرق عن شعبة. وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٨٢) من طريق إسرائيل. وأخرجه ابن أبي داود أيضًا في المصاحف (٨٣) من طريق غيلان. كلهم عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد به وإسناده صحيح.

قال عبد الرحمن بن مهدي: "خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر، صبره نفسه حتى قتل مظلومًا، وجمعه الناس على المصحف"[٢].

عن ثابت بن عمارة الحنفي قال: سمعت غُنَيْم بن قيس المازني قال: "قرأت القرآن على الحرفين جميعًا، والله ما يسرني أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ما له قال: قلنا له: يا أبا العنبر، لم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرءون الشعر"[٣].

الوجه الخامس: عثمان ﷺ من الخلفاء الراشدين فوجب اتباع سنته كما أمر النبي ﷺ.

في حديث العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ"**[٤].

الوجه السادس: مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ" إن كان مِنْ الذُّنوبِ.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ. قَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ - وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي - فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَيَنْثُرُهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: **"مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ"**[٥].

أي فَلَا عَلَى عُثْمَانَ بَأْسٌ الَّذِي عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ مِنْ الذُّنُوبِ فَإِنَّهَا مَغْفُورَةٌ مُكَفَّرَةٌ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ: **"لَعَلَّ اللهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"**[١].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٢.

(٢) صحيح. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٤٤).

(٣) المصاحف لابن أبي داود بإسناد صحيح (١/ ٤٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، والترمذي (٢٦٦٧)، وقال الترمذي: حديث صحيح. وانظر السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

(٥) حسن. الترمذي (٣٧٠١) قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وحسنه الألباني في المشكاة (٦٠٦٤)

الفصل الثاني: الطعن في التوثيق في صحة الجمع.

وفيه شبهات:

الشبهة الأولى: لماذا لم يجمع القرآن في عهد النبي ﷺ؟

الشبهة الثانية: لم يجمع القرآن إلا أربعة.

الشبهة الثالثة: حول اختلاف ألحان العرب في المصاحف وألحان اللغات.

الشبهة الرابعة: أن أول من جمع القرآن هو علي رضي الله عنه.

الشبهة الخامسة: تخطئة ابن عباس، وعائشة، وسعيد بن جبير للكُتَّاب.

الشبهة الأولى: لماذا لم يجمع القرآن في عهد النبي ﷺ؟

نص الشبهة:

إذا كان جَمْعُ القرآن فضيلة فلماذا لم يجمعه رسولكم؟ ولِمَ لمْ يأمر أحدًا من أصحابه بجمعه، غاية ما في الأمر أنَّ جمعه كان جهدًا شخصيًا من بعض أصحابه وفي بعض المناسبات، لذا كان الاختلاف كبيرًا بين الصحابة في جمعه وترتيبه. وقال السيوطي في الإتقان: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شئ. وحيث إن رسولكم لم يفعل ذلك دلَّ على أن كتابكم كتاب كبقية الكتب يصيبه ما أصابها.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: العمدة على الحفظ الصدري.

الوجه الثاني: أن الله قد حفظ نبيه من نسيان القرآن.

الوجه الثالث: نزول القرآن مفرقًا في زمن طويل يمنع جمعه في مكان واحد.

الوجه الرابع: عدم استقرار ترتيب الآيات والسور في زمن النبي ﷺ.

الوجه الخامس: نزول الوحي على النبي ﷺ بالنسخ.

الوجه السادس: أن المدة بين آخر ما نزل وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًا.

---

(١) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم(٢٤٩٤).

الوجه السابع: أن جمع القرآن زمن أبي بكر الصديق ﷺ وعثمان بن عفان ﷺ قد كان له ما يدعو إليه.

الوجه السابع. مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة، والموجود منها عَسِر الاستعمال.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **العمدة على الحفظ الصدري**.

بَادِئَ ذِي بَدْءٍ لابُدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ القرآنَ كُلَّهُ كان مجموعًا في صدر النبي ﷺ، ويدل على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن حذيفة ﷺ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى فقلت: يركع بها ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبا من قيامه[١].

فهذا هو شأن رسول الله ﷺ يحفظ القرآن كله و يعلمه أصحابه؛ بل وكان هناك الحفاظ من الصحابة الكثير، وكان حفظهم متقنًا عن ظهر قلب، وعقد البخاري لذلك كتابا فقال: (باب القراءة عن ظهر القلب)[٢]، ثم أخرج حديث المرأة الواهبة نفسَهَا لرسول الله ﷺ وفيه فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال: هل عندك من شيء؟. فقال: لا والله يا رسول الله، قال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا؟. فذهب، ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئا. قال: انظر ولو خاتمًا من حديد. فذهب، ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتمًا من حديد ولكن هذا إزاري - قال سهل ما له رداء - فلها نصفُه. فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك، إن لبسَته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسْته لم يكن عليك شيء؟!. فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام، فرآه رسول الله ﷺ موليًا، فأمر به فدعي فلما جاء قال:

---

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) انظر فتح الباري ٨/ ٦٩٦.

ماذا معك من القرآن؟. قال: معي سورة كذا وسورة كذا عَدَّهَا قال: أتقرَؤُهُن عن ظهر قلبك؟. قال: نعم(١).

هذا هو الشاهد، ولاشك أن في هذا الحفظ المتقن أمانًا من الضياع، خاصة مع انتشار ذلك الحفظ في عدد وفير من المهاجرين الأوائل والأنصار، فالقرآن جمع في صدورهم كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩)، ومَنْ كان يحفظ بعضه فإن عنده من السور التي يحفظها ما لا يشترط أن تكون هي التي يحفظها أخوه، فربما يحفظ مواضعًا أخرى من القرآن الكريم، هذا بخلاف العدد الكبير من الصحابة الذين كانوا يجمعون القرآن كله في صدورهم.

بل وكان القرآن مكتوبًا كله على العسب والأكتاف، مفرقًا في الصحف عند الصحابة، عند كل واحد منهم الأوراق العديدة، ويعتنون بها عناية خاصة، ولم يكن مجموعًا في مكان واحد.

الوجه الثاني: أن الله قد حفظ نبيه من نسيان القرآن.

إن الله قد أمن نبيه ﷺ من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ (الأعلى٦، ٧) أي: ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ، فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته ﷺ؛ فإن النسيان قد يقع، فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد(٢).

الوجه الثالث: نزول القرآن مفرقًا في زمن طويل يمنع جمعه في مكان واحد

إن من أسباب عدم جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي ﷺ أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، و إنما نزل مفرقًا منجمًا، ولا سبيل إلى جمعه ما لم يكتمل نزوله و يتمُّ.

وكان ينزل فيما ينزل من أمور تجدُّ على النبي ﷺ و أصحابه وبحسب الحوادث والأسباب هذا مع تباعد الأزمان فنزل القرآن فيما يزيد على عشرين سنة.عن عائشة، وابن عباس ﭭ

---

(١) البخاري (٥٠٣٠).

(٢) دراسات في علوم القرآن الكريم د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي صـ ٨٢.

قالا: لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن و بالمدينة عشر سنين. [١]

فنزل القرآن على هذه الحال لحكم كثيرة من الله العليم الحكيم الخبير، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢) ومن تيسير حفظه في الصدور وفهمه ومسايرة الحوادث و التدرج في التشريع. [٢]

فكتابة القرآن و الحالة هذه في موضع واحد إن لم تكن مستحيلة فهي متعذرة في كتاب ينزل في سنين طويلة وانظر الوجه التالي.

الوجه الرابع: عدم استقرار ترتيب الآيات والسور في زمن النبي ﷺ.

إن من أسباب عدم جمع القرآن في حياة النبي ﷺ أن ترتيب الآيات و السور لم يكن قد استقرَّ، ولم يكن على حسب النزول فهناك من الآيات و السور الكثيرة التي هي من أواخر ما نزل، بينما ترتيبها في القرآن العظيم في أوائل السور الكريمة. كما في سور ة البقرة، وسورة آل عمران. [٣]

بل إن القرآن ما كان ينزل على رسول الله ﷺ على هذا الترتيب الذي في المصحف فعلى هذا فإن كثيرًا من السور التي هي من أواخر ما نزل في المدينة تكون في المصحف قبل التي نزلت أول البعثة بمكة.

بل إنه من المعلوم أن الآية الناسخة تنزل متأخرة عن الآية المنسوخة فتنسخها إما حكمًا، وإما تلاوةً، وإما حكمًا و تلاوة معا، على الرغم من ذلك فإن الناسخة قد تتقدم في ترتيب المصحف على المنسوخة.

يقول الشيخ محمد أبو شهبة: وذلك مثل آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرًا، فإنها ناسخة لآية الاعتداد بحول، مع أن الأولى مكتوبة في المصاحف قبلها و هي متأخرة في

---

(١) البخاري (٤٤٦٤).

(٢) انظر مقدمة جمع القرآن حول الحكمة من نزول القرآن منجمًا.

(٣) انظر التبيان في علوم القرآن للصابوني (٥٥).

النزول عنها قطعا لوجوب تأخر الناسخ عن المنسوخ(١).

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ أو حدث سبب(٢).

الوجه الخامس: نزول الوحي على النبي ﷺ بالنسخ.

إن النبي ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات نزلت من قبل فكيف يكون جمع الآيات كلها في مصحف واحد ويتعرض بعضها لنسخ التلاوة؟

قال الخطابي: يحتمل أن يكون ﷺ إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه، أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء لوعد الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية زادها الله شرفًا، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق ﷺ بمشورة عمر ﷺ(٣).

قال الزركشي: وإنما ترك جمعه في مصحف واحد؛ لأن النسخ كان يرد على بعض، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض؛ لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين. (٤)

وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد ﷺ، قال: قال رسول الله: ﷺ **"لا تكتبوا عني شيئًا غير القرآن"**(٥) الحديث، فلا ينافي ذلك؛ لأن الكلام في كتابةٍ مخصوصةٍ على صفةٍ مخصوصةٍ. (٦) وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور.

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة (٢٤٢).

(٢) مناهل العرفان ١/ ١٧٣.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٢٩.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٥.

(٥) مسلم (٣٠٠٤).

(٦) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٢٩.

قلت: فهذه أوجه تخص طبيعة النص القرآني، وما سيأتي من الوجوه تتحدث عن الظروف التي أحاطت بالنص القرآني الكريم وحالت دون جمعه.

الوجه السادس: إن المدة بين آخر ما نزل وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًا.

من أسباب عدم جمع القرآن في حياة النبي ﷺ أن المدة بين نزول آخر ما نزل، وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًا، وعلى رأي أكثر العلماء أن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ (البقرة: ٢٨١) هو آخر ما نزل. [١] وقد انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال فالمدة إذا قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول. [٢]

الوجه السابع: أن جمع القرآن زمن أبي بكر الصديق ﷺ وعثمان بن عفان ﷺ قد كان له ما يدعو إليه.

يقول الزرقاني: وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات ... أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر ﷺ حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان ﷺ حتى نسخه في مصاحف.

فالمسلمون وقتئذ بخير، والقراء كثيرون، والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة، وأدوات الكتابة غير ميسورة، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتُوفي على الغاية حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها [٣].

ثم كان الرسول ﷺ بين أظهرهم يستفتونه في كل ما يهمهم من أمرهم.

الوجه الثامن: مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة، والموجود منها عسر الاستعمال.

إنَّ لمواد الكتابة عامل في تيسير جمع المكتوب من القرآن في مكان أو في مصحف واحد، و كان أصحاب النبي ﷺ يستعملون في كتابة القرآن كل ما توفر في بيئتهم و تيسر لهم من أدوات الكتابة.

---

(١) انظر شبهة حول آخر ما نزل من القرآن.

(٢) التبيان في علوم القرآن للصابوني (٥٥).

(٣) مناهل العرفان للزرقاني ١/ ١٧٣.

فكما عند البخاري عن زيد بن ثابت ﷺ قال: فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب[1].

وفي رواية عند البخاري زاد (واللخاف)[2].

وفي رواية عند ابن أبي داود زاد: (ومن الأضلاع)[3].

وزاد: (والأقتاب)[4]

هذا كما كانت الكتابة على الجلود و صفائح الخشب، فهذه الآثار و غيرها تدلنا على عظيم بلاء الصحابة في كتابة القرآن، وما تحملوه من المشاق، حيث إن مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة كما أن الموجود منها كان عسر الاستعمال، ويحتاج إلى جهد كبير في إعداده و تجهيزه.

وبقي القرآن مكتوبًا على هذه الأدوات محفوظًا عند النبي ﷺ و أصحابه ولم يجمع في مصحف واحد في ذلك العهد.

قال القسطلاني: وقد كان القرآن كله مكتوبًا في عهده، لكن غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتب السور[1].

---

(١) الرقاع: هي التي يكتب فيها وهي من جلد أو كاغد. لسان العرب (رقع).

والأكتاف: جمع كتف وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان. كانوا يكتبون فيها لقلة القراطيس عندهم. النهاية ٤/ ١٥٠.

والعُسُبُ: جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص و يكتبون في الطرف العريض. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٣٤. وانظر الحديث في البخاري (٤٦٧٩).

(٢) هي صفائح الحجارة البيض الرقاق، فيها عرض ودقة، وقيل: هي الخزف يصنع من الطين المشوي. فتح الباري١٣/ ١٩٥. وانظر الحديث في البخاري (٧١٩١).

(٣) الأضلاع: جمع ضلع وهي عظام الجنبين، والضلع محنية الجنب. لسان العرب (ضلع)، كتاب المصاحف لابن أبي داود (٥٤، ٥٦-٩٣)

والأقتاب: جمع (قتب) وهو الخشب يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. فتح الباري ٨/ ٦٣٠.

(٤) كتاب المصاحف لابن أبي داود(٥٦-٩٣).

وكثرة أدوات الكتابة وتنوعها لا يؤثر في جمع القرآن إذ كان التعويل على الحفظ والتلقي قبل كل شيء، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده.

فلا جرم كان في الحفظ والكتابة معا، ضمان للنظام والترتيب والضبط و الحصر.[٢]

الشبهة الثانية: لم يجمع القرآن إلا أربعة.

نص الشبهة:

مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. حيث استند هؤلاء بما صح عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: مَاتَ النبي ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ[٣]. قَالَ: وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ. قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ لأَنَسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي[٤].

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الحصر الذي ذكره أنس ﷺ هو حصر نسبي (إضافي) وليس حصراً حقيقيًا.

أي أن قول أنس ﷺ (أَرْبَعَةٌ) لا مفهوم له؛ وليس الحصر في كلامه حقيقيًّا، بل هو حصر إضافي، أي: بالإضافة إلى غيرهم، فالحصر الذي تلمحه فيه حصر نسبي وليس حصرًا حقيقيًا حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ، والدليل على أن هذا الحصر إضافي لا حقيقي ما يلي:

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٧/ ٤٤٦، ودليل الحيران شرح مورد الظمآن في رسم القرآن للمارغني صـ١٧، و جمع القرآن في مراحله التاريخية لمحمد شرعي أبو زيد صـ٤٤.

(٢) مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٢٣٠.

(٣) اختلف في تعيينه، قال النووي: هُوَ سَعْد بْن عُبَيْد بْن النُّعْمَان الْأَوْسِيّ مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، بَدْرِيّ يُعْرَفُ بِسَعْدٍ الْقَارِي، اُسْتُشْهِدَ بِالْقَادِسِيَّةِ سَنَة خَمْس عَشْرَة فِي أَوَّل خِلَافَة عُمَر بْن الْخَطَّاب ﷺ.
قَالَ اِبْن عَبْد الْبَرّ: هَذَا هُوَ قَوْل أَهْل الْكُوفَة، وَخَالَفَهُمْ غَيْرهمْ، فَقَالُوا: هُوَ قَيْس بْن السَّكَن الْخَزْرَجِيّ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْن النَّجَّار بَدْرِيّ. قَالَ مُوسَى بْن عُقْبَة: اُسْتُشْهِدَ يَوْم جَيْش أَبِي عُبَيْد بِالْعِرَاقِ سَنَة خَمْس عَشْرَة أَيْضًا. شرح مسلم (٨/ ٢٢١).

(٤) البخاري (٥٠٠٤).

الدليل الأول: اختلاف الرواية عن أنس ﷺ في تحديد الأربعة.

فمِمَّا يدل على إرادة الحصر الإضافي اختلاف الرواية عن أنس ﷺ في تحديد الأربعة، ففي رواية؛ قَالَ: مَاتَ النبي ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ. قَالَ وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ.(١) وفي رواية أخرى أن قتادة سأل أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النبي ﷺ؟ قَالَ: أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ(٢).

قال الزرقاني: فأنت ترى أن أنسًا في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبي بن كعب بدلًا من أبي الدرداء في الرواية السابقة. وهو صادق في كلتا الروايتين؛ لأنه ليس بمعقول أن يكذب نفسه، فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي بأن يقال: إن أنسا ﷺ تعلق غرضه في وقت ما بأن يذكر الثلاثة، ويذكر معهم أبي بن كعب دون أبي الدرداء، حاصرًا الجمع فيهم، ثم علق غرضه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبي بن كعب، وهذا التوجيه وإن كان بعيدًا إلا أنه يتعين المصير إليه جمعا بين هاتين الروايتين وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء(٣).

والاختلاف في تحديد المعدود المحصور يدل على عدم إرادة الحصر الحقيقي(٤).

الدليل الثاني: استحالة إحاطة أنس بحال كل الصحابة، وأنَّهم لم يجمعوا القرآن كله.

قال المازري: لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك؛ لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة، وتفرقهم في البلاد، وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في

(١) البخاري (٥٠٠٤).

(٢) البخاري (٥٠٠٣)، مسلم (٢٤٦٥).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢٠٠.

(٤) كتاب جمع القران ١/ ٣٨.

العادة، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك.[١]

الدليل الثالث: كثرة الحفاظ من الصحابة.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: ذُكِرَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: **"خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ"**.[٢]، وثبت أنه قُتِل يوم بئر معونة سبعون من القراء[٣].

وثبت أن عبد الله بن عمرو كان يختم كل ليلة[٤].

وبتقدير مراد أنس ﷺ بالحصر الإضافي فالمعنى من هذه الوجوه التالية أيضًا:

الوجه الثالث: ذهب بعضهم إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها.[٥]

الوجه الرابع: لم يجمع ما نسخ منه وأزيل رسمه بعد تلاوته؛ مع ما ثبت رسمه وبقي فرض حفظه وتلاوته إلا تلك الجماعة[٦].

الوجه الخامس: أن المْراد بجمعه: تلَقِّيهِ من فِي رسول الله ﷺ بغير واسطة، بخلاف غيرهم، فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة[٧].

الوجه السادس: أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه فاشتهروا به، وخفي حال غيرهم عمَّن

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٦٩، وانظر المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٥ فقد ذكره مختصرًا.

(٢) البخاري (٣٨٠٨)، مسلم(٢٤٦٤).

(٣) عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ وَعُصَيَّةُ وَبَنُو لِحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لِحْيَانَ. البخاري(٣٠٦٤)، مسلم (٦٧٧).

(٤) مر الحديث سابقًا.

(٥) فتح الباري ٨/ ٦٦٨، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢٤٢، الإتقان للسيوطي ١/ ١٩٣.

(٦) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٤٢، وانظر فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

(٧) فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

عرف حالهم فحصر ذلك فيهم بحسب علمه، وليس الأمر في نفس الأمر كذلك، أو يكون السبب في خفائهم أنهم خافوا غائلة الرياء والعجب وأمن ذلك من أظهره[1].

الوجه السابع: المراد بالجمع الكتابة فلا ينفى أن يكون غيرهم جمعه حفظا عن ظهر قلب، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب.[2]

المراد أن أحدا لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه في عهد رسول الله ﷺ إلا أولئك بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك؛ لأن أحدا منهم لم يكمله إلا عند وفاة رسول الله ﷺ حين نزلت آخر آية منه، فلعل هذه الآية الأخيرة وما أشبهها ما حضرها إلا أولئك الأربعة ممن جمع جميع القرآن قبلها، وإن كان قد حضرها من لم يجمع غيرها الجمع البين.[3]

وعدم الإفصاح كان لأسباب منها ما ذُكر، ومنها ما **قاله المازري** حيث قال:

ويحتمل أن يراد به أنه لم يذكر أحد عن نفسه أنه أكمله في حياة النبي ﷺ سوى هؤلاء الأربعة؛ لأن من أكمله سواهم كان يتوقع نزول القرآن مادام ﷺ حيًا فقد لايستجيز النطق بأنه أكمله واستجازه هؤلاء، ومرادهم أنهم أكملوا الحاصل منه.

ويحتمل أيضًا أن يكون سواهم لم ينطق بإكماله خوفًا من المراءاة به، واحتياطًا على النيات كما يفعل الصالحون في كثير من العبادات، وأظهر هؤلاء الأربعة ذلك؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم، أو لرأيٍ اقتضى ذلك عندهم[4].

وعلى تقدير الحصر في كلام أنس ﷺ فالجواب من هذه الوجوه التالية أيضًا.

الوجه الثامن:

أنه ليس فيه تصريح بأن غير الأربعة لم يجمعه، فقد يكون مراده: الذين علمهم من الأنصار أربعة، وأما غيرهم من المهاجرين والأنصار الذين لا يعلمهم فلم ينفهم، ولو نفاهم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٥.

كان المراد نفي علمه، ومع هذا فقد روى غير مسلمٍ حفظ جماعات من الصحابة في عهد النبيﷺ، وذكر منهم المازري خمسة عشر صحابيًا، وثبت في الصحيح أنه قتل يوم اليمامة سبعون ممن جمع القرآن، وكانت اليمامة قريبا من وفاة النبي ﷺ فهؤلاء الذين قتلوا من جامعيه يومئذ فكيف الظن بمن لم يقتل ممن حضرها ومن لم يحضرها وبقي بالمدينة أو بمكة أو غيرهما؟[1].

الوجه التاسع: هذا الخبر ليس على ظاهره.

لم يذكر في هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من كبار الصحابة الذين يبعد كل البعد أنهم لم يجمعوه، مع كثرة رغبتهم في الخير وحرصهم على ما دون ذلك من الطاعات، وكيف نظن هذا بهم ونحن نرى أهل عصرنا حفظه منهم في كل بلدة ألوف، مع بعد رغبتهم في الخير عن درجة الصحابة؟ مع أن الصحابة لم يكن لهم أحكام مقررة يعتمدونها في سفرهم وحضرهم إلا القرآن وما سمعوه من النبي ﷺ، فكيف نظن بهم إهماله؟ فكل هذا وشبهه يدل على أنه لا يصح أن يكون معنى الحديث أنه لم يكن في نفس الأمر أحد يجمع القرآن إلا الأربعة المذكورون. [2]

قال المازري: وأنَّا نعلم أن القرآن كان عندهم من البلاغة بحيث هو، وكان الكافرون في الجاهلية يعجبون من بلاغته، ويحاورون فيها حتى ينسبونها تارة إلى السحر، وتارة إلى أساطير الأولين، ونحن نعلم من عادة العرب شدة حرصها على الكلام البليغ وتحفظها له، ولم يكن لها شغل ولا صنعة سوى ذلك. فلو لم يكن للصحابة باعث على حفظ القرآن سوى هذا الذي ذكرناه لكان أول الدلائل على أن الخبر ليس على ظاهره. [3]

الوجه العاشر: أنه لو ثبت أنه لم يجمعه إلا الأربعة لم يقدح في تواتره، فإن أجزاءه حفظ كل جزء منها خلائق لا يحصون، يحصل التواتر ببعضهم، وليس من شرط التواتر أن ينقل

---

(١) شرح النووي على مسلم ٨/ ٢٥٧، وانظر المعلم ٢/ ٣٤٤، فضائل القرآن لابن كثير صـ ٩٣.

(٢) شرح النووي على مسلم ٨/ ٢٥٧، وانظر المعلم ٢/ ٣٤٤.

(٣) المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٤.

جميعهم جميعه؛ بل إذا نقل كل جزء عدد التواتر، صارت الجملة متواترة بلا شك، ولم يخالف في هذا مسلم ولا ملحد. (١)

الشبهة الثالثة: حول اختلاف ألحان العرب في المصاحف وألحان اللغات.

نص الشبهة:

عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فُرِغ من المصحف، أُتي به عثمانُ فنظر فيه فقال: " قد أحسنتم، وأجملتم، أرى فيه شيئًا من لحنٍ ستقيمه العرب بألسنتها "(٢)

وعن عكرمة الطائي قال: لما أُتي عثمان ﷺ بالمصحف رأي فيه شيئًا من لحن فقال: "لو كان المملي من هذيل، والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا". (١)

---

(١) شرح النووي على مسلم ٨/ ٢٥٨، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢٤٣.

(٢) ضعيف. فقد جاء عن عثمان ﷺ من ثلاثة طرق.

الطريق الأول: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١٠٤، ١٠٥)، وابن أَشْتَه في المصاحف كما في الإتقان للسيوطي ٢/ ٢٧٢، وابن شبه في تاريخ المدينة ٣/ ١٠١٣. من طرق عن إسماعيل ابن علية، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فرغ من المصحف أتي به عثمان فنظر فيه فقال. فذكره، وإسناده منقطع. عبد الأعلى بن عبد الله لم يدرك عثمان ﷺ؛ قال ابن حجر: مقبول. التقريب١/ ٣٢٤.

الطريق الثاني: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١٠٦)من طريق بكر - يعني ابن بكار - قال: حدثنا أصحابنا، عن أبي عمرو، عن قتادة، أن عثمان ﷺ لما رفع إليه المصحف قال. . فذكره.

قلت: وإسناده ضعيف، قتادة لم يسمع عثمان ﷺ، وشيوخ بكار مجاهيل.

الطريق الثالث: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف(١٠٧، ١٠٨)، وابن شبه في تاريخ المدينة ٣/ ١٠١٣، وأبو عمرو في المقنع صـ ٣٦، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٢ من طرق عن عمران بن داود القطان، عن قتادة، عن نصر بن عاصم الليثي، عن عبد الله بن فطيمة، عن يحيى بن يعمر قال: قال عثمان ﷺ. . . فذكره.

قلت: وإسناده ضعيف. يحيى بن يعمر من الثالثة. قال أبو داود: لم يسمع من عائشة، قلت – الذهبي- فما الظن باللذين قبلها. قال أبو بكر بن أبي عاصم: لم يسمع من عمار بن ياسر. وعثمان ﷺ مات قبلهما. التقريب ٢/ ٦٦٨، تذكرة الحفاظ١/ ٧٥، جامع التحصيل ١/ ٢٩٩.

وعبد الله بن فطيمة عن يحيى بن يعمر روى قتادة عن نصر بن عاصم. منقطع. انظر التاريخ الكبير للبخاري٥/ ١٧٠.

والرد على ذلك من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن ذلك لا يصح عن عثمان ﷺ.

الوجه الثاني: هذا الخبر مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادةً.

الوجه الثالث: اللحن المراد به هنا هو: اللغة.

الوجه الرابع: أن ذلك محمولًا على الرمز والإشارة ومواضع الحذف.

الوجه الخامس: أنه مؤول على أشياء خالف لفظُها رسمَها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن ذلك لا يصح عن عثمان ﷺ.

وذلك من وجوه:

أولًا: إسناده ضعيف. (٢)

قال السخاوي: إنه ضعيف، والإسناد فيه اضطراب وانقطاع. (٣)

قال أبو عمرو الداني: هذا الخبر عندنا لا يقوم بمثله حجة، ولا يصح به دليل، لما فيه تخليط في إسناده، واضطراب في ألفاظه، ومع ذلك فهو مرسل؛ لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئًا ولا رأياه. (٤)

ثانيًا: أن فيه اضطرابًا.

فغير خفي على المتأمل ما في الروايتين من اضطراب وتناقض؛ فإن قوله: "أحسنتم وأجملتم". مدح وثناء، وقوله: "إن فيه لحنًا" يشعر بالتقصير والتفريط، فكيف يصح في

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ ١٥٩، ومن طريقه أبو عمرو في المقنع صـ ٣٦، وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١١٠) عن هارون بن موسى، عن الزبير بن الخريت، عن عكرمة الطائي، قال: لما أتي عثمان ﷺ بالمصحف رأي فيه شيئا من لحن فقال. . . . فذكره. وعكرمة هذا لا يعرف ولم أجد له ترجمة، والأثر انتقده الأئمة كما سيأتي.

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) تفسير الآلوسي ٦/ ١٥، التحرير والتنوير ٢/ ١١٤.

(٤) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١/ ٣٥.

العقول أن يمدحهم على التقصير، والتفريط؟.

ثالثًا: أن عثمان كان يُرفع الخلاف إليه الواقع من الناسخين ليحكم بالحق، فكيف يترك لحنًا فيه؟ والدليل على ذلك ما يلي:

١- **قال ابن الأنباري**: فكيف يُدَّعي عليه أنه رأى فسادًا فأمضاه، وهو يوقَف على ما كتب، ويُرفع الخلاف إليه الواقع من الناسخين ليحكم بالحق، ويُلزمهم إثبات الصواب وتخليده[1].

٢- أنه قد ثبت أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب التابوت بالهاء على لغة الأنصار فمنعوه من ذلك، ورفعوه إلى عثمان ﷺ وأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش[2].

٣- عن مولى عثمان قال: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أُبي بن كعب، فيها "لم يتسن"، وفيها "لا تبديل للخلق"، وفيها "فأمهل الكافرين". قال: فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين، وكتب ﴿لِخَلْقِ اللهِ﴾، ومحا "فأمهل"، وكتب ﴿فَمَهِّلِ﴾، وكتب ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ألحق فيها الهاء. [3]

رابعًا: أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف؛ بل شاركه الصحابة في جمعه وكتابته، ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر ﷺ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التي عرض فيها النبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام.

الوجه الثاني: هذا الخبر مما يستحيل عقلا وشرعًا وعادةً.

ومما يدل على ذلك الآتي:

أولا: كيف يُظن بالصحابة أنهم يلحنون في الكلام فضلًا عن القرآن؟ وهم الفصحاء اللد، فكيف يظن بهم اللحن في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ، كما أنزل، وحفظوه وضبطوه وأتقنوه؟.

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧٢.

(٢) الترمذي (٣١٠٤)، وراجع مسألة جمع القرآن من هذه الموسوعة.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ ١٥٩.

ثانيًا: كيف يُظن بهم اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته؟.

ثالثًا: كيف يظن بهم عدم تنبيههم ورجوعهم عنه، ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهي عن تغييره، ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ، وهو مروي بالتواتر خلفًا عن سلف؟ هذا مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادة(١).

رابعًا: إن الصحابة ﷺ كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات، فكيف يقرون اللحن في القرآن مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته؟.

خامسًا: إن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف؟!.

سادسًا: إن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم؛ لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي(٢).

سابعًا: إن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان ﷺ لما فيه من الطعن عليه، مع محلّه من الدين، ومكانه من الإسلام، وشدّة اجتهاده في بذل النصيحة، واهتباله بما فيه الصلاح للأمة، فغير ممكن أن يتولى لهم جمع المصحف مع سائر الصحابة الأتقياء الأبرار ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحنًا وخطأً يتولى تغييره من يأتي بعده، ممن لا شك أنه لا يدرك مداه ولا يبلغ غايته ولا غاية من شاهده. هذا مالا يجوز لقائل أن يقوله، ولا يحل لأحدأن يعتقده.

وقال ابن الأنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان: في الأحاديث المروية عن عثمان في ذلك لا تقوم بها حجة؛ لأنها منقطعة غير متصلة، وما يشهد عقل بأن عثمان وهو إمام الأمة الذي هو إمام الناس في زمنه يجمعهم على المصحف الذي هو الإمام فيتبين فيه خللًا، ويشاهد في خطه زللًا فلا يصلحه، كلا والله ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز، ولا يعتقد أنه أخر الخطأ في الكتاب ليصلحه من بعده، وسبيل الجائين من بعده

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧٠.

(٢) كتاب المصاحف لابن أبي داود ١/ ٢٣٤ الحاشية.

البناء على رسمه، والوقوف عند حكمه. ومن زعم أن عثمان أراد بقوله أرى فيه لحنًا: أرى في خطه لحنًا إذا أقمناه بألسنتنا كان لحن الخط غير مفسد ولا محرف من جهة تحريف الألفاظ، وإفساد الإعراب، فقد أبطل ولم يصب؛ لأن الخط منبئ عن النطق، فمن لحن في كتبه فهو لاحن في نطقه، ولم يكن عثمان ليؤخر فسادًا في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتب ولا نطق، ومعلوم أنه كان مواصلًا لدرس القرآن، متقنًا لألفاظه، موافقًا على ما رسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي(١).

ثامنًا: إن عثمان ﷺ لم يأمر بكتابة مصحف واحد؛ إنما كتب بأمره عدة مصاحف، ووجَّه كلا منها إلى مصر من أمصار المسلمين، فماذا يقول أصحاب هذا القول فيها؟ أيقولون إنه رأى اللحن في جميعها متفقًا عليه فتركه لتقيمه العرب بألسنتها، أم رآه في بعضها؟.

فإن قالوا: في بعض دون بعض، فقد اعترفوا بصحة البعض، ولم يذكر أحد منهم ولا من غيرهم أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم تأت المصاحف مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءات وليس ذلك بلحن.

وإن قالوا: رآه في جميعها، لم يصح أيضًا؛ فإنه يكون مناقضًا لقصده في نصب إمام يقتدى به على هذه الصورة، وأيضًا فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم سادات الأمة وعلماؤها فكيف يقيمه غيرهم؟ (٢)

وعلى تقدير صحة الرواية فيجاب عنها بهذه الوجوه التالية أيضًا.

الوجه الثالث: اللحن المراد به هنا هو: اللغة.

قال أبو بكر بن أبي داود: هذا عندي يعني بلغتها، وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعًا لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرءونه.

قلت: ولذا فقد فسر رحمه الله ما بوب به على هذا الفصل، فقد بوب بابًا: اختلاف ألحان العرب في المصاحف ثم قال موضحًا معنى الألحان فقال: والألحان: اللغات. (١)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧١.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٥١٩، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢/ ٢٧٠.

واللَّحَنُ يأتي بمعنى: اللغة. [٢]

الوجه الرابع: أن ذلك محمولا على الرمز والإشارة ومواضع الحذف.

وذلك نحو: الكتاب، والصابرين وما أشبه ذلك. [٣]

الوجه الخامس: أنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها.

كما كتبوا (لا أوضعوا) (لا أذبحنه) بألف بعد لا، و(جزاؤا الظالمين) بواو وألف، و(بأييد) بياءين. فلو قرئ ذلك بظاهر الخط لكان لحنًا. [٤]

قال أبو عمرو الداني: المقصد أن يكون عثمان ﷺ أراد باللحن المذكور فيه: التلاوة دون الرسم، إذ كان كثير منه لو تُلي على رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة، وتغيرت ألفاظها ألا ترى قوله "أولاأذبحنّه" و "لاأوضعوا" و "من نبأي المرسلين" و "سأوريكم" و "الربوا" وشبهه مما زيدت الألف والياء والواو في رسمه، لو تلاه تالٍ لا معرفة له بحقيقة الرسم، على صورته في الخط، لصير الإيجاب، ولزاد في اللفظ ما ليس فيه ولا من أصله، فأتى من اللحن بما لا خفاء به على من سمعه، مع كون رسم ذلك كذلك جائزًا مستعملًا. فأعلم عثمان ﷺ إذ وقف على ذلك أن من فاته تمييز ذلك، وعزبت معرفته عنه ممن يأتي بعده سيأخذ ذلك عن العرب؛ إذ هم الذين نزل القرآن بلغتهم فيُعرِّفونه بحقيقة تلاوته، ويدلُّونه على صواب رسمه؛ فهذا وجهه عندي والله اعلم[٥].

الشبهة الرابعة: حول أول من جمع القرآن.

نص الشبهة:

أثار هؤلاء شبهة في بعض الآثار التي ظاهرها التعارض في ذكر أول من جمع القرآن، حيث قيل: إنه علي بن أبي طالب ﷺ، وقيل: عمر بن الخطاب، وقيل سالم مولى أبي حذيفة.

---

(١) المصاحف ١/ ٢٣٢: ٢٣٣.

(٢) لسان العرب ٥/ ٤٠١٣، غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٦١، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٤٦٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢/ ٢٧١، تفسير الألوسي ٦/ ١٥.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧١.

(٥) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١/ ٣٦.

والرد على هذه الشبهة في هذه المباحث:

المبحث الأول: ما ورد أن عليًا ﷺ أول من جمع القرآن.

المبحث الثاني: ما ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ أول من جمع القرآن.

المبحث الثالث: ما جاء أن أول من جمع القرآن سالم مولى أبي حذيفة ﷺ.

المبحث الأول: ما ورد أن عليا أول من جمع القرآن.

١- عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم عليٌّ أن لا يرتدي برداء إلا لجُمعة حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل. فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام: أَكَرِهْتَ إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: "لا والله إلا أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه ثم رجع"[(١)].

٢ - عن عكرمة، فيما أحسب قال: لما كان بعد بيعة أبي بكر ﷺ، قعد علي بن أبي طالب في بيته. فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك. فأرسل إليه فقال: أَكَرِهْتَ بيعتي؟ فقال: لا والله. قال: ما أقعدك عني؟ قال: رأيت كتاب الله يزاد فيه، فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه. فقال أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت[(٢)].

٣- عن عبد خير، عن علي قال: لما قبض رسول الله ﷺ أقسمت أو حلفت أن لا أضع ردائي

(١) ضعيف. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٣١) من طريق أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم عليٌّ. فذكره. فيه أشعث بن سوار: وهو ضعيف كما في التقريب ١/ ٥٧.

ثم فيه إعضال بين ابن سيرين وعلي في ذكر قصة الجمع؛ لذا قال الحافظ ابن حجر: إسناده ضعيف لانقطاعه. فتح الباري٨/ ٦٢٩

(٢) ضعيف. فضائل القرآن لمحمد بن الضريس(٢١) من طريق أبي علي بشر بن موسى قال: حدثنا هوذة بن خليفة، قال: حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن عكرمة به. فيه انقطاع بين عكرمة وعلي. فعكرمة وُلِدَ سنةَ خمسٍ وعشرين من الهجرة. تهذيب الكمال٢٠/ ٢٩١-٢٩٢.

والحادثة المذكورة من تأخر عليٍّ في بيعة أبي بكر وقعت سنة إحدى عشرةَ، ولذا شك عكرمة في روايته فقال: فيما أحسب، ثم إن هوذة بن خليفة حديثه عن عوف الأعرابي خاصة ضعيف. نص على ذلك ابن معين، وانظر تهذيب الكمال، وعوف الأعرابي ثقة لكنه كان يتشيع، والحديث فيه موافقة لقول الشيعة بتحريف القرآن إذ قال: رأيت كتاب الله يزاد فيه. وهي علة كافية لرد الأثر.

عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي عن ظهري حتى جمعت القرآن. [١]

وتوجيه ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: هذه الروايات ضعيفة كما سبق في التخريج وكلام أهل العلم عليها فلا يستدل بها.

الوجه الثاني: **شهادة عليٍّ بأن أبا بكر هو أول من جمع القرآن.**

عن عبد خير، عن علي، قال: "رحم الله أبا بكر، كان أول من جمع القرآن"[٢].

وفي لفظ: (أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر. . .).

الوجه الثالث: **وعلى تقدير أن يكون محفوظًا فمراده بجمعه**: **حفظه في صدره.** [٣]

قال أبو بكر ابن أبي داود: أجمع القرآن يعني: أتم حفظه. فإنه يقال للذي يحفظ القرآن قد جمع القرآن. [٤]

الوجه الرابع: أو يحمل على أنه أراد أن يجرِّد مصحفه مِمَّا ليس من القرآن، كالتفسير والأحكام.

الوجه الخامس:

كما أنه قد قيل: إنَّ جَمْعَ عليٍّ كان أشبه بكتاب علم، جمع فيه غير القرآن مع القرآن، وإذن فصُورتُه غير صورة الجمع البكري، وغرضُه غير غرضِهِ. فقد روى هذا الخبر ابن أشتة في كتاب المصاحف من وجه آخر عن ابن سيرين، وفيه أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ، وأن ابن سيرين قال: فطلبتُ ذلك الكتاب، وكتبتُ فيه إلى المدينة، فلم أقدر عليه[١].

---

(١) ضعيف جدًا. أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٦٧، ومن طريقه الذهبي في السير ١٤/ ٢٢ من طريق إبراهيم بن محمد بن ميمون ثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد خير به.

فيه الحكم بن ظهير: متروك. التقريب ١/ ١٣٣.

(٢) حسن. أخرجه أبو عبيدة في فضائل القرآن صـ١٥٥، وابن أبي داود في المصاحف (من حديث ١٤: ١٨)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢٨٠)، (٥١٣)، (٥١٤) من زيادات ابنه والقطيعي، وابن سعد في الطبقات ٣/ ١٩٣. كلهم من طرق عن سفيان، عن السدي، عن عبد خير، عن علي به. . وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٨/ ٦٢٩.

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

(٤) المصاحف ١/ ١٨١.

المبحث الثاني: ما ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ أول من جمع القرآن.

١ـ عن الحسن، أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله؟ فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة فقال: " إنا لله، وأمر بالقرآن فجمع، وكان أول من جمعه في المصحف"[(٢)].

الرد على هذا الأثر من وجوه:

الوجه الأول: إسناد هذا الأثر منقطع؛ لأن الحسن لم يسمع من عمر بن الخطاب، فقد ولد لسنتين بقيتا من خلافته[(٣)].

الوجه الثاني: الظن أنَّها لا تعدو رواية البخاري التي أسلفناها، والتي تقرِّر أنَّ عمر هو فعلًا صاحب فكرة الجمع الأول، وأنه أشار بِها على أبي بكر، ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لها.

قال ابن حجر: وهذا منقطع، فإن كان محفوظًا حُمل على أن المراد بقوله: فكان أول من جمعه، أي: أشار بجمعه في خلافة أبي بكر، فنُسِب الجمع إليه لذلك[(٤)].

٢- عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن، فقام في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شهيدان. فقتل وهو يجمع ذلك إليه، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئًا حتى يشهد عليه شهيدان، فجاء خزيمة بن ثابت، فقال: إني قد رأيتكم

---

(١) الإتقان١/ ١٦٦.

(٢) **ضعيف**. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٣٢) من طريق يزيد- بن هارون - قال: أخبرنا مبارك، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله الأثر. الحسن لم يسمع عمر. جامع التحصيل في أحكام المراسيل للعلائي ١/ ١٦٢. قال ابن حجر: وهذا منقطع. الفتح ٨/ ٦٢٩. كذلك مبارك بن فضالة يدلس ويسوي ولم يصرح هنا بالسماع.

(٣) انظر التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٨٩، تهذيب الكمال٦/ ٩٥-٩٧، وقال السيوطي إسناده منقطع. انظر الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٦٦.

(٤) فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

تركتم آيتين لم تكتبوهما. قالوا: وما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إلى آخر السورة. قال عثمان: فأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: اختم بها آخر ما نزل من القرآن، فختمت بها براءة"[1].

الرد على هذا الأثر من وجوه:

الأول: أنه ضعيف كما بينا فلا يستدل به.

الثاني: المتن فيه نكارة -فيما يظهر والله أعلم- إذ يدل على أن عمر بن الخطاب ﷺ هو الذي قال بجمع المصحف فقتل ولم يتم ذلك حتى أكمله عثمان ﷺ بعد ذلك، فأتاه خزيمة ابن ثابت بخاتمة براءة، وهذا مخالف لما هو المعروف الثابت إذ الراجح أن الذي أتى بخاتمة براءة هو أبو خزيمة - كما في شبهة آيتي التوبة والأحزاب- وأيضًا كان ذلك في خلافة الصديق ﷺ إلا أن عمر كان هو القائم على هذا الجمع بأمر الصديق له في ذلك.[2]

المبحث الثالث: ما جاء أن أول من جمع القرآن سالم مولى أبي حذيفة.

قال السيوطي: ومن غريب ما ورد في أول من جمعه ما أخرجه ابن أشته في كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحفٍ سالم مولى أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه.

والرد على هذا الأثر من هذه الوجوه:

---

(١) إسناده ضعيف لانقطاعه.

أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٣٣) من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن. الأثر.

فيه يحيى بن عبد الرحمن لم يسمع من عمر. قال ابن معين: بعضهم يقول سمع من عمر وهذا باطل؛ إنما يروي عن أبيه عن عمر ﷺ. جامع التحصيل ١/ ٢٩٨. وقد تقدم تخريجه، وذكرنا له شاهدين على الشهادة في الجمع، وليس في شواهده صدر الأثر بذكر: أنه أول من جمع.

(٢) حاشية كتاب المصاحف لابن أبي داود. د/ محب الدين عبد السبحان واعظ ١/ ١٨٢.

الوجه الأول: قال السيوطي: إسناده منقطع[1].

الوجه الثاني: وعلى تقدير أن يكون محفوظًا فمراده بجمعه حفظه في صدره. كما قاله ابن أبي داود وابن حجر فيما سبق[2].

والصواب -والله أعلم- أن أوَّلية أبي بكر في جمع القرآن أولية خاصةٌّ، إذ قد كان للصحابة مصاحف كتبوا فيها القرآن قبل جمع أبي بكر، وهذا لا يعكر صفو القول بأن أول من جمع القرآن هو الصدِّيق؛ لأن مصاحف الصحابة الأخرى إنَّما كانت أعمالًا فردية، لم تظفر بِما ظفر به مصحف الصدِّيق من دقَّة البحث والتحرِّي، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغها حدَّ التواتر، ومن إجماع الأمة عليها، إلى غير ذلك من المْزايا التي كانت لمصحف الصدِّيق. فلا يضير مع كل هذه المْزايا أن يُروى أن عليًّا أو عمر أو سالِمًا كان أول من جمع القرآن، فقُصارى تلك الروايات أنَّها تثبت أن بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف، ولكنها لا تُعطي هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية، ولا تخلع عليه تلك المزايا التي للمصحف الذي جمع على عهد أبي بكر.[3]

---

(١) الإتقان في علوم القرآن١/ ١٦٦.

قال السيوطي على فرض صحته: هو محمول على أنه كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر.

وتعقبه الآلوسي بقوله: وهي عثرة منه، لا يقال لصاحبها لعًا؛ لأن سالمًا هذا قتل في وقعة اليمامة، كما يدل عليه كلام الحافظ ابن حجر في إصابته، ونص عليه السيوطي نفسه في إتقانه بعد هذا المبحث بأوراق، ولا شك أن الأمر بالجمع وقع من الصديق بعد تلك الوقعة، وهي التي كانت سببًا له كما يدل عليه حديث البخاري الذي قدمناه فسبحان من لا ينسى. تفسير الآلوسي١/ ٢٢.

(٢) المصاحف ١/ ١٨١، فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ٢٥٤-٢٥٥.

الشبهة الخامسة: شبهات حول تخطئة ابن عباس، وعائشة للكُتَّاب.

المبحث الأول: تخطئة ابن عباس للكُتَّاب.

وفي ذلك شبهات:

الأولى: يقولون: ألا يكفي في الطعن على جمع القرآن ورسمه، ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾ أنه قال: إن الكاتب أخطأ والصواب: حتى تستأذنوا.

والجواب على ذلك من رد إجمالي ووجوه.

الرد الإجمالي: دفع عام عن ابن عباس ﭭ.

كل ما روي عن ابن عباس في تلك الشبهات يمكن دفعه دفعًا عامًا بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وهما كانا في جمع المصاحف. وزيد بن ثابت كان في جمع أبي بكر أيضًا. وكان كاتب الوحي، وكان يكتب ما يكتب بأمر النبي ﷺ وإقراره. وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به، فمحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع ورسم القرآن، وإلا فكيف يأخذه عن زيد وأبي بن كعب ثم يعترض على جمعهما ورسمهما؟! [(١)].

وإليك الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا كان على سبيل التفسير.

عن ابن عباس أنه فسر ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ فقال: أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها يعني أصحاب البيوت[(٢)].

الوجه الثاني: المقصود بالخطأ عدم اختيار الأولى.

أجاب ابن أشته عن جميع ذلك بأن المراد: الخطأ في الاختيار، وترك ما هو الأولى بحسب ظنه ﭬ لجميع الناس عليه من الأحرف السبعة؛ لأن الذي كُتب خطأ خارج عن القرآن.

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٢) صحيح. أخرجه الطبري في التفسير ١٩/ ١٤٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٠، وغيرهما من طرق عن ابن عباس به. وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٧/ ٤٤٥.

واختار الجلال السيوطي هذا الجواب وقال: هو أولى وأقعد من جواب ابن الأنباري، ولا يخفى عليك أن حمل كلام ابن عباس على ذلك لا يخلو عن بعد لما أن ما ذُكر خلاف ظاهر كلامه، وأيضًا ظن ابن عباس أولوية ما أجمع سائر الصحابة ﷺ على خلافه، مما سمع رسول الله ﷺ في العرضة الأخيرة بعيد، وكأنهم رأوا أن التزام ذلك أهون من إنكار ثبوت الخبر عن ابن عباس مع تعدد طرقه وإخراج الضياء إياه في مختارته، ويشجع على هذا الإنكار اعتقاد جلالة ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وثبوت الإجماع على تواتر خلاف ما يقتضيه ظاهر كلامه فتأمل(١).

الوجه الثالث: أنه معارض للقاطع المتواتر.

وهو قراءة: تستأنسوا، والقاعدة: أن معارض القاطع ساقط، وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف فهي شاذة لا يلتفت إليها ولا يعول عليها. (٢)

واعلم أن هذا القول من ابن عباس فيه نظر؛ لأنه يقتضي الطعن في القرآن الذي نقل بالتواتر، ويقتضي صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر، وفتح هذين البابين يطرق الشك إلى كل القرآن وأنه باطل(٣).

الوجه الرابع: أن الصحابة أجمعوا على إطلاق لفظ الخطأ في الاجتهاد.

فمن ذلك ما روي عن أبي بكر أنه قال: أقول في الكلالة برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان. ومن ذلك ما روي عن عمر أنه حكم بحكم فقال رجل حضره: هذا والله الحق. فقال عمر: إن عمر لا يدري أنه أصاب الحق لكنه لم يأل جهدًا. وروي عنه أنه قال لكاتبه: اكتب هذا ما رأى عمر فإن يكن خطأ فمنه، وإن يكن صوابًا فمن الله، وأيضًا قوله في جواب المرأة التي ردت عليه النهي عن المبالغة في المهر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ومن ذلك ما روي عن علي ﷺ أنه قال في المرأة التي استحضرها عمر فأجهضت ما

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٣/ ٣٩٥-٣٩٦، الإتقان للسيوطي ١/ ٥٤٣.

(٢) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٣) تفسير الرازي ١١/ ٢٩٥.

في بطنها، وقد قال له عثمان وعبد الرحمن بن عوف: إنما أنت مؤدب لا نرى عليك شيئًا، إن كانا قد اجتهدا فقد أخطأ، وإن لم يجتهدا فقد غشَّاك، أرى عليك الدية. ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود أنه قال في المفوضة: أقول فيها برأيي فإن كان صوابًا فمن الله ورسوله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، ومن ذلك ما روي أن عليًا وابن مسعود وزيدًا ﷺ خطئوا ابن عباس في ترك القول بالعول، وأنكر عليهم ابن عباس قولهم بالعول، بقوله: من شاء أن يباهلني باهلته، إن الذي أحصى رمل عالج عددًا لم يجعل في مال واحد نصفًا ونصفًا وثلثًا، هذان نصفان ذهبا بالمال فأين موضع الثلث؟. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: ألا يتقي الله زيد بن ثابت يجعل ابن الابن ابنًا، ولا يجعل أبا الأب أبًا. إلى غير ذلك من الوقائع ولم ينكر بعضهم على بعض في التخطئة فكان ذلك إجماعًا على أن الحق من أقاويلهم ليس إلا واحدًا. (١)

الوجه الخامس: يحتمل أن يكون ذلك كان في القراءة الأولى ثم نسخت تلاوته يعني: ولم يطلع ابن عباس على ذلك. (٢)

وهو من القراءات التي نسخت وتركت، ولعل القارئ بها لم يطلع على ذلك؛ لأن جميع الصحابة ﷺ أجمعوا على كتابة: تستأنسوا في جميع نسخ المصحف العثماني، وعلى تلاوتها بلفظ: تستأنسوا، ومضى على ذلك إجماع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في مصاحفهم وتلاوتهم من غير نكير. والقرآن العظيم تولى الله تعالى حفظه من التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) وقال فيه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢). وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦: ١٧)(٣).

الثانية: ما روي عن ابن عباس أيضًا أنه قرأ "أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا". فقيل له: إنها في المصحف ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فقال: أظن

(١) الإحكام في أصول القرآن ١/ ٤٢٤.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٩ نقلًا عن البيهقي.

(٣) أضواء البيان للشنقيطي ٥/ ٤٩٣.

الكاتب كتبها وهو ناعس.[١]

ونجيب على هذه الشبهة بما سبق أيضًا، ونضيف هنا.

قال الزمخشري: وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتًا بين دفتي الإمام، وكان متقلبًا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله، المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء؟ وهذه والله فرية ما فيها مرية.[٢]

قال أبو بكر الأنباري: وهو باطل عن ابن عباس؛ لأن مجاهدًا وسعيد بن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس[٣].

الثالثة: يقولون: ومن وجوه الطعن أيضًا ما روي عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣). إنما هي: ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وكان يقرأ: ووصى ربك. ويقول: أمر ربك. إنهما واوان التصقت إحداهما بالصاد، وروي عنه أنه قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم. ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. فلصقت إحدى الواوين بالصاد فقرأ الناس: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد[٤].

والجواب:

أولًا: الأثر لا يصح عن ابن عباس.

ثانيًا: أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع وهو قراءة وقضى؛ ومعارض

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٧٦)، قال ابن حجر: إسناده صحيح. فتح الباري (٨/ ٣٧٣).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥١.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٣٢٠.

(٤) **ضعيف جدًا**. أخرجه أحمد بن منيع في مسنده كما في المطالب العالية من طريق الفرات بن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس به. فيه الفرات بن السائب: منكر الحديث. التاريخ الكبير ٧/ ١٢٩، الجرح والتعديل ٧/ ٨٠.

القاطع ساقط.

ثالثًا: أن ابن عباس نفسه وقد استفاض عنه أنه قرأ: وقضى، وذلك دليل على أن ما نسب إليه في تلك الروايات من الدسائس الرخيصة التي لفقها أعداء الإسلام.

قال القرطبي: ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك.

وقال: لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣) معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ١٢) يعني خلقهن.

والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ (طه: ٧٢) يعني: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١) أي: فرغ منه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٠٠).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ (الجمعة: ١٠).

والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧)، والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ (القصص: ٤٤). فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك؛ لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء[1].

قال أبو حيان: والمتواتر هو ﴿وَقَضَىٰ﴾ وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر. وقال ابن مسعود وأصحابه: بمعنى وصى[2].

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢.

إذن رواية وقضى هي التي انعقد الإجماع عليها من ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد ولا يرفع عقيرته بها إلا عدو من أعداء الإسلام[1].

الرابعة: يقولون: إن ابن عباس روي عنه أيضًا أنه كان يقرأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ (الأنبياء: ٤٨) ويقول خذوا هذه الواو واجعلوها في ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾. وروي عنه أيضًا أنه قال: انزعوا هذه الواو واجعلوها في ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[2].

والجواب:

أولًا: أنها معارضة للقراءة المتواترة المجمع عليها فهي ساقطة.

ثانيًا: أن بلاغة القرآن قاضية بوجود الواو لا بحذفها؛ لأن ابن عباس نفسه فسر الفرقان في الآية المذكورة بالنصر، وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة. فالمقام للواو لأجل هذا التغاير[3].

الخامسة: يقولون: روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أنه قال: هي خطأ من الكاتب. هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة. إنما هي: مثل نور المؤمن كمشكاة[4].

والجواب عن ذلك:

أولًا: بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر فهي ساقطة.

ثانيًا: أنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ: مثل نور المؤمن، فكيف يقرأ بما يعتقد أنه خطأ ويترك ما يعتقد أنه صواب؟ ألا إنها كذبة مفضوحة، ولو أنهم

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٧٦.

(٣) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٧٦.

نسبوها لأبي بن كعب لكان الأمر أهون؛ لأنه روي في الشواذ أن أبي بن كعب قرأ: مثل نور المؤمن. والذي ينبغي أن تحمل عليه هذه الروايات أن أبيًا ﷺ. أراد تفسير الضمير في القراءة المعروفة المتواترة وهي مثل نوره. فهي روايات عنه في التفسير لا في القراءة بدليل أنه كان يقرأ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[1].

المبحث الثاني: ما جاء عن تخطئة عائشة رضي الله عنها للكُتّاب.

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣)، وعن قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ١٦٢) وعن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (المائدة: ٦٩)، فقالت: "يا ابن أختي، هذا عمل الكُتّاب أخطأوا في الكتاب"[2].

وروي عن مَوْلَى بَنِي جُمَحٍ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَقِيفَةِ زَمْزَمَ لَيْسَ فِي الْمَسْجِدِ ظِلٌّ غَيْرَهَا، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِأَبِي عَاصِمٍ يَعْنِي: عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَوْ تُلِمَّ بِنَا؟ فَقَالَ: أَخْشَى أَنْ أُمِلَّكِ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتَ تَفْعَلُ، قَالَ: جِئْتُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله ﷻ؛ كَيْفَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا؟ فَقَالَتْ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ (المؤمنون: ٦٠) أَوْ (الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا) فَقَالَتْ: أَيَّتُهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَإِحْدَاهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا أَوْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، قَالَتْ: أَيَّتُهُمَا. قُلْتُ: الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا. قَالَتْ أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَذَلِكَ كَانَ يَقْرَؤُهَا، وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، أَوْ قَالَتْ: أَشْهَدُ لَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا وَلَكِنَّ الْهِجَاءَ حَرْفٌ[3].

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن(٤٩٦)، وسعيد بن منصور في سننه ٤/ ١٥٠٧، وابن أبي داود في المصاحف (٩١) من طريق أبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: سألت عائشة فذكره. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٩٥، ١٤٤، والبخاري في التاريخ الكبير٨/ ٢٨، وابن ابي حاتم في الجرح والتعديل

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن عروة لم يسأل عائشة فيه عن حروف الرسم التي تزاد فيها لمعنى وتنقص منها لآخر تأكيداً للبيان وطلبا للخفّة، وإنما سألها فيه عن حروف من القراءة المختلفة الألفاظ المحتملة الوجوه على اختلاف اللغات التي أذن الله ﷻ لنبيّه ﷺ ولأُمّته في القراءة بها، واللزوم على ما شاءت منها؛ تيسيرا لها وتوسعة عليها. وما هذا سبيله وتلك حاله فعن اللحن والخطأ والوهم والزلل بمعزل؛ لفشّوه في اللغة ووضوحه في قياس العربية، وإذا كان الأمر في ذلك كذلك فليس ما قصدته فيه بداخل في معنى المرسوم، ولا هو من سببه في شيء، وإنما سمّى عروة ذلك لحنا وأطلقت عائشة على مرسومه كذلك الخطأ على جهة الاتّساع في الأخبار وطريق المجاز في العبارة؛ إذ كان ذلك مخالفا لمذهبهما وخارجا عن اختيارهما، وكان الأوجه والأولى عندهما، والأكثر والأفشى لديهما لا على وجه الحقيقية والتحصيل، فالقطع لما بيّناه قبل من جواز ذلك وفشوه في اللغة واستعمال مثله في قياس العربية مع انعقاد الإجماع على تلاوته كذلك دون ما ذهبا إليه إلا ما كان من

٦/ ٣٦٦، من طريق صخر بن جويرية، عن إسماعيل المكي، عن أبي خلف مولى بني جمح. باللفظ المذكور.
وفيه أبو خلف المكي مولى بني جمح لا يعرف. كما قال ابن حجر في تعجيل المنفعة(١٢٦٥).
وأخرجه ابن راهويه في مسنده (١٦٤٤)والحاكم في الكنى كما في تعجيل المنفعة ١/ ٥٣٩، والطبري في تفسيره ١٨/ ٣٣ من طريق طلحة بن عمرو المكي، عن أبي خلف قال: دخلت مع عبيد بن عمير على عائشة، فسألها عبيد، كيف نقرأ هذا الحرف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؟ فقالت: (يَأْتُونَ مَا أَتَوْا). وكأنها تأولت في ذلك: والذين يفعلون ما يفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله. وفيه طلحة بن عمرو المكي: متروك.
وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٣٥ من طريق يحيى بن راشد، عن خالد الحذاء، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؟ قالت: أيهما أحب إليك؟ قلت: أحدهما أحب إلي من حمر النعم. قالت: أيهما؟ قلت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ قالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها.
وأخرجه من نفس الطريق أنه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؟ قالت: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقرأها يؤتون.
ومدار هذا الطريق على يحيى بن راشد وهو ضعيف.

شذوذ أبي عمرو بن العلاء في " إن هذين " خاصّة هو الذي يُحمل عليه هذا الخبر ويتأوّل فيه دون أن يقطع به. على أن أم المؤمنين رضي الله عنها مع عظيم محلّها، وجليل قدرها، واتّساع علمها ومعرفتها بلغة قومها لَحّنت الصحابة، وخطأت الكتبة؛ وموضعهم من الفصاحة والعلم باللغة موضعهم الذي لا يجهل ولا ينكر، هذا مالا يسوغ ولا يجوز[١].

الوجه الثاني: ولو كانت ترى ذلك لِمَ لَم تنكره وتأمر بتغييره ولكن سكتت على هذا اللحن حتى جاء ابن أختها وهو من التابعين، فهذا مستبعد جدًا.

الوجه الثالث: اتفاق مصحفنا ومصحف أبيٍّ في ذلك، ما يدل على أنّ الذي في مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ، مع أن ذلك لو كان خطأً من جهة الخطِّ، لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يُعلِّمون من علَّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم، ولقَّنوه الأمة تعليمًا على وجه الصواب. وفي نقل المسلمين جميعًا ذلك قراءةً على ما هو به في الخط مرسومًا، أدلُّ الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع في ذلك للكاتب.[٢]

الوجه الرابع: وقد تأوّل بعض علمائنا قول أمّ المؤمنين أخطأوا في الكتاب، أي: أخطئوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز؛ لأن ما لا يجوز مردود بإجماع وإن طالت مدّة وقوعه وعظم قدر موقعه، وتأوّل اللحن أنه القراءة واللغة كقول عمر رضي الله عنه: أبيٌّ أقرؤنا وإنا لندع بعض لحنه. أي قراءته، فهذا بين وبالله التوفيق.[٣]

وهذا غير مستبعد فقد ثبت أن كبار الصحابة خطَّأ بعضهم بعضا؛ لعدم علمهم ببعض الأحرف التي أنزل عليها القرآن.

---

(١) المقنع في رسم المصاحف صـ ١٣٢.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٣٩٣.

(٣) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١٣٢.

الوجه الخامس: أن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحًا فإنها مخالفة للمتواتر القاطع، ومعارض القاطع ساقط مردود فلا يلتفت إليها ولا يعمل بها، ثم إنه قد نص في كتاب إتحاف فضلاء البشر على أن لفظ (هذان) قد رسم في المصحف من غير ألف ولا ياء؛ ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها كما شرحنا ذلك سابقا في فوائد رسم المصحف؛ وإذن فلا يعقل أن يقال: أخطأ الكاتب. فإن الكاتب لم يكتب ألفًا ولا ياءً، ولو كان هناك خطأ تعتقده عائشة ما كانت تنسبه للكاتب؛ بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إن) وبالألف لفظا في هذان، ولم ينقل عن عائشة ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بها ذكر، وكيف تنكر هذه القراءة وهي متواترة مجمع عليها؛ بل هي قراءة الأكثر ولها وجه فصيح في العربية لا يخفى على مثل عائشة.

ذلك هو إلزام المثنى الألف في جميع حالاته وجاء منه قول الشاعر العربي:

واها لسلمى ثم واها واها | يا ليت عيناها لنا وفاها

وموضع الخلخال من رجلاها | بثمن يرضى به أباها

إن أباها وأبا أباها | قد بلغا في المجد غايتاها

فبعيد عن عائشة أن تنكر تلك القراءة ولو جاء بها وحدها رسم المصحف[1].

الوجه السادس: أن ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها من تخطئة رسم المصحف في قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ بالياء مردود بما ذكره أبو حيان في البحر إذ يقول ما نصه: وذكر عن عائشة رضي الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف، ولا يصح ذلك عنهما؛ لأنهما عربيان فصيحان، وقطع النعوت مشهور في لسان العرب، وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره.

وقال الزمخشري: لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب يريد كتاب سيبويه، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٢٧١.

في النصب على الاختصاص من الافتنان، وخفي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام، وذب المطاعن عنه، من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة يسدها من بعدهم، وخرقًا يرفوه من يلحقهم.

الوجه السابع: أن قراءة والصابئون ـ بالواو ـ لم ينقل عن عائشة أنها خطأت من يقرأ بها، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو، فلا يعقل أن تكون خطأت من كتب بالواو.

الوجه الثامن: أن كلام عائشة في قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ لا يفيد إنكار هذه القراءة المتواترة المجمع عليها؛ بل قالت للسائل: أيهما أحب إليك ولم تحصر المسموع عن رسول الله فيما قرأت هي به؛ بل قالت: إنه مسموع ومنزل فقط، وهذا لا ينافي أن القراءة الأخرى مسموعة ومنزلة كتلك خصوصًا أنها متواترة عن النبي ﷺ، أما قولها: ولكن الهجاء حُرِّف، فكلمة حُرِّف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة واللغة، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التي رسم بها المصحف لغة ووجه من وجوه الأداء في القرآن الكريم، ولا يصح أن تكون كلمة حُرِّف في حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذي هو الخطأ وإلا كان حديثا معارضا للمتواتر ومعارض القاطع ساقط[1].

الفصل الثالث: شبهات تطعن في سقوط شيء من القرآن.

ويشتمل على هذه الشبهات:

الشبهة الأولى: شبهة قتل القراء.

نص الشبهة:

عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: " بعث إِلَيَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال: إن عمر بن الخطاب أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن نأمر بجمع القرآن. فقال أبو بكر لعمر: كيف أفعل شيئا لم

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢٧١.

يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري بما شرح له صدر عمر، ورأيت الذي رأى. قال زيد بن ثابت: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب لرسول الله ﷺ الوحي فتتبع القرآن. فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ من ذلك، قلت: فكيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك أبو بكر وعمر حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدرهما (صدر أبي بكر وعمر)، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف (يعني: الحجارة) وصدور الرجال فوجدت آخر سورة التوبة(براءة) مع خزيمة بن ثابت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[(١)].

وعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: مَا نَعْلَمُ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَكْثَرَ شَهِيدًا أَعَزَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ وَيَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ سَبْعُونَ وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ سَبْعُونَ. قَالَ وَكَانَ بِئْرُ مَعُونَةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَيَوْمُ الْيَمَامَةِ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ[(٢)].

ففي ذلك دلالة على ضياع كثير من القرآن بسبب قتل القراء.

الرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: حَفِظ القرآن كثير غير هؤلاء الذين قتلوا.

الوجه الثاني: ما روي من أنه لم يعلم ولم يكتب ولم يوجد مع أحد بعدهم، فكل هذا من البلاغات، والبلاغات نوع من أنواع الحديث الضعيف المنقطع فلا حجة فيه والعبرة بالموصول.

الوجه الثالث: على فرض صحة البلاغات فالمراد منه الآيات المنسوخة.

واليك التفصيل

(١) البخاري (٤٦٠٣).

(٢) البخاري (٣٧٧٠).

الوجه الأول: حفظ القرآن كثير غير هؤلاء الذين قتلوا.

لا يسلم لهم؛ لأن نفس ما كان يحفظه الشهداء من القراء كان يحفظه كثيرٌ من الأحياء الذين لم يستشهدوا ولم يموتوا، بدليل قول عمر: وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن. ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم؛ إنما المسألة مسألة خشية وخوف، ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفاظ وكذلك عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وغيرهم، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في الصحف، وعاش منهم من عاش حتى نسخ في المصاحف، وحينئذ فكتابة زيد ما كتبه هي كتابة لكل القرآن لم تفلت منه كلمة ولا حرف وكان القرآن كله مكتوبًا؛ حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معًا دون الاكتفاء بأحدهما، وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدي النبي ﷺ، ويطلبون على ذلك شاهدين كما سلف إيضاحه(١).

الوجه الثاني: ما روي من أنه لم يعلم ولم يكتب ولم يوجد مع أحد بعدهم، فكل هذا من البلاغات، والبلاغات نوع من أنواع الحديث الضعيف المنقطع فلا حجة فيه، والعبرة بالموصول الصحيح.

عن ابن شهاب قال: "بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير، فقتل علماؤه يوم اليمامة، الذين كانوا قد وعوه، فلم يعلم بعدهم ولم يكتب، فلما جمع أبو بكر وعمر وعثمان القرآن ولم يوجد مع أحد بعدهم، وذلك فيما بلغنا، حملهم على أن يتبعوا القرآن فجمعوه في الصحف في خلافة أبي بكر خشية أن يقتل رجال من المسلمين في المواطن معهم كثير من القرآن، فيذهبوا بما معهم من القرآن، ولا يوجد عند أحد بعدهم، فوفق الله عثمان فنسخ تلك الصحف في المصاحف، فبعث بها إلى الأمصار، وبثها في المسلمين"(٢).

قال الثوري: وبلغنا أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقرؤن القرآن، أصيبوا يوم

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٠.

(٢) المصاحف (٦٣).

مسيلمة، فذهبت حروف من القرآن[1].

الوجه الثالث: على فرض صحة البلاغات فالمراد منه الآيات المنسوخة.

يشهد لهذا أننا لم نجد فيما نعلم أحدًا أخرجه غير عبد الرزاق، وقد ساقه في كتاب الحدود، باب الرجم والإحصان، وساق قبله في الباب نفسه حديث آية الرجم، والتي حكم العلماء بأنها منسوخة.

الشبهة الثانية: سورتي الخلع و الحفد.

نص الشبهة:

أن أصل القرآن موجود، ولكنه زيد فيه أو نقص، وتقول دائرة المعارف الإسلامية:

القرآن لم يسجل كله عند نزوله، بل كثير من الوحي المتقدم النزول لم يسجل؛ لأن المسلمين لم يكونوا منتبهين لأهمية ما يتلوه الرسول، فضاع كثير من القرآن.

ويقول جولدتسهير: لا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافًا عقديًا على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في النص القرآني، ويقول نصر أبو زيد: لم ينج القرآن من عمليات المحو والإثبات. [2]

ونص سورتي الخلع والحفد.

سورة الخلع هي: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، ونثني عليك الخير (في رواية: كله) (في رواية: ونشكرك) ولا نكفرك(وفي رواية: ونؤمن بك ونخضع لك)(وفي أخرى: ونتوكل عليك)، ونخلع(في رواية: ونخنع) ونترك من يفجرك، (وفي رواية: من يكفرك).

وسورة الحفد هي: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك(في رواية: ربنا)، ونخاف عذابك(وفي رواية: نخشى

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٣٣٦٤).

(٢) الطعن في القرآن الكريم و الرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري١/ ٤٩.

نقمتك)، إن عذابك، (وفي رواية: الجد) بالكفار(وفي رواية: بالكافرين) ملحق (وفي أخرى: لمن عاديت ملحق). [(١)]

والرد على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذا الدعاء لم يصح مسندًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ.

وفيما يلي تخريج ودراسة لأسانيد هذا الدعاء المأثور في دواوين الإسلام المشهورة، من صحاح وسنن ومسانيد وغيرها. فقد ورد مسندًا من حديث عدة من الصحابة، والتابعين، مرفوعًا وموقوفًا.

أولًا: ذِكرُ ما ورد مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ.

رُوي من حديث علي بن أبى طالب ﷺ، وعبد الله بن مسعود ﷺ، وخالد بن أبى عمران التجيبي مرسلًا ﷺ.

١ـ حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

عن عبد الله بن زرير قال: قال لي عبد الملك بن مروان: ما حملك على حب أبي تراب إلا أنك أعرابي جاف، فقلت: والله لقد قرأت القرآن قبل أن يجتمع أبويك، لقد علمني سورتين علمهما إياه رسول الله ﷺ، ما علمتها أنت ولا أبوك: اللهم إنا نستعينك الحديث. [(٢)]

٢ـ حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

عن عطاء بن السائب قال: كان أبو عبد الرحمن يقرئنا: اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، الحديث. وزعم أبو عبد الرحمن أن ابن مسعود كان يقرئهم إياها، ويزعم أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم إياها. [(٣)]

---

(١) تحفة الوفد بما ورد في سورتي الخلع والحفد ١/ ٢ بحث لأبي يعلى البيضاوي.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني في الدعاء (٧٥٠) من طريق يحيى بن يعلى الأسلمي، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن زرير به. وإسناده ضعيف. فيه ابن لهيعة: ضعيف. ويحيى بن يعلى الأسلمي الكوفي: ضعيف شيعي. التقريب ١/ ٥٩٨. وقال في نتائج الأفكار في أمالي الأذكار ٢/ ١٦٠: هذا حديث غريب.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٨/ ٦٩٧ لمحمد بن نصر المروزي، وفيه عطاء بن السائب، قال الحافظ في التقريب ١/ ٣٩١: صدوق اختلط. انتهى. ولم نقف على سنده حتى ننظر في الراوي عنه هل هو ممن ذكر العلماء أنه أخذ عن عطاء قبل اختلاطه أم بعده.

٣ـ حديث خالد بن أبي عمران التجيبي.

عن خالد بن أبي عمران قال: بينا رسول الله ﷺ يدعو على مضر، إذ جاءه جبريل، فأومأ إليه أن اسكت. فسكت، فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك سبابًا، ولا لعَّانًا، وإنما بعثك رحمة، ولم يبعثك عذابا، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٨)، قال ثم علمه هذا القنوت: اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، ونؤمن بك، ونخضع لك، ونخلع ونترك من يكفرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، واليك نسعى و نحفد"[١].

ثانيًا: ما ورد موقوفًا على الصحابة ﷺ.

١ـ أثر عمر بن الخطاب ﷺ.[٢]

قلت: والأثر عن عبد الله في مصنف ابن أبي شيبة (٦٨٩٣) قال حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن قال علمنا ابن مسعود أن نقول في القنوت يعني في الوتر: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، ونرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق.

وإسناده ضعيف. فيه عطاء بن السائب: اختلط. ومحمد بن فضيل روى عنه بعد الاختلاط. نهاية الاغتباط صـ٢٤٨. ثم إن الأثر موقوفًا على ابن مسعود.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المراسيل ١/ ٨٢، وسحنون المالكي في المدونة١/ ١٠٣، والحازمي في الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار(٦٤)، والبيهقي في سننه الكبرى ٢/ ٢١٠ كلهم من طريق معاوية بن صالح، عن عبد القاهر، عن خالد به.

قلت: وفيه علتان، الأولى: أنه مرسل؛ خالد بن أبي عمران من الخامسة ولم يدرك النبي ﷺ.

والثانية: عبد القاهر بن عبد الله: مجهول كما قال الحافظ في التقريب ١/ ٣٦٠.

وقد أعله البيهقي، والحازمي بالإرسال، قال البيهقي: هذا مرسل. السنن الكبرى ٢/ ٢١٠.

(٢) ورد عنه من ثمانية طرق.

الأول: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر ﷺ " أنه كان يقنت في صلاة الصبح بسورتين، اللهم إنانستعينك. . . واللهم إياك نعبد. . . . " أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار١/ ٢٥٠، وعبد الرزاق في المصنف(٤٩٧٢، ٤٩٧٨)، والطبري في كتابه تهذيب الآثار(١٠١٧)، (١٠١٨)، (١٠١٩)، (١٠٢٠)، (١٠٢١)، (١٠٨١)، (١٠٨٢)، (١٠٨٣)، (١٠٩١)، من طرق عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس به، وإسناده حسن.

٢ـ أثر عثمان بن عفان ﷺ:

وهو مذكور ضمن أثر عمر ﷺ السابق من رواية عثمان بن زياد.

٣ـ أثر علي بن أبي طالب ﷺ.

أن عليًا كان يقنت بهاتين السورتين في الفجر غير أنه يقدم الآخرة ويقول: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، إن عذابك بالكافرين ملحق، اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونثني عليك الخير كله، ونشكرك ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخلع ونترك من يفجرك[1].

الثاني: عن عبيد بن عمير أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٤٩٦٩)، وأخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه (٧٠٢٧و٧٠٣١ و ٢٩٧١٤و ٢٩٧١٩)، ومحمد بن نصر المروزي في صلاة الوتر(٢٩٢) والطحاوي في معاني الآثار١/ ٢٤٩، والبيهقي في سننه الكبرى(٣١٤٣)، وابن جرير في تهذيب الآثار ٢/ ٢٣ وفيه زيادة في أوله، وذكر أنه بلغه أنهما سورتان من القرآن في مصحف ابن مسعود، وأنه يوتر بهما كل ليلة، وذكر أنه يجهر بالقنوت في الصبح، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص ٢/ ٢٤، ٢٥: قال البيهقي هذا عن عمر صحيح موصول.

قال العلامة الألباني رحمه الله في إرواء الغليل (٢/ ١٧٠): هذا إسناد رجاله كلهم رجال الشيخين، ولولا عنعنة ابن جريج لكان حريًا بالصحة. قلت: وقد توبع فهو صحيح.

الثالث: عن عبد الرحمن بن أبزى عنه. أخرجه البيهقى في سننه ٢/ ٢١١، وابن أبى شيبة في المصنف (٧٠٢٨)، والطحاوي في شرح المعاني (١/ ٢٥٠/ رقم ١٤٧٦)، وابن جرير الطبري في تهذيب الآثار (١٠٨٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٩٥) لابن الضريس، كلهم من طريق عبيد بن عمير، قال الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء (٢/ ١٦٥) إسناده صحيح.

الرابع: عن أبي رافع عنه أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ١١٠/ رقم ٤٩٦٨).

وأخرجه أيضًا محمد بن نصر في قيام الليل برقم (٢٩٣)، قال الحافظ في الأمالي(٢/ ١٦١): أخرجه عبد الرزاق بسند حسن.

الخامس: عن عثمان بن زياد عنه أخرجه ابن أبى شيبة في المصنف (٧٠٣٢)، (٢٩٧١٦)

السادس: عن معبد بن سيرين عنه أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (١٠٩٣)، (١٠٩٤).

السابع: عن عبد الله بن شداد عنه أخرجه ابن جرير الطبري في تهذيب الآثار (١٠٩٥).

الثامن: عن محمد بن أبى ليلى. أخرجه محمد بن نصر المروزي عزاه له السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٦٩٦).

(١) روي عنه من طريقين.

٤ـ أثر عبد الله بن مسعود ﷺ:

عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: علمنا ابن مسعود أن نقرأ في القنوت: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك. الحديث.

وفي رواية عبيد بن عمير قال: القنوت قبل الركعة الآخرة من الصبح، وذكر أنه بلغه أنهما سورتان من القرآن في مصحف ابن مسعود، وأنه يوتر بهما كل ليلة. (١)

٥ـ أثر أبي بن كعب ﷺ.

عن ميمون بن مهران قال: في قراءة أبي بن كعب: اللهم إنا نستعينك. . . الحديث.

وعن محمد بن سيرين عنه قال: كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب، والمعوذتين، واللهم إنا نستعينك. الحديث.

وعن محمد بن إسحاق بن يسار، قال: قد قرأت في مصحف أبي بن كعب بالكتاب الأول العتيق: بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد إلى آخرها، بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الفلق إلى آخرها، بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الناس إلى آخرها، بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك. . . . الحديث. (٢)

الأول: عن عبد الرحمن بن سويد الكاهلي عن علي به. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٩٧٨)، وابن أبى شيبة في مصنفه (٧٠٢٩، ٢٩٧١٧)، وابن سعد في طبقاته٦/ ٢٤١.

الثاني: عن عبد الله بن زرير الغافقي. عزاه الحافظ في أمالي الأذكار٢/ ١٦٠لمحمد بن نصر المروزي وانظر حديث علي ﷺ المرفوع المتقدم، فقد اختلف على علي ﷺ في رفعه ووقفه، ورجح الحافظ (ابن حجر) في أماليه الرواية الموقوفة.

(١) روي عنه من طريقين.

الأول: عن أبي عبد الرحمن السلمي، أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه (٦٨٩٣، ٢٩٧٠٨)، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن به. وعطاء: اختلط وروى عنه محمد بن فضيل بعد الاختلاط. وتقد بيانه في المرفوع.

الثاني: عن عبيد بن عمير. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٤٩٦٩) وهو طرف من أثر عمر السابق من رواية عبيد، وأخرجه محمد بن نصر في كتاب الوتر(٢٩٢)وهذا كما ترى بلاغ ولم يذكر من أبلغه.

(٢) له تسعة طرق.

٦، ٧ـ أثر أبي موسى الأشعري ﷺ، و عبد الله بن عباس ﷺ:

تقدما ضمن أثر أبي بن كعب ﷺ من رواية عبد الرحمن بن أبي أبزي.

٨ـ أثر أنس بن مالك ﷺ:

عن أبان بن أبي عياش قال: سألت أنس بن مالك ﷺ عن الكلام في القنوت فقال: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك. الحديث، وفيه: قال أنس: والله إنْ أنزلتا إلا من السماء. [1]

ثالثا: المقطوع على التابعين.

وهو مروي عن جماعة من التابعين، وهم كالتالي:

١ – أثر الحسن البصري، قال: القنوت في الوتر والصبح: اللهم إنا نستعينك. الأثر[2].

أولها: عن ميمون بن مهران عنه. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٩٧٠)، وابن أبى شيبة في المصنف (٧٠٣٠ و ٢٩٧١٨) قال الألباني رحمه الله في الإرواء (٢/ ١٧١): رجال إسناده ثقات، ولكن ابن مهران لم يسمع من أبي، فهو منقطع.

الثاني: عن عروة بن الزبير عنه أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١١٠٠)، قال الشيخ الألباني في صحيح ابن خزيمة: إسناده صحيح.

الثالث: عن سلمة بن كهيل عنه أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الوتر(٢٩٤).

الرابع: عن حماد عنه ذكره السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٦٩٥).

الخامس: عن الشعبي عنه عزاه السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٦٩٧) لمحمد بن نصر المروزي.

السادس: عن محمد بن سيرين أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام عزاه له السيوطي في الإتقان (٨٤٤)

السابع: عن عبد الرحمن بن أبزي أورده السيوطي في الإتقان بسند ابن الضريس (٨٤٩).

الثامن: عن محمد بن إسحاق بن يسار أخرجه محمد بن نصرفي الوتر(٢٩٥).

التاسع: عن عطاء بن أبي رباح أخرجه محمد بن نصر في كتاب الوتر(٢٩٦).

(١) **ضعيف جدًا.** ذكره الإمام عبد الكريم بن محمد الرافعي في تاريخه التدوين في أخبار قزوين (١/ ١٧٤) في ترجمة: محمد بن أحمد أبو سليمان الجاباري القزويني، وقال: أبان بن أبي عياش أبو إسماعيل البصري يروى عن شعبة إساءة القول فيه. اهـ.

ونقله السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٦٩٥)، قلت: وقول أنس ﷺ (والله إن أنزلتا إلا من السماء) يدل على أن الحديث من المرفوع، فإن الصحابي لا يقدم على الجزم إلا إذا كان عنده من النبي ﷺ شيء، ولكن السند ضعيف جدًا، فأبان بن أبى عياش قال الحافظ في التقريب١/ ٨٧: متروك.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف(٤٩٨٢)، وأخرجه محمد بن نصر في الوتر(٢٩٨) ولفظه مختصر.

٢- إبراهيم بن يزيد النخعي، كان يستحب أن يقول في قنوت الوتر بهاتين السورتين الحديث[(١)].

٣- طاووس بن كيسان اليماني. [(٢)]

٤- سعيد بن المسيب قال: (يبدأ في القنوت فيدعو على الكفار، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات، ثم يقرأ السورتين: اللهم إنا نستعينك... واللهم إياك نعبد...). [(٣)]

٥- أمية بن عبد الله بن خالد بن أمية. [(٤)]

٦- محمد بن مسلم بن شهاب الزهري. [(٥)]

٧- سفيان بن سعيد الثوري قال: كانوا يستحبون أن يجعلوا في قنوت الوتر هاتين السورتين: اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، الحديث. [(٦)]

٨- مكحول الشامي. [(٧)]

٩- عبد الملك بن جريج. [(٨)]

وبهذا تبين جليًا أن دعاء القنوت هذا والمعروف بسورتي (الخلع و الحفد) لم يصح

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٧٩٧) عن الثوري، عن الزبير بن عدي، عن إبراهيم، وأخرجه ابن نصر في الوتر مختصرًا (٣٠١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٨٣) قال: وروي عن ابن جريج، ومعمر، عن ابن طاووس، عن أبيه.

(٣) أخرجه محمد بن نصر في الوتر (٢٩٧) عن سعيد بن المسيب.

(٤) أخرجه أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير (٨٦٠) قال: ثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، ثنا أبي، ثنا عيسى بن يونس، حدثني أبي، عن جدي قال: أَمَّنَا أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بخراسان، فقرأ بهاتين السورتين، إنا نستعينك ونستغفرك. وجد يونس هو أبو إسحاق السبيعي، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٥٧ باب فيها نسخ: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال السيوطي في الإتقان (٨٥٠): بسند صحيح.

(٥) أخرجه محمد بن نصر في الوتر (٢٩٩).

(٦) أخرجه ابن نصر في صلاة الوتر (٣٠٩).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٩٨٩).

(٨) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ١١/ ٣٥٦.

مسندًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ من طريق صحيح ولا حسن خالية من علة أو جرح، وإنما صح موقوفًا عن بعض الصحابة الكرام وبمثل هذه الموقوفات -وإن تعددت- لا يمكن إثبات قرآنية هذا الدعاء.

الوجه الثاني: أنه مِمَّا يدل على ضعف هذا الخبر عن أُبَيٍّ، ما عُلِم من أن عثمان تشدد في قبض المصاحف المخالفة لمصحفه وتحريقها، والعادة توجب أن مصحف أُبَيٍّ كان من أول ما يُقبض، وأن تكون سرعة عثمان إلى مطالبته به أشدَّ من سرعته إلى مطالبة غيره بِمصحفه؛ لأنه كان مِمَّن شارك في ذلك الجمع. وقد صحت الرواية بِما يدل على أن عثمان قد قبض مصحف أُبَيٍّ، فعن محمد بن أُبَيٍّ أن ناسًا من أهل العراق قدموا إليه، فقالوا: إنَّما تحمَّلْنا إليك من العراق، فأخْرِجْ لنا مصحفَ أُبَيٍّ. قال محمدٌ: قد قبضَه عثمان. قالوا: سبحان الله! أخْرِجْه لنا. قال: قد قبضَه عثمان[1].

الوجه الثالث: عدم تواترها، فكل رواية أحادية لا تقبل في إثبات شيء من القرآن. [2]

الوجه الرابع: أن الصحابة ﷺ كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر، وردوا كل ما لم يثبت تواتره؛ لأنه غير قطعي، ويأبى عليهم دينهم وعقولهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي؛ بل شرط أن يتواتر عند مجموع الأمة، كما هو حال ما بين دفتي المصحف الكريم، كما نص على ذلك العلماء، والتواتر كما عرفوه هو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه، وهذا مما لم يتوفر في نقل هذا الدعاء المأثور.

وقال السيوطي: ولا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترًا في أصله، وأجزائه، وأما محل وضعه وترتيبه فكذلك عند محققي أهل السنة، للقطع بأن العادة تقضي بالتواتر في تفاصيل مثله؛ لأن هذا المعجز العظيم الذي هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم مما تتوفر الدواعي على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحادًا ولم يتواتر يقطع بأنه

---

(١) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان المصاحف (٣٢-٣٣)، انظر: جمع القران. شرعي أبو زيد(١٨١).

(٢) المدخل إلى دراسة القرآن الكريم(٢٦٠).

ليس من القرآن قطعًا.

وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله، وليس بشرط في محل وضعه وترتيبه؛ بل يكثر فيها نقل الآحاد. قيل: وهو الذي يقتضيه صنع الشافعي في إثبات البسملة من كل سورة. ورُدَّ هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضي التواتر في الجميع، ولأنه لو لم يُشترط لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر، وثبوت كثير مما ليس بقرآن، أما الأول: فلأنا لو لم نشترط التواتر في المحل جاز أن لا يتواتر كثير من المكررات الواقعة في القرآن، مثل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣) وأما الثاني: فلأنه إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل جاز إثبات ذلك البعض في الموضع بنقل الآحاد[١].

وقال أبو بكر في الانتصار: ذهب قوم من الفقهاء والمتكلمين إلى إثبات قرآنٍ حكما لا علما بخبر الواحد دون الاستفاضة، وكره ذلك أهل الحق، وامتنعوا منه. وقال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءة، وأوجه، وأحرف، إذا كانت تلك الأوجه والأحرف صوابا في العربية، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ بها، وأبى ذلك أهل الحق، وأنكروه، وخطئوا من قال به.

قال صاحب الانتصار ما نصه: إن كلام القنوت المروي أن أبي بن كعب أثبته في مصحفه لم تقم الحجة بأنه قرآن منزل؛ بل هو ضرب من الدعاء، وأنه لو كان قرآنا لنقل إلينا نقل القرآن وحصل العلم بصحته، ثم قال: ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآنا منزلا ثم نسخ وأبيح الدعاء به، وخلط بما ليس بقرآن، ولم يصح ذلك عنه؛ إنما روي عنه أنه أثبته في مصحفه، وقد أثبت في مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل، وهذا الدعاء هو القنوت الذي أخذ به السادة الحنفية. وبعضهم ذكر أن أُبيًّا رضي الله عنه كتبه في مصحفه وسماه سورة الخلع والحفد؛ لورود مادة هاتين الكلمتين فيه، وقد عرفت توجيه ذلك[٢].

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/ ٢٠٨- ٢٠٩.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٨، المدخل على دراسة القرآن الكريم(٢٦٠).

الوجه الخامس: كل رواية أحادية تخالف المتواتر من القرآن لا تقبل، ويضرب بها عرض الحائط، وعلى فرض التسليم بأن أُبيًّا كان يرى أن القنوت من القرآن، وأنه استمر على ذلك الرأي، فليس ذلك بِمطعنٍ في صحة نقل القرآن، فإنه على هذا الفرض كان منفردًا بذلك الرأي، ويدل على ذلك عدم إثباته في مصحف أبي بكر، ولا في مصاحف عثمان، إذ كانت كتابة القرآن في عهد أبي بكر في غاية الدقة والالتزام، بحيث لم تقبل قراءة إلا بشاهدين، فلما كانت قراءته فردية لم تقبلْ، كما رُدَّت قراءة عمر في آية الرجم. فلو سلَّمنا أن أُبيًّا ظنَّ دعاء القنوت قرآنًا، فأثبته في مصحفه، فإن ذلك لا يطعن في تواتر القرآن؛ لأنه انفرد به، وقد حصل الإجماع على ما بين الدفتين وتواتره، فلا يضر بعد ذلك مخالفة من خالف[1].

الوجه السادس: إنهما قد نسختا.

قال الزركشي: النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب: الأول: ما نسخ في تلاوته وبقي حكمه فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول، ذكر الإمام المحدث أبو الحسين أحمد بن جعفر المنادي في كتابه الناسخ والمنسوخ مما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه: سورتا القنوت في الوتر. قال: ولا خلاف بين الماضين والغابرين أنهما مكتوبتان في المصاحف المنسوبة إلى أبي بن كعب، وأنه ذكر عن النبي ﷺ أنه أقرأه إياهما، وتسمى سورتي الخلع والحفد. وهنا سؤال وهو أن يقال: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم؟ وهلا أبقيت التلاوة؛ ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون فقال: إنما كان كذلك؛ ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي[2].

الوجه السابع.

قال الزرقاني: والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم في مصحف أو مصاحف خاصة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن مما يكون تأويلًا لبعض ما

---

(١) انظر جمع القران شرعي أبو زيد ١٨٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٧.

غمض عليهم من معاني القرآن، أو مما يكون دعاء يجري مجرى أدعية القرآن في أنه يصح الإتيان به في الصلاة عند القنوت أو نحو ذلك، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن ولكن ندرة أدوات الكتابة وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم هون عليهم ذلك؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره؛ فظن بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن مع أن الحقيقة ليست كذلك؛ إنما هي ما علمت. أضف إلى ذلك أن النبي أتى عليه حين من الدهر نهى عن كتابة غير القرآن؛ إذ يقول فيما يرويه مسلم: لا تكتبوا عني ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه. وذلك كله مخافة اللبس والخلط والاشتباه في القرآن الكريم[1].

الوجه الثامن: نقل عن أبي بن كعب قراءته التي رواها نافع وابن كثير وأبو عمرو، وغيرهم، وليس فيها سورتا الحفد والخلع، فلو سلَّمنا أن أُبيًّا كان يعتقد أن القنوت من القرآن، فقد ثبت أنه رجع إلى حرف الجماعة، واتفق معهم، والدليل على ذلك قراءته التي رواها نافع وابن كثير وأبو عمرو، وغيرهم، وليس فيها سورتا الحفد والخلع -كما هو معلوم، كما أن مصحفه كان موافقًا لمصحف الجماعة. قال أبو الحسن الأشعري: قد رأيت أنا مصحف أنسٍ بالبصرة، عند قوم من ولدِه، فوجدتُه مساويًا لمصحف الجماعة، وكان ولد أنسٍ يروي أنه خطُّ أنسٍ وإملاء أُبَيٍّ[2].

الوجه التاسع: **قصور نظمه عن القرآن.**

يعلم أهل البلاغة والفصاحة، قصور نظمه عن القرآن فلعل أُبيًّا ﷺ إن كان قال ذلك أو كتبه في مصحفه أو رقاع كان يكتب فيها القرآن؛ إنما قاله وفعله سهوا، ثم أثبته واستدرك[3].

الوجه العاشر: بالنظر في الروايات الواردة عن الصحابة والتابعين نرى أن بينها اختلافًا في بعض الألفاظ[1]، كما هو شأن رواة الأحاديث والآثار في استجازة الرواية بالمعنى، ولو كان

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٨.

(٢) انظر جمع القران شرعي أبو زيد (١٨٥).

(٣) تحفة الوفد بما ورد في سورتي الخلع والحفد صـ٣٠، وانظر: الانتصار للباقلاني ١/ ٢٧٣.

هذا قرآنا لاتفقت ألفاظه وحروفه في جميع الروايات، وحملة الأخبار أخبر بها من غيرهم، وأيضا تبويب العلماء اللذين خرجوا هذا الحديث قاطبة، منهم من وضعه في باب القنوت في الفجر أو في الوتر؛ كما هو في معظم الروايات السابقة، ومنهم من وضعه في باب المنسوخ من القرآن كما فعل الحازمي والزركشي والسيوطي وغيرهم؛ مما يدل على فهم هؤلاء العلماء ومعرفتهم لرتبة هذا الدعاء وهل هو من نصوص الكتاب أو السنة أم لا؟ ، وأما تسميتها بالسورتين فهذا باعتبار ما كان أي أنهما كانتا سورتين ثم نسختا.

الشبهة الثالثة: آية الرجم.

نص الشبهة: يقولون بعدم حفظ القرآن الكريم من خلال ما حدث في جمع القرآن، والدليل على ذلك هو سقوط آية الرجم (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، فقد كانت موجودة، ويقرؤها الصحابة في سورة الأحزاب. فأين هي الآن؟! وهي تخالف في نصها الحكم الثابت في أن الرجم على الإحصان والآية رتبته على الشيخوخة. ثم إن عمرﷺ أراد أن يكتبها كآية في المصحف لولا خشية الناس، فهذا الذي منعه من كتابتها.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن القرآن محفوظ بحفظ الله ﷻ له دون سائر الكتب.

الوجه الثاني: آية الرجم مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

الوجه الثالث: بيان معنى قوله: (الشيخ والشيخة) وأن هذا لا ينافي الحكم الثابت بالإحصان، وبيان الحكمة من هذا اللفظ.

الوجه الرابع: بيان معنى قول عمرﷺ: لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ الله لَكَتَبْتُهَا.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن القرآن محفوظ بحفظ الله ﷻ له دون سائر الكتب[2].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر: ٩)

---

(١) راجع على سبيل المثال كلام الحافظ ابن حجر على تخريج أثر عمر من طريق عبيد بن عمير. تلخيص الحبير ٢/ ٢٥.

(٢) راجع شبهة حول حديث الداجن في هذا الموسوعة ففيها تفصيل لمعنى الحفظ.

قال صديق حسن خان: ثم أنكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم المذكور، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون وهو القرآن، واعتقدوا أنه مختلق من عندك، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك، فالقرآن محفوظ من هذه الأشياء كلها، لا يقدر واحد من جميع الخلق من الإنس والجن أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفًا واحدًا أو كلمة واحدة.

وهذا مختص بالكتاب العزيز، بخلاف سائر الكتب المنزلة، فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء، ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونًا على الأبد، محروسًا من الزيادة والنقصان وغيرهما، وفيه دليل على أنه مُنزّل من عنده آية؛ إذ لو كان من البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان كما يتطرق إلى كل كلام سواه، وقيل: المعنى نزله محفوظًا من الشياطين، وقيل: حفظه بأن جعله معجزة باقية إلى آخر الدهر، وقيل: حفظه من المعارضة، فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارض ولو بأقصر آية.

وقيل: أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه، فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه إلى آخر الدهر؛ لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده، فلم يقدروا على ذلك بحمد الله، ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب إفساده وإبطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير، وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن.

وعن عياض عن النبي ﷺ عن ربه تعالى: وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ[1] [1].

---

(١) مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا. . . أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ.

قال النووي: أَمَّا قَوْله تَعَالَى: (لَا يَغْسِلهُ الْمَاء) فَمَعْنَاهُ: مَحْفُوظ فِي الصُّدُور، لَا يَتَطَرَّق إِلَيْهِ الذَّهَاب، بَلْ يَبْقَى عَلَى مَرّ الْأَزْمَان. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: (تَقْرَأهُ نَائِمًا وَيَقْظَان) فَقَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ يَكُون مَحْفُوظًا لَك فِي حَالَتَيْ النَّوْم وَالْيَقَظَة، وَقِيلَ: تَقْرَأهُ فِي يُسْر وَسُهُولَة. شرح النووي٩/ ٢١٧.

فإن الله سبحانه لم يحفظ كتابًا من الكتب كذلك؛ بل استحفظها ﷻ الربانيين والأحبار فوقع فيها ما وقع، وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظًا أولًا وآخرًا، فقد أنزل الله ﷻ القرآن على قلب النبي ﷺ، وتكفل الله بجمعه في قلب النبي ﷺ وعدم نسيانه إياه، وأرشده إلى عدم الاستعجال في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة١٩ : ١٦).

قال ابن كثير: هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[٢].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أَخْذَهُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ الله[٣].

وتكفل الله بعدم نسيانه إياه، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى٦: ٧)، والمعنى: سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه إلا ما شاء الله، ومعنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيان، ومعنى الكلام: فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه وتذكره، وهذا ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته، وقيل: النسيان في هذا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٧/ ١٤٨: ١٤٩.

(٢) تفسير ابن كثير١٤/ ١٩٦.

(٣) البخاري(٤٩٢٩)، مسلم(٤٤٨) واللفظ له.

الموضع الترك، والمعنى: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه.

قال الطبري: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن ذلك أظهر معانيه[١].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ للنبي ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ الله فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقُوهُ. فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ. فَحَفَرُوا لَهُ، وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ[٢].

الوجه الثاني: آية الرجم مما نُسخ تلاوته وبقي حكمه.

أولًا: إثباتها آية قبل النسخ.

(والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم)[٣].

---

(١) تفسير الطبري١٥/ ١٥٤، تفسير القرطبي٢٠/ ٢٢.

(٢) البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١).

(٣) جاءت عن غير واحد من الصحابة:

أ- عمر بن الخطاب.

أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه٥/ ٢٣٩، وأخرجه البخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١) ولم يسق لفظه، وابن ماجه(٢٥٥٣)، وأخرجه النسائي في الكبرى(٧١٥٦)، وأبو عوانة في مستخرجه(٦٠٥٩)، وابن الجارود في المنتقى (٨١٢)، كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن عمر به، غير أن البخاري لم يذكر هذه اللفظة، ولعله حذفها عمدًا كما قال الحافظ في الفتح.

وقد خالف سفيان في هذا الحديث جماعة ولم يذكروا هذه اللفظة كآية، منهم:

١-**معمر بن راشد**: أخرجه البخاري(٧٣٢٣)، وعبد الرزاق في مصنفه(١٣٣٢٩)، والحميدي في مسنده (٢٥).

٢- **يونس**: أخرجه أبو عوانة في مستخرجه(٥٠٥٨)، مسلم(١٦٩١)، البيهقي٨/ ٢١١.
٣- **مالك بن أنس**: أخرجه الشافعي في الأم٥/ ١٥٤، مسند أحمد١/ ٤٠، الدارمي في سننه (٢٣٢٢)، النسائي في الكبرى(٧١٥٧)، ابن عبد البر في التمهيد٢٣/ ٩٥، الطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ٢.
٤- **صالح بن كيسان**: البخاري(٦٨٣٠)، أبو عوانة في مستخرجه(٥٠٦١)، الطحاوي في مشكل الآثار٣/ ٣.
٥- **عبيد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم**: النسائي في الكبرى(٧١٥٩).
٦- **هشيم**: أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٩١)، أبو داود(٤٤١٨).
٧- **سعد بن إبراهيم**: أخرجه النسائي في الكبرى(٧١٥٣).
وغيرهم من الحفاظ، فلم يذكروا نص الآية، وهذا مما جعل النسائي يقول: لا أعلم أن أحدًا ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة فارجموهما البتة غير سفيان، وينبغي أنه وهم والله أعلم. (سنن النسائي٤/ ٢٧٣).
قلنا: وقد جاء هذا الحديث عن عمر من رواية سعيد بن المسيب عنه بهذه الزيادة.
أخرجها مالك في الموطأ باب ما جاء في الرجم، وأحمد في مسنده١/ ٤٣، وابن سعد في الطبقات الكبرى٣/ ٣٣٤، من طريق يزيد بن هارون، وأخرجه أحمد ١/ ٣٦ من طريق يحيى القطان، كلهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن ابن المسيب به.
وهذا إسناد صحيح على خلاف في سماع سعيد من عمر، فهو شاهد للزيادة التي تفرد بها ابن عيينة، كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة٦/ ٩٧٤، وهذه الزيادة لها شواهد أخرى غير ذلك منها:
ب- عن زيد بن ثابت:
أخرجه الدارمي في سننه(٢٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (٧١٤٥)، وأحمد في مسنده ٥/ ١٨٣، وابن قانع في معجمه ١/ ٢٢٩، والحاكم في مستدركه٤/ ٣٦٠، والبيهقي في سننه ٨/ ٢١١، كلهم من طرق عن شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت. وإسناده صحيح.
ج- عن أبيّ بن كعب:
أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(١٣٣٦٣)، وأحمد بن منيع كما في إتحاف الخيرة(٧٧٩١)، والطبراني في الأوسط(٤٣٥٢)، والنسائي في الكبرى(٧١٥٠)، والحاكم ٤/ ٣٥٩، ابن حبان في صحيحه(٤٤٢٨)، والبيهقي في سننه ٨/ ٢١١، والطيالسي في مسنده (٥٤٠)، وعبد الله في زوائده على المسند٥/ ١٣٢، كلهم من طرق عن عاصم بن بهدلة. وأخرجه أيضًا من طريق يزيد بن أبي زياد، كلاهما (عاصم، يزيد) عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرؤن سورة الأحزاب؟ قال: قلت: إما ثلاث وسبعين، وإما أربعًا وسبعين، قال: أقط؟ إن كانت لتقارب سورة البقرة، أو لهي أطول منها، وإن كانت فيها آية الرجم، قال: قلت: أبا المنذر! وما آية الرجم؟ قال: " إذا زنيا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله، والله عزيز حكيم ". وإسناده حسن.

ثانيًا: إثبات أنها مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

النسخ الواقع في القرآن يتنوع إلى أنوع ثلاثة: نسخ التلاوة والحكم معا، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم. وآية الرجم مما نسخ تلاوته وبقي حكمه، ولذا نجد أن معظم من تكلم في الناسخ والمنسوخ يذكر آية الرجم في هذا الباب[١].

قال البيهقي: إن آية الرجم حكمها ثابت وتلاوتها منسوخة وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا[٢].

قال الشنقيطي: فآية الرجم المقصود منها إثبات حكمها، لا التعبد بها، ولا تلاوتها، فأنزلت وقرأها الناس، وفهموا منها حكم الرجم، فلما تقرر ذلك في نفوسهم نسخ الله تلاوتها، والتعبد بها، وأبقى حكمها الذي هو المقصود[٣].

الوجه الثالث: بيان معنى قوله: (الشيخ والشيخة) وأن هذا لا ينافي الحكم الثابت بالإحصان، وبيان الحكمة من هذا اللفظ.

د- من حديث العجماء خالة أبي أمامة:

أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن(١٩١)، والنسائي في الكبرى(٧١٤٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٣٤٤)، من طريق الليث، عن خالد بن يزيد. والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٩، ، والطبراني في الكبير٢٥/ ١٨٥ من طريق عبد الله بن وهب، عن الليث بن سعد. كلاهما (خالد، الليث) عن سعيد بن أبي هلال، عن مروان بن عثمان، عن أبي أمامة، عن خالته (العجماء) قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺآية الرجم: " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة".

وإسناده ضعيف. فيه مروان بن عثمان وهو ضعيف (التقريب٢/ ٥٧٧).

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي (١١٠)، الناسخ والمنسوخ للنحاس ١/ ٤٣٤، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن للكرمي ١/ ٢٥، الناسخ والمنسوخ لابن سلامة١/ ٢٢، الفقيه والمتفقه(١/ ٢٤٥: ٢٤٨)، روضة الناظر (١/ ٢٣٠)، شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٨٥)، البرهان في أصول الفقه(١/ ٢٥٦)، التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٧٥: ٢٧٧)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٥٣: ٥٥٨)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٢٨)ومابعدها، البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٥: ٤٠)، فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٥٣ معالم أصول الفقه(٢٥٨)، مناهل العرفان (٢/ ١٧٧: ١٧٩).

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٨/ ٢١١.

(٣) أضواء البيان٦/ ١٢.

قوله: (الشيخ والشيخة) عام أريد به الخاص، وهو المحصن من الشيوخ، وإلى هذا أشار جماعة من السلف.

قال الإمام مالك: قوله: (الشيخ والشيخة) يعني: الثيب والثيبة. [(١)]

قال ابن حزم: معناه المحصن والمحصنة. [(٢)]

ولذا قال ابن حجر: السَّبَب فِي نَسْخ تِلَاوَتهَا لِكَوْنِ الْعَمَل عَلَى غَيْر الظَّاهِر مِنْ عُمُومهَا[(٣)].

قال ابن الحاجب في أماليه -وقد سئل: ما الفائدة في ذكر الشيخ والشيخة؟ وهلا قيل المحصن والمحصنة؟

هذا من البديع في باب المبالغة أن يعبر عن الجنس في باب الذم بالأنقص الأخس، وفي باب المدح بالأكثر والأعلى. فيقال: لعن الله السارق يسرق ربع دينار فيقطع يده. والمراد يسرق ربع دينار فصاعدا إلى أعلى ما يسرق، وقد يبالغ فيذكر ما لا يقطع به تقليلا كما في الحديث "**لَعَنَ الله السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، و يَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**"[(٤)].

وقد علم أنه لا يقطع بالبيضة. [(٥)]

الوجه الرابع: بيان معنى قول عمر ﷺ لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَكَتَبْتُهَا.

١- هذه الزيادة كحاشية توضيحية.

قال الماوردي: وَلَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عَمَرُ فِي الْقُرْآنِ لَكَتَبْتُهَا فِي حَاشِيَةِ الْمُصْحَفِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْمَتْلُوِّ لَكَتَبْتُهَا مَعَ الْمَرْسُومِ الْمَتْلُوِّ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِكتابَتِهَا فِي الْحَاشِيَةِ، لِئَلَّا يَنْسَاهَا النَّاسُ، ثُمَّ لَمْ يَفْعَلْ لِئَلَّا تَصِيرَ مَتْلُوَّة[(١)].

---

(١) مالك كتاب الحدود باب ما جاء في الرجم.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ١/ ٩.

(٣) فتح الباري ١٢/ ١٤٨.

(٤) البخاري (٦٧٨٣) عن أبى هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ.

(٥) شرح سنن ابن ماجه ١/ ١٨٤ للسيوطي وآخرين.

ويؤيد ذلك أنه قال: (ولولا أني أكره أن أزيد في القرآن لكتبت في آخر ورقة أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجم أبو بكر وأنا رجمت)(٢).

٢- أَنَّ مُرَادَهُ كَانَ إِشَاعَتَهُ وَإِظْهَارَهُ لِيَسْتَفِيضَ نَقْلُهُ لَا أَنَّهُ مِنْ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ سَيَجِيءُ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: سَيَجِيءُ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِالرَّجْمِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إلَّا بِطَرِيقِ الْوَحْيِ. (٣)

ولذا قال عمر ﷺ: فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله. (٤)

الشبهة الرابعة: آيتي التوبة والأحزاب.

نص الشبهة:

يقولون بأن جمع زيد للقرآن كان ناقصًا ولم يكن تامًا، والدليل على ذلك وجود آيات لم تكن إلا مع خزيمة بن ثابت أتى بآخر سورة براءة في عهد أبي بكر الصديق، وأتى بآية في سورة الأحزاب في عهد عثمان، وكيف كانت الآيات مفقودة حتى كان عهد عثمان والكاتب واحد؟ وكيف يكون صحابيًا واحدًا عنده الآية في الموضعين، وكيف يأخذ بقوله، وهذا يدل على أخذهم القرآن بخبر الواحد، وهل كانت الآية مع خزيمة أو مع الحارث بن خزيمة، وكيف تكون آية الأحزاب مفقودة منذ جمع أبي بكر؟.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الذي وُجد معه آخر التوبة بخلاف الذي وُجد معه آية الأحزاب.

---

(١) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١١/ ٣٦٣.

(٢) الحلية لأبي نعيم ٢/ ١٧٤ من طريق عبد الوهاب بن عطاء، قال: ثنا داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب به.

(٣) الفصول في الأصول للجصاص ٢/ ٢٥٨.

(٤) البخاري (٦٨٢٩)، مسلم (١٦٩١).

الوجه الثاني: بيان معنى قوله، لم أجدها مع أحد غيره.

الوجه الثالث: هذا لا يعني أنه أخذ القرآن بخبر الواحد.

الوجه الرابع: الرد على بعض الاعتراضات في ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الذي وُجد معه آخر التوبة بخلاف الذي وُجد معه آية الأحزاب

قال القرطبي: وأن أبا خزيمة(١) الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس وقال: نحن ورثناه، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت(٢) فلا تعارض، والقضية غير القضية لا إشكال فيها ولا التباس. (٣)

قال ابن حجر: ومراده- البخاري - أن أصحاب إبراهيم بن سعد اختلفوا فقال بعضهم مع أبي خزيمة، وقال بعضهم: مع خزيمة، وشك بعضهم. والتحقيق ما قدمناه عن موسى بن إسماعيل أن آية التوبة مع أبي خزيمة وآية الأحزاب مع خزيمة(٤).

وقال أيضًا: وأن الذي وجد معه آخر سورة التوبة غير الذي وجد معه الآية التي في الأحزاب فالأول اختلف الرواة فيه على الزهري: فمن قائل مع خزيمة، ومن قائل مع أبي خزيمة، ومن شاك فيه يقول: خزيمة أو أبي خزيمة. والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية، والذي وجد معه الآية من الأحزاب خزيمة. (٥)

---

(١) أبو خزيمة قيل: هو بن أوس بن يزيد بن أصرم مشهور بكنيته دون اسمه، وقيل هو الحارث بن خزيمة. الاستيعاب ١/ ٣٥٢، ٤/ ٢٠٥، أسد الغابة ١/ ٤٤٣.

(٢) خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من بني خطمة من الأوس، يعرف بذي الشهادتين جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين، يكنى أبا عمارة شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد وكانت راية خطمة بيده يوم الفتح، وكان مع علي ﷺ بصفين، فلما قتل عمار جرد سيفه فقاتل حتى قتل وكانت صفين سنة سبع وثلاثين. الاستيعاب في معرفة الأصحاب٢/ ٣٠، تهذيب الكمال للمزي ٨/ ٢٤٣، أسد الغابة ١/ ٦٩٦، الإصابة لابن حجر ٢/ ٢٧٨.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٧٣.

(٤) فتح الباري ٨/ ١٩٦.

(٥) المصدر السابق ٨/ ٦٣١.

الوجه الثاني: بيان معنى قوله، لم أجدها مع أحد غيره.

أي: مكتوبة. لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة. (١)

وقال الزركشي: فأما قوله وجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت ولم أجدها مع غيره، يعنى: ممن كانوا في طبقة خزيمة ممن لم يجمع القرآن، وأما أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل فبغير شك جمعوا القرآن. (٢)

الوجه الثالث: هذا لا يعني أنه أخذ القرآن بخبر الواحد.

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي ﷺ، وإنما كان زيد يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة، ولعلهم لما وجدها زيد عند أبي خزيمة تذكروها كما تذكرها زيد، وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار، والوقوف عندما كتب بين يدي النبي ﷺ.

وخزيمة ؓ لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما، ولذلك قال: فقدت آيتين من آخر سورة التوبة، ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئًا أولا،؟ فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده. (٣)

قال الزرقاني: إن كلام زيد بن ثابت هذا - لم أجدها مع أحد غيره - لا يبطل التواتر، وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده؛ بل ثبتت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم.

ومعنى قول زيد: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره؛ أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما، وليس الكتابة شرطا في المتواتر؛ بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، ولو لم يكتبه واحد منهم فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقا واحتياطا فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه فكيف نقدح في التواتر بانفراده بها؟

---

(١) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢٢/ ٤٤٣، ١٧/ ٣٨٣، فتح الباري ٨/ ٣٧٨، الإتقان للسيوطي ١/ ١٦٧.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٩.

(٣) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢٢/ ٤٤١، تفسير القرطبي ١/ ٧٣، فتح الباري ٨/ ٦٣١، البرهان للزركشي ١/ ٢٣٤.

ويدل على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارته تلك قول زيد نفسه: فقدت آية من سورة الأحزاب. . إلخ، فإن تعبيره بلفظ فقدت يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية، وأنها كانت معروفة له غير أنه فقد مكتوبها فلم يجده إلا مع خزيمة، وإلا فمن الذي أنبأ زيدًا أنه فقد آية.

وقال أيضًا: إن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآية الأحزاب لا يدل على عدم تواترهما حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمة وخزيمة بذكرهما من حفظهما، غاية ما يدل عليه كلامه أنهما انفردا بذكرهما ابتداء ثم تذكر الصحابة ما ذكراه، وكان هؤلاء الصحابة جمعا يؤمن تواطؤهم على الكذب، فدونت تلك الآيات في الصحف والمصحف بعد قيام هذا التواتر فيها[1].

الوجه الرابع: الرد على بعض الاعتراضات في ذلك.

الرد على قولهم: أنهم لا يعرفون هل آية التوبة كانت مع أبي خزيمة أم مع الحارث بن خزمة؟

الوجه الأول: الأثر لا يصح فكيف يستدل به؟

عن عباد بن عبد الله بن الزبير قَالَ: أَتَى الْحَارِثُ بْنُ خَزْمَةَ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ بَرَاءَةَ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: لاَ أَدْرِى، وَالله إني أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهَا مِنْ رَسولِ الله ﷺ وَوَعَيْتُهَا وَحَفِظْتُهَا. فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ لَوْ كَانَتْ ثَلاَثَ آيَاتٍ لَجَعَلْتُهَا سُورَةً عَلَى حِدَةٍ فَانْظُرُوا سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَضَعُوهَا فِيهَا، فَوَضَعْتُهَا في آخِرِ بَرَاءَةَ.[2]

قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف لانقطاعه. عباد بن عبد الله بن الزبير: ثقة كما قلنا، ولكنه لم يدرك قصة جمع القرآن؛ بل ما أظنه أدرك الحارث بن خزمة، ولئن أدركه لما

---

(١) مناهل العرفان١/ ١٩٨: ١٩٩.

(٢) **ضعيف**. أخرجه أحمد في مسنده ١/ ١٩٩، وابن أبي داود في المصاحف (٩٦) محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير به.

فيه محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وعباد بن عبد الله لم يدرك قصة الجمع. وهذا الأثر ضعفه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٧١٥).

كان ذلك مصححًا للحديث إذ لم يروه عنه؛ بل أرسل القصة إرسالًا، وقال ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة الحارث هذا: وقد ذكر ابن منده أن الحارث بن خزمة هو الذي جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺبالآيتين خاتمة سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة؛ وهذا عندي فيه نظر.

وأما حديث عباد بن عبد الله بن الزبير الذي هنا فإنه حديث منكر شاذ مخالف للمتواتر المعلوم من الدين بالضرورة: أن القرآن بلَّغه النبيﷺ لأمته سورًا معروفة مفصلة، يفصل بين كل سورتين منها البسملة إلا في أول براءة، ليس لعمر ولا لغيره أن يرتب فيه شيئًا، ولا أن يضع آية مكان آية، ولا أن يجمع آيات وحدها فيجعلها سورة، ومعاذ الله أن يجول بشيء من هذا في خاطر عمر.

ثم قال: فهذا الحديث ضعيف الإسناد منكر المتن. [(١)]

الوجه الثاني: آية التوبة كانت مع أبي خزيمة ولم تكن مع الحارث بن خزيمة.

وهذا ما قاله القرطبي وابن حجر، والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية[(٢)].

الوجه الثالث: وعلى فرض صحة الأثر.

قال ابن حجر: فهذا إن كان محفوظًا احتمل أن يكون قول زيد بن ثابت: وجدتها مع أبي خزيمة لم أجدها مع غيره. أي: أول ما كتبت ثم جاء الحارث بن خزيمة[(٣)] بعد ذلك. أو أن أبا خزيمة هو الحارث بن خزيمة لا ابن أوس. [(٤)]

الرد على قولهم: أن آية الأحزاب كان فقدها في جمع أبي بكر.

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١٦٣: ١٦٤.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٧٣، فتح الباري ٨/ ١٩٦، ٨/ ٦٣١.

(٣) الصحيح أنه الحارث بن خزمة، وليس خزيمة كما ذكر ذلك الحافظ.

(٤) فتح الباري ٨/ ٦٣٢.

الوجه الأول: أن ما استندوا إليه مخالف لما في الصحيح الثابت.

قال ابن حجر: وَظَاهِر حَدِيث زَيْد بْن ثَابِت هَذَا أَنَّهُ فَقَدَ آيَة الْأَحْزَاب مِنْ الصُّحُف الَّتِي كَانَ نَسَخَهَا فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر حَتَّى وَجَدَهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِت.

وَوَقَعَ فِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن إِسْمَاعِيل بْن مُجَمِّع عَنْ اِبْن شِهَاب أَنَّ فَقْده إِيَّاهَا إِنَّمَا كَانَ فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر، وَهُوَ وَهْم مِنْهُ، وَالصَّحِيح مَا فِي الصَّحِيح وَأَنَّ الَّذِي فَقَدَهُ فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر الْآيَتَانِ مِنْ آخِر بَرَاءَة، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْأَحْزَاب فَفَقَدَهَا لَمَّا كَتَبَ الْمُصْحَف فِي خِلَافَة عُثْمَان، وَجَزَمَ اِبْن كَثِير بِمَا وَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن مُجَمِّع[1]، وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَم. [2]

قال ابن الملقن: آية التوبة وجدها أيام الصديق، وأن آية الأحزاب وجدها أيام عثمان كما صرح به أحمد بن خالد في مسنده وغيره. [3]

قال القرطبي: فسقطت الآية الأولى من آخر " براءة " في الجمع الأول، على ما قاله البخاري والترمذي، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة " الأحزاب ".

وحكى الطبري: أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير، والأول أصح والله أعلم. [4]

الوجه الثاني: الحديث فيه ما يدل على أنها كانت في جمع عثمان.

ومما يدل على أن فقدها كان في جمع عثمان قوله في الحديث: قَالَ نَسَخْتُ الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، فَفَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَأُ بِهَا. [5]

وأيام الصديق ﷺ لم تكن صحف مجموعة؛ إنما كانت في خلافة عثمان ﷺ.

ثم طول العهد بين جمع الصديق وجمع عثمان وفي هذه المدة كانت الصحف تنقل من

---

(١) قال ابن كثير: وأما ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر. وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف. فضائل القرآن (٥٠).

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٣٨.

(٣) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢٢/ ٤٣٧، فتح الباري ٨/ ٦٣٨.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٦٩.

(٥) البخاري (٢٨٠٧).

مكان لآخر كما قال زيد: فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ الله ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ﷺ. إلى أن جمعه عثمان حين قدم حذيفة بن اليمان عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِى أَهْلَ الشَّأْمِ فِى فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِى الْقِرَاءَةِ؛ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِى الْكِتَابِ اخْتِلاَفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِى إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِى الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ. فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِى الْمَصَاحِفِ[1].

الشبهة الخامسة: شبهة لو أن لابن آدم واديًا.

نص الشبهة

يقولون بعدم حفظ القرآن؛ والدليل على ذلك اعتراف الصحابة بأنهم كانوا يحفظون آيات ولا توجد الآن في المصحف، ومثال لذلك قول أبي موسى الأشعري: وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا في الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّى قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا (لَوْ كَانَ لاِبْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ). ومن ثم فأين هي الآن؟ ولذلك اختلف الصحابة هل هي من القرآن أم من الحديث النبوي أو القدسي؟

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: اختلاف أهل العلم في قوله: (لو أن لابن آدم) هل هو حديث نبوي، أو حديث قدسي، أو قرآن منسوخ التلاوة؟.

الوجه الثاني: مع كونه قرآنًا فهذا مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: اختلاف أهل العلم في قوله: (لو أن لابن آدم) هل هو حديث نبوي، أو حديث قدسي، أو قرآن منسوخ التلاوة؟

القول الأول: بأنه حديث نبوي:

ويستدلون بالآتي:

(١) البخاري (٤٩٨٧).

١ - الأحاديث الواردة بإخبار الصحابة أنهم سمعوه من قول النبي ﷺ.

عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَكَّةَ فِي خُطْبَتِهِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ: **"لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلاَ يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ"**(١).

عن سعد بن أبي وقاص ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **"لو أن لابن آدم واديان من مال لتمنى إليهما الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب"**(٢).

عَنْ جَابِرٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ لَتَمَنَّى وَادِيَيْنِ وَلَوْ أَنَّ لَهُ وَادِيَيْنِ لَتَمَنَّى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ"**(٣).

٢ - الأحاديث الواردة بإخبار الصحابة أنهم لا يدرون أهي من القرآن أم لا؟

عن ابن عباس قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ **"لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالًا لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ، وَلاَ يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ"**. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلاَ أَدْرِى مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ أَمْ لاَ(٤).

عَنْ أَنَسٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ"**.

في لفظ عند مسلم. "فَلاَ أَدْرِى أشيء أُنْزِلَ أَمْ شيء كَانَ يَقُولُهُ"(٥).

٣- حديث أُبيّ أنه قَالَ: كُنَّا نرى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. (١)

---

(١) البخاري (٦٤٣٨).

(٢) صحيح. أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٤٧٣) قال: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، قال: نا حامد ابن يحيى، قال: نا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن سعد به.

(٣) حسن. أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٣٤٠، ٣٤١، وابن حبان في صحيحه (٣٢٣٤) من طريق أبي الزبير، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٢٣٢)، والبزار في كشف الأستار (٣٦٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٦٩٤)من طريق أبي سفيان (طلحة بن نافع). جميعا عن جابر به.

(٤) البخاري (٦٤٣٧)، مسلم (١٠٤٩).

(٥) مسلم (١٠٤٨).

قوله نرى: بضم النون أي نظن[٢]. والقرآن لا يثبت بالظن، وإنما يثبت بالتواتر.

القول الثاني: أنه من القرآن الذي كان يتلى.

ويستدلون بالآتي:

١ – حديث أبي بن كعب. وقد جاء عنه من طريقين:

الطريق الأول:

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ وَقَرَأَ عَلَيْهِ: إِنَّ دَأْبَ الدِّينِ عِنْدَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ لاَ الْمُشْرِكَةُ وَلاَ الْيَهُودِيَّةُ وَلاَ النَّصْرَانِيَّةُ، وَمَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ: لَوْ كَانَ لاِبْنِ آدَمَ وَادٍ لاَبْتَغَى إِلَيْهِ ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا لاَبْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**[٣].

الطريق الثاني:

عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى عمر يسأله فجعل ينظر إلى رأسه مرة وإلى رجليه أخرى لما يرى به من البؤس. فقال له عمر: كم مالك؟ قال: أربعون من الإبل. قال: فقال ابن عباس، فقلت: صدق الله ورسوله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب) قال: فقال لي عمر: ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٠) قال: وقال لنا أبو الوليد، وأخرجه الطبري في تفسيره ٣٠/ ٢٧٤، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٤٢٠ من طريق ابن أبي داود.

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٥٣٩)، ومن طريقه الترمذي (٣٧٩٣)، وأخرجه أحمد ٥/ ١٣١، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢١٤ كلهم من طريق شعبة.

وأخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال في الحديث النبوي (٧٩) من طريق ثابت.

كلاهما (شعبة، ثابت)عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش به.

قال ابن حجر: إسناده جيد. فتح الباري ١١/ ٢٦٢. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٩٠٨).

تقول؟ قال: قلت: هكذا أقرأنيها أبي بن كعب. قال: فقم بنا إليه. قال: فأتاه فقال: ما يقول هذا؟ قال أبي: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ(١).

٣- عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لَقَدْ كُنَّا نَقْرَأُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِمَا آخَرَ وَلَا يَمْلأُ بَطْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ"(٢).

٤- عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الأَسْوَدِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ فَاتْلُوهُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ. . .)(٣).

٥- عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْت النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ: "لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى وَادِيًا ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا لَتَمَنَّى وَادِيًا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ"(٤).

القول الثالث: أنه حديث قدسي.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١١٧، وابن حبان في صحيحه (٣٢٣٧) جميعًا عن أبي معاوية، عن أبي إسحاق الشيباني، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس به. صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٠٩).

(٢) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٣٦٨، وابن حبان في صحيحه (٥٠٣٢)، والبزار في كشف الأستار (٣٦٣٩) من طرق عن يوسف بن صهيب، عن حبيب بن يسار، عن زيد بن أرقم به. وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١٠).

(٣) مسلم (١٠٥٠).

(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٤١٩، والبزار في كشف الأستار(٣٦٣٤) من طريق عن عبد العزيز بن مسلم: حدثنا صبيح أبو العلاء عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: فذكره. وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١١).

وهؤلاء جمعوا بين القولين (الأول والثاني)أخذوا بحجج القول الأول على أنه ليس من القرآن؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر.

وأجابوا عن القول الثاني (الذي يقول بأنه من القرآن) بأنه يحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن، ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية[١].

والراجح من هذه الأقوال

هو القول الثاني الذي يقول بأنه من القرآن الذي كان يتلى. ويدل على ذلك ما تقدم من قول أبي سعيد الخدري لقراء البصرة (إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً)، ولحديث بريدة (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ) ولغيرها.

وأما عن قول أبي: كُنَّا نرى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

فالجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: قوله نرى: بفتح النون أي: نعتقد[٢].

وهذا ما صوبه الألباني فقال: بل الصواب الذي لا يجوز سواه لما سيأتي عنه وعن غيره من الصحابة الجزم به. ولا ينافيه قوله: حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، لأنه يعني: فنسخت هذه تلك.[٣]

الثاني: ما صح عنه من طريقين (ابن عباس، زر) تقدم ذكرهما من أنها من القرآن.

الثالث: على قراءة نُرى بضم النون أي نظن؛ فهذا احتمال ولم يستفصل فبقي الكلام على الأصل وأنه من القرآن.

قال ابن حجر: أنه يحتمل أن يكون أبي لما قرأ عليه النبي ﷺ لم يكن، وكان هذا الكلام في آخر ما ذكره النبي ﷺ احتمل عنده أن يكون بقية السورة، واحتمل أن يكون من كلام

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٦٣ بتصرف.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٢٦٢.

(٣) السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٦٣.

النبي ﷺ ولم يتهيأ له أن يستفصل النبي ﷺ عن ذلك حتى نزلت ألهاكم التكاثر فلم ينتف الاحتمال.[١]

وأما عن قول ابن عباس ﷺ: (فَلاَ أَدْرِى مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ أَمْ لاَ) ومثله عن أنس ﷺ.

قال الألباني: ولا يخفى على البصير أن القولين لا يدلان على شيء مما سبقت الإشارة إليه (القول بأنه حديث نبوي أو قدسي)؛ لأنه اعتراف صريح بعدم العلم، ولكنه مع ذلك فيه إشعار قوي بأنه كان من المعلوم لدى الصحابة أن هناك شيئًا من القرآن رفع ونسخ، ولذلك لم يكتب في المصحف المحفوظ.[٢]

وأما عن قولهم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وهذا ظن.

فالجواب عليه، نعم القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وهذا في حق القرآن المثبت بين دفتي المصحف الآن.

قال الألباني -ردًا على من يعترض بشرط التواتر-:

ومن الواضح أنه لا يفرق بين القرآن المثبت بين الدفتين الذي يشترط فيه التواتر الذي ذكر، وبين منسوخ التلاوة كهذا الذي نحن في صدد الكلام حوله؛ بل حكمه حكم الأحاديث النبوية

والأحاديث القدسية، فإنه لا يشترط فيها التواتر، وإن كان فيها ما هو متواتر.[٣]

الوجه الثاني: مع كونه من القرآن فهذا مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

قال ابن حجر: فهو مما نسخت تلاوته جزما وإن كان حكمه مستمرًا.[٤]

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨)

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

(٢) السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٦٢.

(٣) السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٧٠.

(٤) فتح الباري ١١/ ٢٦٣، وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٣٥، السلسلة الصحيحة للألباني ٦/ ٩٧١.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: وإنه لحب الخير -وهو: المال- لشديد. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال.

والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح[١].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ"**[٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **"قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ طُولُ الْحَيَاةِ وَحُبُّ الْمَالِ"**[٣].

قلنا: فدلت هذه الأدلة -وغيرها كثير- على أن الآية مما نسخ تلاوته وبقي حكمه. وهذا خلاف ممن قال بنسخ التلاوة والحكم.[٤]

الشبهة السادسة: محو ابن مسعود المعوذتين، والفاتحة من المصحف.

نص الشبهة:

يقولون كان عبد الله بن مسعود يحك المعوذتين من مصاحفه، ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله تبارك وتعالى. ويزعمون بذلك القدح في المصاحف والتواتر.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ثبت عن النبي ﷺ أنهما من القرآن الذي نزل عليه، وكان يقرأ بهما في الصلاة.

الوجه الثاني: أن الصحابة ﷺ لم يقروا ابن مسعود ﷺعلى قوله هذا ومنهم أبي بن كعب ﷺ.

الوجه الثالث: أن تلاميذ ابن مسعود ﷺ وبالأخص الأسود بن يزيد لم يوافقوه على رأيه هذا.

الوجه الرابع: صحة ما أثر عن ابن مسعود، وتأويل مراده بذلك على أمور:

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤/ ٤٣٧.

(٢) البخاري (٦٤٢١)، مسلم (١٠٤٧).

(٣) البخاري (٦٤٢٠)، مسلم (١٠٤٦).

(٤) وممن قال بنسخ التلاوة والحكم؛ الطحاوي مشكل الآثار ٢/ ٤١٧، البيهقي في الدلائل إثر حديث (٣٠٨٤)، وابن الجوزي في نواسخ القرآن ١/ ٣٤.

الأول: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف.

الثاني: لم يكتب عبد الله المعوذتين؛ لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما، وهذا لا يدل على الإنكار.

الثالث: ظن ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به، وليستا من القرآن.

الرابع: أنه خفي عليه التواتر وأن مخالفته لا تقدح في التواتر.

الخامس: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما.

السادس: أن إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين كان قبل علمه بذلك.

السابع: رجوع ابن مسعود عن هذا القول.

الوجه الخامس: ذكر بعض أهل العلم بعدم التسليم بصحة ما جاء عن ابن مسعود في هذا الباب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ثبت عن النبي ﷺ أنهما من القرآن الذي نزل عليه، وكان يقرأ بهما في الصلاة

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: أُنْزِلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ.(١)

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: بَيْنَا أَقُودُ بِرَسُولِ الله ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ، إِذْ قَالَ: أَلاَ تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟ فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟ فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً، فَنَزَلَ وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً، وَنَزَلْتُ وَرَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُعَلِّمُكَ سورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ فَأَقْرَأَنِي ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَتَقَدَّمَ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ؟ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَقُمْتَ(٢).

---

(١) مسلم (٨١٤).

(٢) حسن. أخرجه النسائي ٨/ ٢٥٢، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٥) والحاكم في مستدركه ١/ ٣٦٦ من طرق عن معاوية بن صالح، عن العلاء بن الحارث.

وفي لفظ: أنه سأل رسول الله ﷺ عن المعوذتين. قال: فأمنا بهما رسول الله ﷺ في صلاة الفجر.

عَنْ أَبِي الْعَلاَءِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، وَالنَّاسُ يَعْتَقِبُونَ، وَفِي الظَّهْرِ قِلَّةٌ فَحَانَتْ نَزْلَةُ رَسُولِ الله ﷺ ونزلتي فلحقني مِنْ بَعْدِي فَضَرَبَ منكبي فَقَالَ: قُلْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَقَرَأْتُهَا مَعَهُ ثُمَّ قَالَ: قُلْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَقَرَأْتُهَا مَعَهُ قَالَ: "إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا"[1].

الوجه الثاني: أن الصحابة ﷺ لم يقروا ابن مسعود على قوله هذا ومنهم أبي بن كعب ﷺ.

عَنْ زِرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ أُبَيٌّ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لِي: قِيلَ لِي فَقُلْتُ قَالَ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ[2].

وفي لفظ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: قُلْتُ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لاَ يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ. فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أخبرني أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لَهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَنَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ النبي ﷺ[3].

وأخرجه النسائي ٨/ ٢٥٣، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٤) من طرق عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن ابن يزيد. كلاهما (العلاء، عبد الرحمن) عن القاسم أبي عبد الرحمن عن عقبة به باللفظ الأول. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٦، والنسائي ٨/ ٢٥٢، والحاكم في مستدركه ١/ ٣٦٦، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٦)، وابن حبان في صحيحه (١٨١٨) من طرق عن سفيان الثوري، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، عن عقبة بن عامر به مختصرًا على اللفظ الثاني. والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥٤٣٧).

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٤، والنسائي في الكبرى (٧٨٥٩) من طريق إسماعيل بن علية. وأخرجه أحمد ٥/ ٧٨من طريق شعبة. كلاهما (إسماعيل وشعبة) عن الجُرَيري، عن أبي العلاء قال: قال رجل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر والناس يعتقبون. فذكره. قال ابن حجر: **إسناده صحيح**. الفتح ٨/ ٦١٥

(٢) البخاري (٤٩٧٧).

(٣) **حسن**. أخرجه أحمد ٥/ ١٢٩ من طريق حماد بن سلمة، قال: أنا عاصم بن بهدلة، عن زر به.

الوجه الثالث: أن تلاميذ ابن مسعود ﷺ وبالأخص الأسود بن يزيد لم يوافقوه على رأيه هذا.

عن إبراهيم النخعي قال: قلت للأسود: مِنَ القرآن هما؟ قال: نعم، يعني المعوذتين[١].

الوجه الرابع: صحة ما أثر عن ابن مسعود، وتأويل مراده بذلك على أمور.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ الله يَحك الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنْ مَصَاحِفِهِ، وقال: لاَ تَخْلِطُوا فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ[٢].

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قُلْتُ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لاَ يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ. فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أخبرني أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لَهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَنَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ النبي ﷺ[٣].

لكنه يحمل على أكمل أحواله ﷺ من هذه الوجوه:

الأول: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف.

قال الحافظ: وقد تأول القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب (الانتصار) وتبعه عياض وغيره ما حُكي عن ابن مسعود فقال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيئًا إلا إن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك. قال: فهذا تأويل منه وليس جحدا لكونهما قرآنا. وهو تأويل حسن إلا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك حيث جاء فيها ويقول: (أنهما ليستا من كتاب الله) نعم يمكن حمل لفظ كتاب الله على المصحف فيتمشى التأويل المذكور[١].

---

(١) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٦ قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم به.

(٢) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٦، وعبد الله في زوائد المسند ٥/ ١٢٩، والطبراني في معجمه ٩/ ٢٣٤ من طرق عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد به، وإسناده صحيح.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ١٢٩ من طريق حماد بن سلمة أنا عاصم بن بهدلة عن زر به. وأصله في صحيح البخاري كما سبق. وقد سبق حديث علقمة عن عبد الله أيضًا.

الثاني: لم يكتب عبد الله المعوذتين؛ لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما. وهذا لا يدل على الإنكار.

قال ابن قتيبة: وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن - معاذ الله - ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان.

ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان[٢].

كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشك في حفظه وإتقانه لها.

وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يسلك به طريقها.

الثالث: ظن ابن مسعود أنهما دعاء تعوّذ به، وليستا من القرآن.

قال ابن قتيبة: وسببه في تركه إثباتها في مصحفه أنه كان يرى النبي ﷺ يعوذ بها الحسن والحسين ويعوذ غيرهما، كما كان يعوذهما بأعوذ بكلمات الله التامة؛ فظن أنهما ليستا من القرآن فلم يثبتهما في مصحفه[٣].

ويدل على ذلك: عن علقمة عن عبد الله، أَنَّهُ كَانَ يَحُكُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنَ الْمُصْحَفِ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَكَانَ عَبْدُ الله لاَ يَقْرَأُ بِهِمَا[٤].

الرابع: أنه خفي عليه التواتر، وأن مخالفته لا تقدح في التواتر.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦١٥.

(٢) مناهل العرفان ١/ ١٩٢.

(٣) تأويل مختلف الحديث ١/ ٢٦.

(٤) **حسن**. أخرجه البزار في مسنده (١٥٨٦)من طريق محمد بن أبي يعقوب الكرماني. وأخرجه أبو يعلى كما في الإتحاف للبوصيري (٣٩٤٦)، والطبراني في معجمه الكبير ٩/ ٢٣٥ من طريق الأزرق بن علي. كلاهما (محمد، الأزرق) عن حسان بن إبراهيم، عن الصلت بن بهرام، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله. **وإسناده حسن**.

قال الزرقاني: إننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة؛ بل أنكر القرآن كله فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء؛ لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر. ولم يقل أحد في الدنيا إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف وإلا لأمكن من هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه بمجرد أن يخالف فيه مخالف ولو لم يكن في العير ولا في النفير.[١]

قال البزار: وَهَذَا الْكَلامُ لَمْ يُتَابعْ عَبْدَ الله عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ بِهِمَا فِي الصَّلاةِ وَأُثْبِتَتَا فِي الْمُصْحَفِ[٢].

ولا شكَّ أن إجماع الصحابة على قرآنيتهما كافٍ في الردِّ على هذا الطعن، ولا يضرُّ ذلك الإجماع مخالفة ابن مسعود، فإنه لا يُعقل تصويب رأي ابن مسعودٍ وتخطئة الصحابة كلهم؛ بل الأمة كلها[٣].

الخامس: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما.

قال ابن حجر: قال ابن الصباغ: إنه لم يثبت عنده القطع بذلك، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك. وقد استشكل هذا الموضع الفخر الرازي فقال: إن قلنا: إن كونهما من القرآن كان متواترا في عصر ابن مسعود لزم تكفير من أنكرهما، وإن قلنا: إن كونهما من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود لزم أن بعض القرآن لم يتواتر، قال: وهذه عقدة صعبة. وأجيب باحتمال أنه كان متواترا في عصر ابن مسعود لكن لم يتواتر عند ابن مسعود فانحلت العقدة بعون الله تعالى[٤].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٢، وانظر روح المعاني ٣٠/ ٢٧٩، التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ٣/ ٣٣.

(٢) مسند البزار ١/ ٢٦٨.

(٣) كتاب جمع القران١/ ١٧٦.

(٤) فتح الباري ٨/ ٦١٦.

وإنما لم يُنكر ذلك عليه؛ لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر[١].

قال ابن كثير: وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء: أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواترا عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة، رضي الله عنهم، كتبوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة[٢].

فإن قيل: ولِمَ لَمْ ينكر عليه الصحابة؟ يجاب بأنَّهم لم ينكروا عليه؛ لأنه كان بصدد البحث والتثبت في هذا الأمر[٣].

السادس: أن إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين كان قبل علمه بذلك.

يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته كان قبل علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعد، وتم التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن[٤].

السابع: رجوع ابن مسعود عن هذا القول.

ويدل على ذلك الآتي:

أولًا: أن عاصمًا وهو أحد القراء السبعة قرأ القرآن كله وفيه المعوذتان بأسانيد صحيحة بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه.

ذلك أن عاصمًا قرأ على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، وقرأ على أبي مريم زر بن حبيش الأسدي، وعلى سعيد بن عياش الشيباني، وقرأ هؤلاء على ابن مسعود نفسه، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ.

ثانيها: أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضًا قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة وفيه

(١) مناهل العرفان ١/ ١٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم١٤/ ٥١٧.

(٣) مناهل العرفان١/ ١٩٢، كتاب جمع القران. محمد شرعي أبو زيد ١/ ١٧٦.

(٤) مناهل العرفان ١/ ١٩٢.

المعوذتان عن ابن مسعود نفسه.

ذلك أن حمزة قرأ على الأعمش أبي محمد سليمان بن مهران، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى على علقمة الأسود، وعبيد بن نضلة الخزاعي، وزر بن حبيش، وأبي عبد الرحمن السلمي وهم قرؤوا على ابن مسعود على النبي ﷺ.

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضًا.

ذلك أنه قرأ على أبي إسحاق السبيعي، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعلى الإمام جعفر الصادق، وهؤلاء قرؤوا على علقمة بن قيس، وعلى زر بن حبيش، وعلى زيد بن وهب، وعلى مسروق، وهم قرؤوا على المنهال وغيره وهم على ابن مسعود وأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وهما على النبي ﷺ.

ثالثًا: أن الكسائي قرأ القرآن وفيه المعوذتان بسنده إلى ابن مسعود أيضًا.

ذلك أنه قرأ على حمزة الذي انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين.

رابعها: أن خلفًا يقرأ المعوذتين في ضمن القرآن الكريم بسنده إلى ابن مسعود أيضًا وذلك أنه قرأ على سليم وهو على حمزة.

وهذه القراءات كلها التي رويت بأصح الأسانيد وبإجماع الأمة فيها المعوذتان والفاتحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أجزاء من القرآن وداخلة فيه. فالقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه[1].

كما سقناه بين يديك عن أربعة من القراء السبعة بأسانيد هي من أصح الأسانيد المؤيدة بها تواتر واستفاض، وبها أجمعت الأمة عليه من قرآنية الفاتحة والمعوذتين منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا.

إذًا فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود جمعا بين الروايتين.

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية المعوذتين، يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة؛ بل نقل إنكاره

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

قرآنية الفاتحة أدخل في البطلان وأغرق في الضلال، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن، وأنها السبع المثاني، التي تثنى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة على لسان كل مسلم ومسلمة.

فإنه لا يجوز لمسلمٍ أن يَظُن خفاء قرآنية الفاتحة على ابن مسعود، فضلًا عن أن يَظُنَّ به إنكار قرآنيتها، وكيف يُظَن به ذلك، وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن، وقد أوصى النَّبِيُّ ﷺ بقراءة القرآن على قراءته.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: ذُكِرَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ**"[(١)].

عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ الله، أَنَّ النبي ﷺ أَتَاهُ بَيْنَ أَبِى بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعَبْدُ الله يُصَلِّى فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَسَحَلَهَا، فَقَالَ النبي ﷺ: "**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**". ثُمَّ تَقَدَّمَ يَسْأَلُ فَجَعَلَ النبي ﷺ يَقُولُ: "**سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ**". فَقَالَ فِيمَا سَأَلَ اللهمَّ إِني أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لاَ يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لاَ يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ في أَعَلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ. قَالَ: فَأَتَى عُمَرُ عَبْدَ الله لِيُبَشِّرَهُ، فَوَجَدَ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَهُ. فَقَالَ: إِنْ فَعَلْتَ لَقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا بِالْخَيْرِ[(٢)].

كما أن ابن مسعود ﷺ من السابقين إلى الإسلام، ولم يزل يسمع النَّبِيَّ ﷺ يقرأ بالفاتحة في الصلاة، ويقول: مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ"[(٣)].

فكان سبب عدم كتابتها في مصحفه وضوح أنَّها من القرآن، وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان، والزيادة والنقصان.

وقصارى ما نقل عنه أنه لم يكتبها في مصحفه، وهذا لا يدل على الإنكار[(٤)].

---

(١) البخاري (٣٨٠٨)، مسلم (٢٤٦٤).

(٢) حسن. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١٨٤، وأحمد ١/ ٤٥٤، وأبو يعلى في مسنده (١٦)، وابن ماجه (١٣٨)من طرق عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش به. وانظر الصحيحة للألباني (٢٣٠١).

(٣) مسلم (٣٩٥).

(٤) مناهل العرفان ١/ ١٩٢، وانظر جمع القرآن محمد شرعي أبو زيد ١/ ١٧١.

الوجه الخامس: ذكر ما قاله بعض أهل العلم من عدم التسليم بصحة ما جاء عن ابن مسعود في هذا الباب.

قال ابن حزم: وَكُلُّ ما رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ من أَنَّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَأُمَّ الْقُرْآنِ لم تَكُنْ في مُصْحَفِهِ؛ فَكَذِبٌ مَوْضُوعٌ لاَ يَصِحُّ، وَإِنَّمَا صَحَّتْ عنه قِرَاءَةُ عَاصِمٍ عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَفِيهَا أُمُّ الْقُرْآنِ والمعوذتان[1].

قال النووي: أجمع المسلمون علي أن المعوذتين، والفاتحة، وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن، وأن من جحد شيئًا منه كفر، وما نقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل، ليس بصحيح عنه(٢).

قال الفخر الرازى: الأغلب على الظن أن هذا النقل عن ابن مسعود كذب باطل[3].

ولكن هذا المسلك فيه نظر.

قال الحافظ: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل؛ بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل، والإجماع الذي نقله إن أراد شموله لكل عصر فهو مخدوش، وإن أراد استقراره فهو مقبول، وقد استشكل هذا الموضع الفخر الرازي فقال: إن قلنا إن كونها من القرآن كان متواترا في عصر ابن مسعود لزم تكفير من أنكرهما، وإن قلنا: إن كونها من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود، لزم أن بعض القرآن لم يتواتر. قال: وهذه عقدة صعبة. وأجيب باحتمال أنه كان متواترا في عصر ابن مسعود لكن لم يتواتر عند ابن مسعود فانحلت العقدة بعون الله تعالى[4].

* * *

(١) المحلى ١/ ١٣.

(٢) المجموع ٣/ ٣٩٦.

(٣) الفتح ٨/ ٧٤٣.

(٤) فتح الباري ٨/ ٧٤٣.

شبهات عن القرآن الكريم

على ترتيب المصحف الشريف

سورة الفاتحة

وفيها:

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

نص الشبهة:

قول المسلمين: إن القرآن هو كلام الله نزله على محمد، فهل يقول الله: إياك نعبد وإياك نستعين، وهل يطلب الله من نفسه ولنفسه أن يهتدي الصراط المستقيم، ولمن يوجه الله هذا الدعاء؟

ألا يعني هذا أن الفاتحة هي كلام محمد ودعاؤه إلى الله طالبًا الهداية؟ ألم يكن من الأفضل أن يقول: بك نستعين بدلًا من: إياك نستعين؟.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

الوجه الثاني: كلام المفسرين عن هذا الالتفات بلاغةً، ومعنًى، وأسرارًا.

الوجه الثالث: أسلوب أقصر وأبلغ في الحصر والتخصيص.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

إن من أكثر الأمور المعينة على فهم كتاب الله هو تعلم علم البلاغة، الذي به يطلع القارئ على كثير من الإعجاز اللغوي الموجود في كلام رب العالمين، الذي لا يشبهه كلام أبدًا، ولا حتى كلام نبيه ﷺ، وإذا عرف هذا فإن لكل فنٍّ أهلٌ، وفن البلاغة له جهابذة يؤخذ منهم، فلا عقل لمن يتكلم في شيء لا يحسنه؛ لذا قال رب العالمين: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤٣)، وامتثالًا لأمر ربنا نرجع إلى أصحاب هذا الباب فنجد أن ما لم يفهمه المعترض هو نوع من أنواع البلاغة يقال له: الالتفات، فنحن ننقل بعض ما عندهم في هذا، وإلا فالأمر طويل، والمقام عن جمعه قصير وإليك البيان:

قال ابن الأثير: وهذا النوع وما يليه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل

فيه عن صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا.

ويسمى أيضًا (شجاعة العربية) وإنما سمي بذلك؛ لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات.

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها، وهذا القول هو عكاز العميان، كما يقال، ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله.

وقال: والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب، لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك لفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها، فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه وسأوضح ذلك في ضرب من الأمثلة الآتي ذكرها.

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هذا

رجوع من الغيبة إلى الخطاب وبما يختص الكلام من الفوائد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: (الحمد لك)، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحًا بها وتقربًا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة، فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ عطفًا على الأول؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظا، وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا، فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها، وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا؛ لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه، فانبغى أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها. اهـ[1]

قال النويري: وأما ابن المعتز فقال: الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، ومثاله في القرآن العزيز: الإخبار بأن الحمد لله رب العالمين ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومثاله في الشعر قول جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح ... سقيت الغيث أيتها الخيام

أو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ

(١) المثل السائر (١/ ١٤٨-١٤٩) تحت عنوان الالتفات.

وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ومثال ذلك في الشعر قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره   مني بمنزلة المحب المكرم

ثم قال مخبرًا عنها:

كيف المزار وقد تربع أهلها   بعنيزتين وأهلها بالغيلم

أو انصراف المتكلم من الإخبار إلى المتكلم كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ أو انصراف المتكلم من التكلم إلى الإخبار كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم: ١٩، ٢٠)، وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاث أبيات متواليات، وهي قوله:

تطاول ليلك بالإثمد   ونام الخلي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة   كليلة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاءني   وخبرته عن أبي الأسود

يخاطب في البيت الأول، وانصرف إلى الأخبار في البيت الثاني، وانصرف عن الأخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب.[1]

الوجه الثاني: كلام المفسرين عن هذا الالتفات بلاغةً، ومعنًى، وأسرارًا

قال الطبري: فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؟ أحَمِد الله نفسه -جلّ ثناؤه- فأثنى عليها، ثم علَّمناه لنقول ذلك كما قال ووصَف به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك، فما وجه قوله تعالى ذكره إذًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو عزّ ذكرُه معبودٌ لا عابدٌ؟ أم ذلك من قِيلِ جبريلَ أو محمدٍ رَسول الله ﷺ؟ فقد بَطل أن يكون ذلك لله كلامًا.

قيل: بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه، ولكنه جلّ ذكره حَمِد نفسه، وأثنى عليها بما هو له أهلٌ، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختبارًا منه لهم وابتلاءً، فقال لهم

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب (٢/ ٣٠١ – ٣٠٢).

قولوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مما علمهم -جلّ ذكره- أن يقولوه ويَدينُوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكأنه قال: قولوا هذا وهذا.

فإن قال: وأين قوله: (قولوا)، فيكونَ تأويلُ ذلك ما ادَّعَيْتَ؟.

قيل: قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها ـ إذا عرفتْ مكان الكلمة، ولم تَشكَّك أنّ سامعها، يعرف بما أظهرت من منطقها، ما حذفت ـ حذفُ ما كفى منه الظاهرُ من منطقها، ولاسيما إن كانت تلك الكلمة التي حُذفت، قولا أو تأويلَ قولٍ، كما قال الشاعر:

وأَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَكُونُ رَمْسًا إِذَا سَارَ النَّوَاعِجُ لا يَسِيرُ

فَقَالَ السّائلون: لِمَنْ حَفَرْتُمْ فَقَالَ المُخْبِرُون لَهُمْ: وزيرُ

قال أبو جعفر: يريد بذلك، فقال المخبرون لهم: الميِّتُ وزيرٌ، فأسقَط الميت، إذ كان قد أتى من الكلام بما دلّ على ذلك. وكذلك قول الآخر:

وَرأَيتِ زَوْجَكِ في الوغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمحا

وقد علم أنّ الرمح لا يُتَقَلَّد، وإنما أراد: وحاملًا رمحًا، ولكن لما كان معلومًا معناه، اكتفى بما قد ظَهر من كلامه، عن إظهار ما حذف منه. وقد يقولون للمسافر إذا ودَّعوه: "مُصاحَبًا مُعافًى"، يحذفون "سر، واخرج"، إذ كان معلومًا معناه، وإن أسقط ذكره.

فكذلك ما حُذف من قول الله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، لَمَّا عُلم بقوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ما أراد بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، من معنى أمره عبادَه، أغنتْ دلالةُ ما ظُهِر عليه من القول عن إبداء ما حُذف. اهـ[1]

٢ـ ومما يؤكد صحة ما قاله الطبري ما قاله البقاعي:

قال: ومن أنفع الأمور في ذوق هذا المشرب استجلاء الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٣٩-١٤١).

يقول: "قال الله ﷻ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجدني عبدي" وقال مرة: "فوض إليّ عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" والله أعلم.[1]

وقال الآلوسي: البحث الرابع: في سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة؛ وهي التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر؛ تطرية له وتنشيطًا للسامع، فقيل: لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك؛ ليكون أدل على الاختصاص، والترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عيانًا، والمعقول مشاهدًا والغيب حضورًا.

وقيل: لما شرح الله تعالى صدر عبده، وأفاض على قلبه وقالبه نور الإيمان والإسلام من عنده؛ ترقى بذريعة الحمد المستجلب لمزيد النعم إلى رتبة الإحسان وهو: «أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وأيضًا، حقيقة العبادة انقياد النفس الأمارة لأحكام الله تعالى، وصورته وقالبه الإسلام، ومعناه وروحه الإيمان، ونوره الإحسان وفي ﴿نَعۡبُدُ﴾ والالتفات تتم الأمور الثلاثة. وأيضًا لما تبين أنه ملك في الأزل ما في أحايين الأبد علم أن الشاهد والغائب والماضي والمستقبل بالنسبة إليه على حد سواء؛ فلذلك عدل عن الغيبة إلى الخطاب، ويحتمل أن يكون السر أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء، والثناء في الغيبة أولى ومن هنا إلى الآخر دعاء.

وقيل: إنه لما كان الحمد لا يتفاوت غيبة وحضورًا؛ بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتم، وكانت العبادة إنما يستحقها الحاضر الذي لا يغيب كما حكى سبحانه عن

---

(١) نظم الدرر (١/ ٨).

إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦) لا جرم عبر سبحانه وتعالى عن الحمد بطريق الغيبة، وعنها بطريق الخطاب إعطاءً لكل منهما ما يليق من النسق المستطاب. وأيضًا من تشبه بقوم فهو منهم، فالعابد لما رام ذلك سلك مسلك القوم في الذكر، ومزج عبادته بعبادتهم، وتكلم بلسانهم وساق كلامه على طبق مساقهم عسى أن يصير محسوبًا في عدادهم مندرجًا في سياقهم:

إن لم تكونوا منهم فتشبهوا إن التشبه بالكرام فلاح

وأيضًا فيه إشارة إلى أن من لزم جادة الأدب والانكسار، ورأى نفسه بعيدًا عن ساحة القرب لكمال الاحتقار، فهو حقيق أن تدركه رحمة إلهية، وتلحقه عناية أزلية إلى حظائر القدس، وتطلعه على سرائر الأنس؛ فيصير واطئًا على بساط الاقتراب، فائزًا بعز الحضور وسعادة الخطاب. وأيضًا إنه لما لم يكن في الحمد مزيد كلفة بخلاف العبادة؛ فإن خطبها عظيم، ومن دأب المحب تحمل المشاق العظيمة في حضور المحبوب؛ قرن سبحانه العبادة بما يشعر بحضوره؛ ليأتي بها العابد خالية عن الكلال، عارية عن الفتور والملال، مقرونة بكمال النشاط، موجبة لتمام الانبساط:

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

وأيضًا: إن الحمد ليس إلا إظهار صفات الكمال على الغير، فما دام للأغيار وجود في نظر السالك فهو يواجههم بإظهار مزايا المحبوب عليهم، ويخاطبهم بذكر مآثره الجميلة لديهم، وأما إذا آل أمره بملازمة الأذكار إلى ارتفاع الحجب والأستار، واضمحلال جميع الأغيار لم يبق في نظره سوى المعبود الحق، والجمال المطلق، وانتهى إلى مقام الجمع وصار في مقعد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) فبالضرورة لا يصير توجيه الخطاب إلا إليه، ولا يمكن إظهار السر إلا لديه؛ فينعطف عنان لسانه إلى جنابه، ويصير كلامه منحصرًا في خطابه، وثم وراء الذوق معنى يدق عن مدارك أرباب العقول السليمة، وعندي وهو من نسائم الأسحار، أن الله سبحانه بعد أن ذكر يوم الدين وهو يوم القيامة

التفت إلى الخطاب للإشارة إلى أنه إذا قامت القيامة على ساق، وكان إلى ربك يومئذ المساق، هنالك يفوز المؤمن بلذة الحضور، ويتبلج جبينه بأنوار الفرح والسرور، ويخلو به الديان وليس بينه وبينه ترجمان، ويكشف الحجاب، وتدور بين الأحباب كؤوس الخطاب، فتأمل في عظيم الرحمة كيف قرن سبحانه هذا الترهيب برحمتين فصرح قبل يوم الدين بما صرح ورمز بعد ذكره بما رمز ولن يغلب عسر يسرين.[1]

وقال الرازي: لقائل أن يقول: قوله: "الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين" كله مذكور على لفظ الغيبة، وقوله: "إياك نعبد وإياك نستعين" انتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، فما الفائدة فيه؟ قلنا فيه وجوه:

الأول: أن المصلي كان أجنبيًا عند الشروع في الصلاة، فلا جرم أثنى على الله بألفاظ المغايبة إلى قوله مالك يوم الدين، ثم إنه تعالى كأنه يقول له حمدتني، وأقررت بكوني إلهًا ربًا رحمانًا رحيمًا مالكًا ليوم الدين، فنعم العبد أنت؛ قد رفعنا الحجاب، وأبدلنا البعد بالقرب، فتكلم بالمخاطبة وقل: إياك نعبد.

الوجه الثاني: أن أحسن السؤال ما وقع على سبيل المشافهة، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ (الأعراف: ٢٣)، و﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ (آل عمران: ١٤٧)، و﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ (آل عمران: ٣٨)، و﴿رَبِّ أَرِنِىٓ﴾ (لأعراف: ١٤٣) والسبب فيه: أن الرد من الكريم على سبيل المشافهة والمخاطبة بعيد. وأيضًا العبادة خدمة، والخدمة في الحضور أولى.

الوجه الثالث: أن من أول السورة إلى قوله: "إياك نعبد" ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن قوله: إياك نعبد وإياك نستعين إلى آخر السورة دعاء، والدعاء في الحضور أولى.

الوجه الرابع: العبد لما شرع في الصلاة، وقال: نويت أن أصلي تقربًا إلى الله، فينوي حصول القربة، ثم إنه ذكر بعد هذه النية أنواعًا من الثناء على الله، فاقتضى كرم الله إجابته في

---

(١) روح المعاني (١/ ٦٦-٦٨).

تحصيل تلك القربة، فنقله من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، فقال: إياك نعبد وإياك نستعين. (١)

وقال ابن عادل: قال ابن الخطيب: إن الانتقال من لفظ الغيبة، إلى لفظِ الحضور، يدلُّ على مزيد التقريب. (٢)

وقال أبو السعود: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. (سر تكرار الفاتحة في الصلاة) التفات من الغَيْبة إلى الخطاب، وتلوينٌ للنظم من باب إلى باب، جارٍ على نهج البلاغة في افتنان الكلام، ومسلَكِ البراعة حسبما يقتضي المقام، لما أن التنقلَ من أسلوب إلى أسلوب، أدخلُ في استجلاب النفوسِ واستمالةِ القلوب يقع من كل واحدٍ من التكلم والخطاب والغَيبة إلى كل واحد من الآخَرَيْن، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردةِ في التنزيل لأسرارٍ تقتضيها، ومزايا تستدعيها، ومما استأثر به هذا المقام الجليلِ من النُكت الرائقةِ الدالةِ على أن تخصيصَ العبادةِ والاستعانةِ به تعالى لما أُجريَ عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكملَ تميّز، وأتمَّ ظهورٍ، بحيث تبدّل خفاءُ الغَيبة بجلاءِ الحضور، فاستدعى استعمالَ صيغةِ الخطاب، والإيذانَ بأن حقّ التالي بعد ما تأمل فيما سَلَف من تفرّده تعالى بذاته الأقدس، المستوجبِ للعبودية، وامتيازِه بذاته عما سواه بالكلية، واستبدادِه بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميِّزة له عن جميع أفرادِ العالمين، وافتقارِ الكلِّ إليه في الذات والوجودِ ابتداءً وبقاءً، على التفصيل الذي مرَّت إليه الإشارةُ أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقلَ من عالم الغَيبة إلى معالم الشهود، ويلاحظَ نفسَه في حظائر القدْسِ حاضرًا في محاضر الأنس، كأنه واقفٌ لدى مولاه ماثلٌ بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرَعُ بالضَّراعة بابَ المناجاة قائلًا: يا من هذه شوؤنُ ذاتهِ وصفاتهِ، نخصُّك بالعبادة والاستعانة، فإن ما سواك كائنًا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود، فضلًا عن استحقاق أن يُعبد ويُستعان، ولعل هذا هو

---

(١) تفسير الرازي (١/ ٢٣١ - ٢٣٢).

(٢) اللباب (٨/ ٤٤٥).

السرُ في اختصاص السورةِ الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعةٍ من الصلاة التي هي مناجاةُ العبدِ لمولاه ومِنّتُه للتبتل إليه بالكلية.(١)

وقال ابن عاشور: قال السكاكي في (المفتاح) بعد أن ذكر أن العرب يستكثرون من الالتفات: (أَفتراهم يحسنون قِرى الأشباح؛ فيخالفون بين لون ولون، وطَعْم وطَعْم، ولا يحسنون قِرى الأرواح؛ فيخالفون بين أسلوب وأسلوب). فهذه فائدة مطردة في الالتفات. ثم إن البلغاء لا يقتصرون عليها غالبًا؛ بل يراعون للالتفات لطائف ومناسبات، ولم يزل أهل النقد والأدب يستخرجون ذلك من مغاصه.

وما هنا التفاتٌ بديع؛ فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاهَا، فتخيل نفسه في حضرة الربوبية، فخاطب ربه بالإقبال.

وقال: ومما يزيد الالتفات وقعًا في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء، ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ تخلصًا يجيء بعده: ﴿ **اهۡدِنَا الصِّرَاطَ** ﴾ ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني:

أبى غفلتي أَني إذا ما ذكرته ... تحرك داء في فُؤَادِيَ داخل

وأن تِلاَدِي إنْ نظرتُ وشكَّتِي ... ومُهري وما ضَمَّت إليَّ الأنامل

حِباؤُك والعيسُ العتاقُ كأنها ... هِجان المَهى تُزْجى عليها الرحائل(٢)

الوجه الثالث: أسلوب أقصر وأبلغ في الحصر والتخصيص.

قد أسلفنا وما زلنا نكرر أن الكلام عن أساليب اللغة العربية لا ينبغي إلا لمن له بكلام العرب ولغتهم كبير دراية، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ قدم المفعولين لنعبد ونستعين، وهذا التقديم للاختصاص؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده له العبادة، لذا لم يقل نعبدك ونستعينك؛ لأنها لا تدل على التخصيص بالعبادة لله تعالى، أما

---

(١) تفسير أبو السعود (١/ ١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٥- ٣٦).

قول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فتعني تخصيص العبادة لله تعالى وحده، وكذلك في الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تكون بالله حصرًا ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة آية ٤) كلها مخصوصة لله وحده حصرًا فالتوكل والإنابة والمرجع كله إليه سبحانه ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم: ١٢)، ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (الملك: ٢٩) تقديم الإيمان على الجار والمجرور هنا؛ لأن الإيمان ليس محصورًا بالله وحده فقط؛ بل علينا الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقضاء والقدر لذا لم تأت به آمنا، أما في التوكل فجاءت وعليه توكلنا، لا توكلنا عليه؛ لأن التوكل محصور بالله تعالى.

ثم اعلم أن العرب من عادتها أن تختصر الكلام وتتقلل فيه باستخدام أقصر العبارات المعبرة عن المراد. فلو أردت أن تنسق الجملة بشكل آخر لتعطي معنى الاختصاص فكنت ستقول: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، فأي التعبيرين أقصر وأبلغ إن كنتم تعقلون؟ ثم إنه لم يقل نستعين بك؛ لأن هناك علة بلاغية أخرى غير التخصيص، فالفعل استعان يتعدى بنفسه وبالباء.

والقاعدة أن الفعل إذا كان يتعدى بنفسه وبغيره؛ فإن الأفصح أن يتعدى بنفسه على قاعدة العرب في أساليبها.

❋ ❋ ❋

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

نص الشبهة:

يقولون: إن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى، وقد قال القرآن عن اليهود ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ ومثل ذلك في الإنجيل عند النصارى، فكيف يكون ذلك؟

ألم يكن من الأفضل أن يكون المغضوب عليهم والضالون هم الكافرون أو المنافقون.

والجواب عن هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ الآيات.

الوجه الثاني: أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟

الوجه الثالث: معنى المغضوب عليهم والضالين.

الوجه الرابع: الوصفان ليسا مقصورين عليهما.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾.

كما هو معلوم من الدين بالضرورة أنه لا ينبغي أن يُفهم نص من دين الله بمعزل عن النصوص الأخرى، فالله جل وعلا ذم ذلك وأخبر أنه سبيل الذين في قلوبهم زيغ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٧). ومدح طريق الراسخين في العلم في فهم الدين فقال: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

ومما سبق يتضح أن الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ على أن اليهود ليسوا هم المغضوب عليهم، وأن النصارى ليسوا هم الضالين استدلال غير

صحيح؛ لأنه اقتطاع لنص من سياقه الذي يفهم من خلاله، ولمزيد بيان نوضح تفسير هذه الآية فنقول: جاءت هذه الآية في سياق الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤١-٤٤).[١]

قال ابن كثير: نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٠).

وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبيﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

قلت: ثم استدل بمجموعة من النصوص نكتفي بنص واحد منها لعدم الإطالة:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مر على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود، فدعاهم فقال: "أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ " فقالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال: "أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم؟" فقال: لا والله، ولولا أنك نَشَدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئًا نقيمه على الشريف والوَضِيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبي ﷺ: "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه". قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمدًا، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

قال: في اليهود إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قال: في اليهود ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: في الكفار كلها.[1]

قال ابن كثير: فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم، مما تراضوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عَملهم على خلافه، بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به؛ لهذا قالوا ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتباعه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.[2]

الوجه الثاني: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

لقد ذم الله اليهود في كونهم كانوا يعملون ببعض ما في كتابهم، ولا يعملون بالبعض الآخر؛ فقال الله عن ذلك ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وكان في ذلك تحذيرًا لأمة النبي ﷺ من أن يقعوا فيما وقعت فيه يهود.

فنحن نقول إننا نؤمن بالكتاب كل من عند ربنا، فالقرآن الذي جاء فيه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا

(١) مسلم (١٦٩٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٦).

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ (المائدة: ٤٤)، هو الذي جاء فيه أيضًا عن اليهود ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥). وهو الذي جاء فيه أيضًا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وكذا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

فلماذا يحتج المعترض بآية من القرآن ويعرض عن الباقي؟ هذا سبيل من وقع الزيغ في قلبه ولم يرد إلى الهدى سبيلًا.

إذن فالثناء على التوراة لا يقتضي الثناء على اليهود إلا إذا امتثلوا، وكذلك يقال في النصارى. ولا يقتضي أيضًا أن ما في أيدي اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل هي التي وصفت بأن فيها هدى ونور؛ لأن هذه المعاصرة قد ثبت تحريفها ومخالفتها للأصل الذي أنزل.

الوجه الثالث: معنى المغضوب عليهم والضالين.

إن وصف اليهود بأنهم مغضوب عليهم، والنصارى بأنهم هم الضالون لا يفهم جيدًا إلا إذا فهم معنى هذين الوصفين في لغة العرب، وبالتالي سيفهمون أن معناهما يدل على اليهود والنصارى دلالة مطابقة:

١-فالمغضوب عليهم هم المائلون عن كل خلق واعتقاد إلى طرف التفريط، ومنهم اليهود، والمفرط في الشيء هو المعرض عنه. ويقال أيضًا: هم الذين عرفوا الحق وتركوه، فاليهود فرطوا في شأن نبي الله ولم يطيعوه، وآذوه حتى قالوا بعد أن نجاهم الله من عدوّهم وعرفوا أنه إله واحد ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

وقالوا ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ (البقرة: ٥٥)، يعلمون أن موسى رسول الله حقًّا ومع ذلك يؤذونه فيقولون له ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾ يرزقهم الله المن والسلوى فيقولون ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾، يريهم الله الآيات العظام ويحيى لهم الموتى، ثم تكون النتيجة

عكس كل ما هو متوقع، فتقسوا قلوبهم؛ بل تفوق الحجارة في القسوة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: ٧٤).

يعلمون أن سليمان نبي من عند الله، ومع ذلك يتبعون ما قالته الشياطين فيرمونه عليه السلام بالسحر وأنه ليس بنبي، أليس قد وقع منهم الميل عن كل خلق واعتقاد إلى طرف التفريط أي أعرضوا عن شرع الله وما أمروا به.

والضالون هم المائلون إلى طرف الإفراط ومنهم النصارى، والإفراط هو مجاوزة حد الاعتدال. ويقال أيضًا الذين تركوا الحق على جهل وضلال، فهذا حال النصارى أفرطوا وقالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣).

فلا حال يجلي الضلال من حال قوم عبدوا بشرًا، خرج من مخرج الطمث، واستضعفه خلقه حتى صلبوه، وحواه التراب الذي يزعمون أنه خلقه.

وكلام ابن القيم يذكر بعضًا من ضلالهم فيقول:

" المثلثة " أمة الضلال وعباد الصليب، الذين سبوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء؛ بل قالوا فيه ما ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها: أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى إلى أن قتل ومات ودفن، فدينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان، يقولون في دعائهم: يا والدة الإله ارزقينا، واغفري لنا وارحمينا، فدينهم شرب الخمور وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، والحلال ما حلله القس والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجيهم من عذاب السعير[1]".

---

(١) هداية الحيارى (صـ٨).

الوجه الرابع: الوصفان ليسا مقصورين عليهما.

تفسير الشيء ببعض أفراده لا يقتضي تخصيصه به، ولا قصره عليه فقول الله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ له تفسير عام قد أسلفناه، وبينا أن المعنى شمل اليهود والنصارى لانطباق الصفات عليهم، فمن يشاركهم في هذه الصفات يدخل معهم سواء كان من الملحدين أم من المشركين أم من المنافقين. والنبي ﷺ عندما فسر المغضوب عليهم والضالين باليهود والنصارى لم يحصر ذلك فيهما؛ بل قال: (فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال). [1]

❋ ❋ ❋

(١) الترمذي (٢٩٥٤) من حديث عدي بن حاتم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٢٠٢).
وراجع تفصيل هذه الشبهة في شبهة: "ثناء القرآن والإنجيل على التوراة والإنجيل" من شبهات العقيدة.

سورة البقرة

وفيها:

١- شبهة: حول الحروف المقطعة في أوائل السور.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

٣- شبهة: ادعاؤهم اعتراض الملائكة على الله تعالى.

٤- شبهة: حول سجود الملائكة لآدم.

٥- شبهة: حول نفي الشفاعة.

٦- شبهة: حول تحليل الانتقام.

٧- شبهة: ادعاؤهم أن الله ـ تعالى ـ يحلل الكذب للناس.

٨- شبهة: حول أعظم آية في القرآن الكريم.

٩- شبهة: حول معاصرة إبراهيم للنمرود، وادعاؤهم أن النمرود كان سابقًا لإبراهيم عليه السلام بـ ٣٠٠ سنة.

١٠- شبهة: حول الرجل الذي مات مائة سنة.

١١- شبهة: حول شك إبراهيم عليه السلام.

١- شبهة: حول الحروف المقطعة في أوائل السور.

نص الشبهة:

وفي ذلك اعتراضات:

أولًا: ما معنى هذه الكلمات؟ وهل يعطي الله طلاسم وكلامًا غير مفهوم؟

ثانيًا: يحتاج إلى مفسرين وجهابذة لكي نعرف ماذا يقصد بكلمة آلم أو آلر؟

ثالثًا: ماذا يفعل الذين يقطنون في أماكن نائية وليس عندهم مفسرين للُّغة؟

رابعًا: ماذا يفعل غير العرب عندما يقرءون هذه الكلمات؟

خامسًا: كيف تُفَسَّرُ إلى الإنجليزية أو الفرنسية؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

الوجه الثاني: ما ذكره أهل العلم في معانيها.

الوجه الثالث: هذه الأحرف حجةٌ على من عارض القرآن.

الوجه الرابع: هذه الأحرف دالة على صدق النبوة.

الوجه الخامس: هذه الأحرف تدل على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى.

الوجه السادس: لو كانت هذه الأحرف طلاسم-كما يزعمون-لطعن في ذلك اليهود والمشركون.

الوجه السابع: على التسليم بأنها غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس.

الوجه الثامن: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

الوجه التاسع: توضيح أهل العلم لها من معان وأسرار يدل على أنها ليست من الطلاسم.

الوجه العاشر: الرد على قولهم ماذا يفعل الذين يقطنون في أماكن نائية وليس عندهم مفسرين للغة؟

الوجه الحادي عشر: الرد على قولهم: هل يحتاجون إلى مفسرين وجهابذة في اللغة لكي نعرف ماذا يقصد بكلمة آلم، آلر، كهيعص؟

واليك التفصيل

الوجه الأول: أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

للعلماء فيها قولان:

القول الأول: لا نخوض في تأويلها؛ لأن هذا علمٌ مستورٌ، وسِرٌّ محجوبٌ، استأثر الله تبارك وتعالى به، ولا يجب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونُمِرُّها كما جاءت.

القول الثاني: لنا أن نفسرها ونلتمس ما فيها من المعاني.

قال ابن عطية: والصواب ما قاله الجمهور أن تُفَسَّرَ هذه الحروفُ ويُلتَمَسَ لها التأويل[١].

والدليل على هذا القول – الثاني –:

أما الآيات فأربعة عشر:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤) أَمَرَهُمْ بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه؟

ثانيها: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) فكيف يأمرهم بالتدبر فيه لمعرفة نفي التناقض والاختلاف مع أنه غير مفهوم للخلق؟

ثالثها: قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥) فلو لم يكن مفهومًا بطل كون الرسول ﷺ منذرًا به، وأيضًا قوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ يدل على أنه نازل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون مفهومًا.

رابعها: قوله: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (النساء: ٨٣) والاستنباط منه لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه.

خامسها: قوله: ﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩) وقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٦).

سادسها: قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) وغير المعلوم لا يكون هدى.

سابعها: قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ (القمر: ٥) وقوله: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧) وكل هذه الصفات لا تحصل في غير المعلوم.

ثامنها: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

تاسعها: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥١) وكيف يكون الكتاب كافيًا، وكيف يكون ذكرى مع أنه غير مفهوم؟.

عاشرها: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ فكيف يكون بلاغًا، وكيف يقع الإنذار به مع أنه غير معلوم؟ وقال في آخر الآية: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (إبراهيم: ٥٢) وإنما يكون كذلك لو كان معلومًا.

الحادية عشرة: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤) فكيف يكون برهانًا ونورًا مبينًا مع أنه غير معلوم؟

الثانية عشر: قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤) فكيف يمكن اتباعه والإعراض عنه غير معلوم؟

الثالثة عشر: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩) فكيف يكون هاديًا مع أنه غير معلوم؟.

الرابعة عشر: قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ (البقرة: ٢٨٥) إلى قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥) والطاعة لا تمكن إلا بعد الفهم فوجب كون القرآن مفهومًا.

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: "إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنّتي". [١]

فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم؟.

الاحتجاج بالمعقول:

أما المعقول فمن وجوهٍ:

الأول: أنه لو ورد شيء لا سبيل إلى العلم به؛ لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللغة الزنجية، ولما لم يجز ذاك فكذا هذا.

والثاني: أن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهومًا لكانت المخاطبة به عبثًا وسفهًا، وأنه لا يليق بالحكيم.

والثالث: أن التحدي وقع بالقرآن، وما لا يكون معلومًا لا يجوز وقوع التحدي به. [٢]

قلت: فهي على هذا لابد أن لها معنى، وجهل البعض بالمراد منها لا يضر؛ فإن الراسخين في العلم يعلمونه.

الوجه الثاني: ما ذكره أهل العلم في معانيها.

التمس أهل العلم لهذه الأحرف جملة من المعاني، منها:

الأول: أن يقال: إنها أسماءٌ للسور، وهو قول أكثر المتكلمين واختيار الخليل وسيبويه.

الثاني: اسم من أسماء القرآن.

الثالث: فواتح يفتح الله بها القرآن.

الرابع: اسم الله الأعظم.

الخامس: قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه.

السادس: هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال، كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

السابع: هي حروف يشتمل كل حرف منها على معانٍ شتى مختلفة.

---

(١) الترمذي (٣٧٨٦).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣: ٤).

الثامن: هي حروف من حساب الجمل. [١]

وبعد أن ذكر الطبري – رحمه الله – هذه الأقوال؛ قال:

والصواب من القول عندي في تأويل مفاتح السور التي هي حروف المعجم: أن الله ﷻ جعلها حروفًا مقطعةً، ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف؛ لأنه ﷻ أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرةٍ لا على معنى واحد. [٢]

وهذا مضمون ما قاله الشوكاني - رحمه الله - حيث قال:

والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله ﷻ، ولا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه[٣].

وإجمال القول في هذا المقام: أن هذه الأحرف لم يرد في تأويلها شيء صحيح من المعصوم ﷺ فيما علمنا، ولم يجمع أهل العلماء في تأويلها على وجهة معينة، فالأمر على ما ذكره بعض أهل العلم حيث قالوا: فمن ظهر له بعض الأقوال بدليلٍ فعليه اتباعه، وإلا فالوقف أولى[٤].

الوجه الثالث: هذه الأحرف حجة على من عارض القرآن.

حيث قال المبرد واختاره جمع عظيم من المحققين: إن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجًا على الكفار، وذلك أن الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف؛ تنبيهًا على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن ـ هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ـ فلما عجزتم عنه دل

(١) تفسير الطبري (٨٦– ٨٩)، تفسير الرازي (٢/ ٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٩٣).

(٣) فتح القدير (١/ ٤٢: ٤٣).

(٤) التسهيل لتأويل التنزيل (سورة البقرة ١/ ١٤٨).

ذلك على أنه من عند الله لا من البشر.[١]

وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا.[٢]

وأقره الزمخشري ونصره أتم نصر.[٣]

و إليه ذهب الشيخ العلامة أبو العباس ابن تيمية وأبو الحجاج المزي.[٤]

قال ابن كثير: قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت؛ ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن، وجاء منها على حرف واحد كقوله: ﴿صٓ﴾ ﴿نٓ﴾ ﴿قٓ﴾، وحرفين ﴿حمٓ﴾، وثلاثة مثل ﴿الٓمٓ﴾، وأربعة مثل: ﴿الٓمٓر﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾، وخمسة مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف واحد، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة لا أكثر من ذلك.

وقال أيضًا: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١ – ٢)، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ (آل عمران: ١-٣) وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة هذا الوجه لمن أمعن النظر.[٥]

الوجه الرابع: هذه الأحرف دالة على صدق النبوة.

قال الزرقاني: إن هذه الحروف من أعجب المعجزات، والدلالات على صدق

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٧٦).

(٣) الكشاف للزمخشري (١/ ٢٨).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٦: ٢٥٧)، الكشاف (١/ ٣٠)، أضواء البيان (٣/ ٥).

النبي ﷺ. وهذا مما ترضاه النفوس. ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة. وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها. والذي في أول السور أربعة عشر حرفًا منها، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفًا إن لم تعد الألف حرفًا برأسه، فالأربعة عشر نصفها، وقد جاءت في تسع وعشرين سورة، وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف. وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي: (فحثه شخص سكت) بنصفها، هي الحاء، والهاء، والصاد، والسين، والكاف.

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة ـ أي يضعف الاعتماد عليها ـ وهي ما تقدم، وإما مجهورة، وهي ثمانية عشر، نصفها ـ وهو تسعة ـ ذكرت في فواتح السور، ويجمعها (لن يقطع أمر).

والحروف الشديدة ثمانية، وهي (أجدت طبقك) أربعة منها في الفواتح، وهي (أقطك) إلى أخر الحروف بأصنافها.

ثم قال: فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية، إن لم تعدّ الألف، وجعلها في تسع وعشرين سورة عدد الحروف، وفيها الألف؟ وكَيف أتى بنصف المهموسة، ونصف المهجورة. ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة، ونصف المنفتحة.

ثم قال: وإني موقن أن المتعلم لو طُلِبَ منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة، فكيف يراعي الحروف الشديدة؟ وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد؟

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ، وهذا الوجه فيه إعجاز للعقول، وحيرة.

فيقال: كيف تنصف الحروف الهجائية، وتنصف أنواعها من مهموسة، وشديدة. . إلخ وهذه الأنواع لم يدرسها أحدٌ في العالم أيام النبوة! ثم لما ظهرت تلك الدراسات، وافقت تلك الحروف بأنصافها!

إن ذلك ليعطي العقول مثلًا من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون؛

فإذًا هو من الوحي، ومن دلائل صدق النبي ﷺ[1].

الوجه الخامس: هذه الأحرف تدل على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى

قال الزرقاني: إن الله تعالى خلق العالم منظمًا محكمًا، متناسقًا متناسبًا، والكتاب السماوي إذا جاء مطابقًا لنظامه، موافقًا لإبداعه، سائرًا على منهاجه، دلّ ذلك على أنه من عنده، وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفًا لنهجه، منافرًا لفعله، منحرفًا عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعًا، مفتعلًا، منقولًا، مكذوبًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وذكر على ذلك أمثلة من العالم مبينًا بذلك أن لهذه الفواتح معاني في ضوء الوجوه السابقة، وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعاني فليس ذلك عيبًا في القرآن؛ إنما هو عيبٌ في استعداد بعض أفراد الإنسان. وكتاب الله خوطب به الخواص كما خوطب به العوام، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظ لا يفهمها إلا الخاصة دون العامة[2].

قلت: فثبت بما ذُكر من معاني لهذه الحروف المقطعة عند أهل العلم أن لها معنى معلومًا، وليست من الطلاسم والكلام الذي لا يفهم.

فإذا مثلهم في ذلك كأعمى خرج ليلة البدر؛ فقال: إن القمر لا وجود له، أو جاء في وسط النهار، وقال: إن الشمس لم تطلع مع كونها طالعةً ظاهرةً، فهل يضر الشمس والقمر عمى هذه الأبصار؟!

الوجه السادس: لو كانت هذه الأحرف طلاسم -كما يزعمون- لطعن في ذلك اليهود والمشركون.

إن اليهود لم يُعْرَفْ عنهم الطعنُ في القرآن بمثل هذا، ولو كان هذا مطعنًا عندهم لكانوا أول الناس جهرًا به وتوجيهًا له؛ لأنهم كانوا أشد الناس عداوةً للنبي ﷺ والمسلمين، وهم يتمنون أن يجدوا في القرآن مغمزًا من أي نوعٍ يكون؛ ليهدموا به دعوة

---

(١) المناهل (١/ ١٩١: ١٩٢)، الكشاف (١/ ٢٩).

(٢) المناهل (١/ ١٩٢: ١٩٤).

الإسلام. كيف وهم يكفرون به حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق؟ [(١)].

قال السيوطي: لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولًا متداولًا عنهم؛ لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ؛ بل تلا عليهم ﴿حمٓ﴾ و ﴿صٓ﴾ وغيرها فلم ينكروا ذلك؛ بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوقهم إلى عثرة، وحرصهم على زلة، فدل على أنه كان أمرًا معروفًا بينهم لا إنكار فيه[(٢)].

الوجه السابع: على التسليم بأنها غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس.

قال الزرقاني: إن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيانٌ للناس وهدى ورحمة؛ فإن هذه الأوصاف يكفي في تحققها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه، ولا ريب أن الكثرة الغامرة في القرآن كلها بيان للتعاليم الإلهية، وهداية للخلق إلى الحق، ورحمة للعالم من وراء تقرير أصول السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا الجواب مبني على أحد رأيين للعلماء في فواتح تلك السور، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا؛ بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها، ولم يُطْلِعْ عليها أحدًا من خلقه؛ وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية، وهي ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده حتى يميز الخبيث من الطيب، وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ودلائل هدايته وشواهد رحمته في غير تلك الفواتح من كتابه بين آيات وسور كثيرة لا تعتبر تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر أو غيضًا من فيض، فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ولو لم يفهموا معناها، ولم يدركوا مغزاها ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق، أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٥).

---

(١) مناهل العرفان (١/ ١٨٦).

(٢) الإتقان (٣/ ٢٧).

ونظير ذلك أن تكون أستاذًا معلمًا، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك، ومبلغ ثقتهم فيك، وفي علمك، بعد أن زودتهم منك بدراسات واسعة، وتعاليم واضحة، فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الألغاز والخفاء؛ ليظهر الذكي من الغبي؛ والواثق بك الوامق لك من المتشكك فيك، المتردد في علمك وفضلك، فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألغاز والمعميات صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخفاء وهي الاختبار والابتلاء، وأما المتشكك فيك فيقول: ماذا أراد بهذا؟ وكيف ساغ له أن يورده؟ وما مبلغ العلم الذي فيه؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زودته بها من قبل ذلك، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل.

ولا يفوتنَّك في هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلًا منهم ـ حاشاه حاشاه ـ فقد وسع كل شيء علمًا؛ إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم فلا يتهمون الله في عدله وجزائه إذا جعل من الناس أهلًا لثوابه وآخرين لعقابه. [1]

الوجه الثامن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾.

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)

فقولهم آمنا به كل من عند ربنا دليل على الاستسلام والخضوع التام لما جاء من عند الله تعالى حتى لو لم تبلغه العقول، وهذه أسمي الغايات وأحسن الحكم.

وذلك أن الأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصلاة والزكاة والصوم؛ فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة. ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه: كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات، والسعي

---

(١) المناهل (١/ ١٨٦-١٨٨).

بين الصفا والمروة، والرمل، والاضطباع، ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني؛ لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم؛ لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال فلم لا يجوز أيضًا أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر؛ بل فيه فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه متلفتًا إليه أبدًا، ومتفكرًا فيه أبدًا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدًا مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلًا لهذه المصلحة[1].

الوجه التاسع: توضيح أهل العلم لها من معان وأسرار يدل على أنها ليست من الطلاسم

فقد بوب أهل العلم في علوم القرآن بابا مخصوصا حول أسرار الفواتح، والتمسوا لها المعاني.

قال ابن القيم: تأمل سر (الم) كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولًا كانت همزة وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط المخارج وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين، وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا؛ فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين

---

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٥).

مع تضمنها سرًا عجيبًا وهو أن الألف البداية، واللام التوسط، والميم النهاية فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه، فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم.

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن؛ فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر والشدة والاستعلاء والإطباقآ، والسين مهموس رخو مستفل صفيري منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف؟ فمن ذلك "ق" والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة "ص" من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي أجعل الآلهة لها واحد إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيًا في شأن بنيه، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل

اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير ص وسورة ق غير حرفها؟ وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف والله أعلم(١).

قلت: فظهر بما ذكرنا من الأوجه أن هذه الحروف لها معان تكلم فيها أهل العلم، فليست من الطلاسم ولا من الكلام الذي لا يفهم وبظهور المعني تظهر الحكمة.

الوجه العاشر: الرد على قولهم: ماذا يفعل الذين يقطنون في أماكن نائية، وليس عندهم مفسرين للغة؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أننا لا نسلم بوجود أماكن نائية لدرجة أنه لا يمكنها أن تتصل بأهل العلم أو تسمع منهم، وبخاصة في هذه الأيام التي صار العالم فيها كقرية صغيرة بسبب هذا التقدم العلمي ووسائل الاتصال والنشر الحديثة.

الوجه الثاني: أن هؤلاء الذين هم في الأماكن النائية نقول لهم هل وصلكم القرآن أم لا؟

والظاهر أنه وصلهم؛ لأنهم يسألون عن التفسير، ومادام القرآن وصلهم فإننا نقول لهم: الجهة التي أوصلت إليكم القرآن والإسلام قبل ذلك توصل إليكم ما غمض عنكم من التفسير والأحكام إن شاء الله تعالى.

الوجه الثالث: نحن نسأل هذا المتكلم، أين هذه الأماكن النائية التي انعدمت صلتها بنا ونحن أمام الله مسئولون عن توصيل الدعوة بما تحتاجه إليهم، فما عليكم إلا أن تقولوا لنا أين هذه الأماكن؟

الوجه الرابع: وعلى التسليم بوجود أماكن بهذا الوصف؛ فإما أن يكون بلغها الإسلام أو لا، فإن لم يكن الإسلام بلغهم، ولم يعلموا عنه لا اسمًا ولا رسمًا، فكيف يسألون عن القرآن وعن فهمه؟ وأيضًا ماداموا كذلك وماتوا ولم يصلهم الإسلام؛ فإن الله تعالى قال في محكم كتابه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩٣)، البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦٨).

وإن كان الإسلام وصلهم فإما أن يكونوا دخلوا فيه أو لا، فإن لم يكونوا دخلوا في الإسلام، فإن في المحكم الواضح الدلالة من كتاب الله؛ بل في الكون وفي أنفسهم ما يدعوهم إلى الإسلام، فإن دخلوا فيه وأرادوا أن يعرفوا معني هذه الكلمات فإن هذا باب من أبواب العلم.

لكن هل يجب عليهم ذلك؟ والجواب لا يجب؛ لأن العلم منه ما هو فرض ومنه ما هو فرض كفايه.

قال أبو عمر: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع. واختلفوا في تلخيص ذلك، والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه، نحو: الشهادة باللسان، والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له لا شبه له، ولا مثل، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، خالق كل شيء، و إليه مرجع كل شيء.[1]

قلت: فثبت أن معرفة تفسير هذه الحروف ليس واجبًا متعينًا على جميع الأفراد، وإنما يقوم به البعض بمعرفته؛ لينذر قومه ويزيل عنهم الشبهة.

لكن كيف يتعلم هذا البعض معني هذه الكلمات؟

والجواب عن ذلك في القرآن حيث قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ **وكيف يسأل؟**

والجواب من وجوه:

١- يرحل إلى العلماء.

٢- أن يدعو العلماء إلى بلادهم.

٣- المراسلة.

(١) مختصر جامع بيان العلم وفضله (١٢-١٥).

٤- القراءة في كتب التفسير.

الوجه الخامس: قال الله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا الذي يسكن الأماكن النائية، ويحتج له على القرآن بأنه لا يفهم الحروف المقطعة.

وأقول: وهو أيضًا لايفهم كثيرًا من الأحكام وكثيرًا من الآيات، فهل هذا عيب في الأحكام أو سائر الآيات؟! أم أنه يجب عليه أن يطلب العلم بوسائله المشروعة، وأيضًا فإنه يجهل كثيرًا من أمور دنياه ومن الحقائق العلمية ولا يستطيع تفسيرها ولا الوصول إليها. فهل هذا عيب على الحقائق العلمية؟ أم يقال: إن هؤلاء الناس يحتاجون إلى تعلم ودراسة ونحو ذلك. فالذي ينبغي على هؤلاء أن يطلبوا الحق ويقبلوه، وعلامة ذلك أن تكون قاعدتهم في القبول والرد لا على حسب الأهواء.

والرد على قولهم ماذا يفعل غير العرب؟

فجوابه في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ أي سهلناه للحفاظ، وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب علم لحفظه فيعان عليه أو هيأناه للذكر؟

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتابٌ يقرأ كله ظاهرًا إلا القرآن. . . فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذَّكَّروا ما فيه، أي يفتعلوا الذكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم. وقوله ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قارئ يقرؤه، أو فهل من طالب خير و علم فيعان عليه؟ [1].

فهذا تنويه بشأن القرآن، وأنه من عند الله، وأن الله يسره وسهله لتذكر الخلق بما تحتاجونه من التذكير مما هو هدي وإرشاد وهذا التيسير ينبئ بعناية الله تعالى به مثل قوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ تبصرة للمسلمين ليزدادوا إقبالًا على مدارسته وتعريضًا

(١) القرطبي (١١/ ١٣٠، ١٣١).

للمشركين عسي أن عن صدودهم عنه كما أنبأ عنه قوله ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وتأكيد الخبر باللام وحرف التحقيق مراعي فيه حال المشركين الشاكين في أنه من عند الله، والتيسير إيجاد اليسر في الشيء كقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ أو قول كقوله ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ واليسر السهولة وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء.

وإذ كان القرآن كلامًا فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يُراد من الكلام وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به بدون كلفة على السامع ولا إغلاق كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن. وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأما من جانب الألفاظ فلذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني، فبوضوح انتزاعها من التراكيب ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له.

هذا وقد فرض الله على علماء القرآن تبيينَه تصريحًا كقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وتعريضًا كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾، فإن هذه الأمة أجدر بهذا الميثاق. وفي الحديث: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلُون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلتْ عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ". [(١)]

قلت: فظهر بهذه الآية أن الله وعد وأخبر أن القرآن ميسر كله لكل أجناس البشر الذين يطلبون الحق ولهذا نري في الناس من لا يحسن العربية شيًا لكن يقرأ القرآن قراءة صحيحة فسبحان من يسر القرآن للذكر.

فإن قال هذا صعب فالجواب من وجوه:

الأول: أنه تلزمه القراءة هكذا ولا يجوز له أن يترجم القرآن ترجمة حرفية ومن دخل

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٨، ١٨٩).

ديننا تعلم لغة كتابنا.[١]

الثاني: أن الأجر يزداد مع المشقة وقد أخبر النبي ﷺ أن الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران.[٢]

الثالث: أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها وقد قال ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

قولهم كيف تفسر إلى اللغات الأخرى؟

فقد بينا في المقدمة أنه يقوم عالم من العلماء بصياغة تفسير سهل يختار فيه القول الراجح عنده ثم يترجم هذا التفسير وهذا في سائر القرآن ومنه هذه الحروف.[٣]

وعلى هذا فقد ظهر لنا وللسائل معني هذه الكلمات عند أهل العلم والحكمة منها حتى لو لم يكن المعني ظاهر.

وكيف يفعل الذين يسكنون الأماكن النائية وغير العرب وكيف تفسر إلى اللغة الانجليزية أو غيرها وبهذا تثار هذه الشبهة إن شاء الله على أصحابها لأن الكلمات لها معني وهي من القرآن السهل الميسر، غير أنه بقيت مسألة.

الوجه الحادي عشر: الرد على قولهم: هل يحتاجون إلى مفسرين وجهابذة في اللغة لكي نعرف ماذا يقصد بكلمة الم، الر، كهيعص.[٤]

فجوابه أولًا: إنهم لا يحتاجون إلى الجهابذة والخبراء في فواتح السور فحسب بل يحتاجون إليهم في فهم أكثر كلمات القرآن الكريم لأن ذلك علم من علوم القرآن بل من

---

(١) انظر المقدمة.

(٢) الحديث عند البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (٧٩٨).

(٣) انظر المقدمة.

(٤) قلت: هذا من أعجب العجب فليقل لنا هذا المتكلم عن أي كتاب ألفه فاضل في فن من الفنون وعمل فيه جهده وخبرته ثم فهمه غير أهل العلم هذا الفن من غير استشراح لكله أو لبعضه. فكيف إذا كان الكتاب كلام الله رب العالمين فهل يحيط هؤلاء بمعانيه من غير رجوع إلى أهل الفن والخبرة أمثال ابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ فقال "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" وهؤلاء أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم.

علوم الإسلام العظيمة وهو علم التفسير والتأويل.

وهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية. [١]

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ولا سهلة متيسرة ولا رائعة مدهشة إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم خالقه الحكيم وبديهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره.

وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن وهو ما نسميه بعلم التفسير خصوصًا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم.

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس وإعزاز العالم، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن وتوفروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها. وهنا تلمح السر في تأخر مسلمة هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الحفاظ بين ظهرانيهم وعلى رغم كثرة عددهم واتساع بلادهم في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحًا مدهشا كان وما زال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد وضيق من الأرض وخشونة من العيش ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ومع أن حفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة.

أجل إن السر في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية وبما يشرح رسول الله ﷺ ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال سبحانه

---

(١) المناهل (٢/ ٦).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ثانيا: فإن القرآن نزل بلسان عربي في زمان أفصح العرب فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ مثل قولهم: وأينا لم يظلم نفسه حينما نزل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ففسره النبي ﷺ بالشرك واستدل بقوله إن الشرك لظلم عظيم[2].

ومما تقدم يتبين أن فائدة التفسير هي التذكر والاعتبار ومعرفة هداية الله في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وسمي علم التفسير لما فيه من الكشف والتبين[3].

قلت: وهذا التفسير لابد له من جهابذة يقومون به شأن سائر العلوم والتخصصات ومن ينكر هذا؟!.

ورد عن ابن عباس أنه قال: إن التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تفسره العرب بألسنتها وتفسير تفسره العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله.

قال الزركشي: وهذا تقسيم صحيح:

١- فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك شأن اللغة والإعراب فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها ولا يلزم ذلك القارئ ثم إن كان ما تتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفي فيه خبر الواحد والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين وإن كان مما يوجب العلم لم يكف ذلك بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ليتوصل المفسر إلى معرفة الحكم وليسلم القارئ من اللحن وإن لم يكن محيلًا للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ولا يجب على المفسر

---

(١) المناهل (٢/ ٨-١٠).

(٢) البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

(٣) المناهل (٢/ ١١).

ليتوصل إلى المقصود دونه على أن جهله نقص في حق الجميع إذا تقرر ذلك فما كان من التفسير راجعا إلى هذا القسم فسبيل المفسر التوقف فيه على ما ورد في لسان العرب وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين.

٢- وأما مالا يعذر واحد بجهله وهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد وكل لفظ أفاد معنى واحدًا جليًا لا سواه يعلم أنه مراد الله تعالى فهذا القسم لا يختلف حكمه ولا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله وأنه لا شريك له في إلهيته وإن لم يعلم أن لا موضوعة في اللغة للنفي وإلا للإثبات وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر. فما كان من هذا القسم لا يقدر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة.

٣- وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجرى مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة قيام الساعة ونزول الغيث وما في الأرحام وتفسير الروح والحروف المقطعة وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف من أحد ثلاثة أوجه:

إما نص من التنزيل، أو بيان من النبي ﷺ، أو إجماع الأمة على تأويله فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات علمنا أنه مما استأثر الله تعالى بعلمه.

٤- ما يرجع إلى اجتهاد العلماء وهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل وهو صرف اللفظ إلى ما يئول إليه فالمفسر ناقل والمؤول مستنبط وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه.

وقال أيضًا: والحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ومنه ما لا يتوقف قوله ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر.

ثم قال: واعلم أن القرآن قسمان احدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره وقسم لم يرد.

والأول ثلاثة أنواع، إما أن يرد التفسير عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، أو عن رءوس التابعين فالأول يبحث في عن صحة السند والثاني ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك وإن تعذر قدم ابن عباس لأن النبي ﷺ بشره بذلك حيث قال اللهم علمه التأويل. وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لقوله ﷺ أفرضكم محمد زيد فإن تعذر الجمع جاز للمقلد أن يأخذ بأيها شاء وأما الثالث وهم رءوس التابعين إذا لم يرفعوه إلى النبي ﷺ ولا إلى أحد من الصحابة ﷺ فحيث جاز التقليد فيما سبق فكذا هنا وإلا وجب الاجتهاد.

والثاني ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق وهذا يعتني به الراغب كثيرًا في كتاب المفردات فيذكر قيدًا زائدًا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتصه من السياق. والذي يجب على المفسر البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره وهو كما قالوا إن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته لأن الجزء سابق على الكل في الوجود من الذهبي والخارجي فنقول النظر في التفسير هو بحسب أفراد الألفاظ وتراكيبها[1].

قلت: وبهذا يظهر أن الحاجة إلى العلماء المتخصصين في فهم القرآن أمر لا يطعن في القرآن ولا في هدايته، والله أعلم.

* * *

---

(١) البرهان للزركشي (٢/ ١٦٤ – ١٧٤)، والإتقان (٢/ ١٤١ – ٢٥٩).

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦).

١- لما ضرب محمد ﷺ المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل، قال المعارضون: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة! إننا لا نعبد إلهًا يذكر هذه الأشياء، فقال محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ فأجابهم من جنس قولهم ولم يأت بجديد.

٢- كان ينبغي أن يقول بعوضة فما تحتها لا بعوضة فما فوقها، فما تحتها هو الصحيح في مثل هذا الموقف، وقد حاول علماء المسلمين تفسير هذا فقالوا: أي دونها في الصغر[1].

الجواب على هذه الشبهة بعون الله تعالى من وجوه:

الوجه الأول: الآية حوت علمًا وبلاغة عظيمة.

الوجه الثاني: أين الأمانة في النقل؟

الوجه الثالث: بلسان عربي مبين.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية حوت علمًا وبلاغة عظيمة.

قول المعترض: إن محمدًا ﷺ لم يأت بجديد، فهذا غير صحيح؛ بل إن الآية إنما حوت علمًا وبلاغة عظيمة نذكر من ذلك:

١- إثبات صفة الحياء لله ﷻ على الوجه الذي يليق به سبحانه، وهذا مما لا يعرف بالعقل.

٢- بيان شيء من علل ضرب الأمثال بالشيء دق أو عظم، وهو ابتلاء، وذلك يتضح في بقية الآية من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة: ٢٦).

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٦).

٣ـ كونكم تقولون: إن ما ردَّ به النبيﷺ هو من جنس قولهم! فهذا لا يقال بسببه: إن القرآن ليس من عند الله؛ لأن من استعظم أمر الأمثال إنما سأل فأجابه القرآن، ومعلوم بداهة أن الإجابة تحوي جزءًا من السؤال الذي تجاوب عليه، ومثل هذا جاء كثيرًا في كتاب الله، فالنبيﷺ قد طُرح عليه أكثر من عشرات الأسئلة، وقد جاءت الإجابة في الكتاب أو السنة أو كليهما معًا مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾، فأي جديد يريد المعترض؟!

أن يُسأل عن أمر فتكون الإجابة عن أمر آخر، أو بلغة أخرى حتى يكون قد أتى بجديد! !

الوجه الثاني: أين الأمانة في النقل؟

نَقْلُ المعترض عن الطبري فيه شيء من عدم الدقة والأمانة العلمية للنقل، فأصول النقل العلمية تقتضي عدم تقطيع الكلام بشكل يوهم غير ما أراده قائله، أو بشكل يعبر عن وجهة نظر لم يردها القائل، وذلك يتضح في نقل المعترض عن الطبري تفسيرـ فما فوقها ـ بما دونها في الصغر، وترك تعليق الطبري إذ قال: (وهذا – أي التفسير بما دونها في الصغر – قول خلاف تأويل أهل العلم الذين ترتضى معرفتهم بتأويل القرآن). [1]

الوجه الثالث: بلسان عربي مبين.

إن لغة العرب التي خاطبنا الله ﷻ بها في كتابه وخاطبنا بها النبيﷺ محفوظةٌ –ولله الحمد– فقول المعترض: ولقد حاول علماء المسلمين تفسير هذه الآية بما دونها في الصغر، كلام لازمه أن أي أحدٍ له أن يُدْخِلَ في لغة العرب ما يشاء، وهذا معلوم بطلانه بالضرورة عند كل من له أدنى مسكة من علم في اللغة.

إذن المرجع في فهم قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ هي اللغة العربية وإليك بيان ذلك:

قال ابن قتيبة: من ذلك فَوْق؛ تكونُ فوق، وتكون بمعنى دون، ومنه قوله تعالى:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠٦).

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ أي فما دُونها.[١]

قال الجاحظ: في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يريد فما دونها، وهو كقول القائل: فلان أسفل الناس، فتقول: وفوق ذلك! تضع قولك فوق مكان قولهم: هو شر من ذلك، وقال الفراء: فما فوقها في الصغر.[٢]

قال ابن منظور: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ قال أبو عبيدة: فما دونها، كما تقول إذا قيل لك: فلان صغير تقول: وفَوْقَ ذلك؛ أي أصغر من ذلك، وقال الفراء: فما فَوْقَها؛ أي أعظم منها يعني الذُّباب والعَنْكبوت[٣].

وحاصل القول ما قاله الآمدي: وليس لهذه اللغة عندهم إلا وجهان:

أحدهما: أن يكون (فما فوقها) بمعنى فما هو أكبر منها؛ لأن البعوضة غاية في الصغر، فيكون المعنى: أنهﷻ لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بين هذا الشيء الذي هو نهاية الصغر إلى ما هو فوقه أي: ما زاد عليه وتجاوز.

والوجه الآخر: أن يكون (فما فوقها) بمعنى فما فوقها في الصغر، وهذا قول أبي العباس محمد بن يزيد المبرد وأبي إسحاق الزجاج والكسائي من قبلهما وأبي عبيدة وما أظن غير هؤلاء (من النحويين) يقول إلا مثل قولهم.[٤]

قال الزمخشري: فيه – أي في قوله "فما فوقها" – معنيان:

أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلًا، وهو القلّة والحقارة، نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم: هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة.

---

(١) المزهر (١/ ١٢٢).

(٢) فقه اللغة ١/ ٨٥.

(٣) لسان العرب (١٠/ ٣١٥).

(٤) الموازنة (١/ ٤٢).

والثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت؛ لأنهما أكبر من البعوضة، كما تقول لصاحبك ـ وقد ذمّ من عرفته يشح بأدنى شيء ـ فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت: فضلًا عن الدرهم والدرهمين.[1]

ولقد أحسن ابن عاشور فقال: وأصل فوق، اسم للمكان المعتلي على غيره فهو اسم مبهم فلذلك كان ملازمًا للإضافة؛ لأنه تتميز جهته بالاسم الذي يضاف هو إليه، فهو من أسماء الجهات الملازمة للإضافة لفظًا أو تقديرًا، ويستعمل مجازًا في المتجاوز غيره في صفة تجاوزًا ظاهرًا تشبيهًا بظهور الشيء المعتلي على غيره على ما هو معتل عليه، ففوق في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة؛ سواء كانت من المحامد أو من المذام، يقال: فلان خسيس وفوق الخسيس، وفلان شجاع وفوق الشجاع، وتقول: أُعطِيَ فلان فوق حقه أي زائدًا على حقه، وهو في هذه الآية صالح للمعنيين؛ أي ما هو أشد من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجمًا، ونظيره قول النبي ﷺ: "ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة"[2]، يحتمل أقل من الشوكة في الأذى مثل نَخْبة النملة كما جاءَ في حديث آخر، أو ما هو أشد من الشوكة مثل الوخز بسكين، وهذا من تصاريف لفظ فوق في الكلام ولذلك كان لاختياره في هذه الآية دون لفظ أقل ودون لفظ أقوى مثلًا موقع من بليغ الإيجاز[3].

* * *

(١) الكشاف (١/ ٧١ – ٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٣).

٣- شبهة: ادعاؤهم: اعتراض الملائكة على الله تعالى.

نص الشبهة:

يقول المعترض: قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

تقول هذه العبارة: إن الله استشار الملائكة قبل خلق آدم فاعترضوا عليه، وهو غير معقول؛ فإن الله غني عن ذلك، يَا لَعُمْقِ غِنَى الله وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! «لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟ أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ؟ ». لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ المَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. (رومية ١١/ ٣٣ -٣٦). فالله غني عن الاستشارة؛ لأنه عالم بكل شيء.

ويعلمنا كتاب الله أن الملائكة هم عباده المعصومون عن الخطأ والزلل، أما عبارة القران فتفيد أن الملائكة اقترفوا أربع معاصٍ وهي:

١ـ اقترفوا الغيبة في حق من يجعله الله خليفة بأن ذكروا عيوبه.

٢ـ في كلامهم العُجب وذكر محاسن النفس.

٣ـ قالوا ما قالوه من نسبة الإفساد والسفك رجمًا بالظن، وإلا شاركوا الله في علم الغيب.

٤ـ فيه إنكار على الله فيما يفعله وهو من أعظم المعاصي[1].

ولما رأى علماء المسلمين هذا الخطأ في القرآن قسموا الملائكة إلى قسمين: قسم في السماء وقسم في الأرض، وقالوا: إن الذين في الأرض هم الجن وقد أفسدوا، فإذا سلمنا بصدق قولهم فلا يصح أن الله يستشيرهم.

ولما رأوا أنه لا يجوز أن يتصف الملائكة بعلم الغيب قالوا: إن الله أخبرهم بما سيكون من بني آدم من سفك الدماء، أو أنهم رأوا أن آدم خلق من أخلاط مركبة علموا أنه يكون

---

(١) الرازي في تفسير البقرة (٢/ ٣٠).

فيه الحقد والغضب؛ ومنهما يتولد الفساد وسفك الدماء، مع أن التوراة تخبرنا أن الله خلق آدم في البر والطهارة والقداسة منزها عن الحقد وباقي الرذائل.

لقد تضمنت هذه الشبهة عدة اعتراضات:

١ـ كيف يستشير الله الملائكة في خلق آدم وهو الغني عن ذلك؟

٢ـ كيف نسب القرآن للملائكة هذه الأخطاء مع أنهم معصومون؟

٣ـ الغيبة لآدم عليه السلام.

٤ـ العجب بالنفس.

٥ـ وصفوا ذرية آدم بالإفساد في الأرض بمجرد الظن.

٦ـ أنكروا على الله تعالى هذا الأمر.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل الملائكة في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض الأول.

الوجه الثالث: بيان عصمة الملائكة، والرد على الاعتراضات الأخرى.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل الملائكة في القرآن والسنة.

أولًا: الملائكة كرام بررة:

وصف الله تعالى الملائكة بأنهم كرام بررة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ (عبس: ١٥: ١٦) أي: القرآن، بأيدي سفرة أي: الملائكة؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم كرام بررة أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارّة طاهرة كاملة.

ثانيًا: استحياء الملائكة: من أخلاق الملائكة التي أخبرنا الرسول ﷺ بها الحياء، فعن عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه،

فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه - قال محمد ولا أقول ذلك في يوم واحد - فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"(١).

ثالثا: علم الملائكة:

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة: ٣١- ٣٢)، فالإنسان يتميز بالقدرة على معرفة الأشياء واكتشاف سنن الكون، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: مُنظّمون في كل شؤونهم:

الملائكة منظمون في عبادتهم لله تعالى، وقد حثنا الرسول ﷺ على الاقتداء بهم في ذلك، فعن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: "مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس؟ اسكنوا في الصلاة"، قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقًا فقال: ما لي أراكم عزين؟ قال: ثم خرج علينا فقال: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ " فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: "يتمون الصفوف الأُول ويتراصون في الصف"(٢).

وفي يوم القيامة يأتون صفوفًا منتظمة: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:٢٢) ويقفون صفوفًا بين يدي الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ

(١) صحيح مسلم (٢٤٠١).

(٢) مسلم (٤٣٠).

أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ (النبأ: ٣٨).

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك"(١).

خامسًا: طاعتهم لله تعالى: وأدلة ذلك كثيرة منها:

الأول: قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ (الصافات: ١٦٦)، والله تعالى ما كذبهم في ذلك فثبت بها مواظبتهم على العبادة.

الثاني: مبادرتهم إلى امتثال أمر الله تعظيمًا له وهو قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣﴾ (الحجر: ٣٠).

الثالث: أنهم لا يفعلون شيئًا إلا بوحيه وأمره؛ وهو قوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ (الأنبياء: ٢٧).

فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "ألا تزورنا أكثر مما تزورنا"، قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ (مريم: ٦٤) الآية(٢).

سادسًا: وصف قدرتهم وذلك من وجوه:

الأول: أن حملة العرش وهم ثمانية يحملون العرش والكرسي، ثم إن الكرسي الذي هو أصغر من العرش أعظم من جملة السموات السبع لقوله سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فانظر إلى نهاية قدرتهم وقوتهم.

الثاني: أن علوَّ العرش شيء لا يحيط به الوهم؛ ويدل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿تَعۡرُجُ

---

(١) مسلم (١٩٧)، عالم الملائكة لعمر الأشقر (١٩).

(٢) البخاري (٣٠٤٦).

ﱡﭐٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ﱠ (المعارج: ٤)، ثم إنهم لشدة قدرتهم ينزلون منه في لحظة واحدة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨)، فصاحب الصور يبلغ في القوة إلى حيث إن بنفخة واحدة منه يصعق مَنْ في السموات والأرض، وبالنفخة الثانية منه يعودون أحياء.

والرابع: أن جبريل عليه السلام بلغ في قوته إلى أن قلع جبال آل لوط وبلادهم دفعة واحدة.[1]

الخامس: عظم سرعتهم: فأعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية الواحدة، أما سرعة الملائكة فهي فوق ذلك، وهي سرعة لا تقاس بمقياس البشر، فكان السائل يأتي إلى الرسول ﷺ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة سبحانه وتعالى، واليوم لو وجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى مليار سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في الآفاق.[2]

سابعًا: وصف خوفهم ويدل عليه وجوه:

الأول: أنهم مع كثرة عباداتهم وعدم إقدامهم على الزلات البتة يكونون خائفين وجلين حتى كأن عبادتهم معاصٍ؛ قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ (النحل: ٥٠)، وقال: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

الثاني: قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ (سبأ: ٢٣)[3].

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض الأول

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٥١).

(٢) عالم الملائكة لعمر الأشقر (٢٢).

(٣) الرازي (٢/ ١٥١).

زعم المعترض أن قول الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كان على سبيل الاستشارة، وللرد عليه نقول وبالله تعالى التوفيق:

أولًا: إن أمور الغيب التي أخفاها الله تعالى عنا، والحِكم المرجوة من العبادات لا نستطيع الاطلاع عليها، أو معرفتها إلا بما عَلَّمَنا الله تعالى إياه في كتابه الكريم، أو ورد في السنة الصحيحة عن المعصوم ﷺ، أو عن أحد الصحابة المكرمين بشرط ثبوت الإسناد عنه، ويكون هذا الوارد عن هذا الصحابي الجليل من قبيل الاستئناس وليس من قبيل الجزم به، فطالما أن هذا الأمر لم يرد لا في كتاب ولا سنة صحيحة فنحن متوقفون فيه، ونَكِلُ علمه إلى الله تعالى، ولا نتكلم فيه برأينا، ونقول: الله أعلم، ولا ينقص هذا الأمر من عظمة ديننا ولا من إيماننا بربنا ونبينا؛ بل هو على العكس تمامًا هو من أساس العبودية والتسليم لله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧)، على أننا ننفي تمامًا أن يكون الله تعالى قد استشار الملائكة في خلق آدم عليه السلام، والاستشارة دائمًا تكون لطلب رأي ليس عندك أو لزيادة الاطمئنان؛ وفي كلتا الحالتين يدل هذا على عدم العلم بالأمور، ونحن نعتقد يقينًا أن الله تعالى منزه عن هذا، كيف وهو القائل في نفس الآية: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فنحن أشد تنزيهًا وتعظيمًا لله تعالى من غيرنا، ولله الحمد والمنة.

ثانيًا: استنبط بعض المفسرين أسبابًا لقول الله تعالى هذا الأمر للملائكة، وكلها من قبيل الاجتهاد فلا نجزم بشيء منها، ومن هذه الأقوال:

١- ليسألوا ذلك السؤال ويُجابوا بما أُجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم.

٢- ليعلِّم عبادَه المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيًا عن المشاورة.[1]

٣- أن الله تعالى علم في نفس إبليس كبرًا، فأحب أن يُطلع الملائكة عليه، وأن يظهر ما

(١) الزمخشري (١/ ١٥٣)، وتفسير الرازي (٢/ ١٥٢).

سبق إليه في علمه؛ رواه الضحاك عن ابن عباس.[1]

٤- أنه أراد أن يبلو طاعة الملائكة؛ قاله الحسن.

٥- أنه لما خلق النار خافت الملائكة، فقالوا: ربنا، لمن خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني، فخافوا وجود المعصية منهم، وهم لا يعلمون بوجود خلق سواهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)؛ قاله ابن زيد.[2]

٦- أنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه، فأخبرهم حتى قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها؟ فأجابهم: إني أعلم ما لا تعلمون.

٧- أنه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده؛ ليكونوا معظمين له إن أوجده.

٨- أنه أراد إعلامهم بأنه خلقه ليسكنه الأرض، وإن كان ابتداء خلقه في السماء[3].

وكما سبق لا نستطيع الجزم بواحد منها خشية القول على الله تعالى بلا علم، فهذا مما حرَّمه الله تعالى علينا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف/ ٣٣).

الوجه الثالث: بيان عصمة الملائكة، والرد على الاعتراضات الأخرى.

كيف نَسَبَ الله تعالى للملائكة هذه الأخطاء الشنيعة مع أنهم معصومون؟

والجواب: الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب، والأدلة على ذلك من عدة أوجه:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) إلا أن هذه الآية مختصة بملائكة النار، فإذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠) فقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يتناول جميع

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٧)، وهو ضعيف للانقطاع بين الضحاك وابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٦٦)، وقال أحمد شاكر: ضعيف جدًّا.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٥٠).

فعل المأمورات وترك المنهيات؛ لأن المنهي عن الشيء مأمور بتركه، فإن قيل: ما الدليل على أن قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يفيد العموم؟ قلنا: لأنه لا شيء من المأمورات إلا ويصح الاستثناء منه، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل.

والثاني: قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٧) فهذا صريح في براءتهم عن المعاصي وكونهم متوقفين في كل الأمور إلا بمقتضى الأمر والوحي.

والثالث: أنه تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن.

الرابع: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه.[١]

وعلى هذا الأصل نجيب على الاعتراضات واحدًا واحدًا.

وأولها: الغيبة لآدم عليه السلام، **نقول وبالله تعالى التوفيق:**

١- إن محل الإشكال في خلق بني آدم إقدامهم على الفساد والقتل، ومن أراد إيراد السؤال وجب أن يتعرض لمحل الإشكال لا لغيره، فلهذا السبب ذكروا من بني آدم هاتين الصفتين وما ذكروا منهم عبادتهم وتوحيدهم؛ لأن ذلك ليس محل الإشكال[٢].

٢-ولأن ذلك العالم ليس عالم تكليف، ولأنه لا غيبة في مَشُورة ونحوها كالخِطبة والتجريح؛ لتوقف المصلحة على ذكر ما في المستشارِ في شأنه من النقائص، ورجحان تلك المصلحة على مفسدة ذكر أحدٍ بما يَكْره، ولأن الموصوف بذلك غيرُ معين إذ الحكم على النوع، فانتفى جميع ما يترتب على الغيبة من المفاسد في واقعة الحال فلذلك لم يحجم عنها الملائكة[٣].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢/ ١٥٣) بتصرف يسير.

(٢) الرازي (٢/ ١٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٠).

الثاني: العُجْب بالنفس والمدح لها، ونقول:

١- أن مدح النفس غير ممنوع منه مطلقًا لقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)، وأيضًا فيحتمل أن يكون قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ليس المراد مدح النفس؛ بل المراد بيان أن هذا السؤال ما أوردناه لنقدح به في حكمتك يا رب، فإنا نسبح بحمدك ونعترف لك بالإلهية والحكمة، فكأن الغرض من ذلك بيان أنهم ما أوردوا السؤال للطعن في الحكمة والإلهية؛ بل لطلب وجه الحكمة على سبيل التفصيل[١].

وأيضًا فيه إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفي عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وبراءةٌ من شائبة الاعتراض، والله تعالى وإن كان يعلم براءَتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير[٢].

٢-أو يكون الغرض من قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهامَ عِلمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أَسَدُّ منه رأيًا وأرجح عقلًا فيشير ثم يفوض، كما قال أهل مشورة بِلْقِيس إذ قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: ٣١-٣٣)، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مَبْلغ علمه، وأن القول الفصل للأستاذ.[٣]

ثالثًا: أنكروا على الله تعالى هذا الأمر، ونقول:

١- نحن نجزم يقينًا بأن سؤال الملائكة هذا لم يكن اعتراضًا على أمر الله تعالى ولا إنكارًا له، كيف وهم المعصومون من ذلك؟: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦)، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول؛ أي: لا يسألونه شيئًا لم يأذن

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٠) بتصرف يسير.

لهم فيه، وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقًا؛ قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؛ أي: نصلي لك كما سيأتي؛ أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم[1].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه بأن جعل من نسله من أوليائه، وأحبائه، ورسله، وأنبيائه، من يتقرب إليه بأنواع التقرب، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة، ولا بلاء، ولا فقر، ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة، وغلبات الهوى، وتعاضد الطباع لأحكامها، ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته، وشكره، وذكره، والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

٢- وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلابد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٧)، وانظر: تفسير الطبري (١/ ٤٧٠) فإنه رجح هذا القول وانتصر له، تفسير البغوي (١/ ٣١)، التحرير والتنوير (١/ ٣٨٨).

٣- وأيضًا فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلًا، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني: العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا، ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني يخيره بين أن يكون عبدًا رسولًا أو ملكًا نبيًا، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدًا رسولًا، وذكره سبحانه بأتمِّ العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله؛ كمقام الدعوة، والتحدي، والإسراء، وإنزال القرآن: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ (الجن: ١٩)، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ١٩)، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ١)، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ (الفرقان: ١)، فأثنى عليه ونوه الله لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله؛ وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها كان من أعظم الحكمة أن أُخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية، وأسبابها، وشروطها، وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تنكيلًا لهم وإتمامًا لنعمته عليهم؛ مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب إجابة الدعوات، وتفريج الكر بات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات، وتكفير السيئات، ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز، وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على الشيء لا بد منه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل[1].

ولو قدر أنه على وجه الاعتراض فهو دليل على علمهم أنه لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، فلما رأوا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم(١/ ٢٤٢).

أن خلق هذا الخليقة منافٍ للحكمة في الظاهر سألوه عن ذلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فأجابهم بأن حكمته وعلمه يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهله.[١]

رابعًا: وصفوا ذرية آدم بهذا الوصف المذموم بمجرد الظن والتخمين، ونقول:

هذا الاعتراض كان من المفترض أن يكون هكذا: كيف علمت الملائكة أن آدم سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

والجواب عن هذا السؤال من الصعب الجزم بإجابة معينة له؛ لأنه لم يرد نص صحيح يبين كيف علمت الملائكة أن الإنسان سيفسد في الأرض أو يسفك الدماء؟ فالسؤال موجه أيضًا للملائكة أنفسهم كتعقيب على ردهم، وكما سبق لا نستطيع الخوض في مثل هذه الأمور طالما أنه لم يرد النص على ذلك[٢].

وقد قالت العلماء من أهل التأويل في ذلك أقوالًا، ونحن نذكر أقوالهم في ذلك:

القول الأول: أنه بتوقيف من الله تعالى، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء، فهناك إضمار في الكلام تقديره أنه قال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: ربنا ما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضًا، فقالوا ما قالوا.

وروي هذا القول عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة الكرام في خبر طويل[٣].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٣).

(٢) الإنسان وبداية الكون لمحمود عبد الرازق (٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٨ رقم٦٠٧)، والإسناد الذي جاء به هذا الأثر ضعفه الطبري نفسه فقال في ص٣٥٤ من الجزء الأول عقب أثر آخر جاء بهذا الإسناد قال: (ولست أعلمه صحيحًا إذ كنت بإسناده مرتابًا)، وأعله أيضًا أحمد شاكر، وانظر بحثه حول هذا الإسناد (١/ ١٥٦ أثر رقم ١٦٨) و (ص٣٤٨ أثر رقم ٤٥٢)، وقال ابن كثير: (ويقع فيه- يقصد في هذا الخبر - إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أوأنهم أخذوا من بعض الكتب المتقدمة)، والله أعلم.

وأعلَّه الطبري أيضا بمعناه فقال: (وهذا إذا تدبّره ذو الفهم، علم أن أوَّله يفسد آخرَه، وأن آخره يُبطل معنى أوله؛ وذلك أن الله -جل ثناؤه- إن كان أخبر الملائكة أن ذرِّيّة الخليفة الذي يجعله في الأرض تفسد فيها وتسفك الدماء، فقالت الملائكة لربها: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فلا وجه لتوبيخها على أن أخبرت عمن أخبرها الله عنه أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء بمثل الذي أخبرها عنهم ربُّها. . .) وقال بهذا القول أيضًا قتادة[1].

القول الثاني: أن الملائكة علمت ذلك من الجن؛ لأنهم كانوا أسبق من الإنس فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء.

روي هذا القول عن ابن عباس[2].

قال الطبري: وإنما تركنا القول بهذا في تأويل ذلك، لأنه لا خبر عندنا بالذي قالوه من وجه يَقطعُ مجيئُه العذرَ، ويُلزمُ سامِعَه به الحجة، والخبر عما مضى وما قد سلف لا يُدرك علمُ صحته إلا بمجيئه مجيئًا يمتنع مَعه التشاعب والتواطؤ، ويستحيل مَعه الكذب والخطأ والسهو[3].

وقال صاحب المنار: وليس لهم في الإسلام سند يحتج به على هذه القصص.[4]

القول الثالث: وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية، والعقلية، والنطقية؛ إما بوصف الله لهم هذا الخليفة؛ أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى العصيان، فإن العقل يشتمل على شاهية، وغاضبة، وعاقلة، ومن مجموعها ومجموع بعضها تحصل تراكيب من التفكير نافعة وضارة، ثم إن القدرة التي في الجوارح

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٦٤) وإسناده صحيح، أخرجه الطبري (١/ ٤٦٤) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وانظر: أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٥٨)، والبرهان في علوم القرآن (٣/ ١٩٥) وجعل هذا مثالًا لحذف الجمل.

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٤٥٥) وإسناده منقطع، وروي أيضًا عن عبد الله بن عمرو، أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٧٧).

(٣) تفسير الطبري (٤٧١)، وانظر: تفسير البغوي (١/ ٣١).

(٤) تفسير المنار ١/ ٢١٥.

تستطيع تنفيذ كل ما يخطر للعقل وقواه أن يفعله، ثم إن النطق يستطيع إظهار خلاف الواقع وترويج الباطل؛ فيكون من أحوال ذلك فساد كبير، ومن أحواله أيضًا صلاح عظيم. وإن طبيعة استخدام ذي القوة لقواه قاضية بأنه سيأتي بكل ما تصلح له هذه القوى خيرها وشرها فيحصل فعل مختلط من صالح وسيء، ومجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كافٍ في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما سيظهر منها في الخارج؛ لأن مداركهم غاية في السمو لسلامتها من كدرات المادة، وإذا كان أفراد البشر يتفاوتون في الشعور بالخفيات، وفي توجه نورانية النفوس إلى المعلومات، وفي التوسم والتفرس في الذوات بمقدار تفاوتهم في صفات النفس جِبِلِّيَّة واكتسابية ولدنية التي أعلاها النبوة، فما ظنك بالنفوس الملكية البحتة؟ [1].

وثَمَّ أقوالٌ أُخَرُ لا نُعَرِّجُ عليها لظهور ضعفها وتهافتها، فها أنت ترى اختلاف المفسرين في كيفية علم الملائكة بهذا الأمر، وحُقَّ لهم الاختلاف؛ والسبب الواضح هو أننا متعبَّدون بالدليل فطالما أنه لم يرد في قرآن ولا سنة، وسكت عنه نبيناﷺ فإننا نسكت عنه، ونقول كما قالت الملائكة لربها: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ويسعنا السكوت كما وسع من سبقنا.

* * *

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨٨)، وانتصر له وضعف غيره، الرازي (٢/ ١٥٦)، نظم الدرر للبقاعي (١/ ٨٨)، ابن كثير (١/ ٣٣٧).

٤- شبهة: حول سجود الملائكة لآدم.

نص الشبهة:

في سورة البقرة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣١-٣٤)، وجاء في سورة الأعراف(١١)، والحجر(٢٨)، وغيرها ما في هذا المعنى.

قال المعترض: في أول الأمر علم الله آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة، فعجزوا عن التسمية، واعترفوا بالعجز؛ فكيف يمتحن الله الملائكة فيما لا يعرفونه، ويعطي الإجابات لآدم ليعلم ما لا يعلمون؟ وكيف أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم؟ وحاشا لله القدوس أن يأمر بالسجود لغير ذاته العلية! قال الله في الخروج (٣٤: ١٤): فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لإِلهٍ آخَرَ، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ. إِلهٌ غَيُورٌ هُوَ.

الجواب عن هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: دلالة صيغ الأمر في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

الوجه الثاني: السجود بين شرعنا وشرع من سبقنا.

الوجه الثالث: حكمة بالغة.

الوجه الرابع: السجود في الكتاب المقدس!

وإليك التفصيل

الوجه الأول: دلالة صيغ الأمر في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

اعلم أن علماء البلاغة ينصُّون على قاعدة وهي: كلٌّ من صِيَغِ الأمْرِ وصيغةِ النهي قد تخرج عن دلالَتَيْهما بقرائنِ حاليّة أو قوليّة إلى معانٍ كثيرة، منها ما يلي:

(الدعاء - الالتماس - الإرشاد - التمنّي - الترجّي - التيئيس - التخيير - التسوية -

التعجيز - التهكّم و الإِهانة -الإِباحة- التوبيخ والتأنيب والتقريع - الندب - التهديد - الامتنان - الاحتقار والتقليل من أمر الشيء -الإِنذار- الإِكرام -التكوين- التكذيب - المشورة - الاعتبار - التعجّب أو التعجيب) إلى غير ذلك من معان[١].

وبهذا نفهم أن أمر الله للملائكة الإخبار عن أسماء المسميات ليس من باب التكليف بما لا يطاق، وإنما هو من باب تجلية مصالح أعظم من مجرد الإخبار بمسميات الأشياء نذكر من هذه المصالح:

١ـ تبكيتًا للملائكة عليهم السلام (والتبكيت يعني الغلبة بالحجة والإلزام بالسكوت للعجز عن الجواب) وإظهارًا لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءَهم من أمرِ الخلافةِ حيث قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾، فإن أدنى مراتب استحقاق الخلافة هو الوقوف على أسماء من في الأرض، فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء وأسماءها لا يستحق أن يكون خليفة عليها وكأنه أراد أن يقول لهم: إذا عجزتم عن معرفة هذه الأشياء مع مشاهدتكم لها فأنتم عن معرفة الأمور المغيبة عنكم أعجز[٢].

مع الإقرار التام بأنهم ما قالوا هذا الكلام الذي بُكِّتُوا من أجله إلا لرغبتهم في الوصول إلى كل سبيل يزدادون به إلى الله تقربا فهم كما أخبر الله عنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

٢ـ تبيين لفضل آدم وأنه ليس كما ظنوا به فلما كان قولهم ﷺ، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم، ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه[٣].

٣ـ الجمع لهم بين الأسلوب العلمي والعملي في التعليم حيث أجابهم أولًا بقوله: ﴿إِنِّيٓ

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (١/ ١٧٥).

(٢) الجواهر (١/ ٦٣) بتصرف، أبو السعود (١/ ١١٤) بتصرف، تفسير الرازي (١/ ١٩٥).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٤).

أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثم أراهم ذلك عمليًا أن رفع آدم عليهم بعلم علمه له وحجبه عنهم، فالذي جعلهم يظنون أنهم أحق من الخليفة بالخلافة هو امتلاكهم لصفاتٍ اللهُ حباهم بها، وهو الذي يملك رفعهم على أحد أو رفع أحد عليهم؛ لذلك لما تلقنوا الدرس زادوا إقرارا وتنزيهًا لله بقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

الوجه الثاني: السجود بين شرعنا وشرع من سبقنا.

كان السجود فيما سبق من الشرائع يُقصد به أمران:

١) العبودية: وهذه لا تكون إلا لله جل وعلا.

٢) الاحترام والتقدير والتعظيم: وهذه تجوز في حق البشر.

فنسخ جواز كونها للاحترام والتقدير والتعظيم للبشر في شرعتنا؛ لأنها الشرعة الخاتمة، وتستلزم من سد الذرائع ما لا تستلزمه الشرائع السابقة، وبقيت العبودية هي المقصود الوحيد للسجود.

وهذا يتضح من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: قدم معاذ اليمن، أو قال: الشام، فرأى النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فرأ ى (أي فكر) في نفسه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يُعظم، فلما قدم قال يا رسول الله: رأيت النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فرأيت في نفسي أنك أحق أن تعظم. فقال: لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولا تؤدي المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدي حق زوجها عليها كله حتى لو سألها نفسها وهي على ظهر قتب لأعطته إياها) وفي حديث قيس بن سعد نهاهم عن السجود لغير الله وقال: (لا تفعلوا). [1]

الوجه الثالث: حكمة بالغة.

ما أعظمَ حكمةَ الله! إذ أمر الملائكة الكرام بالسجود تكريما لآدم عليه السلام؛ لعلم الله سبحانه أن أمره هذا سيترتب عليه من المصالح ما فيه نفع لبني آدم أجمع إلى قيام الساعة نذكر منها:

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩٤٠٣).

١ـ لما أنبأ آدمُ الملائكةَ بالأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم ربهم بالسجود له؛ اعترافًا بفضل آدم وأداءً لحقه من الاحترام، واعتذارًا عما ظنوا من تفضيل أنفسهم عليه[1].

٢ـ إظهارًا لما في نفس إبليس من سوء الطوية وإضمار الشر.

ثم إنه لا ينبغي أبدًا أن يساء الظن بالله، وأنه لم يسد على الخلق أبواب الشبهات، ولم يبين لهم الحق في مثل هذه الآيات، والحق في ذلك أن الله أعلم بالخلق من أنفسهم لما أخبر أولًا عن جعل الخليفة قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ فناسب ذكر الربوبية من خلقه ورضيه ليجعله في الأرض خليفة وهنا في قوله: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ المقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ﴾ فأضاف القول لنون العظمة؛ ليرسخ في أذهان السامعين الفرق بين عظمة الخالق وعظمة المخلوق، وليبين لهم أنه وإن كان في السجود لآدم تعظيم له فهذا لا يعدوا إلا أن يتناسب مع كونه تعظيم لمخلوق لا يداني أبدًا تعظيم الله جل وعلا، فلما أمر سبحانه بالسجود تكريمًا وتعظيمًا لغيره أشار إلى كبريائه وعظمته وغناه عن الشرك، ولأن القول هنا تضمن أمرا بفعل فيه غضاضة على المأمور وهو السجود لآدم فناسب إظهار عظمة الآمر، وأنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه فهذا ليس بسجود عبادة؛ بل هو سجود تكريم واحترام وتعظيم. ولقد فهم الملائكة ذلك بل إنما حمل إبليس على عصيان الأمر والاستكبار أن فهم أن هذا السجود علته التكريم؛ فقال مخاطبًا ربه بعد أن طُرد من رحمته ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

الوجه الرابع: السجود في الكتاب المقدس!

سجود إخوة يوسف له: (التكوين٤٢/ ٦): **وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلَّطَ عَلَى الأَرْضِ، وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الأَرْضِ. فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الأَرْضِ.**

(التكوين٤٣/ ٢٦): **فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أَيَادِيهِمْ إِلَى**

---

(١) الخطيب الشربيني (١/ ٥٦).

(٢) تفسير الآلوسي (١/ ٢٦٩).

الْبَيْتِ، وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الأَرْضِ.

سجود سليمان لأمه بثشبع:

الملوك الأول (٢/ ١٩): فَدَخَلَتْ بَثْشَبَعُ إِلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ لِتُكَلِّمَهُ عَنْ أَدُونِيَّا. فَقَامَ الْمَلِكُ لِلِقَائِهَا وَسَجَدَ لَهَا وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ.

لوط يسجد للملكين؛ بل إن الأمر هنا قد يفوق سجود التكريم لوصفه نفسه بقوله لهما عبدكما:

(التكوين١٩/ ١): فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ. وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا.

إبراهيم يسجد للشعب: (التكوين ٢٣/ ٧): فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ.

يوسف وغيره يسجدون لعيسو:

١- (التكوين ٣٣/ ١-٧): وَرَفَعَ يَعْقُوبُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا عِيسُو مُقْبِلٌ وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُلٍ، فَقَسَمَ الأَوْلاَدَ عَلَى لَيْئَةَ وَعَلَى رَاحِيلَ وَعَلَى الْجَارِيَتَيْنِ. ٢وَوَضَعَ الْجَارِيَتَيْنِ وَأَوْلاَدَهُمَا أَوَّلًا، وَلَيْئَةَ وَأَوْلاَدَهَا وَرَاءَهُمْ، وَرَاحِيلَ وَيُوسُفَ أَخِيرًا. ٣وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى اقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. ٤فَرَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا. ٥ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ وَقَالَ: «مَا هؤُلاَءِ مِنْكَ؟ » فَقَالَ: «الأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ بِهِمْ عَلَى عَبْدِكَ». ٦فَاقْتَرَبَتِ الْجَارِيَتَانِ هُمَا وَأَوْلاَدُهُمَا وَسَجَدَتَا. ٧ثُمَّ اقْتَرَبَتْ لَيْئَةُ أَيْضًا وَأَوْلاَدُهَا وَسَجَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ اقْتَرَبَ يُوسُفُ وَرَاحِيلُ وَسَجَدَا.

وأخيرًا: أقول على المعترض أن ينظر في هذه النصوص من التوراة والإنجيل، فإن كان يقول: إن السجود لا يكون إلا عبادة لله؛ فهذا يلزمه أن لوطًا ويوسف وإخوته ويعقوب وسليمان وغيرهم ممن ذكروا عبدوا غير الله. وإن كان يقر أن هناك سجود تكريم واحترام وتعظيم؛ فلا ينبغي أن يتطاول على الكتاب الذي أنزل على الرسول الخاتم ﷺ، والذي هو ناسخ لجميع الشرائع السابقة ومنها شريعته؛ لأن القرآن هو الكتاب الوحيد المحفوظ من قبل رب العالمين ! !

* * *

٥- شبهة: حول نفي الشفاعة.

نص الشبهة:

قالوا: إن آيات القرآن الكريم تنفي الشفاعة مطلقًا، أو تجعلها بإذن الله أو تخصها بالله، فما هذا التعارض في ذكر أمر الشفاعة؟

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ذكر معنى الشفاعة عند أهل اللغة.

الوجه الثاني: ثبوت الشفاعة بالقرآن الكريم.

الوجه الثالث: ذكر الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة، وتوجيهاتها.

الوجه الرابع: الرد على المستدل بإنكار الشفاعة بالجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض.

الوجه الخامس: ذكر الآيات التي تدل على أن الشفاعة بإذن الله ورضاه، لمن يشاء.

الوجه السادس: إثبات أن الشفاعة نوعان، وأن الإنسان يكون له نصيب من شفاعته سواء في الدنيا أو في الآخرة.

الوجه السابع: إثبات الشفاعة بالسنة الصحيحة.

الوجه الثامن: أصل عقيدة النصارى مبنية على الشفاعة " الفداء والصلب".

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الشفاعة عند أهل اللغة.

قال الفارسي: استشفعه: طلب منه الشفاعة أي قال له: كن لي شافعًا.

وفي التنزيل قول الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء: ٨٥).

والشفاعة بمعنى الدعاء أيضًا. والشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره.[١]

فالشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء؛ كانت الوساطة بطلب

---

(١) لسان العرب (٨/ ١٨٣: ١٨٤) بتصرف.

من المنتفع بها، أم كانت بمجرد سعي المتوسط.[١]

الوجه الثاني: ثبوت الشفاعة بالقرآن الكريم.

قال الله تعالى وقد أخبر أن الملائكة قالت لأهل الكفر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ (المدثر: ٤٢: ٤٨). وقال الله ﷻ في أهل الكفر لما علموا أن الشفاعة لغيرهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (الأعراف: ٥٣)، وقال ﷻ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ٩٤-١٠١).

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فوالله لقد شهدت تنزيل هذا على رسول الله ﷺ، ولقد شهدت تأويله من رسول الله ﷺ، وإن الشفاعة في كتاب الله ﷻ لمن عقل، قلنا وأين الشفاعة؟ قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾.[٢]

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ (الزمر٤٤)، والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذونًا له وكلاهما مفقودان ههنا.

واستُدِلَّ بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة؛ لأن الملك أو الاختصاص الذي هو مفاد اللام هنا يقتضي الوجود فالاستدلال بها على نفي الشفاعة مطلقًا في غاية الضعف[٣].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٨٦).

(٢) الشريعة (٣/ ١٢٠١).

(٣) روح المعاني (٢٤/ ١٠).

فقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليل على صحة الشفاعة للمذنبين، وذلك أن قومًا من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم ثم شفع فيهم فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة؛ فأخرجوا من النار وليس لكفار شفيع يشفع فيهم[١].

فهذا أمر الشفاعة قد ثبت بما تدَّعون أنه نفاها، أو تعارضت آياته في أمرها، والحق الواضح لمن له عقل أنه لا تعارض البتة في كتاب الله ﷻ.

الوجه الثالث: الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة، وتوجيهاتها.

كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٣) خرج مخرجًا عامًّا في التلاوة.

فإن المراد بها خاص في التأويل لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[٢]، وأنه قال: "ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئًا". [٣]

فقد تبين بذلك أن الله ﷻ ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ إنما لمن مات على كفره غير تائب إلى الله ﷻ[٤].

فهذا لفظ عام لمعنى خاص، والمراد الذين قالوا من بني إسرائيل نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه وإنهم يشفعون لنا عند الله فرد عليهم ذلك وأويسوا منه لكفرهم[٥].

---

(١) القرطبي (١٩/ ٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، والترمذي (٢٤٣٥)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٤٠٠): إسناده جيد.

(٣) البخاري (٧٤٧٤)، مسلم (١٩٨).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٦٨).

(٥) البحر المحيط (١/ ٣٤٨).

فتأويل الآية إذًا: واتقوا يومًا لا تقضي نفس عن نفس حقًّا لزمها لله -جل ثناؤه- ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعة شافع فيترك ما لزمها من حق.

وقيل: إن الله ﷻ خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها؛ لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيتشفع لنا عنده آباؤنا، فأخبرهم الله ﷻ أن نفسًا لا تجزي عن نفسًا شيئًا في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يستوفي لكل ذي حق منها حقه[1].

وعلى هذا تكون النفس الأولى مؤمنة والثانية كافرة، والكافر لا تنفعه شفاعة لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ يعني من الكافرين كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. [2]

إن المكذب بالشفاعة أخطأ في تأويله خطأ فاحشًا خرج به عن الكتاب والسنة، وذلك أنه عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر أخبر الله ﷻ أنهم إذا دخلوا النار أنهم غير خارجين منها فجعلها المكذب بالشفاعة في الموحدين، ولم يلتفت إلى أخبار رسول الله ﷺ في إثبات الشفاعة أنها إنما هي لأهل الكبائر، والقرآن يدل على هذا، فخرج بقوله السوء عن جملة ما عليه أهل الإيمان واتبع غير سبيلهم قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

فاعلموا يا معشر المسلمين أن أهل الكفر لما دخلوا النار، ورأوا العذاب الأليم، وأصابهم الهوان الشديد، نظروا إلى قوم من الموحدين معهم في النار فعيروهم بذلك وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم في الدنيا وأنتم معنا في النار! فزاد أهل التوحيد من المسلمين حزنًا وغمًا، فاطلع الله ﷻ على ما نالهم من الغم بتعيير أهل الكفر لهم؛ فأذن الله في الشفاعة، فيشفع الأنبياء

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٤).

والملائكة والشهداء والعلماء والمؤمنون في من دخل النار من المسلمين فأخرجوا منها على حسب ما أخبرنا رسول الله ﷺ على طبقات شتى فدخلوا الجنة، فلما فقدهم أهل الكفر ودُّوا حينئذ لو كانوا مسلمين، وأيقنوا أنه ليس شافع يشفع لهم ولا صديق حميم يغني عنهم من عذابهم شيئًا، قال الله ﷻ في أهل الكفر لما نضجوا بالعذاب وعلموا أن الشفاعة لغيرهم قالوا: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (الأعراف: ٥٣)، وقال ﷻ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ٩٤-١٠١)، وقال ﷻ في سورة المدثر وقد أخبر الملائكة قال لأهل الكفر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٢-٤٨). هذه كلها أخلاق فقال ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ فدل على أنه لابد من شفاعة، وأن الشفاعة لغيرهم لأهل التوحيد خاصة. وقال ﷻ: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ١-٢)، وإنما الكفار لو كانوا مسلمين عندما رأوا معهم في النار قوما من الموحدين فعيروهم.

وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار من أهل التوحيد ففقدهم أهل الكفر، فسألوا عنهم؛ فقيل: شفع فيهم الشافعون؛ لأنهم كانوا مسلمين، فعندها ودوا لو كانوا مسلمين؛ حتى تلحقهم الشفاعة[1].

الوجه الرابع: الرد على منكر الشفاعة بإزالة التعارض بين الآيات التي ظاهرها التعارض، وإمكانية الجمع بينهما.

---

(١) الشريعة (٣/ ١٢٠٥-١٢٠٨).

إن نفي الشفاعة في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾. ليس في الاثنين دليل لمنكري الشفاعة؛ لأن قوله: ﴿يَوْمًا﴾ أخرجه مُنكَّرًا، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زمانًا للشفاعة، وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر -عليه أفضل الصلاة والسلام- وقد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها، منه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (المؤمنون: ١٠١) مع قوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الصافات: ٢٧)، فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين: أحدهما محل للتناول، والآخر ليس محلًا له، وكذلك الشفاعة وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة، رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة[1].

ويمكن حمل هذه الآيات أيضًا على ما يلي:

١-يحتمل أن تكون هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة إنما وردت في أقوامٍ لا يجدون شفيعًا تقبل شفاعته لعجز المشفوع فيه. [2]

٢- يحتمل أن يكون هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة أن يكون معناها لا يجيب الشافع المشفوع فيه إلى الشفاعة وإن كان لو شفع لشفع. [3]

٣- يحتمل أن يكون معنى هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة، إنما معناها يرد حيث لم يأذن الله في الشفاعة للكفار، ولا بد من إذن الله بتقدم الشافع بالشفاعة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٣٠٣).

(٢) البحر المحيط (١/ ٣٤٨).

(٣) المصدر السابق.

قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ (سبأ: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

٤- يحتمل أن يكون المعنى في هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة أن طاعة المطيع لتقضي عن العاصي ما كان واجبًا عليه، فلا تقضي نفس عن نفس حقًّا لازمًا لله جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعة شافع فيترك ما لزمها من حق[1].

٥- أن الشفاعة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الزمر: ٤٤)، هذه الشفاعة خاصة بالله وحده، أو أن الشفاعة كلها خاصة بالله وحده، ولا يستطيع أحد أن يشفع لأحد إلا بشرطين هما:

١-أن يكون المشفوع له مرتضى.

٢-وأن يكون الشفيع مأذونًا له.

وهنا الشرطان مفقودان جميعًا لقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الزمر: ٤٣) أي يشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون؟ أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئًا قط حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم[2].

فيقول تعالى ذامًا للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان لديهم على ذلك، وهي لا تملك شيئا من الأمر؛ بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به؛ بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير، قل: أي يا رسول الله لهؤلاء الزاعمين إنَّ ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧)، تفسير الخازن (١/ ٤٣).

(٢) الكشاف (٤/ ١٣١).

يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ الله ملك السموات والأرض أي هو المتصرف في جميع ذلك ثم إليه ترجعون أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلًا بعمله[1].

فقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (الزمر: ٤٣-٤٤). فـ(أم) منقطعة وهي للاضطراب الانتقالي انتقالًا من تشنيع إشراكهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم، ذلك أنهم لما دمغتهم حجج القرآن باستحالة أن يكون لله شركاء تمحلوا تأويلًا لشركهم فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ كما حكى عنهم في أول هذه السورة، فلما استوفيت الحجج على إبطال الشرك أقبل هنا على إبطال تأويلهم منه ومعذرتهم.

والاستفهام الذي تشعر به (أم) في جميع مواقعها هو هنا للإنكار بمعنى أن تأويلهم وعذرهم منكر كما كان المعتذر عنه منكرًا فلم يقضوا بهذه المعذرة وطرًا.

وأمر الله رسولهﷺ بأن يقول لهم مقالة تقطع بهتانهم وهي ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ فالواو في (أولو كانوا) عاطفة كلام المجيب على كلامهم، وهو من قبيل ما سمي بعطف التلقين في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ (البقرة: ١٢٤) ولك أن تجعل الواو للحال كما هو المختار في نظيره وتقدم في قوله: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ (آل عمران: ٩١) وصاحب الحال مقدر دل ما قبله من قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ والتقدير: أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئًا؟ والظاهر أن حكم تصدير الاستفهام قبل واو الحال كحكم تصديره قبل واو العطف، وأفاد تنكير (شيئًا) في سياق النفي عموم كل ما يُمْلَكُ فيدخل في عمومه جميع أنواع الشفاعة، ولما كانت الشفاعة أمرًا معنويًا كان معنى ملكها تحصيل إجابتها والكلام تهكم إذ كيف يشفع من لا يعقل، فإنه لعدم عقله لا يتصور خطورة معنى الشفاعة عنده فضلًا عن أن تتوجه إرادته إلى الاستشفاع فاتخاذهم شفعاء من الحماقة، ولما نفي أن يكون لأصنامهم شيء

(١) تفسير ابن كثير (١٢/ ١٣٤).

من الشفاعة في عموم نفي ملك شيء من الموجودات عن الأصنام قوبل بقوله (لله الشفاعة) أي الشفاعة كلها لله، وأمر الرسول ﷺ بأن يقول ذلك لهم ليعلموا أن لا يملك الشفاعة إلا الله أي هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء الحق.

وتقديم الخبر المحرر وهو "لله" على المبتدأ لإفادة الحصر، واللام للملك أي قصر ملك الشفاعة على الله تعالى لا يملك أحد الشفاعة عنده. و"جميعًا" حال من الشفاعة مفيدة للاستغراق أي لا يشذ جزئي من جزئيات حقيقة الشفاعة عن كونه ملكًا لله، وقد تأكد بلازم هذه لحال ما دل عليه الحصر من انتفاء أن يكون شيء من الشفاعة لغير الله. وجملة (له ملك السموات والأرض) لتعميم انفراد الله بالتصرف في السماوات والأرض الشامل للتصرف في مؤاخذة المخلوقات وتسيير أمورهم، فموقعها موقع التذييل المفيد لتقرير الجملة التي قبله وزيادة، والمراد الملك بالتصرف بالخلق وتصريف أحوال العالمين ومن فيها، فإذا كان ذلك الملك له فلا يستطيع أحد صرفه عن أمر أراد وقوعه إلى ضد ذلك الأمر في مدة وجود السماوات والأرض، وهذا إبطال لأن تكون لآلهتهم شفاعة لهم في أحوالهم في الدنيا، وعطف عليه (ثم إليه ترجعون) للإشارة إلى ثبات البعث، وإلى أنه لا يشفع أحد عند الله بعد الحشر إلا من أذن الله بذلك. و(ثم) للترتيب الرتبي كشأنها في عطف الجمل، ذلك لأن مضمون "إليه ترجعون" أن لله ملك الآخرة كما كان له ملك الدنيا وملك الآخرة أعظم لسعة مملوكاته وبقائها، وتقديم "إليه" على "ترجعون" للإهتمام والتقوى والرعاية الفاصلة[1].

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الزمر: ٤٣ - ٤٤). فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦: ٢٨).

له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة: من الآية٤٨) وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنعام: ٥١)، وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ (السجدة: ٤).

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه؛ بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ (يونس: ٣)، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه؛ بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول: اشفع في فلان ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد، وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ (طـه: ١٠٩)، فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن

المشفوع له وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمره لهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وتعالي وما يجب له ويمتنع عليه فإن هذا محال ممتنع تشبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي.

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره، فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس. فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم لهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بدًا من قبول شفاعتهم على الكره والرضى فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته وكل من في السموات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (المائدة: ١٧)، وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٤٤).

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدينا بعضهم عند بعض فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه. وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله: (فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه)، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٣- ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يونس: ١٨).

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم وإنما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما

يوافقه كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه وقد يكون عنده ما يخالفه كمن يشفع إليه في أمر يكرهه ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله: هي سعى في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به ولو على كره منه فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل إما بقوة وسلطان وإما بما يرغبه فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع لم يمكن أن توجد والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه ولا لرهبته منه ولا لرغبته فيما لديه وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له فهو مأمور بالشفاعة مطيع بامتثال الأمر فإن أحدا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى وخلقه فالرب سبحانه وتعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق أو نصر أو غيره فكل منهما محتاج إلى الآخر. ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

الوجه الخامس: ذكر الآيات التي تدل على أن الشفاعة بإذن الله ورضاه لمن يشاء.

مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، فهذه صفة من صفات الله تعالى

توضح مقام الألوهية ومقام العبودية، فالعبيد جميعًا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، يقفون مقام العبد الخاشع الخاضع الذي لا يقدم بين يدي ربه ولا يجرؤ على الشفاعة عنده إلا بعد أن يؤذن له؛ فيخضع للإذن ويشفع في حدوده، وهم يتفاضلون فيما بينهم ويتفاضلون في ميزان الله ولكنهم يقفون عند الحد الذي لا يتجاوزه عبد. إنه الإيحاء بالجلال والرهبة في ظل الألوهية الجليلة العلية، يزيد هذا الإيحاء عمقًا صيغة الاستفهام الاستنكارية التي توحي بأن هذا أمر لا يكون، وأنه مستنكر أن يكون، فمن هذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟

وفي ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جاءوا من بعد الرسل؛ فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فزعموا لله سبحانه خليطًا يمازجه أو يشاركه بالنبوة أو بغيرها من الصور في أي شكل وفي أي تصور، أو زعموا له سبحانه أندادًا يشفعون عنده فيستجيب لهم حتمًا، أو زعموا له سبحانه من البشر خلفاء يستمدون سلطانهم من قرابتهم له، في ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعده، لا تخرج عن الذهن ولا تجول في الخاطر ولا تلوح بظلها في خيال، وهذه هي النصاعة التي يتميز بها التصور الإسلامي فلا تدع مجالًا لتلبيس أو وهم أو اهتزاز في الرؤية، الألوهية ألوهية، والعبودية عبودية، ولا مجال لالتقاء طبيعتهما أدنى التقاء، والرب رب والعبد عبد ولا مجال لمشاركة في طبيعتهما ولا التقاء. فأما صلة العبد بالرب، ورحمة الرب للعبد والقربى والود والمدد، فالإسلام يقررها ويسكبها في النفس سكبًا، ويملأ بها قلب المؤمن ويفيضها عليه فيضًا، ويدعه يعيش في ظلالها الندية الحلوة دون ما حاجة على خلط طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، و دون ما حاجة إلى الغبش والركام والزغللة والاضطراب الذي لا تتبين فيه صورة واحدة واضحة ولا ناصعة ولا محددة[1].

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ (يونس: ٣)، فالأمر كله له والحكم كله

(١) الظلال (١/ ٢٨٨).

عليه، وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة وفقًا لتدبيره وتقديره، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح لا بمجرد التوسل بالشفعاء. وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التي يعبدون تماثيلها شفاعة لا ترد عند الله.[(١)]

ولأن المشركين جعلوا آلهتهم شفعاء فإذا أنذروا بغضب الله يقولون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨) أي حماتنا من غضبه، فبعد أن وصف الإله الحق بما هو منتف عن آلهتهم نفى آلهتهم وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه، وأكد النفي بـ(من) التي تقع بعد حرف النفي لتأكيد النفي، وانتفاء الوصف عن جميع أفراد الجنس الذي دخلت (من) على اسمه بحيث لم تبق لآلهتهم خصوصية. وزيادة ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ احتراس لإثبات شفاعة محمدﷺ بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ والمقصود من ذلك نفي الشفاعة لآلهتهم من حيث إنهم شركاء لله في الألوهية فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعة الند عند نده[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾﴾ (مريم: ٨٧). يقول تعالى ذكره لا يملك هؤلاء الكافرون بربهم يا محمد ـ يوم يحشر الله المتقين إليه وفداً ـ الشفاعةَ حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض إلا من اتخذ منهم عند الرحمن في الدنيا عهدًا بالإيمان وتصديق رسوله والإقرار بما جاء به والعمل بما أمر به.

فالعهد: شهادة أن لا إله إلا الله ويتبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجوا إلا الله[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ (طه: ١٠٩)، يقول تعالى: ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أي عنده إلا من أذن له الرحمن ورضي له

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٧٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٨٨).

(٣) الطبري (١٦/ ١٢٨).

قولا كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وقال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ (النبأ: ٣٨).

وعن أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقونَ وَمَا لاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّى غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسلِ إِلَى الأَرْضِ وَسَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقولُ لَهمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نفسي نفسي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ،

وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نفسي نفسي اذْهَبوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيأْتُونَ عِيسَى فَيقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمُهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا - نفسي نفسي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِّي فَيقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أمتي أمتي. فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى". [١]

فجملة ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ كجملة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ في معنى التفريع على ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي لا يتكلم الناس بينهم إلا همسًا، ولا يجرؤون على الشفاعة لمن يهمهم نفعه، والمقصود من هذا أن جلال الله والخشية منه يصدان عن التوسط عنده لنفع أحد إلا بإذنه، وفيه تأييس للمشركين من أن يجدوا شفعاء لهم عند الله، واستثناء من أذن له الرحمن من عموم الشفاعة باعتبار أن الشفاعة تقتضي شافعًا؛ لأن المصدر فيه معنى الفعل فيقتضي فاعلا أي لا أن يشفع من أذن له الرحمن في أن يشفع فهو استثناء تام وليس بمفرغ، واللام في (أذن له) تعدية فعل "أذن" مثل قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ وتفسير هذا ما ورد في حديث الشفاعة من قول النبي ﷺ "فيقال لي: سل تعطه واشفع تشفع"، وقوله: ﴿ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ عائد إلى ﴿ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ وهو

(١) البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (٣٢٢).

الشافع، واللام الداخلة على ذلك الضمير لام التعليل أي رضي الرحمن قول الشافع لأجل الشافع أي إكرامًا له كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح: ١).

فإن الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلا وقد أراد قبول شفاعته، فصار الإذن بالشفاعة وقبولها عنوانًا على كرامة الشافع عند الله تعالى.(١)

الوجه السادس: إثبات أن الشفاعة نوعان، وأن الإنسان يكون له نصيب من شفاعته سواء في الدنيا أو في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥﴾ (النساء: ٨٥) ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً ﴾ أي يتوسط في أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر أو جلب نفع ابتغاء لوجه الله تعالى. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾، وهي ما كانت بخلاف الحسنة بأن كانت في أمر غير مشروع ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب من وزرها الذي ترتب على سيئة مساوٍ لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء. المقصود مع ذلك الترغيب في التوسط في الخير والترهيب من ضده، والشفاعة الوساطة في إيصال خير أو دفع شر سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا.

وفي الآية فوائد:

١- في الآية مدح الشفاعة، وذم السعاية، وهي الشفاعة السيئة وذكر الناس عند السلطان بالسوء وهي معدودة من الكبائر.

٢- روي في فضل الشفاعة أحاديث كثيرة، منها عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجه أقبل على جلسائه فقال: "اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب"(٢).

وفي الحديث الحض على الخير بالفعل، وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٣١٠-٣١١).

(٢) البخاري (٦٠٢٧)، ومسلم (٢٦٢٧).

في كشف كربة ومعونة ضعيف؛ إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس، ولا التمكن منه ليلج عليه أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، وإلا فقد كانﷺ لا يحتجب، فيستحب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما، أم إلى واحد من الناس، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم أو إسقاط تعزير أو تخليص عطاء لمحتاج أو نحو ذلك.

وأما الشفاعة في الحدود فحرام، فلا يستثنى منه الوجوه التي تستحب فيها إلا الحدود، وإلا فما لأحد فيه تجوز الشفاعة فيه، ولا سيما من وقعت منه الهفوة أو كان من أهل الستر والعفاف، وأما المصرون على فسادهم المشتهرون في باطلهم فلا يشفع فيهم ليزجروا عن ذلك، فالشفاعة في تتميم باطل أو إبطال حق ونحو ذلك فهي حرام[1].

٣- نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض، فما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة.

فمن يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر وإن لم يشفع؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَن يَشْفَعْ﴾ ولم يقل (ومن يُشَفَّعْ) ويتأيد هذا بقولهﷺ: "اشفعوا تؤجروا ".

٤- الشفاعة الحسنة هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغى بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز.

٥- نكتة اختيار النصيب في الحسنة، والكفل في السيئة وذلك أن النصيب يشمل الزيادة؛ لأن جزاء الحسنات يضاعف، وأما الكفل فأصله المركب الصعب ثم استعير للمثل المساوي فلذلك اختير إلى لطفه بعباده إذا لم يضاعف السيئات كالحسنات، ويقال: إنه وإن كان معناه المثل لكنه غلب في الشر وندر في غيره[2].

فهذا أمر الله لعباده بالشفاعة في الدنيا وهم في الآخرة أشد احتياجًا لها، فهل يحرمهم

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٦٥-٤٦٦)، وشرح مسلم للنووي (٨/ ٤٢٦).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣٣١-٣٣٤)، والتحرير والتنوير (٥/ ١٤٤).

منها سبحانه وتعالى وهو أرحم بعباده من الأم بولدها؟ فلا تعارض بين الأديان إطلاقًا.

الوجه السابع: إثبات الشفاعة بالسنة الصحيحة.

فعن حماد بن زيد قال: قلت لعمرو بن دينار: يا أبا محمد أسمعت جابر بن عبد الله يحدث عن النبي ﷺ " أن الله ﷻ يخرج من النار قومًا بالشفاعة"؟ فقال: نعم[(١)].

وعن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ: "يخرج من النار قومٌ بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين. [(٢)]

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ الله: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ قَدِ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ- أَوْ قَالَ- حَمِيَّةِ السَّيْلِ "وَقَالَ النبي ﷺ "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً"[(٣)].

كل هذه الأحاديث في أقوامٍ يخرجون من النار فيدخلون الجنة بشفاعة النبي ﷺ وشفاعة المؤمنين، وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أمتي"[(٤)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي إلى يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله لمن مات من أمتي لايشرك بالله شيئًا ". [(٥)]

وعن أنس بن مالك ﷺ: أن جماعة من التابعين جاءوا يريدون سماع حديث الشفاعة منه، فتشفعوا بثابت البناني، فاستأذنا عليه فأذن له، فقال ثابت: يا أبا حمزة إخوانك من

---

(١) البخاري (٦٥٥٨)، ومسلم (١٩١).

(٢) البخاري (٦٥٦٦)، وأحمد (٤/ ٤٣٤).

(٣) البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤).

(٤) أحمد (٣/ ٢١٣)، والترمذي (٢٤٣٥)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٤٠٠): إسناده جيد.

(٥) البخاري (٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٨).

أهل البصرة جاءوا يسألونك عن حديث الشفاعة فقال: قالﷺ: "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ الله، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍﷺ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمتي أمتي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أمتي أمتي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أمتي أمتي. فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ". فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهْوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَا بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا: لَهُ يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ هِيهِ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَقَالَ هِيهِ، فَقُلْنَا: لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا. فَقَالَ لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهْوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولًا، مَا ذَكَرْتُهُ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ، حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ: "ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ،

وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله"[١].

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا: "فَيَقُولُ اللهﷻ: شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ". [٢]

لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحدُّ له حدًا.

وفي هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي سقناها دليل واضح علي ثبوت الشفاعة للملائكة والأنبياء والمؤمنون، وأن الله يأذن بالشفاعة لمن يشاء من خلقه يوم القيامة.

الوجه الثامن: أصل عقيدة النصارى مبنية على الشفاعة " الفداء والصلب".

بسؤال يوجه إلى النصارى: لماذا صُلب المسيح؟.

والجواب مختصر كي يفدي من آمن به بالدخول الجنة، وهذه مسألة بطلانها بيِّن، إذ لا صلب ولا فداء كما بينا بالأدلة في محله. [٣]

* * *

(١) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣، ٣٢٦).

(٢) مسلم (١٨٣).

(٣) راجع شبهة " الصلب والفداء " .

٦- شبهة: تحليل الانتقام.

نص الشبهة:

قالوا: جاء في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٤)، ونحن نرى الأثر السيئ لمبدأ الأخذ بالثأر متفشيًا بسبب هذا القول، وكم تعب رجال الشرطة من نتائجه، وبحت أصوات المعلمين في التعليم ضده؟ وهل الاعتداء على مَنْ اعتدى علاج للجريمة؟ إن العنف يولد المزيد من العنف.

قال المسيح: (**أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ**) (متى ٥: ٤٤)، وقال أيضًا: (**سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. ٣٩ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا**) (متى ٥: ٣٨، ٣٩). ، وقال الرسول بولس: (**لاَ تَنْتَقِمُوا لأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، بَلْ أَعْطُوا مَكَانًا لِلْغَضَبِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «لِيَ النَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ. ٢٠ فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ. وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ. لأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هذَا تَجْمَعْ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ». ٢١ لاَ يَغْلِبَنَّكَ الشَّرُّ بَلِ اغْلِبِ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ**) (رومية ١٢: ١٩-٢١)، وقال بطرس الرسول: (**فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ لأَجْلِنَا، تَارِكًا لَنَا مِثَالاً لِكَيْ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِهِ. ٢٢ «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ»، ٢٣ الَّذِي إِذْ شُتِمَ لَمْ يَكُنْ يَشْتِمُ عِوَضًا، وَإِذْ تَأَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يُهَدِّدُ بَلْ كَانَ يُسَلِّمُ لِمَنْ يَقْضِي بِعَدْل**) (بطرس ٢: ٢١-٢٣).

الجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٤).

الوجه الثاني: نبذة عن القصاص.

الوجه الثالث: دين الإسلام يحث على العفو والصفح، وينهى عن العنف وعن العدوان ولو في أخذ الحق مِنْ مَنْ بدأ بالاعتداء.

الوجه الرابع: فقه التعامل مع المعتدين.

الوجه الخامس: مراعاة الشريعة لاختلاف أحوال المعتدى عليهم.

الوجه السادس: القصاص في الكتاب المقدس.

الوجه السابع: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

إن من أساسات فهم أو دراسة أي كلام أو كتاب أن يهتم بالسياق الذي يأتي فيه الكلام حتى يفهم مراد قائله، فلا ننسب إليه شيئًا ما أراده، ولكن سبب هذا أننا فهمنا بعض كلامه بمعزل عن البعض الآخر، وإذا كنا نحرص على أن لا ننسب إلى أحد من الخلق شيئًا لم يُرده أو معنىً لم يُشر إليه، فمن باب أولى أن يقال ذلك في حق كلام رب العالمين، فالآية وردت في سياق ينبغي أن تفهم في إطاره وهو: يقول الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ ثم قال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٤) فالآيات كما ترون جاءت في معرض الحديث عن قتال الكفار المعتدين، وبيان كيفية مواجهة اعتدائهم بدون ظلم، وبالنظر إلى الآية في هذا السياق تجد أن قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠) وأن معناه: فمن اعتدى عليكم في الحرم فقاتَلكم فاعتدوا عليه بالقتال

نحو اعتدائه عليكم بقتاله إياكم؛ لأني قد جعلتُ الحُرمات قصاصًا، فمن استحلَّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حُرْمةً في حَرَمي، فاستحلوا منه مثله فيه[١].

ويبدو أن عدم فهم المراد بقوله: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ والنظر إليه مجردًا كما أسلفت هو الذي سبب هذا الفهم الخاطئ. فكأنهم فهموا أن قوله: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ أمر من الله بالظلم، فقد يقال: إذا كانت الآيات نزلت لتبين كيف يرد على عدوان المشركين وغيرهم، فلماذا جاء فيها ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ أليس الاعتداء من الظلم؟

نقول وبالله التوفيق: ولا يراد بالاعتداء هنا الظلم، وإنما سمي جزاء الظالمين عدوانًا مشاكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ (الشورى: ٤).

فإن قال قائل: وهل يجوز الاعتداء على الظالم كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟

فيقال: إن المعنى في ذلك على غير الوجه الذي إليه ذهبتَ، وإنما ذلك على وَجه المجازاة لما كان من المشركين من الاعتداء، يقول: افعلوا بهم مثل الذي فعلوا بكم؛ كما يقال: (إن تَعاطيتَ مني ظلما تعاطيته منك)، والثاني ليس بظلم.

كما قال عمرو بن شأس الأسديّ:[٢]

جَزَيْنَا ذَوِى العُدْوَانِ بِالأَمْسِ قَرْضَهُمْ قِصَاصًا، سَواءً حَذْوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ.

وهذا يوضح أن من أساليب كلام العرب أسلوب يقال له المشاكلة اللفظية.[٣]

إذن سَمَّاه اعْتِداء؛ لأنه مُجازاةُ اعْتِداءٍ بمثْل اسمه؛ لأَن صورة الفِعْلين واحدةٌ وإن كان أَحدُهما طاعة والآخر معصية، والعرب تقول: ظَلَمني فلان فظلَمته؛ أَي: جازَيْته بظُلْمِه، لا وَجْه للظُّلْمِ أَكثرُ من هذا، والأَوَّلُ ظُلْم والثاني جزاءٌ ليس بظلم؛ وإن وافق اللفظُ اللفظَ

(١) الطبري (٣/ ٥٨١) بتصرف يسير، والشوكاني في فتح القدير (١/ ٢٥٢) بتصرف.

(٢) راجع ترجمته في طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٦).

(٣) الطبري (٣/ ٥٧٣).

مثل قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ السيئة الأُولى سيئة، والثانية مُجازاة وإن سميت سيئة، ومثل ذلك في كلام العرب كثير. . . الخ. [(١)]

الوجه الثاني: نبذة عن القصاص.

إن القصاص يبين حكمة الشارع سبحانه في نشر الأمن والتآلف بين أفراد المجتمع الإسلامي وهاك شيء من البيان:

١. المقصود به: أن يفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجني عليه، فإن قَتله قُتل، وإن قطع منه عضوًا أو جرحه فُعل به مثل ذلك إن أمكن ما لم يؤدِ إلى وفاة الجاني، والنظر في ذلك يرجع إلى أهل الاختصاص.

٢. الحكمة منه بالنظر في العقوبات الإسلامية عامة والقصاص على وجه الخصوص نجد أنها تتسم بسمتين متكاملتين:

الأولى: صرامة هذه العقوبات وشدتها، وذلك للردع عن الجريمة ومحاصرتها بصرامة، وهذا لحفظ الأمن العام وتقليل معدل الإجرام نظرًا لصرامة العقوبة، فالقاتل الذي يعلم أنه سيقتل، والسارق الذي يعلم أنه ستقطع يده، والمعتدي على العرض والأسرة الذي يعلم أنه سيرجم أو يجلد مائة سوط؛ سيفكر في نتائج الجريمة قبل الإقدام عليها، بينما إذا علم أنه سيحبس فقط لأشهر أو سنوات قد لا يبالي بالعقوبة؛ وبالتالي لا يقلع عن الجرم.

الثانية: التشديد في وسائل إثبات هذه الجرائم، وبالتالي التقليل من فرص تنفيذ هذه العقوبات، وحماية المتهمين بها، وفي هذا السياق يأتي مبدأ درء الجرائم بالشبهات وتفسير أي شبهة في صالح المتهم، وفتح باب التوبة واعتبارها مسقطة للحد في بعض الحدود (كالحرابة)، وجواز العفو كما في القصاص؛ بل الندب إليه والحث عليه.

ويأتي التكامل بين هذين العنصرين من حيث إنه يجمع بين محاصرة الإجرام، وحماية المجتمع منه، وصيانته حق الفرد المتهم، وعدم أخذه بالظن والتهمة وكفله أفضل

---

(١) لسان العرب (١٥/ ٣١).

الضمانات لعدالة الحكم عليه وإنقاذه من العقوبة ما أمكن، وبذلك يمتنع الناس -أو معظمهم على الأقل- عن هذه الجرائم لصرامة العقوبة، ولا تنفذ هذه العقوبات عمليًا إلا في النادر، وبذلك يتحقق الأمن العام، وتصان حرمات الأفراد على حد سواء.

٣. أهم قواعده:

١) أن القصاص لا يُستحق إلا في القتل العمد أو الجرح العمد، أما الخطأ فلا يستحق فيه القصاص؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

٢) أن جرائم الاعتداء على الأشخاص قد جعل الإسلام لإرادة المجني عليه أو أوليائه دورًا أساسيًا في منع وقوع العقاب على الجاني؛ حيث قرر جواز العفو وأنه من حق المجني عليه؛ بل ندبه إلى ذلك وأجزل له الثواب في الآخرة: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ فله أن يعفو عنه إلى الدية أو مطلقًا من غير عوض دنيوي؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

٣) إن توقيع العقاب وتنفيذه تتولاه السلطة العامة، ولا يتولاه أولياء الدم، وعلى هذا فرجال الشرطة لا يتعبهم أمر القصاص -ليس كما قال المعترض- لأنهم من السلطة العامة؛ لأن ما نص الإسلام عليه هو أن توقيع القصاص تتولاه السلطة العامة ولا يتولاه أولياء الدم ولا المُتعدَى عليهم.

٤) وهنا قد يرد استشكال: قد يقول قائل: كيف تقولون إن الإسلام دين الرحمة وفيه شريعة القصاص، أهذا من الرحمة؟

نقول مستعينين بالله: الرحمة ليست حنانًا لا عقل معه، وليست شفقةً تتنكر للعدل والنظام، كلا؛ بل إنها خُلُق يرعى الحقوق كلَّها، قد تأخذ الرحمةُ صورةَ الحزم حين يُؤْخَذُ الصغيرُ إلى المدرسة من أجل التربية وطلب العلم، فيُلْزم بذلك إلزامًا، ويُكَفُّ عن اللعب كفًا، ولو تركوه وما أراد لم يحسنوا صنعًا، ولم يبنوا مجدًا.

والطبيب يمزِّق اللحم، ويهشم العظم، ويبتر العضو؛ وما فعل ذلك إلا رحمة بالمريض ولعلاجه، ناهيكم بإقامة الحدود، والأخذ على أيدي السفهاء، وأَطْرِهِمْ على الحق أطرًا، فهي الرحمة في مآلاتها، والحياة في كمالاتها: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة: ١٧٩).

والشفقة على المجرمين تخفي أشدَّ أنواع القسوة على الجماعة، إنها تشجّع الشواذ على الإجرام، والشفقة على المجرمين سمَّاها القرآن الكريم رأفة، ولم يسمها رحمة، فقال في عقاب الزناة والزواني: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ (النور: ٢).

إن القسوة التي استنكرها الإسلام جفاف في النفس، لا ترتبط بتحقيق عدل، ولا بمسلك إنصاف، ولكنها شدةٌ وانحراف في دائرة مجردة وهوى مضلٍّ.

والحق أن الإسلام قد جاء بالرحمة العامة، لا يُستثنى منها إنسان ولا دابة ولا طير، بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر ومَثار رُهب؛ فيكون من رعاية مصلحة الجماعة كلها أن يُحبس شره ويُكف ضرره؛ بل إن الشدة معه رحمةٌ به وبغيره.

الوجه الثالث: دين الإسلام يحث على العفو والصفح، وينهى عن العنف وعن العدوان ولو في أخذ الحق ممن بدأ بالاعتداء.

وهذا كثير في شرعة الإسلام قرآنًا وسنة نذكر من ذلك:

١ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت: ٣٤)، يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ادفع، يا محمد، بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم ويلقاك من قِبلهم.

عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمر بن الخطاب للناس أحد عشرة كلمة حِكَمٌ كلها، قال: ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه[1].

---

(١) الطبري (٢١/ ٤٧١).

وقال ابن عباس: أمر بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. [١]

٢- وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٩) يعني بذلك: أن الله لم يزل ذا عفو عن عباده مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إيّاه، يقول: فاعفوا، أنتم أيضًا أيها الناس عمن أتى إليكم ظلمًا، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره[٢].

فقوله تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ (النساء: ١٤٩) أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه. [٣]

٣ـ وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢) كان أبو بكرﷺ ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، فقال: والله لا أنفق عليه أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢) فقال أبو بكر: والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح بالنفقة التي كان ينفق عليه فقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. [٤]

تدبر رحمة رب العالمين؛ يأمر أبا بكر بالصفح عن من وقع في عرض ابنته، فأي عفو وأي رحمة أوسع من التي جاءت في شرع العفو الرحيم سبحانه؟!

٤ـ وقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣) وهذا أمر من الله ﷻ نبيَّه محمدًاﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم الذين همُّوا أن يبسطوا

---

(١) تفسير البغوي (٧/ ١٧٤).

(٢) الطبري (٩/ ٣٥١).

(٣) السعدي (١/ ٢١٢).

(٤) البخاري (٤٩٤).

أيديهم إليه من اليهود، يقول الله ـ جل وعز ـ له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا بما هَمُّوا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جُرْمهم بترك التعرُّض لمكروههم، فإني أحب من أحسنَ العفو والصَّفح إلى من أساء إليه، ما لم يَنْصِبُوا ـ أي اليهود ـ حربًا دون أداء الجزية، ويمتنعوا من الأحكام اللازمَة منهم.(١)

قلت: وهذا ليس صفحًا عاديًّا؛ فإن اليهود من أشد الناس عداوة للنبيﷺ وللذين آمنوا، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (المائدة: ٨٢). فإذا أمرت بالصفح عن من أساء إليك فهذا عين الخير، لكن إن أمرت به تجاه عدوك فهذا ذروة سنامه. وقال: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤)، وقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٢٤).

والوقوف مع بقية المواطن التي حثت على ذلك طويل جدًّا لكننا نشير إشارات تغني بإذن الله عن طول عبارات يضيق المقام بها.

وفي السنة المطهرة أيضا من ذلك كثير:

فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ ـ أي الموت ـ قَالَ: ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: "مَهْلًا، يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أَوِ الْفُحْشَ"، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ: "أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟، رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ".(٢)

وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ اللهُ عِزًّا".(٣)

---

(١) الطبري (١٠/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٥٦٨٣).

(٣) مسند أحمد ٤/ ٢٣١، والترمذي (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٦٩).

بل تعالوا نتدبر حال النبي ﷺ وكيف كان العفو له سجية:

يُؤذَى أشد الإيذاء من قومه فيُضرب، ويُعذب، ويُلقى على ظهره سلا الجزور، ويُسام أصحابه سوء العذاب، ويُحاصر هو وأهله في شِعب أبي طالب بلا طعام، ولا شراب لمدة ثلاث سنوات، ثم يكون من حاله ما جاء في الحديث الآتي:

عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ لِلنَّبِي ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[1].

أما عن إيذاءه وضربه ﷺ في يوم أحد الذي سألت عنه عائشة فكان حاله كالآتي:

عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: "رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ"[2].

وعنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه جبذةً شديدةً، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت به حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[3].

فأيُّ عنف ينسب إلى شريعةٍ هذه نصوصها وهذا خلق نبيها ﷺ! !

---

(١) البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) البخاري (٢٩٨٠)، ومسلم (١٠٥٧).

الوجه الرابع: فقه التعامل مع المعتدين.

من الخطأ أن يعامل الناس كلهم بأسلوب واحد؛ لأن أصناف الناس متباينة، فهناك مَنْ إذا عفوت عنه دفعه الحياء إلى عدم معاودة اعتدائه، ومن الناس من إذا عفوت عنه زاده العفو بغيًا واعتداءً؛ فمثل هذا لا يكون العفو في حقه مندوبًا؛ بل الانتصار منه أصلح له. وبيان ذلك كالآتي:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الشورى: ٣٩)، فالله ﷻ حمد كل منتصر بحق ممن بغى عليه، فإن قال قائل: وما في الانتصار من المدح؟ قيل: إن في إقامة الظالم على سبيل الحق وعقوبته بما هو له أهل تقويمًا له، وفي ذلك أعظم المدح[1].

فمراعاة أصناف الناس وما يُصْلِحُ حالهم يحتاج إلى فقه، مَن الذي ينتفع بالعفو؟ ومن الذي ينتفع بالعقوبة؟

فالعبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة، فَمِنَ الناس من إن عفوتَ عنه تمادى وظن هذا ضعفًا. وبيانًا لفقه المسألة نقول: إن التعامل مع من اعتدى يرجع إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي معلنًا بالفجور، وقحًا في الجمهور، مؤذيًا للصغير والكبير فيكون الانتقام منه أفضل، وفي مثله قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

الثانية: أن تكون الفلتة أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ (المائدة: ٤٥)، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢).[2]

الوجه الخامس: مراعاة الشريعة لاختلاف أحوال المعتدى عليهم.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٥٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٥).

وكما جاءت الشريعة لتصلح حال المعتدين، إما بالزجر أو بالعفو، ولتقضي على الجريمة في المجتمع الإسلامي؛ جاءت أيضًا مراعية لأحوال الناس في الإيمان؛ فهم يتفاوتون، فقد يُعتدى على مؤمن قوي الإيمان، قوي النفس، عظيم الصبر، وقد يُعتدى على مؤمن ضعيف الإيمان، ضعيف الصبر، سريع الغضب. ورب العالمين هو الذي خلق الخلق جميعًا، وهو الذي يعلم أحوالهم؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤) فجاءت الشريعة تناسب أحوال المؤمنين كلها.

لذلك جعل الله المؤمنين صنفين: صنف يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الشورى: ٣٧)، وصنف ينتصرون من ظالمهم، ثم بين حدَّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠) فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي.[1]

وعلى هذا فقد وضح رب العالمين مراتب العقوبة فحرَّم منها، وأحل، وندب، قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٣٦-٤٣).

ذكر الله تعالى في هذه الآي مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فأباح مرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٦).

وندب إلى مرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جَعْلِ أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وحرم مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم. [١]

قال ابن كثير: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ وكقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾. فَشَرَعَ العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث "وما زاد الله تعالى عبدًا بعفو إلا عزًّا" وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة. [٢]

الوجه السادس: القصاص في الكتاب المقدس.

في سفر (اللاويين٣٥/ ٢١: ١٦): **إِنْ ضَرَبَهُ بِأَدَاةِ حَدِيدٍ فَمَاتَ، فَهُوَ قَاتِلٌ. إِنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ. ١٧وَإِنْ ضَرَبَهُ بِحَجَرِ يَدٍ مِمَّا يُقْتَلُ بِهِ فَمَاتَ، فَهُوَ قَاتِلٌ. إِنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ. ١٨أَوْ ضَرَبَهُ بِأَدَاةِ يَدٍ مِنْ خَشَبٍ مِمَّا يُقْتَلُ بِهِ، فَهُوَ قَاتِلٌ. إِنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ. ١٩وَلِيُّ الدَّمِ يَقْتُلُ الْقَاتِلَ. حِينَ**

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٦٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

يُصَادِفُهُ يَقْتُلُهُ. ٢٠وَإِنْ دَفَعَهُ بِبُغْضَةٍ أَوْ أَلْقَى عَلَيْهِ شَيْئًا بِتَعَمُّدٍ فَمَاتَ، ٢١أَوْ ضَرَبَهُ بِيَدِهِ بِعَدَاوَةٍ فَمَاتَ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الضَّارِبُ لأَنَّهُ قَاتِلٌ. وَلِيُّ الدَّمِ يَقْتُلُ الْقَاتِلَ حِينَ يُصَادِفُهُ.

الوجه السابع: وشهد شاهد من النصارى على مثله.

وهذه كلمة قالها القس شنودة الثالث- كتاب التسامح في الحضارة الإسلامية- ص: (٢٥-٣١) حول سماحة الإسلام ألقاها في القاهرة في المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في الفترة من ٨ – ١١ ربيع الأول سنة ١٤٢٥ هـ الموافق ٢٨ إبريل – ١ مايو ٢٠٠٤ م، وكان موضوع المؤتمر: (التسامح في الحضارة الإسلامية):

الأستاذ الدكتور/ عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء. الإمام الأكبر الدكتور/ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر. باسم الإله الواحد الذي نعبده جميعًا، نظرة الإسلام إلى السلام: يكفي أن السلام هو اسم من أسماء الله، وقد ورد في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ (سورة الحشر: الآية٢٣)، وورد في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (سورة البقرة: ٠٨)، وفي سورة النساء: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (سورة النساء: ٤) أول مرحلة من السلام كانت في تاريخ الإسلام هي العهود والمواثيق الشهيرة، لعل في مقدمتها الميثاق الذي أُعطي لنصارى نجران، والميثاق الذي أعطي لقبيلة تغلب، ووصية الخليفة أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد، والوصية التي قدمها الخليفة عمر بن الخطاب قبل موته، والميثاق الذي أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق، والميثاق الذي أعطاه عمرو بن العاص لأقباط مصر. وفي هذه المواثيق أَمَّن المسيحيين على كنائسهم، وصوامعهم، ورهبانيتهم، وأملاكهم، وأرواحهم.

ونذكر هنا في مصر أنه عندما أتى عمرو بن العاص إلى مصر كان البابا القبطي بنيامين منفيًا ثلاثة عشر عامًا بعيدًا عن كرسيه، فأمَّنه عمرو بن العاص وأعاده إلى كرسيه وأسلمهُ كنائسه التي أخذها منه الروم، وعاش معه في سلام.

ونذكر أيضًا بعض نواحي محبة وتعاون؛ فمثلًا في الدول الإخشيدية كان محمد بن طغج الإخشيدي يحتفل مع الأقباط بعيد الغطاس في جزيرة في النيل، وقد أوقدوا حوله ألف قنديل. وفي الدولة الطولونية نعرف أن جامع أحمد بن طولون بناه سعيد بن كاتب الفرغاني؛ وهو مهندس مسيحي، طلب منه أحمد بن طولون أن يبني مسجده بغير عمدٍ تمنع النظر. وفي الدولة الفاطمية كانت العلاقة طيبة جدًّا بين المسيحيين والمسلمين حتى إن يعقوب بن كلس اليهودي كان الوزير الوحيد في عهد المعز، وعيسى بن نسطورس النصراني كان كذلك في عهد العزيز بن المعز، مما يدل على أن غير المسلمين وصلوا إلى درجات كبيرة في الدولة. نرى أيضًا من سماحة الإسلام: ما قيل من كلمات طيبة عن أهل الكتاب في آيات القرآن، ففي سورة آل عمران: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣: ١١٤)، ولاشك أن هذه الكلمات كان لها تأثير في المجتمع الإسلامي، وفي العلاقة الطيبة بين المسيحيين والمسلمين وفي سورة الأنبياء: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧)، وفي سورة المائدة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٨٢)، وفي الحديث عن السيد المسيح في سورة الحديد: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ (سورة الحديد: ٢٧).

ومن التسامح الإسلامي أيضًا الأحاديث التي وردت عن أهل الذمة، فقد قيل (في المأثورات الإسلامية): "من آذى ذميًا فليس منا، العهد لهم ولأبنائهم عهد أبدي لا يُنقض، يتولاه ولي الأمر ويرعاه" لا ننسى العلاقة الطيبة التي قدم لها مثالًا الخليفة عمر بن الخطاب عندما دُعي للصلاة في كنيسة القدس فاعتذر عن ذلك، وقال: (لئلا يأتي المسلمون من بعدي،

ويأخذوها منكم، ويقولون: هنا سجد عمر)، وصلى بعد رمية حجر من الكنيسة، وأنشئ في ذلك المكان جامع عمر، إنها روح طيبة عاش بها الإسلام مع غير المسلمين، ولعل من النقاط البارزة في القرآن مبدأ هام هو أنه لا إكراه في الدين، فقد ورد في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦)، وفي سورة يونس: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (سورة يونس: ٩٩- ١٠٠). ولذلك عندما جمع هذا المبدأ – مبدأ لا إكراه في الدين – المبدأ الذي يقول: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ كما في (سورة المائدة: ٩٩)، وأيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ (سورة المائدة: ١٠٥)، وفي سورة الشورى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ (الشورى: ٤٨)، وفي سورة النحل: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢﴾ (النحل: ٨٢)، لذلك كان من المبادئ الإسلامية القرآنية المعروفة بعدم الإكراه في الدين، وما على الرسول إلا البلاغ، وأيضًا ما ورد في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ (الغاشية: ٢١ – ٢٢)، حتى بالنسبة للكافرين ورد في سورة الكافرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ (الكافرون: ١-٦) ولهذا كان من مبادئ التسامح تلك الآية التي تقول: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (آل عمران: ١٥٩) من أجل هذا كانت المجادلة في أمور الدين تكون بالتي هي أحسن، وهذا مبدأ من مبادئ التسامح كما في سورة العنكبوت: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ . .﴾ (العنكبوت: ٤٦)

وجاء في سورة النحل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) لذلك إن حدث في يوم من الأيام إكراه في الدين يكون هذا خروجًا على تعاليم الإسلام التي سجلها القرآن، غير أن هناك بعض آيات خاصة بالقتال والحرب لا تعمم على الجميع، منها ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠) إذ هي موجهة في حالة الحرب وموجهة إلى أعداء الله وأعداء البلد، ومع ذلك جاء في نفس الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٦١) وأيضًا يقول القرآن ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨) إذ المسائل الخاصة بالحرب والقتال والخاصة بالأعداء الذين يخرجونكم من دياركم أو يضلونكم في دينكم شيء آخر، ولكن في غير ذلك يعيش الناس في محبة تبرونهم وتقسطون إليهم، إن الله يحب المقسطين.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحقاف: ١٠).

* * *

٧- شبهة: إدعاؤهم أن الله ـ تعالى ـ يحلل الكذب للناس.

نص الشبهة:

قالوا: إله الإسلام يحلل الكذب، و إنكار ذات الله واحتجوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ (البقرة: ٢٢٥)، وبقول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المائدة: ٨٩)، بقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الأول: مشروعية الحلف.

الثاني: من حلف فلا يحلف إلا بالله.

الثالث: آية الإكراه.

الرابع: ماذا عن الإله عند النصارى؟.

واليك التفصيل

الوجه الأول: مشروعية الحلف.

الله تبارك وتعالى شرع الأيمان والقسم للناس؛ لأن بها يحصل التصديق والبر بينهم. وهو شيء جار على عادتهم، فنهاهم الله تعالى عن الحلف والقسم بغير اسمه أو صفته أو ذاته.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " أَلا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلا يَحْلِفْ إِلا بِالله، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا، فَقَالَ: لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ"[1].

---

(١) البخاري (٣٥٤٩).

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلا بِآبَائِكُمْ[١].

وقد شدد النبي ﷺ في النهي عن الحلف بغير الله تعالى، فعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلا يَحْلِفُ: لا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ". [٢] وهذا من الشرك الأصغر.

الوجه الثاني: من حلف فلا يحلف إلا بالله.

عَنْ عَبْدِ الله رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ"[٣].

والحلف بالله تعالى له ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحلف بالله كاذبًا.

وهذا ما يسمى باليمين الغموس، وقد توعد النبي ﷺ من فعل ذلك، فقد روى البخاري عَنْ عَبْدِ الله رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"، فَأَنْزَلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. [٤]

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: "الإِشْرَاكُ بِالله"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "الْيَمِينُ الْغَمُوسُ"، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: "الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ". [٥]

القسم الثاني: اليمين اللغو:

وهو اليمن الذي يحلف به الإنسان دون عقد القلب، فقد عفا الله ﷻ عنه، وليس هذا من باب الكذب، وإنما الكذب هو أن يحلف بما يخالف الحقيقة.

---

(١) مسلم (٣١٠٨).

(٢) أبو داود (٢٨٢٩)، والترمذي (١٤٥٥)، وصححه الألباني (٢٧٨٧).

(٣) البخاري (٢٤٨٢).

(٤) البخاري (٢١٨٥).

(٥) البخاري (٦٤٠٩).

مثال: كأن يقول قائل: والله سأذهب إلى مكان كذا، أو سأفعل كذا، دون عقد القلب على ذلك، فهذا لا يؤاخذه الله تعالى به. قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ (البقرة: ٢٢٥).

القسم الثالث: وهو اليمين المنعقدة:

وهو أن يؤكد الإنسان على أنه سيفعل كذا أو سيذهب إلى كذا وأشباهه، وهذا نوعان:

النوع الأول: أن يبر بقسمه فلا شيء عليه.

النوع الثاني: أن يحنث في قسمه، فهذا عليه الكفارة.

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المائدة: ٨٩).

هذه هي أنواع الأيمان كما جاءت في الآيتين السابقتين، ليس فيها أمر بالكذب كما يدعي المعترضون.

الوجه الثالث: آية الإكراه.

والإكراه: هو حمل الغير على فعل لا يرضاه تحت تهديد بالضرب أو إفساد أموال ونحوه. فهذا قد أباحه الله تعالى في حقه حفظا على نفس المؤمن قال تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦)، فمن وقع تحت وطأة الأعداء، وأمروه بالكفر وخيروه بين ذلك وبين قتله، فله أن يقول بلسانه ما ليس في قبله حرصا على حفظ نفسه من القتل. ولا يجوز الإكراه في قتل المسلم بإجماع، وفي الزنا على قول الجمهور. فأين الكذب في هذه الآية؟!!.

الوجه الرابع: ماذا عن الإله عند النصارى؟

١ ـ الرب كذاب ولص: كما جاء في سفر الخروج: (١ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: ضَرْبَةً

وَاحِدَةً أَيْضًا أَجْلِبُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مِصْرَ.... ٢تَكَلَّمْ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ أَنْ يَطْلُبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ صَاحِبِهِ وَكُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ صَاحِبَتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ) (سفر الخروج ١١: ١-٢). فقد أمر بالكذب لسرقة المصريين.

٢ ـ الشيطان أصدق من الرب: (وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلًا: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ) (سفر التكوين ٢/ ١٦-١٧).

أما الشيطان المتمثل في صورة الحية فقال: (فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ الله عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَالله عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ) (سفر التكوين٣/ ٤).

وبالفعل لم يميتهما الله؛ بل عاقبهما بأن أنزلهما إلى الأرض للعمل والشقاء (سفر ا لتكوين ٣/ ١٦- ١٩) وكذلك لم يمتهما الرب؛ بل مات آدم عن عمر يناهز ٩٣٠ سنة.

٣ ـ الرب يأمر بالسرقة: (وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ) (سفر الخروج ٣: ٢١-٢٢).

وكذلك أيضًا (وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى، طَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا، وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عيون الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ، فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ) (سفر التكوين ١٢: ٣٥-٣٦).

٤ ـ الرب يُغوي: (وَقَالَ: فَاسْمَعْ إِذًا كَلاَمَ الرَّبِّ: قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّمَاءِ وُقُوفٌ لَدَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ الرَّبُّ: مَنْ يُغْوِي أَخْآبَ فَيَصْعَدَ وَيَسْقُطَ فِي رَامُوتَ جِلْعَادَ؟ فَقَالَ هذَا هكَذَا وَقَالَ ذَاكَ هكَذَا، ثُمَّ خَرَجَ الرُّوحُ وَوَقَفَ أَمَامَ الرَّبِّ وَقَالَ: أَنَا أُغْوِيهِ، وَسَأَلَهُ الرَّبُّ: بِمَاذَا؟ فَقَالَ: أَخْرُجُ وَأَكُونُ رُوحَ كَذِبٍ فِي أَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ تُغْوِيهِ وَتَقْتَدِرُ، فَاخْرُجْ وَافْعَلْ هكَذَا) (الملوك الأول ٢٢: ١٩-٢٢).

* * *

٨- شبهة: حول أعظم آية في القرآن الكريم.

نص الشبهة:

يقول المعترض: يعتبر المسلمون هذه الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ أعظم آيات القرآن، وقد ورد في تفسير ابن كثيرٍ عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن فقال: هل لك أن تصارعني فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه فصرعه فقال: إني أراك ضئيلًا شخيتًا (نحيف الجسم) كأن ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم أم أنت من بينهم؟ فقال: إني بينهم لضليع، فعاودني فصارعه، فصرعه الإنسي فقال: تقرأ آية الكرسي فإنه لا يقرأ أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خيخ (ضراط) الحمار. فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر!. [1]

ونحن نقول: إن الوحي أبعد من أن تَعْلَمَه الشياطين، فالله لا يسمح للشياطين أن يحملوا كلامه للبشر.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه وهي:

الوجه الأول: فضل آية الكرسي.

الوجه الثاني: وهل الإخبار عن التجربة يقال فيه: إن الشيطان جاء بالوحي؟

الوجه الثالث: هذا فضل لا يثبت.

الوجه الرابع: وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل آية الكرسي.

ثبت فضل هذه الآية العظيمة، وأنها حقًّا أعظم آية في كتاب الله - وكتاب الله كله عظيم – من عدة نصوص نذكر منها:

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٧٥).

١-عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ " قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ "، قَالَ: قُلْتُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صدري وَقَالَ: "وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"[١].

٢- وعن أبي أمامة قال: قال رسول اللهﷺ: "من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت". [٢]

٣-وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: "وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ". فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِﷺ. قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِﷺ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ". فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. قُلْتُ مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِﷺ: "مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ". قُلْتُ: يَا

---

(١) مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩٩٢٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٢).

رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ، يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "مَا هِيَ؟ ". قُلْتُ قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَي الْخَيْرِ. فَقَالَ النبي ﷺ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ " قَالَ: لاَ، قَالَ: "ذَاكَ شَيْطَانٌ"[1].

وهذا النص الأخير لا يقال فيه: إننا علمنا هذا الفضل بإخبار الشيطان؛ لأنه لولا إقرار النبي ﷺ بقوله: "إما إنه صدقك وهو كذوب" ما عد ذلك دليلًا يستخرج منه فضل يعمل المسلمون من أجل أن ينالوه.

الوجه الثاني: وهل الإخبار عن التجربة يقال فيه: إن الشيطان جاء بالوحي؟

مما سبق من النصوص يلزمنا أن نُسَلِّمَ أولًا أن فضل آية الكرسي، واعتقاد أنها أعظمُ آية في القرآن العظيم ثبت من كلام أمين مَنْ في السماء عليه السلام لأمين من في الأرض ﷺ، ثم نقول ثانيًا: إن إخبار الشيطان عن هذا الفضل أمرٌ لا سبيل له أن يعلمه إلا بالتجربة.

فالصحابة معلوم حرصهم على كثرة تلاوة كتاب الله ﷻ وخصوصًا الآيات التي ثبت لها فضل، وهذا معناه أن يمروا على آية الكرسي في القراءة كثيرًا، فينزل الملك بمجرد قراءتها، والشيطان يرى ذلك فيعلم، ثم هو في هذا النص يخبر. فأين العجب هنا؟ فهل كل صاحبِ علمٍ عن تجربةٍ يقال عنه: إنه يوحَى إليه، أو إنه للغيب عالم؟! !

الوجه الثالث: هذا فضل لا يثبت.

الفضل الذي جاء في النص الذي استدل به المعترض ليس لدينا ما يثبته بهذه الصورة، ولولا أنه ثبت من النصوص الآتية ما أثبتناه؛ وذلك لأن النص الذي استَدَلَّ به المعترض ضعيفٌ.

وبيان ذلك فيما يلي:

١ـ جاء من طريق عامر الشعبي عن ابن مسعود عند الدارمي (٣٣٨١) والطبراني في

---

(١) البخاري (٢١٨٧).

الكبير (٩/ ١٦٦) وغيرهم بسند رجاله ثقات، لكنه ضعيف؛ لأن عامرًا لم يسمع من ابن مسعود، فهو منقطع. نص على ذلك ابن معين وغيره.[١]

٢ـ لكن تابع عامرًا زر بن حُبَيْشٍ فيما أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٠٤٧) من طريق سعيد بن سالم عن محمد بن أبان عن عاصم بن أبي النجود عن زر عن ابن مسعود، وهي متابعة واهية؛ فيها أكثر من علة:

أ ـ سعيد بن سالم، قال ابن حجر: صدوق يهم. (التقريب ٢٣١٥).

ب ـ محمد بن أبان الجعفي؛ ضعفه أبو داود، وابن معين، وقال البخاري: ليس بالقوي. (ميزان الاعتدال ٧١٢٨).

جـ ـ عاصم بن أبي النجود صدوق له أوهام (التقريب ٣٠٥٤).

د ـ اختُلِفَ على عاصمٍ؛ فرواه الطبراني في الكبير (٨٨٢٤) من طريق أسد بن موسى عن المسعودي، عن عاصمٍ عن شقيقٍ عن ابن مسعودٍ؛ والمسعودي صدوقٌ اختلط قبل موته (التقريب ٣٩١٩).

ورواية أسدٍ عنه غير منصوصٍ عليها؛ أهي قبل الاختلاط أم بعده؟

وعلاوة على ذلك قال ابن معين: (كان يغلط فيما يحدث عن عاصم بن بهدلة)[٢].

وقد علق الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٧٤) على هذين السندين فقال: رواهما الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعودٍ ولكنه أدركه. ورواة الطريق الأولى فيهم المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي والله أعلم.

قلت: رحمك الله هذا قد يسلم به لولا الاختلاف الذي على عاصم، وما أثبت من غلط في رواية المسعودي عن عاصم، وعاصم لا يتحمل تعدد المشايخ. والله أعلم.

لكن تابع عاصمًا عبد الملك بن عمير فيما أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٨٨)

---

(١) انظر جامع التحصيل (١/ ٢٠٤).

(٢) شرح علل الترمذي (٥٧١).

ولكنها أوهى من أن تذكر ففيها محمد بن عبدة بن حرب.

قال البرقاني وغيره: هو من المتروكين.

وقال ابن عدي: كذاب، حدث عمن لم يرهم.

وقال الدارقطني: لا شيء، كان آفة، سمعت السبيعي يقول: انكشف أمره. (١)

ويزيد ذلك وهنًا خلافٌ ثالث رواه أبو جعفر البختري.

من طريق همام بن يحيى عن عاصم عن زرٍّ أن عمر بن الخطاب. . . .

فخلاصة الحديث أن له طريقين:

الأول: من طريق عامر الشعبي عن ابن مسعود وهو منقطع.

والثاني: مداره على عاصم، واختلف عليه بما لا يتحمله، فيبدوا أنه اضطرب فيه. والله أعلم.

ثم حتى لو ثبت سماعُه، فإن الفضل المذكور هو محض إخبار جن قد يصدق وقد يكذب، ولا إقرار فيه من النبيﷺ كما سبق في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري يعلمنا صدقه، ولكن نقول: إنه ثبت قريبٌ من هذا لفضل فيما يلي، وانظر إلى إقرار النبيﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحَى.

١- عن أبي أيوب الأنصاريﷺ أنه كانت له سهوةٌ فيها تمرٌ، وكانت تجيء الغول فتأخذ منه، قال: فشكا ذلك إلى النبيﷺ، فقال: "اذهب فإذا رأيتها، فقل: باسم الله، أجيبي رسول الله، قال: فأخذها، فحَلَفَتْ أن لا تعود، فأرسلها، فجاء إلى رسول اللهﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حَلَفَتْ أن لا تعود، قال: كَذَبَتْ، وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرة أخرى، فحَلَفَتْ أن لا تعود، فأَرْسَلَهَا، فجاءَ إلى النبيِّﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت أن لا تعود، فقال: "كَذَبَتْ، وهي معاودة للكذب" فأخذها، فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبيﷺ فقالت: إني ذاكرة لك شيئًا؛ آية الكرسي، اقرأها في بيتك؛ فلا يقربك شيطان، ولا غيره، فجاء إلى النبيﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟

---

(١)انظر ميزان الاعتدال (٣/ ٦٣٤).

قال فأخبره بما قالت، قال: صَدَقَتْ، وهي كذوب"[1].

تدبر قول النبي ﷺ كذبت مرتين، ثم قوله: "صدقت" فالمعول عليه **إقرار النبي** ﷺ، وليس إخبار الجن أو الشياطين.

٢- عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ، أن أباه أخبره أنه كان لهم جرين فيه تمر، وكان مما يتعاهد فيجده ينقص فَحَرَسَهُ ذاتَ ليلةٍ، فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم، قال: فسلم فرد عليه السلام، فقلت: ما أنت؛ جن أم إنس؟ قال: جن، فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب، وشعر كلب، فقلت: هذا خلق الجن؟ فقال: لقد عَلِمَتْ الجن أن ما فيهم مَن هو أشدُّ مني، فقلت: ما يحملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك تحب الصدقة؛ فأحببت أن أصيب من طعامك، فقلت: ما الذي يحرزنا منكم؟ قال: هذه الآية؛ آية الكرسي، قال: فتركته، وغدا أبي إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: صدق الخبيث". [2]

الوجه الرابع: وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة: ٣٣)، ومن إظهاره لدينه سبحانه أن يستعمل من يشاء في نشره فيستعمل البَرَّ ويثيبه، وكذا إذا شاء استعمل من هو لهذا الدين مبغض محارب ولا يعود إلا بالخسارة؛ لأن ثبوت الأجر يلزمه التوحيد والإيمان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الزمر: ٦٥)، وإن الحالة التي تعجب منها المعترض هي من النوع الثاني فالشيطان يعمل جاهدًا ليصد عن دين الله، ويحادد بذلك الملك لكن هيهات، فكيده مردود في نحره؛ بل ويقع في إخبار أسرار لا يعلم أن الله قدرها لحفظ دينه وتحصين عباده، ولا عجب فالملك

---

(١) ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٢٠)، والترمذي (٣١٢١)، وقال الألباني: (صحيح لغيره) في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٩).

(٢) أخرجه الحارث في مسنده (زوائد الهيثمي ١٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٩٦)، والحاكم في مستدركه (٥/ ١٣٠)، والبيهقي في الدلائل (٨/ ١٧٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٠): صحيح.

يصنع في ملكه ما يشاء، وإليك بعض الأمثلة غير هذا:

أ-استعمال اليهود كي يكونوا سببًا في إسلام الأنصار: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة: ٨٩)

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وكان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان كفروا به وكانوا من قبل يستفتحون بمحمدﷺ، ومعنى الاستفتاح الاستنصار يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه أي من قبل أن يبعث.

قلت: أي إن اليهود كانوا إذا اختلفوا مع المشركين من أهل المدينة قبل أن يأتيهم رسول اللهﷺ قالوا: إنه قد أطل زمان نبي جديد فسيبعث وسنقاتلكم معه قتل عاد وإرم. وقدر الله ذلك ليحفز المشركين من أهل يثرب أن يسبقوا اليهود في الإيمان بالنبيﷺ، فلما حج بعض المشركين من أهل يثرب ورأوا النبيﷺ قالوا: هذا الذي كانت تعيركم به يهود لا يسبقونكم إليه فسارعوا إلى الإيمان به.

فانظر كيف يستعمل الله أعداءه في خدمة دينه والدعوة إليه، وهم لا يلحقهم من الخير شيء؛ لأنهم ما قصدوا ذلك إنما الله جل وعلا ينصر دينه بما شاء وكيف شاء.

ب-استعمال أبي جهل في إقامة الحجة على المشركين ونشر معجزة الإسراء، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: "لما كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِي" فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: "نَعَمْ" قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ؟ " قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ" قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "نَعَمْ"

فَقَالَ: هَيَا يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍ، حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ" قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قُلْتُ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ" قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ –زَعَمَ– قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، - قَالَ - فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عَقِيلٍ فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ " قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ، قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ"[1].

تدبر، كيف ألقى الله على لسان أبي جهل سؤال النبي ﷺ بعد أن جاء وجلس إلى جوار النبي ﷺ دون أن يناديه أو يطلب منه فيقول: (هل من شيء؟) يقولها كالمستهزيء، لكن الله يجعل كيده في نحره فيستعمله في نداء القوم، هو يظن أنه ينادي للقضاء على الدِّين، والله يقدِّر ذلك لينعت النبي ﷺ بيت المقدس أمام القوم وهم يعلمون أنه ما سبق له زيارته، فتقام الحجة ويقع التصديق في القلوب، فيقترب كثير منهم للإسلام والإذعان بصدق نبوة النبي العدنان ﷺ.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٢٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٧).

٩- شبهة: معاصرة إبراهيم للنمرود، وادعاؤهم أن النمرود كان سابقًا لإبراهيم عليه السلام بـ٣٠٠سنة.

نص الشبهة: قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

أجمع علماء الإسلام على أن الذي حاجَّ إبراهيم هو نمرود بن كنعان الجبار، والتوراة تقول: إن إبراهيم كان خليل الله، وإنه أبو المؤمنين، وإن الله اصطفاه، ولكنها لم تقل إنه أُلقي في النار، وإنه فعل المعجزات المنسوبة إليه هنا.

ولم يكن نمرود معاصرًا لإبراهيم؛ بل كان سابقًا لإبراهيم بنحو ٣٠٠ سنة، كما يقول سفر التكوين.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها في الإسلام.

الوجه الثاني: نبذةٌ عن الإجماع.

الوجه الثالث: نبذةٌ عن علم الغيب واعتقاد المسلمين فيه.

الوجه الرابع: وهل سماه القرآن أو سمته السنة؟

الوجه الخامس: الأدلة التي احتج بها الخصم.

الوجه السادس: موقف دين الإسلام من الكتب السابقة وصحة الاحتجاج عليه بها.

الوجه السابع: التواريخ في التوراة تتكلم.

الوجه الثامن: وهل تمنع الثلاثمائة عامٍ من التعاصر؟

الوجه التاسع: وعلى الفرض بأن الذي حاجه اسمه نمرود، هل هناك ما يمنع وجود نمرودٍ آخر؟.

الوجه العاشر: عن أي نسخةٍ من التوراة تتحدثون؟ وبأي التورايخ تأخذون؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها في الإسلام.

لمناقشة احتجاج المعترض بقوله: أجمع علماء الإسلام، ينبغي أن نعطي نبذةً أصوليةً هامةً عن الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها في الإسلام؛ وهي إجمالًا:

القرآن الكريم. السنة النبوية الصحيحة. الإجماع. القياس. وذلك من حيث الجملة. [١]

قال الشافعي: وجهة العلم الخبر في الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو القياس. [٢]

وهذه الأدلة لا تختلف؛ إذ يوافق بعضها بعضًا ويصدق بعضها بعضًا؛ لأن الجميع حقٌّ، والحق لا يتناقض. [٣]

وهي كذلك متلازمةٌ، لا تفترق؛ فجميع هذه الأدلة ترجع إلى الكتاب[٤]، والكتاب قد دل على حجية السنة والكتاب، والسنة دلت على حجية الإجماع، وهذه الأدلة الثلاثة دلت على حجية القياس. [٥]

قلت: وما سوى هذه الأدلة منازَعٌ فيه مختلَفٌ في حجيته غيرُ ملزم على إطلاقه.

وبهذا يتبين أن القرآن والسنة هما أصل الأدلة الأربعة المتفق عليها؛ فلا يقوم إجماعٌ، ولا قياسٌ بدون مستندٍ من الكتاب أو السنة أو من كليهما.

الوجه الثاني: نبذة عن الإجماع.

ومن الجدير أن نفصل أمر الدليل الثالث وهو من الإجماع لاحتجاج المعترض في اعتراضه به.

فنقول: الإجماع لغة: يطلق على العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ (يونس: ٧١).

ويطلق على الاتفاق ومنه قولهم: أجمع القوم على كذا؛ أي اتفقوا عليه.

---

(١) معالم أصول الفقه (١/ ٧٠).

(٢) الرسالة (١/ ٣٩)، وانظر منه (ص ٥٠٨).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٣٣).

(٤) الرسالة (٢٢١).

(٥) معالم أصول الفقه (٦٨).

وفي الاصطلاح: هو اتفاق مجتهدي عصرٍ من العصور من أمة محمد ﷺ بعد وفاته على أمرٍ ديني.

وقد اشتمل هذا التعريف على خمسة قيودٍ:

الأول: أن يصدر الاتفاق عن كل العلماء المجتهدين؛ فلا يصح اتفاق بعض المجتهدين، وكذلك لا يصح اتفاق غير المجتهدين كالعامة، أو من لم تكتمل فيهم شروط الاجتهاد.

أي يشترط في صحة الإجماع أن يكون قولَ جميع المجتهدين، ولا يُعْتَدُّ بقول الأكثر- الجمهور- فإذا خالفَ واحدٌ أو اثنان من المجتهدين فإن قولَ الباقين لا يُعْتَبَرُ إجماعًا.

الثاني: المراد بالمجتهدين مَن كان موجودًا منهم دون من مات، أو لم يولد بعدُ، وهذا هو المقصود بقيد (عصرٍ من العصور).

الثالث: لا بد أن يكون المُجْمِعُون من المسلمين، ولا عبرةَ بإجماع الأمم غير المسلمة.

الرابع: الإجماع إنما يكون حجةً بعد وفاة النبيِّ ﷺ ولا يقع في حياته.

الخامس: أن تكون المسألةُ المجمَعُ عليها من الأمور الدينية، ويخرج بذلك الأمور الدنيوية والعقلية وغيرها[1].

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول باشتراط انقراض العصر، ولعل هؤلاء أرادوا بهذا الاشتراط زيادة التثبت في نسبة قول المجمعين إليهم، وشدة التأكد من استقرار أهل المذاهب على مذاهبهم.

وعلى كل حالٍ فلا بد في هذه المسألة من تحرير قضيةٍ مهمةٍ:

ألا وهي التثبت في نقل الاتفاق والتأكد من حصول الإجماع؛ وذلك بمعرفة أقوال المجمعين والاطلاع على أحوالهم للعلم باستقرارهم على مذاهبهم[2].

قلت: أما في حالة نقل الاتفاق دون التأكد من موافقة جميع المجتهدين فالإجماع المنقول لا يكون صحيحًا، ثم إن هناك شرطًا أساسيًا كما أسلفنا، وهو أن يستند الإجماع إلى دليلٍ شرعيٍّ ولا يمكن إجماع الأمة عن هوًى أو قولٍ على الله بغير علم.

---

(١) معالم أصول الفقه (١٦١- ١٦٢).

(٢) المصدر السابق (١٧٠).

قاعدةٌ مهمةٌ: لا يوجد مسألةٌ يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نصٌّ، ويقال أيضًا: لا يوجد قط مسألةٌ مُجْمَعٌ عليها إلا وفيها بيانٌ من الرسول ﷺ[١].

وأما العلم بثبوت الإجماع في مسألةٍ لا نص فيها فهذا لا يقع[٢].

الوجه الثالث: نبذة عن علم الغيب واعتقاد المسلمين فيه.

قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦-٢٧)، قال العلماء -رحمة الله عليهم-: لما تَمَدَّحَ سبحانه بعلم الغيب وأستأثر به دون خلقه، كان فيه دليلٌ على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوتهم[٣].

فمن الثوابت في عقيدة المسلمين أن علم الغيب خاصٌّ بالله تعالى، ووراء طور البشر:

فالاطلاع على الغيب يختص بالله تعالى، فهو يملكه ويتصرف فيه كما يشاء، وهي صفته الدائمة، ولم يجعل لولي أو نبي، أو جني أو ملك، أو شيخ أو شهيد، أو إمام، أو سليل إمام، ولا لعفريت ولا لجنية أن يطلعوا على الغيب متى شاءوا، إن الله قد يطلع من يشاء على ما يشاء متى يشاء، لا يجاوز علمه ما أراد الله إطلاعه عليه مثقال ذرة، وكان ذلك خاضعا لإرادة الله تعالى، لا لهواهم.[٤]

وهذا ليس مقررًا في عقيدة المسلمين فقط؛ بل في كل رسالة ونبوة؛ لأن الله استأثر بعلم الغيب، لذلك لما سأل فرعون موسى عن شيء من الغيبيات رد علمها إلى من لا يعلمها في الأصل إلا هو سبحانه، قال تعالى حاكيًا قول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (طه: ٥١) ثم حكى إجابة موسى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢) وكذا في أمر الاختلاف في عدد أصحاب الكهف يقول الله جل وعلا:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٥).

(٢) المصدر السابق (١٩/ ٢٧٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨).

(٤) رسالة التوحيد (١/ ٦٥).

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الكهف: ٢٢).

وقال عن المدة التي لبثوها في الكهف: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٥-٢٦).

لذا لا يُستفتى في الغيب إلا من يعلمه؛ وهو الله أو من علمه الله ﷻ وهم أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم وسلم؛ وذلك عن طريق الوحي إليهم بذلك؛ لذا أطلع رب العالمين نبيه ﷺ على بعض أخبار الأمم السابقة، فقال رب العالمين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر: ٧٨)، وقال تعالى بعد أن قص على النبي ﷺ نبأ مريم بنت عمران: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٤) أي أنه لا سبيل لك أن تعلم نبأهم؛ لأنك لم تشهد هذا الأمر فهو لك غيبٌ لا قِبَلَ لك أن تعلمه بدون تعليم الله إياك. وكذا قال تعالى بعد أن قص على النبي ﷺ نبأ نوح وقومه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (هود: ٤٩). وكرر ذلك بعد أن قص عليه قصة يوسف عليه السلام.

ومما سبق نخلص بالنتيجة الآتية:

١- أن الله ﷻ استأثر بعلم الغيب سواء ما كان شهادةً لقومٍ، ثم صار غيبًا لآخرين كأخبار السابقين، أو ما هو غيبٌ للجميع وهو خبر كل ما يُسْتَقْبَلُ.

٢- أن الله تعالى يطلع خلقه على ما يشاء من الغيب كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

٣- أن سبيل إطلاع الله لخلقه على الغيب هو الوحي، والوحي لا يكون إلا لمن اصطفاهم الله للنبوة والرسالة.

٤- إذن لا سبيل لعلم الغيب في أمتنا إلا بنصٍّ من كتاب الله أو من سنة نبيه محمد ﷺ؛ لأنه لا يوحى إليه في هذه الأمة إلا هو، والغيب لا يكون إلا بالوحي كما أسلفنا.

٥- كل من نقل شيئًا من خبر الغيب سواء مما سبق وقوعه، أو مما يستقبل دون مستند من كتاب أو سنة فقوله لا يجزم به ولا يحتج به؛ لأنه لن يعدوا إلى أن يكون عن أحد طريقين وهما:

أ- ما نقل عن بني إسرائيل أو ما نقل عن المؤرخين وهذا ليس بحجة قطعًا كما أسلفنا.

ب- ما يكون تخرُّصًا وادعاءً، وهذا رجمٌ بالغيب كما أخبر الله حينما حكى مثل ذلك عن من اختلفوا في عدة أصحاب الكهف.

تنبيهٌ هامٌ:

من المعلوم أن القرآن والسنة نُقِلُوا إلينا عن طريق أصحاب محمد ﷺ إذن فهم عاينوا التنزيل إخبارًا وإنشاءً، ولهذا كان إخبارهم عن الأمور التي لا مجال للاجتهاد فيها على قول أكثر العلماء له حكم الرفع أي أن النبي ﷺ أخبرهم به وإن لم يصرحوا هم بذلك.

فما له حكم الرفع في من تفسير الصحابي هو ما صح عنه من أسباب النزول و ألحقوا بـ(تفسير الصحابي) الذي له حكم الرفع ما لا يدخله الاجتهاد، مثل: أن يخبر عن أمر ماضٍ، أو أن يخبر عن مغيبٍ آتٍ، أو عن أمرٍ مستقبلٍ -يعني- عن المغيبات، أو أن يخبر عن أي شيءٍ لا يدخله الاجتهاد، فيفسر الآية بشيءٍ لا يدخله الاجتهاد، واشترطوا لهذا ألا يكون معروفًا بالأخذ عن بني إسرائيل، أو عن الإسرائيليات، فإن بعض الصحابة ﷺ تجوزوا وإن لم يكن هذا كثيرًا، فمتى كثر هذا؟ وفي عهد من؟ في عهد التابعين، بعض الصحابة تجوز التحديث عن بني إسرائيل؛ أخذًا من قوله ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" أو يعني بعض الصحابة مثل: عبد الله بن عمرو بن العاص، عُرِفَ عنه أنه أخذ

عن بعض أهل الكتاب. فمثل هذا التفسير، وكذلك قول الصحابي عمومًا، إذا لم يدخل في الاجتهاد، يقولون: إن له حكم الرفع.[(١)]

ومثالُ المرفوعِ مِن القولِ حُكمًا لا تَصْريحًا أَنْ يقولَ الصَّحابيُّ - الَّذي لم يأْخُذْ عَنِ الإسرائيليَّاتِ - ما لا مجالَ للاجْتِهادِ فيهِ، ولا لهُ تعلُّقٌ ببيانِ لُغةٍ أَو شرحِ غريبٍ؛ كالإِخْبارِ عنِ الأمورِ الماضيةِ مِن بَدْءِ الخَلْقِ وأَخْبارِ الأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- أَو الآتيةِ كالملاحمِ والفِتَنِ وأَحوالِ يومِ القيامةِ[(٢)].

إذن المعتبر قولهم فرادى أو إجماعًا ويحتج به في الأمور الغيبية هم الصحابة للسبب السالف ذكره بالقيد السالف ذكره أيضًا، وهو أن لا يكون معروفًا بالأخذ عن بني إسرائيل، أما من دونهم فلا يعتبر قولهم في الغيبيات وإن أجمعوا لسببين:

أ- أن صلتهم بمصدر الغيب منقطعة.

ب- أنه كثر فيهم الأخذ عن بني إسرائيل.

إذن فبحث الإجماع سيكون في الطبقة التي يعتد بقولهم وإخبارهم عن الغيبيات مما لم يرفع تصريحًا. فنقول مستعينين بالله:

الوجه الرابع: وهل سماه القرآن أو سمته السنة؟

كما أسلفنا أن الأدلة المعتبرة لا بد أن تقوم على نصٍّ من القرآن أو السنة أو من كليهما معًا، والقرآن الكريم لم يسم الملك الذي حاج إبراهيم في ربه ولا سمته السنة؛ لأن قصد القرآن من القَصص هو مضمون المحاجّة، والعبرة منها. واسم الملك لا يقدم ولا يؤخر في المضمون والعِبرة. أما تسمية هذا الملك ـ الذي حاجّه إبراهيم ـ بـ (النّمروذ) والاختلاف في نطق اسمه، ومدة ملكه، فجميعها قصص تاريخي، أورده المفسرون. فهو غير مُلْزِمٍ للقرآن الكريم. ومن ثَمَّ لا يصح أن يورد ذلك كشبهة تثار ضد القرآن. فليس لدينا في

(١) شرح اختصار علوم الحديث (١/ ١٢٦) بتصرفٍ.

(٢) نُزْهَةُ النظَر (١/ ٢٨).

التاريخ الموثق والمحقق ما يثبت أو ينفي أن اسم الملك الذي حاجّ إبراهيم الخليل في ربه هو (النّمروذ)، وإنما هو قصص تاريخي يحتاج إلى تحقيق.

الوجه الخامس: مناقشة الأدلة التي احتجوا بها.

مما سبق لا يسوغ لنا أن نبحث عن هذا الإجماع إلا في عصر الصحابة؛ لأنهم هم الذين يُعْتَدُّ بكلامهم في الغيبيات بالقيد السالف ذكره؛ إذ إنهم أورع من أن يتكلموا في ذلك إلا بتوقيفٍ أو إباحة ذكر قصص عن بني إسرائيل.

أقول: قد نُقِلَ عن بعض الصحابة القول بأن الذي حاج إبراهيم في ربه هو النمروذ بن كنعان، وبيان ذلك كالآتي:

١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (الْكَلِمَاتُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهِنَّ إِبْرَاهِيمُ فَأَتَمَّهُنَّ: فِرَاقُ قَوْمِهِ فِي اللهِ حِينَ أُمِرَ بِفِرَاقِهِمْ، وَمُحَاجَّتُهُ نَمْرُودَ فِي اللهِ حِينَ وَقَفَهُ عَلَى مَا وَقَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَطَرِ الأَمْرِ الَّذِي فِيهِ خِلافُهُمْ، وَصَبْرُهُ عَلَى قَذْفِهِ إِيَّاهُ فِي النَّارِ لِيُحَرِّقُوهُ فِي اللهِ عَلَى هَوْلِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَالْهِجْرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَطَنِهِ وَبِلادِهِ فِي اللهِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ عَنْهُمْ، وَمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الضِّيَافَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَمَالُهُ وَمَا ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ ذَبْحِ وَلَدِهِ حِينَ أَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، فَلَمَّا مَضَى عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللهِ كُلِّهِ وَأَخْلَصَهُ الْبَلاءَ، قَالَ اللهُ لَهُ: أَسْلِمْ، قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. عَلَى مَا كَانَ مِنْ خِلافِ النَّاسِ وَفِرَاقِهِمْ).

قلت: وإسناده ضعيف وفيه أكثر من علة كما هو مبين في الحاشية[1].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٢٣) من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عنه قلت: وفيه أكثر من علة:

العلة الأولى: محمد بن أبي محمد الأنصاري مولى زيد بن ثابت، مدني، روى عن سعيد بن جبيرٍ وعكرمة، وعنه محمد ابن إسحاق. ذكره ابن حبان في الثقات.

قلت: وقال الذهبي: لا يعرف. تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨٤).

قال الحافظ: مجهولٌ تفرد عنه ابن إسحاق. تقريب التهذيب (٦٢٧٦).

العلة الثانية: عنعنة محمد بن إسحاق، وهو مدلس يلزمه التصريح بالسماع. طبقات المدلسين (١/ ٥١).

العلة الثالثة: سلمة بن الفضل الأبرش قاضي الري يكنى أبا عبد الله.

وهناك رواية أخرى عنه:

عن ابن عباس قال لما هرب إبراهيم من كوثي، وخرج من النار ولسانه يومئذ سرياني، فلما عبر الفرات من حران غير الله لسانه فقيل: عبراني حيث عبر الفرات، وبعث نمروذ في أثره، وقال لا تدعوا أحدًا يتكلم بالسريانية إلا جئتموني به، فلقوا إبراهيم فتكلم بالعبرانية فتركوه ولم يعرفوا لغته.

وهذا سند أيضًا لا يصح به نقل عن ابن عباس مسلسل بالعلل كما هو مبين[1].

ضعفه ابن راهويه. وقال البخاري: في حديثه بعض المناكير. وقال ابن معين: كتبنا عنه، وليس في المغازي أتم من كتابه. وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن عدى: لم أجد لسلمة ما جاوز الحد في الإنكار. وقال ابن المدينى: ما خرجنا من الري حتى رمينا بحديث سلمة.

وروى عباسٌ، عن ابن معينٍ، قال: سلمة الأبرش رازي يتشيع، قد كتب عنه، وليس به بأس. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال أبو زرعة: كان أهل الري لا يرغبون فيه لسوء رأيه وظلم فيه. وقيل: كان حافظًا يحفظ من مرة. ميزان الاعتدال (٢/ ١٩٢).

فأقل ما يقال في حاله أنه صدوقٌ كثير الخطأ كما قال الحافظ. التقريب (٢٥٠٥).

فبهذا يتبين أن النقل عن ابن عباس لا يصح.

(١) الطبقات الكبرى (١/ ٤٦) من طريق هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عنه به.

قلت: وهذا سند أيضًا لا يصح به نقل عن ابن عباس؛ مسلسل بالعلل، وإليك البيان:

العلة الأولى: هشام بن محمد بن السائب الكلبي.

قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب، ما ظننت أن أحدًا يحدث عنه. وقال الدارقطني وغيره: متروك. وقال ابن عساكر: رافضي، ليس بثقة. ميزان الاعتدال (٤/ ٣٠٤)

العلة الثانية: أبو النضر محمد بن السائب الكلبي.

قال سفيان: قال الكلبي: قال لي أبو صالح: انظر كل شئ رويت عنى عن ابن عباس فلا تروه.

وقال البخاري: أبو النضر الكلبي تركه يحيى وابن مهدى. ثم قال البخاري: قال علي: حدثنا يحيى، عن سفيان، قال لي الكلبي: كل ما حدثتك عن أبي صالح فهو كذب.

وقال ابن معين: قال يحيى بن يعلى، عن أبيه، قال: كنت أختلف إلى الكلبي أقرأ عليه القرآن، فسمعته يقول: مرضت مرضة فنسيت ما كنت أحفظ، فأتيت آل محمدﷺ فتفلوا في فيَّ، فحفظت ما كنت نسيت.

فقلت: لا والله، لا أروي عنك بعد هذا شيئًا، فتركته. ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٧).

قلت: وهذا يدل على رفضه وخبث مذهبه.

قال ابن عدي: وقد حدث عن الكلبي سفيان وشعبة وجماعة، ورضوه في التفسير، وأما في الحديث فعنده مناكير، وخاصة إذا روى عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وقال ابن حبان: كان الكلبي سبائيًّا من أولئك الذين يقولون: إن عليًا لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلًا كما ملئت جورًا، وإن رأوا سحابةً قالوا: أمير المؤمنين فيها.

قال التبوذكي: سمعت همامًا يقول: سمعت الكلبي يقول: أنا سبائي.

قال الحسن بن يحيى الرازي الحافظ، حدثنا علي بن المديني، حدثنا بشر بن المفضل، عن أبي عوانة، سمعت الكلبي يقول: كان جبرائيل يملي الوحي على النبيﷺ، فلما دخل النبيﷺ الخلاء جعل يملي على علي.

وقال ابن معين: الكلبي ليس بثقة. وقال الجوزجانى وغيره: كذاب. وقال الدارقطني وجماعة: متروك.

وقال ابن حبان: مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه.

يروي عن أبي صالح، عن ابن عباس التفسير.

وأبو صالح لم ير ابن عباس، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فلما احتيج إليه أخرجت له الأرض أفلاذ كبدها. لا يحل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به! ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٩).

العلة الثالثة: أبو صالح باذام، ضعفه البخاري. وقال النسائي: باذام ليس بثقة. وقال ابن معين: ليس به بأس.

وقال ابن عدى: عامة ما يرويه تفسير. وقال يحيى القطان: لم أر أحدًا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ.

وقال زكريا بن أبي زائدة: كان الشعبي يمر بأبي صالح فيأخذ بأذنه فيهزها، ويقول: ويلك! تفسر القرآن وأنت لا تحفظ القرآن.

وقال إسماعيل بن أبى خالد: كان أبو صالح يكذب، فما سألته عن شيء إلا فسره لي.

وروى ابن إدريس، عن الأعمش، قال: كنا نأتي مجاهدًا فنمر على أبي صالح وعنده بضعة عشر غلامًا، ما نرى أن عنده شيئًا. وقال سفيان: قال الكلبي: قال لي أبو صالح: كل ما حدثتك كذب.

وروى مفضل بن مهلهل، عن مغيرة، قال: إنما كان أبو صالح صاحب الكلبي يعلم الصبيان وضعف تفسيره.

وقال ابن معين: إذا روى عنه الكلبي فليس بشئ.

وقال عبد الحق في أحكامه: ضعيف جدًّا، فأنكر هذه العبارة عليه أبو الحسن بن القطان. ميزان الاعتدال (١/ ٢٩٦)

وقال العقيلي: قال مغيرة: إنما كان أبو صالح يعلم الصبيان، وكان يضعف تفسيره، وقال: كتب أصابها ويعجب ممن يروي عنه، ولما قال عبد الحق في الاحكام: إن أبا صالح ضعيف جدا أنكر عليه ذلك ابن القطان في كتابه وقد قال الجوزقاني: إنه متروك، ونقل ابن الجوزي عن الأزدي أنه قال: كذاب، وقال الجوزجاني: كان يقال له ذو رأي غير محمود، وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم. تهذيب التهذيب (١/ ٣٦٥)

العلة الرابعة: الانقطاع بين أبي صالح وابن عباس.

٢- عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، يقول: (الَّذِي حَاجَّ إِبْرَهِيمَ فِي رَبِّهِ: نُمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ).

وهذا لا يثبت عن علي بن أبي طالب؛ وعلته أن فيه رجلًا من بني أسدٍ وهو مجهولٌ فالإسناد ضعيفٌ. [1]

وبهذا يتضح أنه لم يصح عن واحدٍ من الصحابة القول بأن (نمرود) هو الذي حاج إبراهيم في ربه فضلًا عن أن يجتمعوا على هذا القول.

إذن فنقل الإجماع عن الصحابة في هذا الأمر لا يصح.

الوجه السادس: موقف دين الإسلام فيما نقل عن الكتب السابقة.

عند النظر إلى هذا الاعتراض نجد أن هناك سؤالًا يطرح نفسه: ما موقف الإسلام من الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) وكيف يتعامل معها؟ وهل يصح اعتبارها مصدرًا للتشريع، أو سبيلًا للمعرفة-لا سيما فيما يتعلق بأخبار آخر الزمان وأوله-؟

فنقول -وبالله التوفيق-: إن شرعنا لم يغفل هذه القضية ولم يغض الطرف عنها، فالتوراة والإنجيل في نظر الشرع كتبٌ سماوية طرأ عليها التحريف والتبديل؛ لأن الله لم يتكفل بحفظها، ولكن مع تحريفها فقد بقي فيها بعض الحق - كثيرًا أو قليلًا- وهي بذلك لم تفقد قدسيتها بالكامل، لذلك فقد كان موقف الشرع متوازنًا مع هذا الواقع.

فبعد أن صحح الشرع النظرة إلى هذه الكتب، وبَيَّنَ أنها كتبٌ فيها الحق والباطل، جاء بميزان الله الذي لا يحيد عن العدل، فجعل ما في تلك الكتب على قسمين:

قال ابن حبان: لم يسمع من ابن عباس. جامع التحصيل (١/ ١٤٨).

فلا شيء نعلمه ثبت عن ابن عباس في ذلك.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٢٧١) وهذا لا يثبت عن علي بن أبي طالب وعلته أن فيه رجل من بني أسد وهو مجهول فالإسناد ضعيف.

ولا يُقْبَلُ حديثُ المُبْهَمِ ما لم يُسَمَّ؛ لأنَّ شرطَ قَبولِ الخَبَرِ عدالَةُ راويهِ، ومَن أُبْهِمَ اسمُه لا تُعْرَفُ عَيْنُهُ، فكيفَ تُعْرَفُ عدالَتُهُ؟! نُزْهَةِ النَّظَر (١/ ٢٦).

الأول: الأحكام، وهذه لا يعني مخالفتُها لما عندنا بطلانَها، فقد يكون الاختلاف ناتجا عن كونها منسوخة في شرعنا، ثابتة في شرع من قبلنا، إلا أن ينص القرآن على نفي ذلك الحكم من كتاب سابق كالتوراة مثلًا، فيكون وجوده في التوراة ناتجا عن عملية تحريف متعمد.

الثاني: الأخبار والقصص، وهذه لما كان النسخ لا يجري فيها، فقد قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما جاء موافقا لشرعنا، فهذه يحكم بصدقها، لشهادة شرعنا لها بذلك، كالبشارات المتعلقة ببعثة سيدنا محمدﷺ، في الكتابين التوراة والإنجيل.

القسم الثاني: ما جاء مخالفا لشرعنا، فهذه يحكم ببطلانها، كزعمهم أن نبي آخر الزمان سيكون من نسل داود عليه السلام يريدون بذلك الطعن في نبي الإسلام ﷺ. وكالأخبار التي يوردونها عن الله ﷻ كقولهم: إن الله تعب بعد أن خلق السموات فارتاح في يوم السبت، وكطعنهم في الأنبياء -عليهم السلام- بإيرادهم قِصصًا تنتقص من قدرهم، أو تطعن في عصمتهم. أو في أخبارٍ عن السابقين مخالفةٍ لما جاء في شرعنا الحنيف.

القسم الثالث: ما لم يشهد لها شرعنا لا بالموافقة ولا بالمخالفة، فهذه يُتوقف فيها، فلا نصدقها خشية أن تكون مما أدخلته يدُ التحريف، ولا نكذبها خشية أن تكون من وحي الله ﷻ، وعلى هذا القسم يُنزَّلُ قولُ النبيِّ ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم"، و ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦). [1]

إذن نستخلص قاعدةً هامةً وهي من أهم أصول الاحتجاج والمناظرة: لا تناقش فرعًا مرتبطًا بأصل والفرع لا يوافقك فيه.

الوجه السابعَ: التواريخ في التوراة تتكلم.

نقول: إن حجة المعترض أن إبراهيم ونمرود لم يتعاصرا بدليل أن النمرود جاء قبل

(١) البخاري (٤٢١٥).

إبراهيم بـ ٣٠٠ سنة لا يصح، والتورايخ في التوراة تقول ذلك وإليك البيان:

بدراسة أجدادهما منذ خلق آدم لتبين الفرق بينهما يتضح الآتي:

أولًا: ينص سفر التكوين على أن نمرود وإبراهيم يشتركان في جدهما نوح؛ لأن نمرود هو ابن كوش بن حام بن نوح (تكوين ١٠/ ٦-٨).

وإبراهيم هو ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح (لوقا ٣/ ٣٤-٣٦)

وقد يقول قائلٌ: إن بُعْدَ المسافة بين إبراهيم ونوح وقربَها بين نمرود ونوح تُعَبِّرُ عن بعد المسافة الزمنية بين إبراهيم ونمرود.

ولكن سفر التكوين الذي أخذ منه ذلك يقول غير هذا وإليك البيان:

الاسم	سن الوالد عند ميلاده	الزمن من خلق آدم	الموضع من سفر التكوين
آدم	خلق ولم يولد	٠	٥/ ١
شيث	١٣٠	١٣٠	٥/ ٣
أنوش	١٠٥	٢٣٥	٥/ ٦
قينان	٩٠	٣٢٥	٥/ ٩
مهللئيل	٧٠	٣٩٥	٥/ ١٢
يارد	٦٥	٤٦٠	٥/ ١٥
أخنوخ	١٦٢	٦٢٢	٥/ ١٨
متوشالح	٦٥	٦٨٧	٥/ ٢١
لامك	١٨٧	٨٧٤	٥/ ٢٥
نوح	١٨٢	١٠٥٦	٥/ ٢٨
سام وحام ويافث	٥٠٠	١٥٥٦	٥/ ٣٢
ملحوظة هامة: جاء في سفر التكوين (٧/ ٦) ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض، وهنا يحدث تفرع النسل فنمرود من ذرية حام وإبراهيم من ذرية سام			

أولًا: نمرود			
الاسم	سن الوالد عند ميلاده	الزمن من خلق آدم	الموضع من سفر التكوين
كوش	حوالي مئة أو أكثر	١٦٥٦	١٠/١
نمرود			
ثانيًا: إبراهيم			
أرفكشاد	١٠٠	١٦٥٨	١١/١٠
شالح	٣٥	١٦٩٣	١١/١٢
عابر	٣٠	١٧٢٣	١١/١٤
فالج	٣٤	١٧٥٧	١١/١٦
رعو	٣٠	١٧٨٧	١١/١٨
سروج	٣٢	١٨١٩	١١/٢٠
ناحور	٣٠	١٨٤٩	١١/٢٢
تارح	٢٩	١٨٧٨	١١/٢٤
إبراهيم	٧٠	١٩٤٨	١١/٢٦

والجدول السابق يوضح أن الفارق بين مولد إبراهيم ومولد كوش – أبو نمرود – (١٩٤٨-١٦٦٦) =٢٨٢ سنة.

ومما تبين أن أقل أعمار أبناء كوش هو ٣٦٥ (تك ٥/ ٢٣) وتصل إلى ٩٦٩ (تك ٥/ ٢٧) فلا يبعد أبدا أن يكون إبراهيم أدرك أبا نمرود فكيف ننفي معاصرة إبراهيم لابن كوش (النمرود)؟

ثم إن القول أن النمرود كان سابقًا لإبراهيم بـ ٣٠٠ سنة يعطينا معلومةً جديدةً وهو أن الابن قد يولد قبل أبيه!

الوجه الثامن: وهل تمنع الثلاثـمائة عام من التعاصر.

وعلى القول بأن نمرود كان سابقًا لإبراهيم بـ٣٠٠ سنة فهذا يعكر عليه بما يلي:

١-أنه ليس هناك ما يمنع أن يُعَمَّرَ النمرودُ أكثرَ من ٣٠٠ سنة وخصوصًا أنها لم تنص على موت النمرود قبل مجيء إبراهيم عليه السلام.

٢-أن الأعمار الكبيرة ليست غريبة في التوراة؛ ففي سفر التكوين يوضح الإصحاح الخامس كله أن الأعمار من لدن آدم إلى نوحٍ عليه السلام تتراوح بين ٧٧٧ سنة (عمر لامك) (تك ٥/ ٣١) إلى ٩٦٩ سنة (عمر أبي لامك يدعى متوشالح) (٥/ ٢٧).

فالذي جعل آدم يعاصر لامك لأنه كما يوضح الجدول من أنه ولد بعد خلق آدم ب ٨٧٤ سنة وآدم مات وعمره ٩٣٠ سنة وهذا يقال أيضًا في أحفاده مما يجعلنا نقول: لا مانع أبدًا من تعاصر نمرود، بل وأبوه مع إبراهيم عليه السلام.

إذن فتعمير النمرود مثل آبائه ليس بدعًا من القول.

الوجه التاسع: و على الفرض بأن الذي حاجه اسمه نمرود، هل هناك ما يمنع وجود نمرودٍ آخر؟

إن التسمي بأسماء العظماء والمشاهير من الصالحين أو الجبابرة ليس بجديدٍ، بل ذلك سمة كل عصرٍ وحينٍ، فما الذي منع من وجود ثانٍ وثالثٍ ورابعٍ يتسمى بنمرود؟

وخصوصًا وأنه صاحب سابقة في المجد الملكي بدأ تكوين أول مملكة في العالم من نسل حام (التكوين ٩: ٢٥ – ٢٧).

والذي يؤيد ذلك أن ماورد في كتب التفاسير من أن الذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود لم يقل أحدٌ: إنه بن كوش بن حام.

بل قيل: إنه نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن

عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.[(١)]

الوجه العاشرَ: عن أي نسخةٍ من التوراة تتحدثون، وبأي التورايخ تأخذون؟

من المعلوم أن للتوراة ثلاث نسخٍ: العبرانية، واليونانية، والسامرية. فبأي نسخةٍ منها تتعبدون؟ وعلى أيها في تورايخكم تعتمدون؟

إذا قارنا بين النسخ الثلاث فيما اتفقت في ذكره من أخبارٍ وقِصص نجد بينها اختلافًا كبيرًا، وسنضرب المثال فيما يتعلق بهذا الاعتراض -وهو أمر التواريخ- وللاستزادة يراجع الجزء المتعلق بتحريف الكتاب المقدس. بعقد مقارنةٍ يسيرةٍ بين ما ورد في النسخ الثلاث في أعمار من ذُكِرُوا حين وُلِدَ لهم أولُ مولودٍ تتبين اختلافات واضحة، فمن ذلك:

الاسم	النسخة العبرانية	النسخة السامرية	النسخة اليونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
آنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٥).

الزمان من خلق آدم إلي الطوفان	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٢٦٢

فهذه أمثلةٌ تدل على التحريف والتناقض وعدم إمكانية الجمع أبدًا، فكيف يُحتَجُّ بكتابٍ هذا حالُه على الكتاب الذي قال الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)

ولا حرج أن نزيد ببعض الأمثلة التي تعكس الصورة مجسمةً بأبعادها كلِّها. نذكر من ذلك مثالين وهما:

١- اختلاف المدة من الطوفان إلى ولادة إبراهيم ﷺ: في العبرية ٢٩٢ سنة. في اليونانية ١٠٧٢ سنة. في السامرية ٩٤٢ سنة.

٢- اختلاف المدة من خلق آدم إلى ميلاد عيسى ﷺ: في العبرية ٤٠٠٤ سنة. في اليونانية ٥٨٧٢ سنة. في السامرية ٤٧٠٠ سنة.

وخلاصة هذا البحث أن القرآن الكريم لا يمكن أن يتحاكم إلى التاريخ القديم، ولا التوراة، ولا الإنجيل؛ إذ ثبت-أي القرآن- أنه الثقة الحجة، و أنه هو الذي يهيمن على ما سواه، و أن قَصصه هو الحق الذي لا شك فيه.

* * * *

١٠- شبهة: الرجل الذي مات مائة سنة.

نص الشبهة:

قال المعترض: قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة: ٢٥٩)

وقد اختلف علماء الإسلام في الذي مر، فروي عن مجاهد أنه كان كافرًا شك في البعث، وهذا قول ضعيف؛ لقوله: كم لبثت؟ والله لا يخاطب الكافر، ولقوله: آية للناس، وهذا لا يقال في الكافر وإنما يقال في الأنبياء.

وقال قتادة وعكرمة والضحاك والسدي: هو عزير بن شرخيا، وإنه لما رجع إلى منزله كان شابا وكان أولاده شيوخًا، فإذا حدثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة، ولما قال لهم: أنا عزير كذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ، ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله، وأمره الله أن ينظر إلى حماره كيف تفرقت عظامه، أو قال له: انظر إليه سالما كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف، كما حفظنا الطعام والشراب من التغيير.

وقال وهب بن منبه: هو إرميا بن حلقيا من سبط هارون.

واختلفوا في القرية: فقيل هي بيت المقدس، وقيل هي دير سابر أباد في فارس، وقيل: سلما باد قرية من نواحي جرجان، وقيل: هي دير هرقل بين البصرة وعسكر مكرم.

ونقول: لو كان لهذه القصة أصل في كتب الوحي الإلهي لذكر اسم الشخص، ووفر على المفسرين الظن والتخمين.

ومن تأمل في التوراة والإنجيل، لا يجد فيها شيئًا من ذلك، ولكن نجد لها أصلا في كتب اليونان القديمة، وهي حكاية أبيمنيدس الكاهن والشاعر اليوناني، وأدرجه البعض

في سلك علماء اليونان السبعة عوضا عن بriاندر، ولد في كريت في القرن السابع قبل المسيح، فروى قومه وهم وثنيون أنه نام نحو٥٧ سنة في مغارة، وفي أثنائها نزل عليه الوحي، فلما استيقظ (أولما بعث كما قال القرآن) انذهل من تغير أحوال وطنه، وقيل: إنه عاش نحو١٩٩ سنة، وفي سنة ٥٦٩ ق م سافر إلى أثينا بدوة من سكانها الذين تضايقوا من الحرب والطاعون، فأخبرهم أئمة ديانتهم أن سبب ذلك هو أنهم قتلوا أنصار سولون في هيكل آلهتهم، والواجب أن يكفروا عن ذنبهم، فاستدعوا أبيمنيدس المشهور بالحكمة والصلاح ليستعطف الآلهة، فأتى وقدم الذبائح وأجرى الرسوم الدينية، فوقف الطاعون، ثم عاون سولون على تنقيح نظامات أثينا، ولما عزم على العودة إلى وطنه لم يرض أن يقبل الهدايا، ولم يطلب سوى غصن شجرة زيتون.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أهداف القصة في القرآن الكريم.

الوجه الثاني: أسباب إبهام الأسماء في القرآن الكريم.

الوجه الثالث: أقوال علماء الإسلام في اسم القرية واسم المار وترجيح الصحيح.

الوجه الرابع: ليس كل ما ذكر في القرآن أصله في التوراة والإنجيل.

الوجه الخامس: من أين أتيتم بهذه القصة من كتب اليونان؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أهداف القصة في القرآن الكريم.

نقول: إن للقصة في القرآن الكريم أهدافًا ومقاصد أعلى مما يتخيله هؤلاء، وبالتالي يتعرض القرآن في القصة لأشياء خاصة ويخفي أشياء أخرى، وفيما يلي نحاول أن نؤصل هذا الأصل قبل الإجابة على الاعتراضات المذكورة، فنقول وبالله تعالى التوفيق.

أولا: قصص القرآن ثلاثة أقسام:

١- قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

٢ – وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة

مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

٣- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

ثانيا: وللقصص في القرآن حكم وفوائد عظيمة: منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (القمر: ٤) ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر: ٥)

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (هود: ١٠١)

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ (القمر: ٣٤ - ٣٥)

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ (فاطر: ٢٥) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ (فاطر: ٢٦)

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذا علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء: ٨٨) وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ (محمد: ١٠).

٧- إثبات رسالة النبي ﷺفإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (هود: ٤٩) وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (إبراهيم: ٩)[1].

الوجه الثاني: أسباب الإبهام في القرآن الكريم.

والإبهام معناه: الإخفاء، فقد يخفي القرآن الكريم أسماء أشخاص أو أماكن، لا لغفلة أو نسيان، وإنما لسبب من الأسباب الآتية:

أولًا: الاستغناء ببيانه في موضع آخر كقوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة: ٧)، فإنه مبين في قوله: ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩).

الثاني: أن يتعين لاشتهاره كقوله: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥) ولم يقل: حواء؛ لأنه ليس له غيرها.

الثالث: قصد الستر عليه؛ ليكون أبلغ في استعطافه نحو ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (البقرة: ٢٠٤) الآية. هو الأخنس بن شريق وقد أسلم بعد وحسن إسلامه.

الرابع: ألا يكون في تعيينه كبير فائدة نحو: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ (البقرة: ٢٥٩) ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

الخامس: التنبيه على العموم وأنه غير خاص بخلاف ما لوعُيِّن نحو: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا ﴾ (النساء: ١٠٠).

---

(١) أصول في التفسير لابن عثيمين (٤٧).

السادس: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم نحو: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ﴾ (النور: ٢٢)، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر: ٣٣) ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ (التوبة: ٤٠) والمراد الصديق في الكل.

السابع: تحقيره بالوصف الناقص نحو: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣).

واعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض لا مجال للرأي فيه.

فمن خلال هذا الأصل نتبين لماذا لم يسم القرآن الكريم اسم القرية أو الرجل الذي مر عليها؟، وستأتي أقوال العلماء في ذلك.[1]

الوجه الثالث: أقوال علماء الإسلام في اسم المار واسم القرية وترجيح الصحيح.

اختلف علماء الإسلام في اسم المار على القرية، واسم القرية أيضا وهذا شيء بدهي أن يقع بينهم الاختلاف في مثل هذا الشيء لعدم ورود النص القاطع عن المعصوم ﷺ في تعيينه، وإليك هذه الأقوال مشفوعة بحجج كل قول ومن قال به ثم الترجيح، والله المستعان.

أولا: اسم المار، وفيه قولان:

الأول: أنه مؤمن واختلفوا في تعيينه على قولين:

الأول: أنه عزير.

وقال بهذا القول علي بن أبي طالب ﷺ.[2]

والثاني: أنه أرمياء.

وقال بهذا القول وهب بن منبه.[3]

وحجة من قال: إنه كان مؤمنًا وكان نبيًا وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يدل على أنه كان عالمًا بالله، وعلى أنه

---

(١) الإتقان للسيوطي (٢/ ٢٨٢)، وهو مختصر من البرهان للزركشي (١/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٥/ ٤٤٠/ رقم ٥٨٩٢) بإسناد جيد، ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير أخرجه عنه الطبري (٥/ ٤٤١/ ٥٨٩٥) بإسناد حسن.

كان عالمًا بأنه تعالى يصح منه الإحياء في الجملة؛ لأن تخصيص هذا الشيء باستبعاد الإحياء إنما يصح أن لو حصل الاعتراف بالقدرة على الإحياء في الجملة، فأما من يعتقد أن القدرة على الإحياء ممتنعة لم يبق لهذا التخصيص فائدة.

الثاني: أن قوله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ لا بد له من قائل، والمذكور السابق هو الله تعالى؛ فصار التقدير: قال الله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ فقال ذلك الإنسان: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ومما يؤكد أن قائل هذا القول هو الله تعالى قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ ومن المعلوم أن القادر على جعله آية للناس هو الله تعالى، ثم قال: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ولا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى؛ فثبت أن هذه الآية دالة من هذه الوجوه الكثيرة على أنه تكلم معه، ومعلوم أن هذا لا يليق بحال هذا الكافر.

فإن قيل: لعله تعالى بعث إليه رسولًا أو ملكًا حتى قال له هذا القول عن الله تعالى.

قلنا: ظاهر هذا الكلام يدل على أن قائل هذه الأقوال معه هو الله تعالى، فصرف اللفظ عن هذا الظاهر إلى المجاز من غير دليل يوجبه غير جائز.

الثالث: أن إعادته حيًا وإبقاء الطعام والشراب على حالهما، وإعادة الحمار حيًا بعد ما صار رميمًا مع كونه مشاهدًا لإعادة أجزاء الحمار إلى التركيب وإلى الحياة إكرام عظيم وتشريف كريم، وذلك لا يليق بحال الكافر له.

الرابع: أنه تعالى قال في حق هذا الشخص: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل في حق الأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١) فكان هذا وعدًا من الله تعالى بأنه يجعله نبيًا، وأيضًا فهذا الكلام لم يدل على النبوّة بصريحه فلا شك أنه يفيد التشريف العظيم، وذلك لا يليق بحال من مات على الكفر وعلى الشك في قدرة الله تعالى.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من جعله آية أن من عرفه من الناس شابًا كاملًا إذا شاهدوه بعد مائة سنة على شبابه وقد شاخوا أو هرموا، أو سمعوا بالخبر أنه كان مات منذ زمان وقد عاد شابًا صح أن يقال لأجل ذلك إنه آية للناس؛ لأنهم يعتبرون بذلك ويعرفون به قدرة الله تعالى، ونبوّة نبي ذلك الزمان؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ إخبار عن أنه تعالى يجعله آية، وهذا الاخبار إنما وقع بعد أن أحياه الله، وتكلم معه، والمجعول لا يجعل ثانيًا، فوجب حمل قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ على أمر زائد عن هذا الإحياء، وأنتم تحملونه على نفس هذا الإحياء فكان باطلًا.

والثاني: أن وجه التمسك أن قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يدل على التشريف العظيم، وذلك لا يليق بحال من مات على الكفر والشك في قدرة الله تعالى.

الخامس: ما روي عن ابن عباس ﷺ في سبب نزول الآية قال: إن بختنصر غزا بني إسرائيل فسبى منهم الكثيرين، ومنهم عزير وكان من علمائهم، فجاء بهم إلى بابل، فدخل عزير يومًا تلك القرية ونزل تحت شجرة وهو على حمار، فربط حماره وطاف في القرية فلم ير فيها أحدًا فعجب من ذلك وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لا على سبيل الشك في القدرة؛ بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة، وكانت الأشجار مثمرة، فتناول من الفاكهة التين والعنب، وشرب من عصير العنب ونام، فأماته الله تعالى في منامه مائة عام وهو شاب، ثم أعمى عن موته أيضًا الإنس والسباع والطير، ثم أحياه الله تعالى بعد المائة ونودي من السماء: يا عزير ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ بعد الموت؟ فقال: ﴿يَوْمًا﴾ فأبصر من الشمس بقية فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ من التين والعنب وشرابك من العصير لم يتغير طعمهما، فنظر فإذا التين والعنب كما

شاهدهما ثم قال: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ فنظر فإذا هو عظام بيض تلوح وقد تفرقت أوصاله، وسمع صوتًا أيتها العظام البالية إني جاعل فيك روحًا فانضم أجزاء العظام بعضها إلى بعض، ثم التصق كل عضو بما يليق به الضلع إلى الضلع والذراع إلى مكانه ثم جاء الرأس إلى مكانه ثم العصب والعروق ثم أنبت طراء اللحم عليه، ثم انبسط الجلد عليه، ثم خرجت الشعور عن الجلد، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو قائم ينهق فخر عزير ساجدًا، وقال: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ ثم إنه دخل بيت المقدس فقال القوم: حدثنا آباؤنا أن عزير بن شرخياء مات ببابل، وقد كان بختنصر قتل ببيت المقدس أربعين ألفًا ممن قرأ التوراة وكان فيهم عزير، والقوم ما عرفوا أنه يقرأ التوراة، فلما أتاهم بعد مائة عام جدد لهم التوراة، وأملاها عليهم عن ظهر قلبه لم يخرم منها حرفًا، وكانت التوراة قد دفنت في موضع فأخرجت وعورض بها أملاه فما اختلفا في حرف، فعند ذلك قالوا: عزير بن الله، وهذه الرواية مشهورة فيما بين الناس، وذلك يدل على أن ذلك المار كان نبيًا. (وهذا من الإسرائيليات)[1].

ورد آخرون هذا القول ومنهم ابن القيم -رحمه الله- فقال:

ويظن بعض الناس أن عزيرًا هو الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أني يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ويقول: إنه نبي، ولا دليل على هاتين المقدمتين ويجب التثبت في ذلك نفيًا وإثباتًا[2].

والثاني: أنه رجل كافر شك في البعث، وحجة هذا القول وجوه:

الأول: أن الله حكى عنه أنه قال: ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ وهذا كلام من يستبعد من الله الإحياء بعد الإماتة، وذلك كفر.

فإن قيل: يجوز أن ذلك وقع منه قبل البلوغ.

(١) تفسير الرازي (٧/ ٢٦ - ٢٨) بتصرف.

(٢) هداية الحيارى (١/ ٢١٣) بتصرف يسير.

قلنا: لو كان كذلك لم يجز من الله تعالى أن يعجب رسوله منه؛ إذ الصبي لا يتعجب من شكه في مثل ذلك، وهذه الحجة ضعيفة لاحتمال أن ذلك الاستبعاد ما كان بسبب الشك في قدرة الله تعالى على ذلك؛ بل كان بسبب اطراد العادات في أن مثل ذلك الموضع الخراب قلما يصيره الله معمورًا، وهذا كما أن الواحد منا يشير إلى جبل، فيقول: متى يقلبه الله ذهبًا، أو ياقوتًا؟ لا أن مراده منه الشك في قدرة الله تعالى؛ بل على أن مراده منه أن ذلك لا يقع ولا يحصل في مطرد العادات، فكذا هاهنا.

الثاني: قالوا: إنه تعالى قال في حقه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ وهذا يدل على أنه قبل ذلك لم يكن ذلك التبين حاصلًا له، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأن تبين الإحياء على سبيل المشاهدة ما كان حاصلًا له قبل ذلك، فأما إن تبين ذلك على سبيل الاستدلال ما كان حاصلًا فهو ممنوع.

الثالث: أنه قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا يدل على أن هذا العالم إنما حصل له في ذلك الوقت، وأنه كان خاليًا عن مثل ذلك العلم قبل ذلك الوقت، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأن تلك المشاهدة لا شك أنها أفادت نوع توكيد وطمأنينة ووثوق، وذلك القدر من التأكيد إنما حصل في ذلك الوقت، وهذا لا يدل على أن أصل العلم ما كان حاصلًا قبل ذلك.

الرابع: أنه انتظم مع نمروذ في سلك واحد وهو ضعيف أيضًا؛ لأن قبله وإن كان قصة نمروذ، ولكن بعده قصة سؤال إبراهيم، فوجب أن يكون نبيًا من جنس إبراهيم، (وأيضًا مما يؤيد ذلك ما بين قصته وقصة إبراهيم الآتية بعد من التناسب المعنوي؛ فإنَّ كليهما طلبا معاينة الإحياء مع أن ما جرى له في القصة مما يبعد أن يجري مع كافر، وإذا انضم إلى ذلك تحريه الظاهر في الاحتراز عن الكذب في القول الصادر قبل التبيين الموجب لإيمانه على زعم من يدعي كفره قوى المعارض جدًّا)[1].

وبعد عرض هذه الأقوال وذكر حجج كل لا نستطيع الجزم بترجيح واحد منها على

---

(١) أفاد هذه الزيادة الآلوسي في روح المعاني (٢/ ٢١)، ورجح صاحب المنار أنه ليس كافرًا (٣/ ٤١)، ذكر هذه الوجوه كلها الرازي في تفسيره (٧/ ٢٦)، وانظر الكشاف (١/ ٣٣٤).

الآخر، والسبب معروف ولطالما كررناه أننا لا نستطيع قول شيء بغير بينة ودليل وخاصة في الأمور الغيبية.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله ـ تعالى ذكره ـ عجَّب نبيه ﷺ ممن قال - إذ رأى قرية خاوية على عروشها-"أنى يحيي هذه الله بعد موتها"، مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنى يحييها الله بعد موتها! ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قِبَلِهِ البيان على اسم قائل ذلك. وجائز أن يكون ذلك عزيرا، وجائز أن يكون أورميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه؛ إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت - من قريش، ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب - وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺمن يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيه محمدا ﷺ على ما يزيل شكهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته، إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمدﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم؛ بل كان أميا وقومه أميون، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَرِه، أن محمدا ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبا يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه. (١)

قلت: ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأقطعه لكل اعتراض وشبهة.

ثانيا: اسم القرية، وفيها قولان:

الأول: أنها بيت المقدس لما خربه بختنصر، وهو المشهور.

---

(١) الطبري (٥/ ٤٤١).

قال بهذا القول: وهب بن منبه[١]

والثاني: أنها التي خرج منها الألوف حذر الموت.[٢]

وكما هو واضح لا دليل على تعيين اسم القرية، ووقع الخلاف بين المفسرين في التعيين (وهو اختلاف لا طائل تحته؛ إذ لم يثبت فيه شيء عن معصوم؛ والمقصود العبرة بها في هذه القصة - لا تعيين الرجل، ولا القرية - ومثل هذا الذي يأتي مبهمًا، ولم يعين عن معصوم، طريقنا فيه أن نبهمه كما أبهمه الله ﷻ).[٣]

الوجه الرابع: ليس كل ما ذكر في القرآن موجود أصله في التوراة والإنجيل

عجيب حقًّا أمر هؤلاء، يدَّعون أنه ينبغي أن نرجع إلى كتبهم لكي نفهم ما في القرآن الكريم ومتى حصل ذلك؟ وفي أي قضية كان هذا؟.

إن الله ﷻ قد أنزل القرآن مهيمنا على الكتب السابقة له، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة/ ٤٨) فالقرآن لا يحتاج إلى شيء من كتبكم لكي تفهم معانيه وألفاظه.[٤]

الوجه الخامس: من أين أتيتم بهذه القصة من كتب اليونان؟

ومن أين أتيتم بكتب اليونان واستخرجتم منها هذه القصة، أين مكانها؟ وما هو المصدر الذي نقلتم عنه بالضبط؟ أليس هذا من أصول البحث العلمي، عزو الأقوال إلى مصادرها؟ أم تكتفون فقط بإلقاء الكلام على عواهنه دون خطام أو زمام؟ نبئونا بعلم إن كنتم صادقين؟[٥].

* * *

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٣٢) وإسناده جيد، وروي عن قتادة (المصدر السابق، وإسناده حسن) وروي عن الربيع بن أنس (المصدر السابق، وإسناده فيه مجهول)، وانظر: التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٨)، تفسير أبي السعود (١/ ٣٠١)، عمدة القاري (١٨/ ١٢٧).

(٢) قال بهذا القول ابن زيد، أخرجه الطبري (٥/ ٤٤٤) وإسناده ضعيف. زاد المسير (١/ ٢٦٥).

(٣) كتب ورسائل للعثيمين (١٠/ ٢٢٦).

(٤) انظر: شبهة أن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل.

(٥) انظر: بحث (تحريف الكتاب المقدس).

١١- شبهة: شك إبراهيم ﵇.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قالوا: مهما حاول المفسرون الاعتذار عن شك إبراهيم في قدرة الله على إحياء الموتى، فعبارة القرآن ناطقة بوقوع الشك منه في قدرة الله، وإلا لما قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، وعن أبي هريرة أن محمدًا قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن، قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي".

وكتاب الله (يقصد كتابه المقدس) يعلمنا أن إبراهيم لم يشك في قدرة الله؛ بل يُضرب بإيمانه المثل، ولذا سمي أبو المؤمنين، ولما أمره الله أن يذبح ابنه الوحيد أطاع الأمر، مع أنه كان هرما وامرأته متقدمة في السن.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل إبراهيم في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: اليقين عند إبراهيم﵇.

الوجه الثالث: المقصود من سؤال إبراهيم ﵇ لربه.

الوجه الرابع: ماذا قال الكتاب المقدس عن إبراهيم﵇؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل إبراهيم ﵇ في القرآن والسنة.

١- كان قوم إبراهيم ﵇ يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط ﵇.

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولًا، واتخذه خليلًا في كبره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي أهلًا لذلك.

٢- فبدأ إبراهيم بالدعوة إلى توحيد الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت ١٦: ٢٧).

٢- ووصفه الله تعالى بأنه كان صديقًا نبيًا، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئا أو تفعل به خيرًا من رزق أو نصر؟ فقال تعالى عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾

يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ (مريم ٤١: ٤٨).

٣- وإبراهيم هداه الله تعالى، وناظر قومه وغلبهم. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام ٧٥: ٨٣).

٤- وهدم إبراهيم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله غضبًا لله تعالى، ولم يخش في الله لومة لائم، قال تعالى عنه في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ

لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأنبياء ٥١: ٧٠).

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء ٦٩: ٨٣).

وقال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (الصافات ٨٣: ٩٨).

٥- وحكى القرآن الكريم مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ

إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة: ٢٥٨)[١].

الوجه الثاني: اليقين عند إبراهيم عليه السلام.

ولقد حقق إبراهيم عليه السلام اليقين الكامل بالله تعالى وذلك من خلال الاختبارات التي نجح فيها إبراهيم عليه السلام منها:

أولًا: أنه لما أمسكه قومه، وأرادوا إحراقه بالنار، ووضعوه في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ (آل عمران ١٧٣: ١٧٤)[٢].

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

ثانيًا: لما هاجر إلى مصر، وحصل ما حصل من أمر الجبار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتان منهم في ذات الله قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (١٦٢).

(٢) البخاري (٤٢٨٧).

تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعى الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم؟ فقالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة ﷺ: فتلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

ثالثًا: ولما أمره الله تعالى بالهجرة بزوجته هاجر وولدها إسماعيل، استسلم لأمر الله تعالى ووضعهما في أرض مكة ولم يكن بها إذ ذاك حياة ولا أنيس ولا ونيس.

عن ابن عباس ﷺ قال: أو لما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي

---

(١) البخاري (٣١٧٩)، ومسلم (٢٣٧١).

تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: "لذلك سعى الناس بينهما".

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه- تريد نفسها- ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثـ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: " يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا، قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله". [1]

رابعًا: ولما أمر ببناء البيت استجاب إبراهيم وولده إسماعيل لأمر الله تعالى:

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ يمينه وعن شماله، ولما قدم إبراهيم على إسماعيل قال له: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك به ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧).

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

---

(١) البخاري (٣١٨٤).

خامسًا: ولما أمر بذبح ولده إسماعيل، بعد الانتظار الطويل، وبعد أن جاءه الولد على كبر العمر، وتشوق نفسه له، أسرع إبراهيم في تنفيذ الأمر ولم يتوان لحظة واحدة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ (الصافات ٩٩: ١١٣).

وهذا اختبار من الله ﷻ لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد فقر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده؛ ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرا: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ . . .﴾ (الصافات: ١٠٢)، فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ قيل: "أسلما" أي استسلما لأمر الله وعزم على ذلك. وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر والمعنى: "تله للجبين" أي ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا

يشاهده في حال ذبحه، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقا بالأرض. "وأسلما" أي سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت. قال السدي وغيره: أمرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا. ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس، والله أعلم.

فعند ذلك نودي من الله ﷻ: ﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان! ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي الاختبار الظاهر البين.

وقوله: ﴿وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: جعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة في ثبير، فأخذه إبراهيم وذبحه عوضا عن ولده إسماعيل.

هذا هو الظاهر من القرآن؛ بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرۡنَـٰهُ بِإِسۡحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[1].

الوجه الثالث: المقصود من سؤال إبراهيم عليه السلام لربه ﷻ.

أولًا: قال الجمهور: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًا في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة.

وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام. وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨) فالشك يبعد على من ثبتت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوءة والخلة؟

(١) قصص الأنبياء (١٥٥).

ثانيًا: والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعًا، وإذا تأملت سؤاله ﷺ وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكًا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو عن حال شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول. نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله، وقد تكون ﴿ كَيْفَ ﴾ خبرًا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه، ﴿ كَيْفَ ﴾ نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي، و ﴿كَيْفَ ﴾ في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول له المكذب: أرني كيف ترفعه؟ فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه أرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل ﷺ هذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك وحمله على أن يبين الحقيقة فقال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى ﴾، فكمل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل ﷺ سؤاله بالطمانينة[1].

ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه، وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل: فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (الإسراء: ٦٥). وقال اللعين: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الحجر: ٤٠)، وإذا لم يكن له عليهم سلطنة، فكيف يشككهم؟ ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، واتصال الأعصاب، والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله:

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٥٢)، وانظر فصل: عصمة الأنبياء في المقدمة.

﴿أَرِنِي كَيْفَ﴾ طلب مشاهدة الكيفية.[١]

ثالثا: وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ معناه إيمانًا مطلقًا دخل فيه فصل إحياء الموتى، والواو واو حال دخلت عليه ألف التقرير، و﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾ معناه ليسكن عن فكره، والطمأنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال فطمأنينة الأعضاء معروفة، كما قال عليه السلام: " ثم اركع حتى تطمئن راكعًا "، الحديث، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد. والفكر في صورة الإحياء غير محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها؛ بل هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فتذهب فكره في صورة الإحياء، إذ حركه إلى ذلك إما أمر الدابة المأكولة، وإما قول النمرود: أنا أحيي وأميت، وقال الطبري: معنى ﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾ ليوقن. وحكي نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكي عنه ليزداد يقينًا وقاله إبراهيم وقتادة. وقال بعضهم: لأزداد إيمانًا مع إيماني.[٢]

رابعًا: وقال آخرون سأل ذلك ربه؛ لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى. و عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن آية أرجى عندي منها، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم".

وهذا مردود فأما قول ابن عباس رضي الله عنه: هي أرجى آية فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ أي إن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقير وبحث، وأما قول عطاء بن أبي رباح: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمعناه من حب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت، به، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة »، وأما قول النبي ﷺ: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"فمعناه: أنه لو كان شك لكنا نحن

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٣٥٣).

أحق به ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم[١].

الوجه الرابع: ماذا قال الكتاب المقدس عن إبراهيم؟.

إبراهيم يكذب:

ففي سفر التكوين(١٢/ ١٣: ١١): وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. ١٢فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. ١٣قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ.

* * *

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٥٢).

سورة آل عمران

وفيها:

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢- شبهة: حول كفالة زكريا لمريم.

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾.

٤- شبهة: حول وفاة عيسى عليه السلام.

٥- شبهة: وجاهة المسيح في الدنيا والآخرة.

٦- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾.

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

نص الشبهة:

قيل: إذا كان في القرآن ما يخالف ما في التوراة والإنجيل من النسخ وغيره فكيف يقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾؟ (آل عمران: ٣).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الآية دليل على تحريف الكتاب المقدس.

الوجه الثاني: المعنى الصحيح للآية.

الوجه الثالث: من الأدلة على تحريف الكتاب المقدس.

الوجه الرابع: القرآن جاء مهيمنًا على كل الكتب السابقة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية دليل على تحريف الكتاب المقدس.

إن هذه الآية دليل على التحريف لا على عدم التحريف وبيان ذلك:

أن هذا المتكلم إن استدل بهذه الآية، فلا بد أن تكون أصول الكتابين متفقة حتى يكون القرآن مصدقًا للكتاب المقدس بعهديه، والواقع أن ما في القرآن مخالف في أغلبه وأكثره أصولًا وفروعًا لما في الكتاب المقدس.

إذا ثبت هذا: فإما أن يكون القرآن محرفًا وهذه الآية خطأ وهذا باطل، وقد قامت الأدلة على ضد ذلك. وإما أن يكون الكتاب المقدس قد حرف وغُير؛ لأن ما في القرآن يختلف معه وهو ما تدل عليه هذه الآية وهو المراد، والله أعلم.

الوجه الثاني: المعنى الصحيح للآية.

قول الله ﷻ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران: ٣).

فالقرآن نزل مصدقًا لما تقدمه من الكتب وخاصة إذا كانت هذه الكتب مبشرة بالقرآن وبالرسول، ودالة على أن أحكامها تثبت إلى حين بعثه، وأنها تصير منسوخة عند نزول

القرآن كانت موافقة للقرآن، فكان القرآن مصدقًا لها، وأما فيما عدا الأحكام فلا شبهة في أن القرآن مصدقٌ لها؛ لأن دلائل المباحث الإلهية لا تختلف في ذلك فهو مصدق لها في الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل(١).

فالقرآن مصدق لما معكم أي: موافق بالتوحيد وصفة محمد ﷺ ونعته وبعض الشرائع لما معكم من الكتاب، فأمرهم الله -سبحانه وتعالى- بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في الإنجيل والتوراة، ففي تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهم في التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة، وتقييد المنزل بكونه مصدقًا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال، فإذا إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعًا(٢).

فاعلموا أن كل ما عورض به الحق المتيقن ليبطل به أو عورض به دون الكذب المتيقن ليصحح به؛ فإنما هو شغب وتمويه وتخييل فاسد بلا شك؛ لأن اليقين لا يمكن البتة في البينة أن يتعارضا أبدًا.

أما إقرارنا بالتوراة والإنجيل فنعم، وأي معنى لتمويهكم بهذا ونحن لم ننكرهما قط؛ بل نُكفر من أنكرها، إنما قلنا: إن الله ﷻ أنزل التوراة على موسى عليه السلام حقًا، وأنزل الزبور على داود عليه السلام حقًا، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام حقًا، وأنزل الصحف على إبراهيم وموسى -عليهما السلام- حقًا، وأنزل كتبًا لم تسم لنا على أنبياء لم يسمو لنا حقًّا نؤمن بكل ذلك؛ قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى: ١٩)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ (الشعراء: ١٩٦).

وقلنا ونقول: إن كفار بني إسرائيل بدلوا التوراة والزبور فزادوا ونقصوا، وأبقى الله -

---

(١) تفسير الرازي (٧/ ١٥٨).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ١١٥).

تعالى - بعضها حجة عليهم كما شاء: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ (الرعد: ٤١).

وبدل كفار النصارى الإنجيل كذلك فزادوا ونقصوا وأبقى الله - تعالى - بعضها حجة عليهم كما شاء: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فدرس ما بدلوا من الكتب المذكورة ورفعه الله تعالى، كما درست الصحف وكتب سائر الأنبياء جملة، فقول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ (النساء: ٤٧) نعم هذا عموم قام البرهان على أنه مخصوص، وأنه تعالى إنما أراد مصدقًا لما معكم من الحق لا يمكن غير هذا؛ لأننا بالضرورة ندري أن معهم حقًّا وباطلًا ولا يجوز تصديق الباطل البتة، فصح أنه إنما أنزله تعالى مصدقًا لما معهم من الحق.

وقد قلنا: إن الله ﷻ أبقى في التوراة والإنجيل حقًّا ليكون حجة عليهم وزائدًا في خزيهم وبالله ﷻ التوفيق، فبطل تعلقهم بشيء مما ذكرنا، والحمد لله رب العالمين[1].

الوجه الثالث: من الأدلة على تحريف الكتاب المقدس.

بما أنهم استدلوا من القرآن الكريم على صحة الكتاب المقدس، وأن القرآن جاء مصدقًا لهذا الكتاب، فكذلك جاء القرآن بذكر تحريف الكتاب المقدس وبالأصح الكتب السابقة، فههنا آيات من القرآن الكريم ذكر الله ﷻ وبين فيها تحريف الكتب السابقة ومن هذه الآيات:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

(١) الفصل في الملل والنحل (١/ ٢٠٥، ٢٠٩).

يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقرة: ٧٥-٧٩).

أي: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. . . ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون؛ وذلك إخبار من الله ـ جل ثناؤه ـ عن إقدامهم على البهت، ومناجاتهم العداوة لرسوله موسى ﷺ، وأن بقاياهم من مناجاتهم العداوة لله ولرسوله محمد ﷺ بغيًا وحسدًا على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه السلام[1].

فهذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالاتهم لا تقتضي الطمع فيهم فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمانهم لكم؟ فهذا من أبعد الأشياء، فحال المنافقين من أهل الكتاب أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، فأظهروا لهم الإيمان قولًا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم؛ قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٤).

سرهم وعلنهم فيظهر لعباده ما أنتم عليه ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ومن أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ ﴾ أي: عوام ليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم. فذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم في الطائفتين.

ثم قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٩).

توعد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق؛ وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس فظلموهم من وجهين:

من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق؛ بل إبطال الباطل أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾ (آل عمران: ٧٨).

إن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن موضعه، ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به؛

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٦).

ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله. وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله[1].

الوجه الرابع: القرآن جاء مهيمنًا على كل الكتب السابقة.

كما ذكر في القرآن أنه جاء مصدقًا للكتب السابقة فكذلك ذكر في القرآن أنه جاء مهيمنًا على الكتب السابقة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ . . ﴾ (المائدة: ٤٨).

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد الكتاب وهو القرآن الذي أنزله عليه، ويعني بقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالصدق ولا كذب فيه، ولا شك أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ يقول: أنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾؛ يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد مصدقًا للكتب قبله وشهيدًا عليها أنها حق من عند الله أمينًا عليها حافظًا لها، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده قد هيمن فلان عليه فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن[2].

فاسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله. جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكماليات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾. [3]، والقرآن جاء مهيمنًا على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥).
(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٣٧٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).

منسوخًا البتة ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾.

و إذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق، باقية أبدًا فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبدًا. [١]

* * * *

(١) تفسير الرازي (٦/ ٧٣).

٢- شبهة: كفالة زكريا لمريم.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران: ٣٧).

قالوا: إن زكريا هو الذي كفل مريم، ووضعها في محراب، وكان يغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل عليها المحراب وجد عندها فاكهة في غير وقتها، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وقالوا: كان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول زكريا: يامريم أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله، تكلمت وهي صغيرة في المهد كما فعل ولدها عيسى عليه السلام.

وقال محمد بن إسحاق: أصابت بني إسرائيل أزمة حتى ضعف زكريا عن حملها وكفالتها، فاقترعوا على كفالتها فوقعت القرعة على نجار يقال له يوسف، فعرفت مريم في وجهه شدة، فقالت له: يا يوسف، أحسن بالله الظن، فإنه سيرزقنا، فإذا أتاها بشيء أنماه الله وزاده، فيدخل زكريا عليها فيقول: يا مريم أني لك هذا؟ فتقول هو من عند الله.

فنقول:

١- من تتبع جدول نسب مريم العذراء يجد أنها من نسل داود، أي من النسل الملوكي، فقول القرآن أن زكريا كان يكفلها خطأ.

٢-أخطأ أيضًا في قوله: إن الله كان يأتيها بفاكهة في غير أوانها من الجنة، فإن الجنة ليست محل أكل وشرب، ونعيمها لا يقوم بالملاذ المادية الجسدية، بل كل شهواتها روحية.

٣-يخبرنا الكتاب المقدس أن القديسة مريم كانت مخطوبة ليوسف، فوجدت حبلى من الروح القدس قبل أن يجتمعا، فظهر له الله في رؤيا وأخبره أن الذي حبل به فيها هو الروح القدس، وسيدعى اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم(متى: ١).

٤-كان الشرع اليهودي يحرم وجود امرأة داخل الهيكل، ولكنهم يقولون: إن مريم كانت مقيمة بالهيكل، وهذا خطأ لا يقع فيه من كان على علم بحقائق الشريعة اليهودية.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الدليل على أن زكريا هو الذي كفل مريم.

الوجه الثاني: لماذا خص زكريا عليه السلام بكفالة مريم عليها السلام؟

الوجه الثالث: بيان ضعف ما ذكره ابن إسحاق من أن جريجاً كفل مريم.

الوجه الرابع: بعض فضائل السيدة مريم عليها السلام.

الوجه الخامس: الرد على قولهم: إن مريم كانت مخطوبة ليوسف النجار.

الوجه السادس: وماذا قالوا عن مريم في الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الدليل على أن زكريا هو الذي كفل مريم.

الأول: تصريح القرآن بذلك؛ قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ (آل عمران: ٣٧).

الثاني: عن طريق الاستهام؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٤).

قال الطبري: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ مشددة"الفاء" بمعنى: وكفَّلها الله زكريا، بمعنى: وضمها الله إليه؛ لأن زكريا أيضًا ضمها إليه بإيجاب الله له، ضمَّها إليه بالقُرْعة التي أخرجها الله له، والآية التي أظهرَها لخصومه فيها، فجعله بها أولى منهم، إذ قَرَعَ فيها من شاحَّه فيها، وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومَه في مريم إذ تنازعوا فيها أيهم تكونُ عنده، تساهموا بقِدَاحهم، فرموا بها في نهر الأردنّ. فقال بعض أهل العلم: ارْتزّ قدح زكريا، فقام ولم يجر به الماء، وجرى بقدَاح الآخرين الماء، فجعل الله ذلك لزكريا علَمًا أنه أحق المتنازعين فيها بها.

وقال آخرون: بل اصّاعدَ قدح زكريا في النهر، وانحدرت قداحُ الآخرين مع جرية الماء وذهبت، فكان ذلك له علمًا من الله في أنه أولى القوم بها.

قال أبو جعفر: وأيّ الأمرين كان من ذلك، فلا شك أن ذلك كان قضاءً من الله بها لزكريا على خصومه، بأنه أولاهم بها، وإذْ كان ذلك كذلك فإنما ضمها زكريا إلى نفسه بضمّ الله إياها إليه بقضائه له بها على خصومه عند تَشاحِّهم فيها، واختصامهم في أولاهم بها[1].

قال ابن كثير: ثم قال تعالى لرسوله ﷺ بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ أي: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ أي: ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبرهم عنهم معاينة عما جرى؛ بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرًا وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

قلت: وذكر أثرًا عن عكرمة، ثم قال: وقد ذكر عكرمة أيضًا، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد -دخل حديث بعضهم في بعض- أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فيه فأيهم ثبت في جَرْية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ثبت، ويقال: إنه ذهب صُعُدًا يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبيهم ﷺ وعلى سائر النبيين والمرسلين.[2]

قال قتادة: قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾، كانت مريم ابنة إمامهم وسيّدهم، فتشاحّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفلها، فقَرَعهم زكريا، وكان زوجَ أختها، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٢).

﴿فكفَّلها زكريا﴾؛ يقول: ضمها إليه. [١]

الوجه الثاني: لماذا خص زكريا عليه السلام بكفالة مريم عليها السلام؟

١. **لتنال شرف العلم.**

قال ابن كثير: وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعًا وعملا صالحًا. [٢]

٢. **لصلة القرابة (من النسب).**

فهما من ذرية واحدة وهي ذرية سليمان بن داود[٣].

٣. **لصلة القرابة (من المصاهرة).**

(**فهو زوج أختها**): عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: "ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح"[٤]. **وبه قال قتادة**[٥]، وهو قول الجمهور[٦].

(**وقيل: كان زوج خالتها**) وعلى هذا كانت في حضانة خالتها، والخالة بمنزلة الأم.

وقيل: إن زكريا عليه السلام كان زوج خالتها.

فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، والخالة بمنزلة الأم.

---

(١) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٤٠٤)، ومن طريقه ابن أبى حاتم في التفسير (٣٥٠٢)، وأخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٤٠).

(٤) البخاري (٣٤٣٠)، مسلم (١٦٢).

(٥) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٤٠٤)، ومن طريقه ابن أبى حاتم في التفسير (٣٥٠٢)، وأخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٦٨).

(٦) قصص الأنبياء (٣٦٨).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: لما خرج النبي ﷺ من مكة في صلح الحديبية تَبِعَتْهُم ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي يَا عَمِّ! يَا عَمِّ! ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عليها السلام: " دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ احْمِلِيهَا. فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ، وَزَيْدٌ، وَجَعْفَرٌ، قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَخَذْتُهَا وَهِيَ بِنْتُ عَمِّي، وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي، وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ لِخَالَتِهَا؛ وَقَالَ: "الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ: أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي، وَقَالَ لِزَيْدٍ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا"[(١)].

قال ابن حجر: قَوْله: (وَخَالَتُهَا تَحْتِيّ) أَيْ: زَوْجَتِي، وَقَالَ: الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ، أَيْ فِي هَذَا الْحُكْمِ الْخَاصِّ؛ لِأَنَّهَا تَقْرُبُ مِنْهَا فِي الْحُنُوِّ وَالشَّفَقَةِ وَالِاهْتِدَاءِ إِلَى مَا يُصْلِحُ الْوَلَدَ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاق، وهي بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ لَا أَنَّهَا أُمٌّ حَقِيقِيَّةٌ[(٢)].

وعن قتادة قال: كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم. قال: فتشاحَّ عليها أحبارُهم، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفلها. قال قتادة: وكان زكريا زوجَ أختها فكفلها، وكانت عنده وَحضَنَها[(٣)].

وعن ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما، وناس من الصحابة: أن الذين كانوا يكتبون التوراة إذا جاؤا إليهم بإنسان يحبرونه اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه، وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان نبيهم، وكانت أخت مريم تحته، فلما أتوا بها قال لهم زكريا: أنا أحقكم بها تحتي أختها فأبوا، فخرجوا إلى نهر الأردن فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها أيهم يقوم قلمه فيكفلها، فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على قرنته كأنه في طين فأخذ الجارية[(٤)].

قوله: (خالتها)يعني زوجته (إيشاع) أخت حنة، لكن تقدم أنها أخت مريم، وقال ﷺ

(١) البخاري (٢٦٩٩) مطولًا، مسلم (١٧٨٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٧٩).

(٣) رواه الطبري (٣/ ٢٤٣) وفيه أبو جعفر الرازي التميمي؛ قال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ (تقريب التهذيب٢/ ٧٠٦).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٨٦)، وابن جرير (٣/ ٢٤٣)، والدر المنثور (٢/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٩) وفيه أبو صالح بازان: ضعيف يرسل من الثالثة (تقريب التهذيب١/ ٦٦).

في يحيى وعيسى: "هما ابنا خالة"، وعند أبي السعود قيل في تأويل ذلك: إن الأخت كثيرًا ما تطلق على بنت الأخت الأخرى؛ فجرى الحديث على ذلك، وقيل: إن (إيشاع) أخت حنة من الأم، وأخت مريم من الأب؛ بأن نكح عمران أم حنة فولدت (إيشاع)، ثم نكح حنة، ثم نكح ربيبته فولدت مريم بناء على حِل نكاح الربائب عندهم[١].

وقال الشيخ مصطفي العدوي: هذا القول في حال ثبوته يمكن توجيهه بأن يقال: إن خالة الأم يطلق عليها خالة أيضًا، وعلى ذلك يكون يحيى ومريم ابني خالة، ومن ثم يكون يحيى وعيسى ابني خالة؛ لكون يحيى ابن خالة أمه مريم، والله تعالى أعلم[٢].

وقال أبو حيان الأندلسي: والذي عليه الناس أن زكريا إنما كفلها بالاستهام، ولم يدل القرآن على أن غير زكريا كفلها، وكان زكريا أولى بكفالتها؛ لأنه من أقربائها من جهة أبيها، ولأن خالتها أو أختها تحته، على اختلاف القولين، ولأنه كان نبيًا، فهو أولى بها لعصمته[٣].

الرد على اعتراضهم أنه وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف والعكس، وأن هذا من الجنة.

أولًا: لم يصح في ذلك شيء مرفوع إلى النبي ﷺ.

ثانيًا: الصحيح ما جاء عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ قال: وجد عندها ثمرة في غير زمانها[٤].

ثالثًا: لم يصح في تحديد نوع الثمرة شيء.

رابعًا: لم يصح أنها كانت من ثمار الجنة، وأما ما جاء عن ابن عباس في ذلك فلا يصح[٥].

خامسًا: على قول جمهور المفسرين أنه كان عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فما المانع من ذلك؟ فقد اصطفاها الله سبحانه وتعالى وكرمها الله ببعض

(١) مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان؛ مطبوع بحاشية الكشاف (١/ ٣٥٧).

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل (آل عمران: ١٢٥).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٤٦٠).

(٤) عبد الرزاق في التفسير (٣٩٣).

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٤٦) فيه الحسين بن داود (سنيد) وهو ضعيف.

الكرامات وهذه منها.

الوجه الثالث: بيان ضعف ما ذكره ابن إسحاق من أن جريجًا كفل مريم.

قال محمد بن إسحاق: كفلها بعد هلاك أمها فضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنَذْر أمها الذي نذرت فيها، فجعلت تنبت وتزيد. قال: ثم أصابت بني إسرائيل أزْمة وهي على ذلك من حالها، حتى ضعف زكريا عن حملها، فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل، أتعلمون؛ والله لقد ضعفتُ عن حَمل ابنة عمران، فقالوا: ونحن لقد جُهِدنا وأصابنا من هذه السنة ما أصابكم، فتدافعوها بينهم، وهم لا يرون لهم من حملها بُدًا، حتى تقارعوا بالأقلام، فخرج السّهم بحملها على رجل من بني إسرائيل نجار يقال لهُ جريج، قال: فعرفت مريم في وجهه شدة مؤنة ذلك عليه، فكانت تقول له: يا جريج، أحسن بالله الظن؛ فإن الله سيرزقنا فجعل جريج يرزق بمكانها، فيأتيها كلّ يوم من كسبه بما يُصلحها، فإذا أدخله عليها وهي في الكنيسة، أنماه الله وكثَّره، فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلًا من الرزق، وليس بقدر ما يأتيها به جُريج، فيقول: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

الوجه الرابع: بعض فضائل السيدة مريم عليها السلام.

١ـ الاصطفاء والطهارة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢)

٢ ـ الحفظ والرعاية.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير٣/ ٢٤٦) وفيه سلمة بن الفضل صدوق كثير الخطأ، وابن حميد أجمع أهل بلده على تضعيفه. الجرح والتعديل (٧/ ٢٣٢)، الكاشف (٢/ ١٦٦).

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران: ٣٥: ٣٧).

عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها". ثم يقول أبو هريرة ﷺ: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1].

٣ـ وصفها بالصدق.

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥).

٤ـ وصفها بالكمال والخيرية.

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام "**.[2]

وعن عَلِيٍّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **"خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ"**[3].

الوجه الخامس: الرد على قولهم: إن مريم كانت مخطوبة ليوسف النجار.

قال الآلوسي: وزعم بعض النصارى ـ قاتلهم الله تعالى ـ أنها بعد أن ولدت عيسى تزوجت بيوسف النجار وولدت منه ثلاثة أبناء، والمعتمد عليه عندهم أنها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النجار وعقد عليها ولم يقربها، ولما رأى حملها بعيسى ﷺ هم

---

(١) البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٢) البخاري (٣٧٦٩)، مسلم (٢٤٣١).

(٣) البخاري (٣٤٣٢)، مسلم (٢٤٣٠).

بتخليتها فرأى في المنام ملكًا أوقفه على حقيقة الحال، فلما ولدت بقيت عنده مع عيسى عليه السلام فجعل يربيه ويتعهده مع أولاد له من زوجة غيرها، فأما هي فلم يكن يقربها أصلًا، والمسلمون لا يسلمون أنها كانت معقودًا عليها ليوسف، ويسلمون أنها كانت خطيبته، وأنه تعهدها وتعهد عيسى عليه السلام، ويقولون: كان ذلك لقرابته منها.

قال القرطبي: وذكر أيضًا من قصصها أنها خرجت فارة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار، كان يخدم معها في المسجد وطوَّل في ذلك.

قال الكلبي: قيل ليوسف - وكانت سميت له أنها حملت من الزنى - فالآن يقتلها الملك، فهرب بها، فهم في الطريق بقتلها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس، قال ابن عطية: وهذا كله ضعيف.

الوجه السادس: وماذا قالوا عن مريم في الكتاب المقدس؟

مريم نبية ومع ذلك تضرب بالدف:

(الخروج٥/ ٢٠): أَخَذَتْ مَرْيَمُ النَّبِيَّةُ أُخْتُ هَارُونَ الدُّفَّ بِيَدِهَا، وَخَرَجَتْ جَمِيعُ النِّسَاءِ وَرَاءَهَا بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ.

أقول: أنا أعتقد أن اليهود حينما سخروا من مريم ـ عليها السلام ـ أم المسيح فقالوا لها: يا أخت هارون، أعتقد أنهم كانوا يهزءون بها ويشبهونها بمريم التي هي أخت هارون فعلًا، والتي أخطأت فجزاها الله بمرض البرص، والقرآن حينما يتحدث عن قول اليهود لها: يا أخت هارون؛ كانوا يشبهونها بأخت هارون وموسى التي أخطأت، ويشبهون خطيتها بخطية مريم التي أبوها عمران وأمها يوكابد (التي هي عمة أبوها) أخت موسى عليه السلام وهارون عليه السلام، وهذا ظني، والله تعالى أعلى وأعلم.

* * *

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾.

نص الشبهة:

يقول: في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ (آل عمران: ٤٥) فجاء ضمير الهاء في اسمه مذكرًا، وهو عائد على(كلمة) المؤنثة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قال تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ فذكَّر، ولم يقل اسمها فيُؤنِّث، والكلمة مؤنثة؛ لأن (الكلمة) غير مقصود بها قصدُ الاسم الذي هو بمعنى "فلان"، وإنما هي بمعنى البشارة. [1] أي: أن الضمير جاء مذكرًا من أجل المعنى إذ "الكلمة": عبارة عن ولد[2]. أي: لأن المسمى بها مذكرًا[3].

الوجه الثاني:(ما يضاف من المذكر إلى المؤنث فيحمل مرة على لفظ المذكر فيذكر، ومرة على لفظ المؤنث فيؤنث).

من ذلك ما جاء في أشعار العرب من هذا الباب قول الأعشى[4].

وتَشْرَق بالقَوْلِ الذي قَدْ أذَعْتَه   كما شَرِقتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

فقال ابنُ سِيده: إنما أَنَّثَهُ على المعنى؛ لأنّ صَدْرَ القَناةِ من القَناةِ وهو كقَوْلهم: ذَهَبتْ بعضُ أصابِعِه؛ لأنهم يُؤَنِّثونَ الاسمَ المضافَ إلى المُؤَنَّثِ. والصُّدْرَةُ بالضَّمّ: الصَّدْرُ أو صُدْرَةُ الإِنْسَانِ: ما أَشْرَفَ من أعلاَه. أي أَعْلَى صَدْرِه وعليه اقتصرَ الأَزْهَرِيّ قال: ومنه الصُّدْرَةُ التي تُلْبَسُ وهو(ثَوبٌ،)أي معروف[5].

* * *

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٦/ ٤١٢).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٥).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٨/ ٥٠).

(٤) هذا البيت استشهد به سيبويه في الكتاب (١/ ٥٢).

(٥) تاج العروس للزَّبيدي (١/ ٣٠٥١).

٤- شبهة: حول وفاة عيسى عليه السلام.

نص الشبهة:

يقول: في الآية: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾.

والسؤال: كيف توفاه الله ورفعه؟، وفي الآية دليل على مسألة الصلب.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان المعاني التي ذُكرت في الوفاة.

الوجه الثاني: الرد على من قال بأن الوفاة في الآية بمعنى الموت.

الوجه الثالث: بطلان قضية الصلب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان المعاني التي ذكرت في الوفاة.

أولًا: الوفاة بمعنى: المنية، والوفاة: الموت، وتُوفي فلان، وتوفاه الله إذا قبض نفسه أو روحه، وقيل: توفي: استيفاء مدته التي وفيت له وعدد أيامه وشهوره وأعوامه في الدنيا، وتوفيت المال منه واستوفيته: إذا أخذته كله، وتوفيت عدد القوم: إذا عددتهم كلهم، وأنشد أبو عبيدة كمنظور الوبري:

إن بني الأدرم ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد

أي: لا تجعلهم قريش تمام عددهم ولا تستوفي بهم عددهم؛ ومن هذا قول الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي: يستوفي مدد آجالهم في الدنيا، وقيل: يستوفي تمام عددهم إلى يوم القيامة، وأماتوفي النائم فهو استيفاء وقت عقله وتمييزه إلى أن نام.

قال الزجاج في قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ قال: هو من توفية العدد أي: يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم؛ كما تقول: قد استوفيت من فلان وتوفيت منه مالي عليه، تأويله: أي لم يبق عليه شيء.

وأما الموافاة: فهي مأخوذة من قولك: أوفيته حقه ووفيته حقه ووافيته حقه؛ كل ذلك

بمعنى أفعلت وفعلت في حروف بمعنى واحد.

قال بشر بن أبي حازم:

كأن الأتحمية قام فيها ... لحسن دلالها رشأ موافي

قال الباهلي: موافي مثل مفاجي، وأنشد:

وكأنها وافاك يوم لقيتها ... من وحش وجرة عاقد متربب[1]

ثانيا: قول الله ﷻ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . .﴾

قيل: إن هذا فيه تقديم وتأخير ﴿إِنِّي﴾ عطف و﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . .﴾ على التقديم والتأخير؛ إذ الواو لا تفيد ترتيب الزمان أي: إني رافعك إلي ثم متوفيك بعد ذلك[2].

أي: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا؛ فيكون هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم[3].

ثالثا: إن الوفاة في اللغة تطلق أيضًا على النوم:

ويحتمل أن الوفاة بمعنى النوم فيكون المعنى: إني منيمك ورافعك في نومك، فيطلق التوفي على النوم مجازًا بعلاقة المشابهة؛ في نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: والتي لم تمت الموت المعروف فيميتها في منامها موتًا شبيهًا بالموت التام كقوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ فالكل إماتة في التحقيق وإنما فصل بينهما العرف والاستعمال؛ ولذلك فرع بالبيان بقوله: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فالكلام منتظم غاية

---

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ٥٨٤)، والصحاح (٥/ ٢٠٠٢)، لسان العرب (١٥/ ٤٠٠-٤٠١).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٠).

(٣) تفسير ابن عاشور (٣/ ٢٥٨)، تفسير الرازي (٨/ ٦٧).

الانتظام وقد اشتبه نظمه على بعض الأفهام(١).

رابعًا: ويحتمل أن تكون الوفاة بمعنى قابضك.

أي: قابضك من الأرض فرافعك إلي، فيقال: توفيت من فلان مالي عليه بمعنى: قبضته واستوفيته، فمعنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . ﴾ أي: قابضك من الأرض حيًا إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك. (٢)

خامسًا: ويحتمل أن تكون الوفاة بمعنى: إني متوفيك عن شهواتك وحظوط نفسك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾؛ وذلك لأن من لم يصر فانيًا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضًا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة. (٣)

سادسًا: ويحتمل أني متوفيك أي: أجعلك كالمتوفى؛ لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن. (٤)

سابعًا: ويحتمل أن يقدر فيه حذف المضاف، والتقدير: متوفي عملك بمعنى: مستوفي عملك ورافعك إليَّ، أي: عملك إليَّ، وهو كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾، والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه، وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه. (٥)

ثامنًا: ويحتمل أن تكون الوفاة بمعنى: استيفاء مدة الإقامة أي: مستوفي مدة إقامتك بين قومك، والتوفي كما يطلق على الإماتة كذلك يطلق على استيفاء الشيء(٦).

الوجه الثاني: الرد على من قال بأن الوفاة في الآية بمعنى الموت.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٠)، وابن عاشور (٣/ ٥٩)، وفتاوى ابن تيمية (٤/ ٢٢٣)

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٩١).

(٣) تفسير الرازي (٨/ ٦٨).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٦٨).

(٥) المصدر السابق (٨/ ٦٨).

(٦) تفسير الرازي (٨/ ٦٨)، ومحاسن التأويل (٤/ ١٠٧).

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾ فهذا دليل على أنه لم يعنِ بذلك الموت؛ إ ذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ١٥٧ - ١٥٩)، وقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.

الوجه الثالث: بطلان قضية الصلب.

إن كان قد تُوفي فالوفاة لا تستلزم أن تكون بالصلب والقتل، وبهذه الوجوه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وغيرها حجة علينا لإفادتها وفاته عليه السلام أي: بالصلب ثم رفعه إلى السماء؛ أعني: قيامه حيًا بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده، وأقام على الصليب إلى وقت المغرب من يوم الجمعة، ثم أنزل ودفن في أول ساعة من ليلة السبت، وأقام في القبر إلى صبيحة الأحد ثم انبعث حيًا وتراءى للنسوة اللاتي جئن إلى قبره زائرات، وقد استندوا في هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع، وشهادة تلاميذه الشفاهية في العالم ثم أتباعهم، وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتيًا، ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه في معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٤/ ١١٠). وانظر: شبهة " الصلب والفداء " في هذه الموسوعة.

٥- شبهة: وجاهة المسيح في الدنيا والآخرة.

نص الشبهة:

يقولون: يشهد القرآن بوجاهة المسيح في الدنيا والآخرة، فجاء في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾ (آل عمران: ٤٥).

ويقولون: جاء في تفسير الجلالين: ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العلا ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله.

فلماذا يخص القرآن المسيح بالوجاهة في الدنيا والآخرة؟

ويقولون: جاء في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: ٤)، فلماذا لم يعط الله سلطانًا لأحد من البشر بالشفاعة إلا المسيح؟ أليس لأنه ابن الله المتجسد والوسيط الوحيد بين الله والناس، وهو الذي يحيي الأموات والقلوب؛ لأنه حياة أجسادنا؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى كلمة (وجيهًا).

الوجه الثاني: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثالث: شروط الشفاعة.

الوجه الرابع: الشفاعة ليست خاصة بالأنبياء فقط.

الوجه الخامس: الرسول ﷺ صاحب الشفاعة.

الوجه السادس: عيسى عليه السلام ليس وحده الموصوف بهذا الوصف.

الوجه السابع: عيسى عليه السلام يبرأ من الشفاعة يوم القيامة لهول ذلك اليوم.

الوجه الثامن: بعض فضائل عيسى عليه السلام.

الوجه التاسع: ماذا قال الكتاب المقدس عن المسيح؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى كلمة (وجيهًا).

قال ابن قتيبة: الوجيه ذو الجاه، يقال: وجه الرجل يوجه وجاهة.

وقال ابن دريد: الوجيه المحب المقبول.

وقال الأخفش: الشريف ذو القدر والجاه.

وقيل: الكريم على من يسأله؛ لأنه لا يرده لكرم وجهه. [1]

وعلى هذا يكون المراد بقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ ذا وَجْهٍ ومنزلة عالية عند الله، وشرفٍ وكرامة[2].

الوجه الثاني: التفسير الصحيح للآية.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران: ٤٥).

والمعنى: ﴿وَجِيهًا﴾ أي: شريفًا ذا جاه وقدر. [3]

والسبب في ذلك:

أولًا: الوجاهة في الدنيا:

١- بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب (يعنى النبوة)[4].

٢-بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص[5].

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٨٢)، وروح المعاني للآلوسي (٣/ ١٦٢).

(٢) الطبري في تفسيره (٣/ ٢٧٠)، والزجاج في معاني القرآن (١/ ٤١٢)، والرازي (٨/ ٥٠)، التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٦)، وتفسير المنار (٣/ ٣٠٦).

(٣) الطبري (٣/ ٢٤٥)، و القرطبي (٤/ ٩٦)، و الخازن (١/ ٢٤٥).

(٤) الكشاف (١/ ٢٦٤)، و الرازي (٨/ ٥٠)، والمحرر الوجيز (١/ ٤٣٦).

(٥) الرازي (٨/ ٥٠)، والخازن (١/ ٢٤٥)، والبحر المحيط (٢/ ٢٨٢)، وروح المعاني (٣/ ١٦٢).

٣- بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها[١].

٤- جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب[٢].

ثانيًا: الوجاهة في الآخرة.

١- يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٣].

٢- علو الدرجة في الجنة[٤].

ثالثًا: من المقربين.

١-أي: عند الله -سبحانه وتعالى- قاله قتادة[٥].

والمعنى أي: يسكنه في جواره ويدنيه منه[٦].

٢-إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة[٧].

٣- من الناس بالقبول والإجابة[٨].

الوجه الثالث: شروط الشفاعة.

إن للشفاعة شرطين لا بد وأن يتحققا؛ لأن الشفاعة عند الله ﷻ تختلف عن الشفاعة عند غيره، فهو يقبل الشفاعة ممن يريد وممن يأذن له، ولا يتقبلها في كل من يشفع لهم؛ بل

---

(١) الرازي (٨/ ٥٠)، و روح المعاني (٣/ ١٦٢).

(٢) السعدي (١٣١).

(٣) الكشاف (١/ ٣٦٤)، و الرازي (٨/ ٥٠)، والنسفي (١/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٢/ ٢٨٢)، و أبو السعود (٢/ ٣٧)، وابن كثير (٣/ ٦٣)، وروح المعاني (٣/ ١٦٣).

(٤) الكشاف (١/ ٣٦٤)، والرازي (٨/ ٥٠)، والخازن (١/ ٢٤٥)، والنسفي (١/ ١٥٨).

(٥) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧١) بإسناد صحيح.

(٦) الرازي (٨/ ٥٠)، و أبو السعود (٢/ ٣٧)، و روح المعاني (٣/ ١٦٣).

(٧) الكشاف (١/ ٣٦٤)، والرازي (٨/ ٥٠)، والخازن (١/ ٢٤٦)، والنسفي (١/ ١٥٨).

(٨) روح المعاني (٣/ ١٦٣).

يقبلها سبحانه وتعالى فيمن يريد من عباده.

وهذان الشرطان هما:

أولًا: إذن الله سبحانه وتعالى للشافع بأن يشفع.

ومما يدل على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (سبأ: ٢٣٢).

ومن السنة حديث الشفاعة الطويل عن أنس رضي الله عنه وقد ورد فيه: "فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها"[1].

ثانيًا: رضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له بأن يكون من أهل التوحيد المتبعين لأوامر الله ﷻ المجتنبين لنواهيه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ (طه: ١٠٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

يقول العلامة ا السعدي: وكل أحد من الملائكة فما دونهم، خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته، وأوصافه، وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه[2].

ولا يرضى الله إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: "لا إله إلا الله خالصا من قلبه".

فالشفاعة يوم القيامة لا تكون إلا لمن أذن له الله ﷻ وارتضاه شفيعًا، فيلهمه الله بأن يشفع، فيشفعه الله في من يشاء من عباده.

الوجه الرابع: الشفاعة ليست خاصة بالأنبياء فقط.

---

(١) البخاري (٧٥١٠)، مسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٢) تفسير السعدي (٦٧٩).

يقول السفاريني: يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون، وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون؛ لثبوت الأخبار بذلك وترادف الآثار على ذلك، وهو أمر جائز غير مستحيل، فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل(١).

أولًا: شفاعة الأنبياء:

ودليل هذه الشفاعة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺالسابق أيضا، وفيه: "فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون"(٢).

ثانيًا: شفاعة الملائكة عليهم السلام:

والدليل من القرآن: قول الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ (النجم: ٢٦) ونحوها من الآيات.

والدليل من السنة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الطويل مرفوعا وفيه: فيقول الله ﷻ: "شفعت الملائكة، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط"(٣).

ثالثًا: شفاعة المؤمنين:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه السابق، وفيه: "حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي

---

(١) لوامع الأنوار (٢/ ٢٠٩)، كما في مجلة البحوث الإسلامية (٦٤/ ١٤٩: ١٥٠).

(٢) رواه مسلم (١٨٣).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا ".

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لا تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء: ٤٠)، فيقول الله ﷻ: "شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين"[(١)].

فالمؤمنون يشفعون يوم القيامة، وكلما كان المؤمن أكثر إيمانًا وتقى كان أحرى بالشفاعة لإخوانه المؤمنين، والعكس بالعكس.

ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الدرداء ﷺأن النبي ﷺقال: " إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة ". [(٢)]

رابعًا: شفاعة الشهداء:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة: حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " للشهيد عند الله ست خصال. "

وجاء في آخر الحديث: "ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه ". [(٣)]

خامسًا: شفاعة أولاد المؤمنين لآبائهم يوم القيامة:

من الأدلة على هذه الشفاعة:

ما جاء عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن

---

(١) مسلم (١٨٣).

(٢) مسلم (٢٥٩٨).

(٣) الترمذي (١٦٦٣)، ابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٨٣٤).

رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا، عن موتانا؟ قال: نعم صغارهم دعاميص الجنة، يتلقى أحدهم أباه - أو قال أبويه فيأخذ بثوبه أو قال: بيده - كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى - أو قال: فلا ينتهي - حتى يدخله الله وأباه الجنة"[(١)].

ومنها: حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله وإياهم بفضل رحمته الجنة، وقال: يقال: لهم ادخلوا الجنة، قال: فيقولون:

حتى يجيء أبوانا، قال: ثلاث مرات: فيقولون: مثل ذلك، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم"[(٢)].

الوجه الخامس: الرسول ﷺ صاحب الشفاعة.

يقول ابن تيمية: فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين، لكن ما له فيها ﷺ أفضل مما لغيره؛ فإنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ﷻ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين[(٣)].

١ - الشفاعة العظمى:

هي الشفاعة الأولى الخاصة بالنبي محمد ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وذلك حين يتوسل الناس يوم القيامة إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام من أجل الشفاعة عند الله؛ لإراحة الخلائق من هول وشدة ذلك اليوم العصيب بتعجيل حسابه وفصل القضاء بينهم بين يدي الله تبارك وتعالى، وهو أحكم

---

(١) مسلم (٢٦٣٥).

الدعاميص: جمع دعموص، أي صغار أهلها، وأصل الدعموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي أن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها.

(صنفة ثوبك) أي طرفه. شرح النووي لصحيح مسلم (٨/ ٤٣٢).

(٢) رواه النسائي (٤/ ٢٥)، وأحمد (٢/ ٥١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٨٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٣).

الحاكمين بقسطه وعدله حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع عند ربه ﷻ لأهل الموقف.

وهذه الشفاعة أعظم الشفاعات كلها، ولهذا تسمى الشفاعة العظمى، فهي شفاعة عامة لجميع أهل الموقف، على اختلاف أديانهم.

وهذه الشفاعة أجمع عليها أهل الإسلام. وعلى هذه الشفاعة يدل قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٩).

ومن الأدلة على هذه الشفاعة:

١-حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: "لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم... إلى أن قال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ. فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم". (١)

وحديثه الآخر أيضًا أنه قال ﷺ: " إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود". (٢)

٢-أيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي رسول الله ﷺ يومًا بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، فقال: " أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس،. . . ، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: - يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي، ثم

(١) البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠) واللفظ له.

(٢) البخاري (٤٧١٨).

يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى"(١).

٢ - الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة بعد الفراغ من حسابهم:

من الأدلة على هذه الشفاعة حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد"(٢).

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٣).

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن النبي ﷺ أول الشفعاء لأهل الجنة في دخولها.

٣ - الشفاعة في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة:

١-حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: " هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ"(٤).

٢- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ، كعبيه، يغلي منه دماغه"(١).

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠).

(٢) رواه مسلم (١٩٦).

(٣) رواه مسلم (١٩٨).

(٤) رواه البخاري (٦٢٠٨).

فهذه الأحاديث تبين أن سبب شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه هو دفاعه عن الرسول ﷺ ونصرته له، و هو مات كافرًا، والله -سبحانه وتعالى- أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولكن شفاعة الرسول ﷺ لعمه شفاعة خاصة، حتى ورد أنه أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة.

وهذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ.

وهناك شفاعات أخرى منها:

١-الشفاعة في رفع درجات بعض أهل الجنة، الشفاعة في دخول بعض المؤمنين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

٢- الشفاعة في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوا النار بذنوبهم أن يخرجوا منها.

٣- شفاعته ﷺ في أقوام قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

٤-الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم بأن يدخلوا الجنة.

يقول ابن تيمية: أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة، ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته، ويشفع أيضا لعموم الخلق(٢).

الوجه السادس: عيسي عليه السلام ليس وحده الموصوف بهذا الوصف.

قلت: هذا لأن الله وصف موسى عليه السلام بهذا الوصف كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب: ٦٩) فلماذا خصصوا هذا الوصف لعيسى عليه السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام؟.

الوجه السابع: عيسى عليه السلام يبرأ من الشفاعة يوم القيامة لهول ذلك اليوم.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠) واللفظ له.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائي (٦/ ١١٦٠) فما بعدها.

ومن الأدلة:

١- حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك. فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. قال: فيأتون آدم ﷺ فيقولون: أنت آدم أبو الخلق.... . ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم. ولكن ائتوا محمدًا ﷺ، عبدًا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال: قال رسول الله ﷺ: " فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي. . . ".[(١)]

٢- حديث أبي هريرة ﷺ قال: أتي رسول الله ﷺ يومًا بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، فقال: "أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر. . . فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - لم يذكر ذنبا- نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. . . "[(٢)].

٣- حديث أَبِى هُرَيْرَةَ و حُذَيْفَةَ ﷺ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يَجْمَعُ الله تَبَارَكَ وَتَعالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. اذْهَبُوا إِلَى ابْنِى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الله. قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِى كَلَّمَهُ الله تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٥) ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ الله وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَىﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًاﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ. . . "(١).

الوجه الثامن: بعض فضائل عيسى‬عليه السلام.

لقد كرم الله سبحانه وتعالي عيسى عليه السلام في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، كما لم يكرمه أي كتاب آخر، والمسلمون يحبون سيدنا عيسيعليه السلام وأمه ولا يقولون فيهما إلا ما قال الله - سبحانه وتعالي- أن سيدنا عيسيعليه السلام هو من الرسل الخمس أولي العزم، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، وهذا من أساس عقيدتنا كمسلمين، كل مسلم يؤمن أن المسيح نبي مكرم، ومن المقربين، وأنه من أولي العزم، وأن المسيح نبي كريم أرسله الله سبحانه وتعالى.

أولاً: من القرآن:

١ - وجيها شريفًا(ذا جاه وشرف).

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٥ - ٤٩).

٢ - عيسى ابن مريم عليه السلام نبي ورسول من عند الله عز وجل.

كغيره من الأنبياء والمرسلين، جاء ليدعو إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى، ويصحح انحراف اليهود عن دينهم، وبعدهم عن شريعتهم، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ (المائدة: ٧٥)، وقوله

(١) رواه مسلم (١٩٥).

تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الزخرف: ٦٣).

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ (الحديد: ٢٧).

٣- الحفظ والرعاية.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٥).

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

٤- حسن الخلق.

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (مريم: ٣٠-٣٥).

ثانيا: من السنة:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان. إلا ابن مريم وأمه " ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦)[1].

٢- عن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"[2].

٣- عن أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: " رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ. فَقَالَ لَهُ عِيسَى: سَرَقْتَ؟ قَالَ كَلا. وَالَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِالله وَكَذَّبْتُ نَفْسِى"[3].

٤- عن أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ في الأُولَى وَالآخِرَةِ. قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: " الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ""[4].

الوجه التاسع: ماذا قال الكتاب المقدس عن المسيح؟ وبماذا تردون على هذه السفاهة التي في كتابكم؟.

١- المسيح يشتم:

فَقَالَ لَهُمُ: «امْضُوا وَقُولُوا لِهذَا الثَّعْلَبِ: هَا أَنَا أُخْرِجُ شَيَاطِينَ، وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَدًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أُكَمَّلُ. (لوقا ١٣/ ٣٢).

فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَاأَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ (متى ٣/ ٧).

٢- المسيح يكذب على إخوته:

اِصْعَدُوا أَنْتُمْ إِلَى هذَا الْعِيدِ. أَنَا لَسْتُ أَصْعَدُ بَعْدُ إِلَى هذَا الْعِيدِ، لأَنَّ وَقْتِي لَمْ يُكْمَلْ بَعْدُ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨) واللفظ له.

(٤) رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له.

(يوحنا ٧/ ١٠: ٨).

٣ - **المسيح يشجع علي الرذيلة:**

لكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّكَ تُسَيِّبُ الْمَرْأَةَ إِيزَابَلَ الَّتِي تَقُولُ إِنَّهَا نَبِيَّةٌ، حَتَّى تُعَلِّمَ وَتُغْوِيَ عَبِيدِي أَنْ يَزْنُوا وَيَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ (يوحنا ٢/ ٢٠).

كل هذه الخطايا والأفعال المشينة نسبها الكتاب المقدس ليسوع ويقولون: إنه بلا خطيئة وبلا ذنب؟ ثم يأتي النصارى ويبحثون عن خطيئة الآخرين، وتناسوا تمامًا ما هو موجود في كتابهم عن المسيح ﵇، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * * *

٦- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾.

نص الشبهة:

حول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ (آل عمران: ١٠٥).

يقولون: ألا يعني هذا الكلام أن اليهود والمسيحيين اختلفوا بين بعضهم، لكن الكتاب الموجود بين أيديهم الذي هو-البينات- هو صحيح لا لبس فيه، ولهم عذاب عظيم؛ لأنهم ابتعدوا عنه، وواجب محمد هنا أن يردهم إليه لا أن يعطيهم كتابًا آخر.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثاني: النبي ﷺ مكلف بالتبليغ بالقرآن الكريم، ولم يكلفه الله أن يرد المختلفين من أهل الكتاب إلى كتابهم؛ لأن القرآن فيه بيناتهم وزيادة:

١- القرآن بلاغ للناس.

٢- القرآن إنذار للأحياء جميعًا.

٣- النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

٤- نهي الله ﷻ نبيه أن يتهاون في تبليغ القرآن.

٥- كل الرسل الذين جاءوا من قبل نبينا كانوا يبينون للناس مااختلفوا فيه من قبل، ويأتونهم بكتاب جديد.

الوجه الثالث: الإسلام جاء ناسخًا للكتب السماوية الأخرى.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ (آل عمران: ١٠٥).

قال أبو جعفر الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا معشر الذين آمنوا: ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، من حجج الله، فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾، يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا، واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿عَظِيمٌ﴾، يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا، يا معشر المؤمنين، في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم ما لهم.[1]

وقال ابن كثير: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.[2]

وعن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: "تفَرَّقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتفرقت النَّصَارَى إِحْدَى أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً".[3]

قال صاحب عون المعبود: هَذَا مِنْ مُعْجِزَاته ﷺ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ غَيْب وَقَعَ. قَالَ الْعَلْقَمِيّ: قَالَ شَيْخنَا أَلَّفَ الْإِمَام أَبُو مَنْصُور عَبْد الْقَاهِر بْن طَاهِر التَّمِيمِيّ فِي شَرْح هَذَا الْحَدِيث كِتَابًا قَالَ فِيهِ: قَدْ عَلِمَ أَصْحَاب الْمَقَالَات أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُرِدْ بِالْفِرَقِ الْمَذْمُومَة الْمُخْتَلِفِينَ فِي فُرُوع الْفِقْه مِنْ أَبْوَاب الْحَلَال وَالْحَرَام، وَإِنَّمَا قَصَدَ بِالذَّمِّ مَنْ خَالَفَ أَهْل الْحَقّ فِي أُصُول التَّوْحِيد، وَفِي تَقْدِير الْخَيْر وَالشَّرّ وَفِي شُرُوط النُّبُوَّة وَالرِّسَالَة، وَفِي مُوَالَاة الصَّحَابَة وَمَا جَرَى مَجْرَى هَذِهِ الْأَبْوَاب؛ لِأَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهَا قَدْ كَفَّرَ بَعْضهمْ بَعْضًا بِخِلَافِ النَّوْع الْأَوَّل فَإِنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٥).

(٣) رَوَاهُ أبو داود (٦٢٤٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وعند ابن ماجه (٣٩٩٣) عن أنس بن مالك وإسناده صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٩٢، ٢٠٣).

غَيْر تكْفِير، وَلَا تَفْسِيق لِلْمُخَالِفِ فِيهِ؛ فَيَرْجِع تَأْوِيل الْحَدِيث فِي اِفْتِرَاق الْأُمَّة إِلَى هَذَا النَّوْع مِنْ الِاخْتِلَاف، وَقَدْ حَدَثَ فِي آخِر أَيَّام الصَّحَابَة خِلَاف الْقَدَرِيَّة مِنْ مَعْبَد الْجُهَنِيّ وَأَتْبَاعه، ثُمَّ حَدَثَ الْخِلَاف بَعْد ذَلِكَ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَكَامَلَتْ الْفِرَق الضَّالَّة اِثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَالثَّالِثَة وَالسَّبْعُونَ هُمْ أَهْل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة، وَهِيَ الْفِرْقَة النَّاجِيَة[1].

وقال في تحفة الأحوذي: المراد من أمتي الإجابة[2]، وهذا من معجزاتهﷺ.[3]

ومما جاء في ذم التفرق والحث على الجماعة:

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺفِينَا، فَقَالَ: "أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ. أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ. عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ. مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ"[4].

قال في تحفة الأحوذي: قَوْلُهُ: "خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ "خُطْبَةُ عُمَرَ هَذِهِ مَشْهُورَةٌ، خَطَبَهَا بِالْجَابِيَةِ وَهِيَ قَرْيَةٌ بِدِمَشْقَ فَقَالَ أَيْ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ "أَيْ: التَّابِعِينَ "ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ " أَيْ: أَتْبَاع التَّابِعِينَ. وَقَوْلُهُ: "بِأَصْحَابِي"، وَلَيْسَ مُرَادُهُ بِهِ وُلَاةَ الْأُمُورِ " ثُمَّ يَفْشُوالْكَذِبُ " أَيْ: يَظْهَرُ وَيَنْتَشِرُ بَيْنَ النَّاسِ بِغَيْرِ نَكِيرٍ" حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ " أَيْ: لَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْحَلِفُ لِجُرْأَتِهِ عَلَى الله "وَيَشْهَدُ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ "

---

(١) عون المعبود (٦/ ٢٢).

(٢) الإجابة: أمة النبي نوعان: أمة إجابة، وأمة دعوة؛ فأمة الدعوة هم من كفر بالنبيﷺ، وأمة الإجابة هم من آمن به.

(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٣٢).

(٤) رَوَاهُ الترمذي (٢١٦٥) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ.
وأحمد (١/ ٢٦). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦)، وفي الصحيحة (٤٣٠).

قَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي أَوَاخِرِ الشَّهَادَاتِ: الْمُرَادُ بِهِ شَهَادَةُ الزُّورِ " أَلَا " بِالتَّخْفِيفِ حَرْفُ تَنْبِيهٍ " لَا يَخْلُونَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ " أَيْ: أَجْنَبِيَّةٍ "إِلَّا كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانَ " بِرَفْعِ الْأَوَّلِ وَنَصْبِ الثَّانِي، وَيَجُوزُ الْعَكْسُ وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفَرَّغٌ، وَالْمَعْنَى: يَكُونُ الشَّيْطَانُ مَعَهُمَا يُهَيِّجُ شَهْوَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا حَتَّى يُلْقِيَهُمَا فِي الزِّنَا " عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ " أَيْ الْمُنْتَظِمَةِ بِنَصْبِ الْإِمَامَةِ" وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ" أَيْ: اِحْذَرُوا مُفَارَقَتَهَا مَا أَمْكَنَ. وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: " مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ""[1].

وفي حديث حذيفة ﷺ قال: " تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ "[2].

وأما قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ ليس إخبار الله عن الكتب السابقة أنها بينات يلزم منه أنها مازالت بينات بعد تحريفكم إياها؛ بل كانت إلى أن حرفتموها وبدلتموها بأقوال من عندكم.

الوجه الثاني: كلف الله ﷻ النبي محمدًا ﷺ بتبليغ القرآن الكريم ولم يكلفه أن يرد المختلفين من أهل الكتاب إلى كتابهم؛ لأن القرآن فيه بيناتهم وزيادة.

١- يقول تعالى عن القرآن إنه بلاغ للناس لإنذارهم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ (إبراهيم: ٥٢).

٢-ويأمر الله رسوله بتبليغ الرسالة وعدم التقصير في أدائها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي

(١) رَوَاهُ مسلم (١٨٤٨).

(٢) رَوَاهُ البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

ﭐلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧).

٣-ويقول سبحانه: إن مابين يدى النبيﷺ هو قرآن وذكر من عند الله؛ لينذر به الأحياء جميعًا: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (يس: ٦٩-٧٠).

٤-ويزكي القرآن النبيﷺفي أنه يبلغ القرآن بكل أمانة؛ فهو لا ينطق عن الهوى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ (النجم: ٣).

٥- ولو لبى النبي ﷺ طلب هؤلاء وأمثالهم حيث طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا، أو قال على الله ما لم يقله الله-وحاشاه ذلك-سيصير الأمر إلى ما تدل عليه الآيات: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (يونس: ١٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ (الحاقة ٤٤: ٤٥). ولا شك أن وظيفة النبيﷺهي تبيين الذكر للناس، وتبيين ما اختلف فيه أهل الكتاب وإنذارهم به، فما عليهﷺ إلا البلاغ، قال تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (النحل: ٦٤)، وقال: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩).

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ

نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (المائدة: ١٥).وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢).

٦- ثم إن الرسل الذين جاءوا من قبل النبي محمدﷺكانوا يبينون للناس ما اختلفوا فيه من قبل، ويأتيهم بكتاب جديد من قبل الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٦٣-٦٤). وقال تعالى عمن يكفر بهذه البينات: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (البقرة: ٩٩).

فالله ﷻ نزّل على رسوله ﷺ الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشري للمسلمين، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل: ٨٩-٩٠).

الوجه الرابع: الإسلام جاء ناسخًا للكتب السماوية الأخرى.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: إنزالًا بالحق، ومشتملًا على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه. ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقًا لخبرها.

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه[1].

فإذا اختلف البشر أو تفرقوا، وجب الرجوع إلى الدين الخاتم لجميع الأديان، لا أن يُرد إلى كتبٍ حرّفها أصحابها، وابتعدوا عن منهجها! ، ولذا كان الرجوع إلى الكتاب الحق -وهو القرآن- هو الأصل.

* * *

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٣٤).

سورة النساء

وفيها:

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾.

١- **شبهة: حول قوله تعالى:** ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

نص الشبهة:

يقولون: جاء في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١).

لم تكتفِ الآية بنعت المسيح بالرسالة؛ بل شهدت أنه كلمة الله، ولكي لا نتوهم خلاف المقصود بلفظ (كلمة الله) أتبعها بها يزيل الشك وهو (روح منه) لنفهم أن المسيح ليس مجرد رسول عادي؛ بل ابن مرسل من أبيه إلى عالم الدنيا كأشعة الشمس المنبعثة إلى الأرض من الشمس، وما الفرق بين القول: إن المسيح نور من نور إله، حق من إله حق، والقول روح الله أو روح من الله؟ أليس أنه من ذات الله ومن جوهره؟

وهم يريدون بذلك إثبات البنوة لعيسى عليه السلام وأنه جزء من الله، كذلك في قوله: (كلمة منه)

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى ما أضيف إلى الله.

الوجه الثاني: أن يضاف الشيء إليه لما خصه الله به من معنى يحبه ويرضاه ويأمر به.

الوجه الثالث: بيان معنى الكلمة في قوله: (وكلمته).

الوجه الرابع: بيان اختصاص المسيح بإطلاق الكلمة عليه.

الوجه الخامس: بيان معنى الروح في الآية (وروح منه).

الوجه السادس: الحكمة من وصفه بهذه الصفة (الروح).

الوجه السابع: بيان معنى قوله: (منه) وأن الإضافة للتشريف وليست للتبعيض.

الوجه الثامن: الحكمة من وصف عيسى بهذين الوصفين.

الوجه التاسع: الأدلة على أن عيسى عبد الله ورسوله.

الوجه العاشر: بعض الأدلة على أن الله واحد لا شريك له، وأنه لم يتخذ ولدًا.

الوجه الحادي عشر: على زعمكم - الباطل - فآدم أولى بعيسى من ذلك.

الوجه الثاني عشر: في كتابكم من أطلق عليه روح الله، فلماذا خص عيسى وحده بالبنوة؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **بيان معنى ما أضيف إلى الله.**

أولًا: إن (كلمة الله) مركبة من جزئين (كلمة) و(الله) فهي مركبة من مضاف ومضاف إليه، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإما أن نقول: إن كل مضاف لله تعالى هو صفة من صفاته، أو نقول: إن كل مضاف لله ليس صفة من صفاته، وبعبارة أخرى إما أن نقول: إن كل مضاف لله مخلوق، أو إن كل مضاف لله غير مخلوق.

وإذا قلنا: إن كل مضاف لله صفة من صفاته وهو غير مخلوق؛ فإننا سنصطدم بآيات في القرآن، وكذلك بنصوص في الإنجيل يضاف فيها الشيء إلى الله، وهو ليس صفة من صفاته؛ بل هو مخلوق من مخلوقاته، كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ (الأعراف: ٧٣) وكما نقول: بيت الله، وأرض الله، وغير ذلك.

وإذا عكسنا القضية وقلنا: إن كل مضاف لله مخلوق؛ فإننا كذلك سنصطدم بآيات ونصوص أخرى؛ كما نقول: علم الله، وحياة الله، وقدرة الله.

إذن لابد من التفريق بين ما يضاف إلى الله؛ فإذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا منفصلًا قائمًا بنفسه، كالناقة والبيت والأرض فهو مخلوق، وتكون إضافته إلى الله تعالى من باب التشريف والتكريم؛ أما إذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا غير منفصل؛ بل هو صفة من صفاته، فيكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومن البديهي أن يكون هذا غير مخلوق، إذن فالصفة تابعة للموصوف ولا تقوم إلا به، فلا تستقل بنفسها بحال.

وإذا عدنا إلى الجزء الذي معنا هنا فإننا نجد أن (كلمة الله) هي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فـ(الكلمة) هي صفة الله تعالى، وليست شيئًا خارجًا عن ذاته حتى يقال إن: المسيح هو الكلمة، أو يقال: إنه جوهر خالق بنفسه كما يزعم النصارى.

فخلاصة هذا الوجه أن (كلمة الله) صفة من صفاته، وكلامه كذلك، وإذا كان الكلام صفة من صفاته فليس هو شيء منفصل عنه، لما تقرر آنفًا من أن الصفة لا تقوم بنفسها؛ بل لا بد لها من موصوف تقوم به، وأيضًا فإن (كلمة الله) ليست هي بداهة جوهر مستقل، فضلًا عن أن تتجسد في صورة المسيح، كما يزعم النصارى.

قال ابن تيمية: إن المضاف إذا كان معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمًا به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبريل وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، فقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ يمتنع أن يكون شيء من هذه الأعيان القائمة بنفسها صفة لله تعالى، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين: أحدهما أن تضاف إليه من جهة كونه خلقها وأبدعها فهذا شامل لجميع المخلوقات كقولهم: سماء الله وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عباد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه الله به من معنى يحبه ويرضاه ويأمر به.

كما خص البيت العتيق بعبادة تكون فيه لا تكون في غيره، وكما خص المساجد بأن يفعل فيها ما يحبه ويرضاه من العبادات، وأن تصان عن المباحات التي لم تشرع فيها فضلًا عن المكروهات، وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله[1].

ثانيًا: إن أبى المعرضون ما سبق، وقالوا: بل المسيح هو (الكلمة) وهو الرب، وهو خالق وليس بمخلوق، إذ كيف تكون الكلمة مخلوقة؟

فالجواب: إذا سلمنا بأن المسيح هو (الكلمة) وهو الخالق، فكيف يليق بالخالق أن يُلقى؟! إن الخالق حقيقة لا يلقيه شيء؛ بل هو يلقي غيره، فلو كان خالقًا لَمَا أُلقي، ولَمَا قال

(١) درء تعارض العقل مع النقل (٧/ ٢٦٥).

الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ﴾؟

الوجه الثالث: بيان معنى الكلمة في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾.

المعنى الأول: أنها كلمة التكوين وهي كلمة (كن).

والمعنى: أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ (آل عمران: ٥٩).

والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادرًا عنه[١].

وبه قال قتادة[٢]. وشَاذُّ بْنُ يَحْيَى قال: **ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى**[٣].

قَالَ الْهَرَوِيُّ: سُمِّيَ كَلِمَةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ الْكَلِمَةِ فَسُمِّيَ بِهَا كَمَا يُقَال لِلْمَطَرِ: رَحْمَة[٤].

فسماه الله ﷻ كلمته؛ لأنه كان عن كلمته كما يقال لما قدر الله من شيء: هذا قدر الله وقضاؤه يعني به: هذا عن قدر الله وقضائه حدث، وكما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ (النساء: ٤٧، الأحزاب: ٣٧) يعني به: ما أمر الله به وهو المأمور به الذي كان عن أمر الله ﷻ[٥].

فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: (كن) فكان عيسى ﷺ بكن، فعيسى ليس هو الكن ولكن بالكن كان، فالكن من الله قول وليس الكن مخلوقًا، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب؟

---

(١) البغوي (١/ ٥٠٢)، الكشاف (١/ ٥٩٣)، المحرر الوجيز (٢/ ١٣٩).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٦٥٨)، ومن طريقه ابن أبى حاتم في التفسير (٦٣٠٩)، وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٢٠).

(٣) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبى حاتم في التفسير (٦٣١٠).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٢٦٣).

(٥) تفسير الطبري (٣/ ٢٦٩).

قلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة، وأما قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يقول: من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها: أنها روح يملكها الله خلقها الله كما يقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله[1].

المعنى الثاني: المراد بالكلمة كلمة البشارة.

يعني برسالة من الله، وخبر من عنده وهو من قول القائل: ألقى فلان إليَّ كلمة سرني بها بمعنى: أخبرني خبرًا فرحت به كما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١) يعني: بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها.

فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم؛ إذ قالت الملائكة لمريم: يا مريم، إن الله يبشرك ببشرى من عنده؛ هي ولد لك اسمه المسيح عيسى ابن مريم[2].

الوجه الرابع: بيان اختصاص المسيح بإطلاق الكلمة عليه.

يقول محمد رشيد رضا: لماذا خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه؟ وأجيب عن ذلك:

١- بأن الأشياء تنسب في العادة والعرف العام في البشر إلى أسبابها، ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سببًا للعلوق، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البيوض التي يتكون منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله، وأطلقت الكلمة على المكون إيذانًا بذلك أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة، وهذا هو الوجه المشهور.

٢- أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرفه قومه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديًا محضًا؛ قاله الرازي. وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله، لما أنه سبب لظهور ظل العدل ونور الإحسان قال: فكذلك كان عيسى سببًا لظهور كلام الله ﷻ بسبب كثرة بياناته له، وإزالة الشبهات

---

(١) الرد على الزنادقة للإمام أحمد (٣٢)، درء تعارض العقل مع النقل (٧/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٦٩).

والتحريفات عنه[١].

قال ابن تيمية: ثم يقال للنصارى: فلو قدر أن المسيح نفس الكلام، فالكلام ليس بخالق؛ فإن القرآن كلام الله وليس بخالق، والتوراة كلام الله وليست بخالقة، وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقًا، فكيف وليس هو الكلام وإنما خلق بالكلمة وخص باسم الكلمة؟ فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره؛ بل خرج عن العادة، فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة في البشر[٢].

الوجه الخامس: بيان معنى الروح في الآية (وَرُوحٌ مِنْهُ).

المعنى الأول: الروح بمعنى: النفخ.

معنى قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ونفخة منه؛ لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في دِرْع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه (روح من الله)؛ لأنه بأمره كان. قال: وإنما سمي النفخ ﴿رُوحًا﴾ لأنها ريح تخرج من الرُّوح، واستشهدوا على ذلك من قولهم بقول ذي الرمة في صفة نار نعتها:

فَلَمَّا بَدَتْ كَفَّنْتُها، وَهْيَ طِفْلَةٌ بِطَلْسَاءَ لَمْ تَكْمُلْ ذِرَاعًا وَلا شِبْرَا

وَقُلْتُ لَهُ: ارْفَعْهَا إِلَيْكَ، وَأَحْيِهَا بِرُوحِكَ، وَاقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا

وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ الشَّخْتِ، وَاسْتَعِنْ عَلَيْهَا الصَّبَا، وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَلَمَّا تَنَمَّتْ تَأْكُلُ الرِّمَّ لَمْ تَدَعْ ذَوَابِلَ مِمَّا يَجْمَعُونَ ولا خُضْرَا

فَلَمَّا جَرَتْ فِي الْجَزْلِ جَرْيًا كَأَنَّهُ سَنَا الْبَرْقِ، أَحْدَثْنَا لِخَالِقِهَا شُكْرَا

وقالوا: يعني بقوله: أحيها بروحك؛ أي: أحيها بنفخك[٣].

المعنى الثاني: الروح بمعنى الرحمة.

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٠٤).

(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٦٧).

(٣) انظر ديوانه: ١٧٦، واللسان (روح)، الطبري في التفسير (٦/ ٣٥)، النكت والعيون (١/ ٥٤٦).

معنى قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ورحمة منه، كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (سورة المجادلة: ٢٢) قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة منه، قالوا: فجعل الله عيسى رحمة منه على من اتبعه وآمن به وصدّقه؛ لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد[١].

المعنى الثالث: الروح بمعنى مخلوقة من عند الله.

وروح من الله خلقها فصورها، ثم أرسلها إلى مريم، فهي روح مخلوقة من عند الله[٢].

المعنى الرابع: الروح بمعنى جبريل.

معنى: "الروح" ههنا جبريل عليه السلام، قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضًا إليها روح من الله، قالوا: فـ"الروح" معطوف به على ما في قوله: "ألقاها" من ذكر الله، بمعنى: أنّ إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله، ثم من جبريل عليه السلام[٣].

المعنى الخامس: الروح بمعنى رسول.

عَنْ مُجَاهِدٍ: "وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" قال: "رَسُولٌ مِنْهُ"[٤].

الوجه السادس: الحكمة من وصفه بهذه الصفة (الروح).

الأول: جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة، قالوا: إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونًا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح[٥].

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح، قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)[٦].

---

(١) الطبري في التفسير (٦/ ٣٦)، البغوي (١/ ٥٠٢)، زاد المسير (٢/ ٢٦١).

(٢) الطبري في التفسير (٦/ ٣٦)، النووي شرح صحيح مسلم (١/ ٢٦٣).

(٣) الطبري في التفسير (٦/ ٣٦)، البغوي (١/ ٥٠٢)، زاد المسير (٢/ ٢٦١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٦٣١١).

(٥) الآلوسي في التفسير (٦/ ٢٥).

(٦) النكت والعيون (١/ ٥٤٦)، الرازي في التفسير (١١/ ١١٥)، زاد المسير (٢/ ٢٦٢).

الثالث: وقوله عن المسيح: وروح منه خص المسيح بذلك؛ لأنه نفخ في أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح فلهذا سمى روحًا منه[1].

الوجه السابع: بيان معنى قوله: (منه) وأن الإضافة للتشريف وليست للتبعيض.

أولا: المعنى لقوله روح منه.

أي كائنة منه بتخليقه وتكوينه، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية١٣)[2].

ثانيًا: هذه الإضافة للتشريف.

قال ابن كثير: وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ (هود: ٦٤)، وفي قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ (الحج: ٢٦)[3].

ثالثا: (من) لابتداء الغاية وليست للتبعيض.

أما قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ فلفظة (مِنْ) ليست للتبعيض ههنا؛ إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئًا متبعضًا متحملًا للاجتماع والافتراق، وكل من كان كذلك فهو محدث وتعالى الله عنه؛ بل المراد من كلمة (مِنْ) ههنا ابتداء الغاية، وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة (الله) مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى من الحلولية.

وقد ذكر أن طبيبًا نصرانيًا حاذقًا للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٧١).

(٢) القرطبى في التفسير (٦/ ٢٦)، النسفي في التفسير (١/ ٢٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٩)، زاد المسير (٢/ ٢٦١)، الرازي في التفسير (١١/ ١١٥).

يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى؛ وتلى هذه الآية، فقرأ الواقدي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) فقال: إذن يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءًا منه سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا فانقطع النصراني فأسلم، وفرح الرشيد فرحًا شديدًا، ووصل الواقدي بصلة فاخرة[١].

وعلى هذا يكون معنى الآية:

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله وخَلقٌ من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم؛ أي: خَلقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل فكان عيسى بإذن الله عز وجل وصارت تلك النفخة التي نفخها في جَيْب درعها، فنزلت حتى وَلَجت فرجها بمنزلة لقاح الأبِ الأمَّ، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولَّد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن فكان. والروح التي أرسل بها جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ (آل عمران: ٥٩) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ (الأنبياء: ٩١) وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ (التحريم: ١٢) وقال تعالى إخبارًا عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ (الزخرف: ٥٩)[٢].

(١) الرازي في التفسير (٨/ ٤٩)، البحر المحيط (٣/ ٤١٧).

(٢) ابن كثير في التفسير (٤/ ٣٨٨ـ ٣٨٩).

الوجه الثامن: الحكمة من وصف عيسى بهذين الوصفين.

قال ابن عاشور: فإن قلت: ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلّت بها النّصارى، وهلّا وُصف المسيحُ في جملة القصر بمثل ما وصف به محمّد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠) فكان أصرح في بيان العبوديّة، وأنفي للضلال.

قلت: الحكمة في ذلك أنّ هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل أو في كلام الحواريّين وصفًا لعيسى عليه السلام، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذٍ، فلمّا تغيّرت أساليب اللّغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرّب الضلال إلى النّصارى في سوء وضعهما، فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل؛ أي أنّ قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدّي إلى اعتقاد أنّه ابن الله وأنّه إله، وتصدير جملة القصر بأنّه ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ينادي على وصف العبوديّة؛ إذ لا يُرسل الإله إلهًا مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح[1].

الوجه التاسع: الأدلة على أن عيسى عبد الله ورسوله.

أولًا من القرآن:

قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (النساء: ١٧٢).

قال الطبري: أخبر جل ثناؤه عباده أن عيسى وأمّه ومن في السموات ومن في الأرض؛ عبيدُه وإماؤه وخلقه وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه احتجاجًا منه بذلك على من ادّعى أن المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبدًا مملوكًا[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٥٣).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٢).

قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ (مريم: ٢٩، ٣٠).

قال الرازي: اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع:

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية فإن كان صادقًا في مقاله فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية؛ بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى ﷺ لم ينصْ على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد، واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدًّا[1].

ثانيًا من السنة:

عَنْ عُبَادَةَ ﷺ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ

(١) تفسير الرازي (٢١/ ٢٠٩).

وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» قَالَ الْوَلِيدُ حدثني ابْنُ جَابِرٍ، عَنْ عُمَيْرٍ، عَنْ جُنَادَةَ وَزَادَ: «مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، أَيَّهَا شَاءَ"[(١)].

الوجه العاشر: بعض الأدلة على أن الله واحد لا شريك له، وأنه لم يتخذ ولدًا.

أولًا: من القرآن.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٣).

قال ابن كثير: يقول تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله؛ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ (مريم: ٣٠-٣٦) وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦).[(٢)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

---

(١) البخاري (٣٤٣٥)، مسلم (٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٧).

وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (النساء: ١٧١).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليس له أجزاء ولا أقانيم، ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد كما تقولون في المسيح أنه ابنه، وأنه هو عينه؛ فإنه تبارك وتعالى ليس له جنس فيكون له منه زوج يقترن بها فتلد له ابنًا، والنكتة في اختيار لفظ الولد في الرد عليهم على لفظ الابن الذي يعبرون به هي بيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولدًا؛ أي: مولود من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا أنه ابن مجازًا لا حقيقة كما أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وعلى صانعي السلام وغيرهم من الأخيار، فلا يكون له دخل في الألوهية، ولا يعد من باب الخصوصية.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليس له ولد خاص مولود منه، يصح أن يسمى ابنه حقيقة؛ بل له كل ما في السموات والأرض -المسيح من جملتها- خلق كل ذلك خلقًا، وكل ذي عقل منها وإدراك يفتخر بأن يكون له عبدًا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ لا فرق في هذا بين الملائكة المقربين والنبيين الصالحين، كما صرحت به الآية التالية لهذه، ولا بين من خلقه ابتداءً من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم، ومن خلق من أصل واحد كحواء وعيسى، ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى كلهم بالنسبة إليه ـ تعالى ـ سواء، عبيد له من خلقه محتاجون دائمًا إلى فضله، وهو يتصرف فيهم كما يشاء.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: به الكفاية لمن عرفه، وعرف سننه في خلقه إذا وكلوا إليه

أمورهم، ولم يحاولوا الخروج عن سننه وشرائعه بسوء اختيارهم[1].

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ (الأنعام: ١٠١).

قال ابن كثير: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولدًا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٨٨ -٩٥).

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة: ١١٦، ١١٧).

هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على

(١) تفسير المنار (٦/ ٨٧، ٨٨).

رؤوس الأشهاد.

ثانيا: من السنة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ قَالُوا: " يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « نَعَمْ ». . . . وهو حديث الرؤية وفيه قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ؛ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ؛ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. . . "(١).

الوجه الحادي عشر: على زعمكم - الباطل- فآدم أولى بعيسى من ذلك.

ما دمتم تقرّون أنه ليس ثمة أحد يحمل صفات الألوهية أو البنوة لله تعالى إلا المسيح ﵇ وتستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فحينئذ يلزمكم أن تقولوا: إن آدم ﵇ أحق بالبنوة من عيسى؛ حيث قال الله في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (الحجر: ٢٩) ولا شك أن القول بهذا حجة عليكم لا لكم، فإذا كان قوله سبحانه: ﴿مِن رُّوحِي﴾ في حق آدم معناه الروح المخلوقة، وأن هذه الروح ليست صفة لله ﷻ فهي كذلك في حق عيسى؛ إذ اللفظ واحد؛ بل إن الإعجاز في خلق آدم بلا أب ولا أم أعظم من الإعجاز في خلق عيسى بأم بلا أب، وحسب قولكم يكون آدم حينئذ أحق بالبنوة والألوهية من عيسى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وبعد ما تقدم نقول: إن القرآن الكريم في هذا الموضع وفي غيره يقرر بشرية

(١) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

المسيح ﷺ، وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس له من صفة الألوهية شيء، وقد قال تعالى في نفس الآية التي معنا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو ابن مريم، وليس ابن الله، وهو رسول الله، وليس هو الله.

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقال تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ (النساء: ١٥٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

فهل بعد هذا الاستدلال العقلي والبيان القرآني يبقى متمسك بشبهات أوهى من بيت العنكبوت؟[1].

الوجه الثاني عشر: في كتابكم من أطلق عليه روح الله، فلماذا خص عيسى وحده بالبنوة؟

قال الآلوسي: وعلى العلات لا حجة للنصارى على شيء مما زعموا في تشريف عيسى ﷺ بنسبة الروح إليه إذ لغيره ﷺ مشاركة له في ذلك، ففي «إنجيل لوقا» قال يسوع لتلاميذه: إنَّ أباكم السماوي يعطي روح القدس الذين يسألونه، وفي «إنجيل متى»: إن يوحنا المعمداني امتلأ من روح القدس وهو في بطن أمه، وفي «التوراة»: قال الله تعالى لموسى ﷺ: اختر سبعين من قومك حتى أفيض عليهم من الروح التي عليك فيحملوا عنك ثقل هذا النعت، ففعل فأفاض عليهم من روحه فتبنوا لساعتهم، وفيها في حق يوسف ﷺ: يقول الملك: هل رأيتم مثل هذا الفتى الذي روح الله تعالى ﷻ حالٌّ فيه، وفيها أيضًا: إن روح الله تعالى حلت على دانيال إلى غير ذلك[2].

وهذه بعض الأمثلة:

---

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٣/ ٤٠).

(٢) روح المعاني (٦/ ٢٥).

فَخَلَّصَهُمْ، عُثْنِيئِيلَ بْنَ قَنَازَ أَخَا كَالِبَ الأَصْغَرَ. ١٠فَكَانَ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ (سفر القضاة ٣/ ١٠: ٩).

وَلَبِسَ رُوحُ الرَّبِّ جِدْعُونَ (سفر القضاة ٦٣/ ٣٤).

فَكَانَ رُوحُ الرَّبِّ عَلَى يَفْتَاحَ (سفر القضاة ٦٣/ ٣٤).

فَحَلَّ رُوحُ الله عَلَى شَاوُلَ (صموئيل الأول ١١/ ٦).

وَكَانَ رُوحُ الله عَلَى عَزَرْيَا بْنِ عُودِيدَ (أخبار الأيام الثاني١٥/ ١).

فكل من أطلق عليه روح الله أو الرب يصبح إلهًا أو ابنًا على زعمكم، إذن فالإله والأبناء كثيرون!.

* * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (النساء: ١٥٩) كيف يصح ذلك والكثير منهم مات على كفره؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام بعد نزوله وقبل موته.

الوجه الثاني: إيمان الكتابي قبل موت الكتابي نفسه.

الوجه الثالث: إيمان الكتابي بمحمد ﷺ.

واليك التفصيل

الوجه الأول: إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام بعد نزوله وقبل موته.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

لما أنجز الكلام إلى أمر عيسى عليه السلام على هذا المنهاج البديع بما ذكر في نصائح اليهود، وقبائح أفعالهم، وأنهم قصدوا قتله عليه السلام فخاب قصدهم، ورد عليهم بغيهم، وحصل له بذلك أعلى المناصب، وأولى المراتب، قال محققًا لما أثبته في الآية قبلها من القطع بكذبهم، مثبتًا أنهم في مبالغتهم في عداوته سيكونون من أتباعه المصدقين بجميع أمره الذي منه التصديق بمحمد ﷺ، مؤكدًا له أشد التأكيد لما عندهم من الإنكار له (وإنَّ) أي: والحال أنه ما (من أهل الكتاب) أي أحد يدرك نزوله في آخر الزمان إلا وعزتي ليؤمنن بعيسى عليه السلام(قبل موته) أي موت عيسى عليه السلام إي إنه لا يموت حتى ينزل في آخر الزمان، يؤيد الله دين الإسلام حتى يدخل فيه جميع أهل الملل إشارة إلى أن موسى عليه السلام إن كان قد أيده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زمنًا طويلًا، فالنبي الذي نسخ شريعة موسى وهو عيسى عليه السلام هو الذي يؤيد الله به هذا النبي العربي في تجديد شريعته، وتمهيد أمره، والذب عن

دينه، ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة، وأتباع مستكثرة، أمر قضاه الله في الأزل فأمضاه، فأطيلوا أيها اليهود أو اقصروا، فيكون المعنى إذن والله أعلم:

أنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين في عيسى عليه السلام على شك إلا وهو يوقن بعيسى عليه السلام قبل موته بعد نزوله من السماء أنه ما قتل وما صلب، ويؤمن به عند زوال الشبهة، والله أعلم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، وإمامًا عادلًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها" وفي رواية: "وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين" وفي رواية: "حتى يهلك الله الملل كلها غير الإسلام" فيهلك الله في أمانه الملل كلها إلا الإسلام، يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ موت عيسى عليه السلام ـ ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات ـ ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعوه إلى المال فلا يقبله أحد" وفي رواية: "يفيض المال حتى لا يقبله أحد"[1]، ولمسلم عنه رضي الله عنه: "كيف بكم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟" وفي رواية: "فأمّكم منكم".

قال الوليد بن مسلم أحد رواة الحديث: قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت تخبرني قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ.[2]

ولمسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال سمعت النبي ﷺ يقول: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ- فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ"[3].

الوجه الثاني: إيمان الكتابي قبل موت الكتابي نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦)، ومسلم (٢٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧)، انظر تفسير الطبري (٩/ ٣٨٣).

قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن تزهق روحه قبل موته، أي: قبل موت الكتابي نفسه، وذلك؛ لأن من نزل به الموت من أهل الكتاب لا يموت حتى يتجلى له ما كان جاهلًا فيؤمن عند ذلك بعيسى عليه السلام، فما من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند الموت قبل خروج روحه بعيسى عليه السلام، وأنه عبد الله وابن أمته، ولكن لا ينفعه هذا الإيمان؛ لأنه في حضرة الموت وحالة النزع، وتلك الحالة لا حكم لما يفعل أو يقال فيها، فلا يصح فيها إسلام، ولا كفر، ولا وصية، ولا بيع، ولا عتق، ولا غير ذلك من الأقوال؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ (النساء: ١٨)

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (غافر: ٨٤ – ٨٥)، وكذلك لما أدرك فرعون الغرق قال: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠)، فقال تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (يونس: ٩١)، فما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف.

فعن شهر بن حوشب: قال لي الحجاج آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شي منها – يعني هذه الآية– وقال: إني أُوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع من ذلك؟ فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه، وقالوا: يا عدو الله، أتاك موسى نبيًا فكذبت به؟ فيقول: آمنت أنه عبد نبي، وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبيًا فزعمت أنه الله أو ابن الله؟ فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه.

وعن ابن عباس قال: هي في قراءة أُبي: (قبل موتهم) فليس يهودي يموت أبدًا حتى يؤمن بعيسى، قيل لابن عباس: أرأيت إن خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي، فقيل: أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يتلجلج به لسانه، وقال أيضًا: كل صاحب كتاب ليؤمنن به – بعيسى- قبل موت صاحب الكتاب، لو ضربت عنقه لم تخرج حتى يؤمن بعيسى، وقال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم وإن ضرب بالسيف يتكلم به، وإن هو يتكلم به وهو يهوي، وقال: لو أن يهوديًا وقع من فوق البيت لم يمت حتى يؤمن بعيسى. ﷺ وقال: ليس من يهودي ولا نصراني يموت حتى يؤمن بعيسى ابن مريم، فقال له رجل من أصحابه: كيف والرجل يغرق أو يحترق أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع؟ فقال: لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الإيمان بعيسى[1].

وفائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم الوعيد، ويكون علمهم بأن لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة وأن ذلك لا ينفعهم بعثًا لهم وتنبيهًا على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزامًا للحجة لهم[2].

الوجه الثالث: إيمان الكتابي بمحمد ﷺ.

قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ يحتمل أن يكون المعنى: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي.

قال عكرمة: لا يموت النصراني واليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ.

فمن فسر هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع،

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٠)، والتفسير الكبير (١١/ ١٠٤)، وابن كثير (٤/ ٣٤٢)، والآلوسي (٦/ ١٢)، والكشاف (١/ ٥٨٨).

(٢) الكشاف (١/ ٥٨٩).

وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلًا به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيمانًا نافعًا له إذا كان قد شاهد الملك كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ (النساء: ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (غافر: ٨٤ - ٨٥) ولا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أن يصير بذلك مسلمًا. . . الأثر - إلى قول ابن عباس -: ولو تردى من شاهق، أو ضُرب بسيف، أو افترسه سبع؛ فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى، فالإيمان به في مثل هذه الحالات ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمنا، والله أعلم[1].

* * * *

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢١)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٥).

سورة المائدة

وفيها:

١- شبهة: حول الأسباب التي منعت قوم موسى عليه السلام من دخول الأرض المقدسة.

٢- شبهة: حول قصة ابني آدم عليه السلام.

٣- شبهة: حول طلب الحواريين نزول المائدة. وبعدها نبذة عن العشاء الرباني.

١- شبهة: حول الأسباب التي منعت قوم موسى عليه السلام من دخول الأرض المقدسة.

نص الشبهة:

أن القرآن ذكر أن قوم موسى رفضوا دخول الأرض المقدسة لأسباب وهي:

أن فيها قومًا جبارين.

وأنهم طلبوا من موسى أن يخرج أهلها أولًا حتى يدخلوها.

وكذلك أنهم قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

مع أن التوراة لم تذكر شيئًا من ذلك، وكل ما هنالك في هذه القصة وفي هذه الاعتراضات: أنهم تذمروا على موسى وقالوا ليتنا متنا في مصر أو في القفر.. إلخ كما في سفر العدد (١٣، ١٤).

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن لأمور.

الوجه الثاني: القرآن كلام الله، وذكره للقصة يكفي ثبوتها.

الوجه الثالث: الكتاب المقدس يذكر دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة بالشروط التي ذكرها القرآن فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن لأمور منها:

١- ثبوت تحريف التوراة والإنجيل بالدليل القاطع.

٢- عدم إيماننا بما هو موجود الآن من هذه الكتب المحرفة، وهذه مسألة مفصلة في محلها فلتراجع[1].

ولو سلمنا بعدم التحريف؛ فالقرآن الكريم أتى بزيادة لم تأت بها التوراة فوجب قبولها.

الوجه الثاني: القرآن كلام الله، وذكره للقصة يكفي ثبوتها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

---

(١) انظر: مبحث "تحريف التوراة والإنجيل".

أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (المائدة: ٢٠-٢٦).

قال أبو جعفر الطبري: وفي قوله ﷻ: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ وهذا خبر من الله ﷻ عن جواب قوم موسى ؏ إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة: أنهم أبوا عليه إجابته إلى ما أمرهم به من ذلك، واعتلّوا عليه في ذلك بأن قالوا: إن في الأرض المقدسة التي تأمرنا بدخولها قومًا جبارين لا طاقة لنا بحربهم ولا قوة لنا بهم، وسموهم﴿جَبَّارِينَ﴾ لأنهم كانوا لشدة بطشهم وعظيم خلقهم ـ فيما ذكر لنا ـ قد قهروا سائر الأمم غيرهم.

فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾، يعنون: من الأرض المقدسة الجبارين الذين فيها جبنًا منهم وجزعًا من قتالهم، وقالوا له: إنْ يخرج منها هؤلاء الجبارون دخلناها، وإلا فإنا لا نُطيق دخولها وهم فيها؛ لأنه لا طاقة لنا بهم ولا يَدَ. ثم قال في قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذا خبر من الله جل ذكره عن قول الملأ من قوم موسى لموسى إذ رُغِّبوا في جهاد عدوهم، ووعدوا نصر الله إياهم إن هم ناهضوهم، ودخلوا عليهم باب مدينتهم أنهم قالوا: إنا لن ندخلها أبدًا، يعنون إنا لن ندخل مدينتهم أبدًا والهاء والألف من قوله له: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ من ذكر المدينة، ويعنون بقولهم: ﴿أَبَدًا﴾ أيام حياتنا،

﴿مَا دَامُواْ فِيهَا﴾ يعنون: ما كان الجبارون مقيمين في تلك المدينة التي كتبها الله لهم، وأمروا بدخولها، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ لا نجيء معك يا موسى إن ذهبت إليهم لقتالهم؛ ولكن نتركك تذهب أنت وحدك وربك فتقاتلانهم، وكان بعضهم يقول في ذلك: ليس معنى الكلام اذهب أنت وليذهب معك ربك فقاتلا؛ ولكن معناه اذهب أنت يا موسى وليعنك الله ربك وذلك أن الله لا يجوز عليه الذهاب[1].

قال ابن كثير: وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم؛ مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لتَقَرَّ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدّة أهلها وعَدَدِهِمْ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غَيِّهم يترددون، وهم البُغَضَاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨) فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود[2].

وإنا لنفخر بما كان عليه صحابة نبينا من طاعتهم لله ورسوله، وعدم إعراضهم عن الجهاد والقتال عمومًا، ويوم استشارهم النبي ﷺ في بدر خصوصًا.

قال ابن كثير: وما أحسن ما أجاب به الصحابة، ﷺ يوم بدر رسول الله ﷺ حين

---

(١) تفسير الطبري بتصرف يسير (٤/ ١٧٣-١٨٠)، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩-٦٠).

استشارهم في قتال النفير، الذين جاءوا لمنع العِير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في العُدة والبَيْض واليَلب[1]، فتكلم أبو بكر، ﷺ، فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول: "أشيروا عليَّ أيها المسلمون". وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ ﷺ كأنك تُعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو اسْتَعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضناه معك، وما تخلَّف منا رجل واحد، وما نَكْرَه أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطه ذلك[2].

وقد قال ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النبي ﷺ وَهْوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النبي ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ. يَعْنِي قَوْلَهُ[3].

الوجه الثالث: الكتاب المقدس يذكر دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة بالشروط التي ذكرها القرآن، فاعتبروا يا أولي الأبصار!

واقرأ كاملًا ـ إن أردت ـ سفر العدد إصحاح ١٣، ١٤ وفيه (١٣/ ٣١-٣٣): **وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ فَقَالُوا: «لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَصْعَدَ إِلَى الشَّعْبِ، لأَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَّا». ٣٢فَأَشَاعُوا مَذَمَّةَ الأَرْضِ الَّتِي تَجَسَّسُوهَا، فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا هِيَ أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا، وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِي رَأَيْنَا فِيهَا أُنَاسٌ طِوَالُ الْقَامَةِ. ٣٣وَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ، بَنِي عَنَاق مِنَ الْجَبَابِرَةِ. فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالْجَرَادِ، وَهكَذَا كُنَّا فِي**

---

(١) اليلب: هي الدروع أو التروس "لسان العرب"(٦/ ٤٩٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥).

(٣) البخاري (٣٩٥٢، ٤٦٠٩).

أَعْيُنِهِمْ (العدد١٤/ ٧: ١): فَرَفَعَتْ كُلُّ الْجَمَاعَةِ صَوْتَهَا وَصَرَخَتْ، وَبَكَى الشَّعْبُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. ٢وَتَذَمَّرَ عَلَى مُوسَى وَعَلَى هَارُونَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ لَهُمَا كُلُّ الْجَمَاعَةِ: «لَيْتَنَا مُتْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَوْ لَيْتَنَا مُتْنَا فِي هذَا الْقَفْرِ! ٣وَلِمَاذَا أَتَى بِنَا الرَّبُّ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ لِنَسْقُطَ بِالسَّيْفِ؟ تَصِيرُ نِسَاؤُنَا وَأَطْفَالُنَا غَنِيمَةً. أَلَيْسَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نَرْجعَ إِلَى مِصْرَ؟ » ٤فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «نُقِيمُ رَئِيسًا وَنَرْجعُ إِلَى مِصْرَ». ٥فَسَقَطَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَى وَجْهَيْهِمَا أَمَامَ كُلِّ مَعْشَرِ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٦وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ، مِنَ الَّذِينَ تَجَسَّسُوا الأَرْضَ، مَزَّقَا ثِيَابَهُمَا ٧وَكَلَّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا جَيِّدَةٌ جدًّا جدًّا.

أليس بعد كل هذا وأنهم ما فعلوا شيئًا إلا أنهم تذمروا، إنهم أبوا، إنهم اعترضوا، إنهم امتنعوا عن الدخول، إنهم ما لبُّوا لنداء الطاعة لله ولرسوله، إنهم أعلنوا العصيان كما هو دأبهم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

* * *

٢- شبهة: حول قصة ابني آدم عليه السلام.

نص الشبهة:

١-القرآن ذكر أن الغراب علَّم القاتل كيف دفن أخاه، والتوراة لم تذكر ذلك، وذلك من خرافات اليهود القديمة، وهل يعقل أن القاتل كان يجهل مثل هذا الأمر مدة حياته ولم ير طيرًا أو حيوانًا يوارى في التراب فيفعل مثله؟

٢-زعموا أن القرآن ذكر اسم ابني آدم عليه السلام وهما قابيل وهابيل والتوراة ذكرت قابين وهو الأصل، على أن القرآن يراعي السجع؛ والسجع مقدم عنده على الحقائق.

٣-زعموا أن القرآن مقتبس من التوراة، فالقصة ثابتة في التوراة اقتبسها القرآن وأضاف عليها؛ إذن القرآن لم يأت بجديد.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة والإنجيل على القرآن لأمور.

الوجه الثاني: القرآن ذكر قصة الغراب واضحة وصريحة فلا حجة للمنكر.

الوجه الثالث: القرآن لم يذكر اسمي ابني آدم عليه السلام.

الوجه الرابع: أمر حدث لأول مرة وهو القتل فترتب عليه احتياجه لدفنه، وما كان يعلم ذلك قط فأرسل الله الغراب يُعلم القاتل ما يفعل بالمقتول.

الوجه الخامس: الحكمة من بعث الله الغراب واختصاصه عن الطير.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة والإنجيل على القرآن لأمور كما تقدم .

الوجه الثاني: القرآن ذكر قصة الغراب واضحة وصريحة فلا حجة للمنكر.

والقصة كلها كما في سورة المائدة قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة ٢٧ - ٣١).

قال الطبري: فأثار الله للقاتل؛ إذ لم يدر ما يصنع بأخيه المقتول: ﴿ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يقول: يحفر في الأرض فيثير ترابها: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ يقول: ليريه كيف يواري جيفة أخيه، وقد يحتمل أن يكون عني بالسوأة الفرج، غير أن الأغلب من معناه ما ذكرت من الجيفة، بذلك جاء تأويل أهل التأويل، وفي ذلك محذوف ترك ذكره استغناءً بدلالة ما ذكر منه وهو: فأراه بأن بحث في الأرض لغراب آخر ميت فواراه فيها، فقال القاتل أخاه حينئذ: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب الذي وارى الغراب الأخر الميت: ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ فواراه حينئذ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ على ما فرط منه من معصية الله ـ عز ذكره ـ في قتله أخاه[1].

الوجه الثالث: القرآن لم يذكر اسمي ابني آدم عليه السلام

قالوا: إن اسم قابيل هو قابين كما هو في التوراة، وإنما قال القرآن قابيل لمراعاة السجع.

والجواب: إنما هذا الكلام يدل على جهل القائل فهو ما استطاع أن يفرق بين القرآن وكلام أهل التفسير على القرآن. فالقرآن لم يذكر اسمي ابني آدم عليه السلام وكذلك السنة الصحيحة، فلم يرد خبر صحيح بتسمية ابني آدم عليه السلام.

وقد قَالَ النبي ﷺ: "لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا" وَذَلِكَ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ[2].

وإنما هذه التسمية أشيعت بين أهل التاريخ والسير والتفسير.[3]

ونحن نسأل لم يثبت عندنا في القرآن ولا في السنة اسمي ابني آدم، وعندكم في نسخة لكتابكم يوجد "قايين" بياءين" وفي أخرى "قابين" بباء واحدة فأيها أصح؟

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٩٩).

(٢) البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) وقد تناقل أهل التاريخ والتفسير اسمي ابني آدم بدون دليل على ذلك من القرآن أو السنة. ذكر ذلك (الطبري في تفسيره، وابن كثير وغيرهما).

الوجه الرابع: أمر حدث لأول مرة وهو القتل فترتب عليه احتياجه لدفنه، وما كان يعلم ذلك قط فأرسل الله الغراب يُعلِّم القاتل ما يفعل بالمقتول.

زعموا وقالوا: وهل يعقل أن القاتل كان يجهل مثل هذا الأمر (أي الدفن) مدة حياته ولم ير طيرًا أو حيوانًا يوارى في التراب فيفعل مثله؟

والجواب كما يلي:

إن كان من ناحية الشرع فالآية أوضحت ذلك وهو أنه لم يدر ماذا يفعل بأخيه فبعث الله الغراب فعلمه.

قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (المائدة: ٣١)، أما من ناحية العقل فهذا ليس ببعيد؛ إذ هي أول حالة قتل ولا يدري ماذا يفعل فيها. وقياس الإنسان على الحيوان في مسألة الدفن قبل أن يعلم ـ إن سلمنا جدلًا أن الحيوان أو الطير يدفن ـ قياس بعيد، كيف يقاس إنسان على حيوان؟

فهو لو كان يعلم أن الطير أو الحيوان يدفن؛ لكان ذلك أيضًا بعيدًا عليه.

نقول ذلك في حالة إن كان الطير أو الحيوان يدفن، وأيضًا يجاب عن كلامهم أنه في الغالب أن الحيوان والطيور إن ماتت لا تدفن فكيف لا وهي في بداية الحياة؟

فكثير من الأماكن إذا مات عندهم طير أو حيوان تركوه وما دفنوه، تركوه للسباع فيأكلوه.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: لما كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم ﷺ، ولما كان هذا النوع من الخلق " أي الإنسان " موكولًا إلى كسبه واختياره في عامة أعماله؛ لم يعرف القاتل كيف يواري جثة أخيه المقتول التي يسوءه أن يراها بارزة ـ فالسوءة ما يسوء ظهوره، ورؤية جسد الميت ولا سيما المقتول يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه ـ وأما سائر أنواع الحيوان فتلهم عمل لا تحتاج إليه إلهاما في الأكثر، وقلما يتعلم بعضها من بعض شيئًا. وقد علمنا الله ـ تعالى ـ أن القاتل الأول تعلم دفن أخيه من الغراب.

ويدلنا على أن الإنسان في نشأته الأولى كان في منتهى السذاجة، وأنه لاستعداده الذي يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شيء علمًا واختبارًا ويرتقي بالتدرج.

ذلك أن الله تعالى بعث غرابًا إلى المكان الذي هو فيه فبحث في الأرض أي حفر برجليه فيها يفتش عن شيء، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الأرض؛ لأنه قال ﴿يَبْحَثُ﴾ ولم يقل بحث؛ لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما أطال البحث أحدث حفرة في الأرض فلما رأى القاتل الحفرة ـ وهو متحير في أمر مواراة سوءة أخيه ـ زالت الحيرة واهتدى إلى ما يطلب؛ وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض، هذا هو المتبادر من الآية.

وقال أبو مسلم: إن من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئًا فتعلم من ذلك وهذا قريب أيضًا، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إن الله بعث غرابين لا واحدًا، وأنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها. [1]

الوجه الخامس: الحكمة من بعث الله الغراب واختصاصه عن الطير.

قال أبو الهيثم: يقال: إن الغراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره. والحكمة في أن الله ﷻ بعث إلى قابيل لما قتل أخاه هابيل غرابًا ولم يبعث له غيره من الطير، ولا من الوحش أن القتل كان مستغربًا جدًّا، إذ لم يكن معهودًا قبل ذلك فناسب بعث الغراب. [2]

وأخيرًا: أما عن زعمهم أن القصة مقتبسة من التوراة فيجاب عليها بهذه المقارنة بين نص القرآن ونص التوراة في قصة ابني؛ آدم لتجد الفارق بينهما، وأن القرآن له صياغته الإعجازية: [3]

أولًا: نص القرآن: قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٣٤٦).

(٢) نقلًا من حياة الحيوان الكبرى للدميري (٢/ ٣٤).

(٣) راجع شبهة القرآن مقتبس من التوراة.

لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (المائدة: ٢٧ - ٣٢).

ثانيًا نص التوراة: سفر التكوين ٣/٤: ١٦

٨ وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، ٤وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، ٥وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. ٦فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا اغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ ٧إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا». وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. ٩فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟» ١٠فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. ١١فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. ١٢مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ». ١٣فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. ١٤إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهًا وَهَارِبًا فِي الأَرْضِ، فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي». ١٥فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «لِذلِكَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلاَمَةً لِكَيْ لاَ يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. ١٦فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ.

الفروق بين المصدرين: اتفق المصدران حول نقطتين اثنتين لا ثالث لهما، واختلفا فيما عداهما. اتفقا في مسألة القربان، وفى قتل أحد الأخوين للآخر. أما فيما عدا هاتين النقطتين فإن ما ورد في القرآن يختلف تمامًا عما ورد في التوراة، **وذلك على النحو الآتي:**

القرآن	التوراة
لايسميهما ويكتفي ببنوتهما لآدم كما اكتفى بذكر القربانين ولم يحددهما.	تسمى أحد الأخوين بقابين وهو " القاتل " والثاني " هابيل " كما تصف القربانين وتحدد نوعيهما.
لا يذكر حوارًا حدث بين القاتل وبين الله، ولا يذكر أن القاتل طرده الله من وجهه إلى أرض بعيدة، إذ ليس على الله بعيد.	تروى حوارًا بين قابين والرب بعد قتله أخاه، وتعلن غضب الرب على قابين وطرده من وجه الرب إلى أرض بعيدة.
يذكر الحديث الذي دار بين ابني آدم، ويفصل القول عما صدر من القتيل قبل قتله وتهديده لأخيه بأنه سيكون من أصحاب النار إذا قتله ظلمًا.	التوراة تخلو من أي حوار بين الأخوين.
يذكر مسألة الغراب، الذي بعثه الله لِيُرى القاتل كيف يتصرف في جثة أخيه، ويوارى عورته.	لا مقابل في التوراة لهذه الرواية ولمْ تُبَيِّنْ مصير جثة القتيل؟!
يصرح بندم " القاتل " بعد دفنه أخاه وإدراكه فداحة جريمته.	تنسب الندم إلى " قابين " القاتل لما هدده الله بحرمانه من خيرات الأرض، ولا تجعله يشعر بشناعة ذنبه.
يجعل من هذه القصة هدفًا تربويًا ويبنى شريعة القصاص العادل عليها،	لا هدف لذكر القصة في التوراة إلا مجرد التاريخ، فهي معلومات ذهنية خالية

ويلوم بني إسرائيل على إفسادهم في الأرض بعد مجيء رسل الله إليهم.	من روح التربية والتوجيه، أضف إلى هذه ما تحتوى عليه التوراة من سوء مخاطبة " قابين" الرب، فترى في العبارة التي فوق الخط: " أحارس أنا لأخي " فيها فظاظة، لو صدرت من إنسان لأبيه لعد عاقًّا جافًا فظًّا غليظًا فكيف تصدر من " مربوب " إلى " ربه " وخالقه. . ؟!

ولكن هكذا تنهج التوراة، فلا هي تعرف قدر الرب ولا من تنقل عنه حوارًا مع الرب، ولا غرابة في هذا، فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه بأن يرجع عن غضبه على بنى إسرائيل؛ بل تهديده إياه ـ سبحانه ـ بالاستقالة من النبوة إذا هو لم يستجب لأمره.

وأيضًا هذه بعض الأسئلة:

١-بمقابلة أكثر من نسخة تجد اختلافًا في الألفاظ والكلمات، فبعد هذا الاختلاف يكون كتابًا مقدسًا؟! ؟! ! !

مثلًا في أول الكلمات – عرف آدم حواء امرأته فجعلت له – وفي أخرى – وعاشر آدم حواء زوجته فجعلت.

٢- نسخة اسم ابن آدم القاتل قايين " بياءين " وفي أخرى بياء واحدة "قابين" فأيها أصح؟!

والواقع أن ما قصَّهُ علينا القرآن – وهو الحق- من أمر ابني آدم مختلف تمامًا عما ورد في التوراة في هذا الشأن.

فكيف يقال: إن القرآن اقتبس هذه الأحداث من التوراة وصاغها في قالب البلاغة العربية؟!

إن الاختلاف ليس في الصياغة؛ بل هو اختلاف أصيل كما قد رأيت من جدول

الفروق المتقدم.

والحاكم هنا هو العقل، فإذا قيل: إن هذه القصة مقتبسة من التوراة، قال العقل:

* فمن أين أتى القرآن بكلام الشقيق الذي قُتِلَ مع أخيه، وهو غير موجود في نص التوراة التي يُدَّعى أنها مصدر القرآن؟!

* ومن أين أتى القرآن بقصة الغراب الذي جاء ليُري القاتل كيف يواري سوءة أخيه وهي غير واردة في التوراة المُدَّعى أصالتها للقرآن؟!

* ولماذا أهمل القرآن الحوار الذي تورده التوراة بين " الرب " وقابين القاتل، وهذا الحوار هو هيكل القصة كلها في التوراة؟!

* * *

٣- شبهة: حول طلب الحواريين نزول المائدة.

نص الشبهة:

١- طلب الحواريين نزول مائدة من السماء مذكور في القرآن وليس في الكتاب المقدس ما ينص على ذلك.

٢- المائدة التي في القرآن هي القرابين التي تقدم في كل قداس.

٣- هل كان الحواريون يشكون في قدرة الله ﷻ في إنزال مائدة من السماء؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن.

الوجه الثاني: قصة طلب الحواريين من عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء ثابتة بالقرآن الكريم.

الوجه الثالث: هل نزلت المائدة على عيسى عليه السلام والحواريين؟

الوجه الرابع: المائدة ليست القرابين التي يقدمونها في كل قداس كما يزعمون.

الوجه الخامس: هل كان الحواريون يشكون في قدرة الله ﷻ على إنزال مائدة السماء؟

واليك التفصيل

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن؛ فالكتاب المقدس محرف وهذا ما نؤمن به ولا نشك في ذلك.

فقد قالوا: إن الكتاب المقدس لم يذكر المائدة، والقرآن قد ذكرها، ونحن نقول: الأصل هو الكتاب الذي لم يحرف؛ هذه واحدة، والثانية: أنه لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس الموجود الآن؛ لأننا لا نؤمن به لتحريفه.

ومع ذلك فسنبين المواضع التي ذكرها الكتاب المقدس في ذكر المائدة لنبين وجودها، وهذا لا يكون استدلالاً؛ وإنما هو رد على كلامهم.[1]

---

(١) راجع مبحث (لا يجوز للنصارى الاحتجاج بالقرآن)، وكذلك مبحث تحريف الكتاب المقدس وأدلته.

الوجه الثاني: قصة طلب الحواريين من عيسى ﷺ أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء ثابتة بالقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة: ١١٢ـ ١١٥).

قال ابن كثير: هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: "سورة المائدة". وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى ﷺ لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة[١].

الوجه الثالث: هل نزلت المائدة على عيسى ﷺ والحواريين؟

اختلف أهل العلم في نزول المائدة من عدمه، والجمهور على أنها نزلت لقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ١١٥)، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

قال ابن جرير: بعدما ذكر اختلاف أهل التأويل في"المائدة"، هل أنزلت عليهم، أم لا؟ ، فإن الله ﷻ لا يخلف وعدَه، ولا يقع في خبره الخُلْف، وقد قال ـ تعالى ذكره ـ مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وغير جائز أن يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ثم لا ينزلها؛ لأن ذلك منه -تعالى ذكره -خبر، ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر، ولو جاز أن يقول: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم لا ينزلها عليهم، جاز أن يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٠).

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذّبه، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة. وغير جائز أن يوصف ربنا ـ تعالى ذكره ـ بذلك[1].

قال ابن كثير بعدما ذكر الخلاف: ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه ـ تعالى ـ أخبر بنزولها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.[2]

قال القرطبي: واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور ـ وهو الحق ـ نزولها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.[3]

الوجه الرابع: المائدة ليست القرابين التي يقدمونها في كل قداس كما يزعمون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قالوا: ثم مدح قرابيننا، وتوعدنا إن أهملنا ما معنا، وكفرنا بها أنزل إلينا أن يعذبنا عذابًا أليمًا لم يعذبه أحدًا من العالمين بقوله ذلك في سورة (المائدة: ١١٢ - ١١٥)، فالمائدة هي القربان المقدس الذي يتقرب به في كل قداس.

والجواب أن يقال: هذا كذب ظاهر على القرآن في هذا الموضع كما كذبتم عليه في غير هذا الموضع؛ فإنه ليس في الآيات ذكر قرابينكم البتة، وإنما فيه ذكر المائدة التي أنزلها الله تعالى في عهد المسيح ﷺ. وقولهم المائدة هي القربان الذي يتقرب به في كل قداس هو:

أولًا: قول لا دليل عليه.

وثانيًا: هو قول معلوم الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمد لفظه ومعناه، فإنهم متفقون على أن المائدة مائدة أنزلها الله من السماء على عهد المسيح

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٧).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٦).

عليه السلام، وقصتها مشهورة في عامة الكتب تعرفها العامة والخاصة، ولم يقل أحد إنها قرابين النصارى، وليس في لفظ الآية ما يدل على ذلك؛ بل يدل على خلاف ذلك؛ فإن الآية تبين أن المائدة منزلة من السماء، وقرابينهم هي عندهم في الأرض لم تنزل من السماء فهذه هي الآيات:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

الوجه الخامس: هل كان الحواريون يشكون في قدرة الله عز وجل على إنزال مائدة السماء؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى السؤال:

أن هذا السؤال ليس شكًا؛ وإنما كان طلبًا أيُجابُ أم لا، وهو طلب للطمأنينة.

قال القرطبي: وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري ـ سبحانه ـ؟ ، لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله ـ تعالى ـ لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر، فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة: ٢٦٠) وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٢٧ـ ١٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٢).

الوجه الثاني: قرأ الكسائي " هَلْ تستَطِيعُ رَبَّكَ" بالتاء فيكون المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك؟ فينفي الشك.

قال الطبري: واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين﴿هل تَسْتَطِيعُ﴾ بالتاء ﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب.

قلت: وهي قراءة الكسائي؛ وهي صحيحة متواترة من القراءات العشر الصحيحة.

بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك؟ وهل تستطيع أن تدعو ربك، أو هل تستطيع وترى أن تدعوه؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك. إنما قالوا لعيسى ﷺ: هل تستطيع أنت ذلك؟. [1]

قال ابن أبي مريم: ﴿هل تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بالتاء والنصب من ربك، قرأها الكسائي وحده، ووجه ذلك أن المراد هل تستطيع سؤال ربك؟ فحذف المضاف، ومعنى سؤالهم عن استطاعته مسألة الله أنه محمول على الاحتجاج منهم على عيسى ﷺ أي أنك مستطيع فما يمنعك؟ كما تقول لصاحبك هل تستطيع أن تذهب عني فإني مشغول. أي اذهب فإنك غير عاجز عن ذلك، فكذلك قولهم هل تستطيع سؤال ربك؟ أي: إنك مستطيع فاسأل. [2]

الوجه الثالث: قيل إن سؤالهم كان في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله ﷻ فيكون المعنى هل يقدر ربك؟

قال القرطبي: وقيل المعنى: هل يقدر ربك؟ وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله ﷻ، ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله ـ تعالى ـ.

قلت ـ أي القرطبي ـ: وهذا فيه نظر؛ لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ (الصف: ١٤)، وقال

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٢٩)، و القرطبي (٦/ ٣٤٢).

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم (١/ ٤٥٥).

النبيﷺ: " لكل نبي حواري وحواريِّ الزبير "[١]، ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى، وما يجب له وما يجوز، وما يستحيل عليه، وأن يبلغوا ذلك أممهم، فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله ـ تعالى ـ؟. [٢]

قيل: إن الاستطاعة بمعنى الإطاعة، والمعنى: هل يطيعك ويجيب دعاءك ربك إذا سألته ذلك؟. [٣]

قال الشيخ محمد رشيد رضا: إن الاستطاعة هنا بمعنى الطاعة، والمعنى: هل يطيعك ويجيب دعاءك ربك إذا سألته ذلك؟ وربما ظن الأكثرون أن هذا الوجه الأخير تكلف بعيد وليس كذلك؛ فالاستطاعة استفعال من الطوع وهو ضد الكره. قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ (فصلت: ١١)

وفي لسان العرب: الطوع نقيض الكره. طاعه ويطوعه وطاوعه والاسم الطواعة والطواعين.

ثم قال: ويقال: طعت له وأنا أطيع طاعة ولتفعلنه طوعًا أو كرهًا، وطائعًا أو كارهًا وجاء فلان طائعًا غير مكره.

قال ابن سيده: طاع يطاع وأطاع لان وانقاد وأطاعه إطاعة وانطاع له كذلك، فيفهم من هذا أن إطاعة الأمر فعله عن اختيار ورضا، ولذلك عبر به عن امتثال أوامر الدين؛ لأنها لا تكون دينًا إلا إذا كانت عن إذعان ووازع نفسي، والذي أفهمه أن الاستفعال في هذه كالاستفعال في مادة الإجابة فإذا كان (استجاب له) بمعنى أجاب دعاءه أو سؤاله فمعنى استطاعه أطاعه أي: انقاد له وصار في طوعه أو طوعًا له.

والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيها وهو الطلب، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف فأصل استطاع الشيء: طلب وحاول أن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٥).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٢).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٢٩)، وانظر وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم.

يكون ذلك الشيء طوعًا له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب سُئِلَ شيئًا وطُلِبَ منه أن يُجيب إليه فأجاب.

فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين أن (يستطيع) بمعنى يطيع، وأن معنى يطيع يفعل مختارًا راضيًا غير كاره فصار حاصل معنى الجملة، هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك؟ (١)

الوجه الرابع: قيل: إن هذا من قول من كان مع الحواريين من الجهال.

قال القرطبي: جوز أن يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي ﷺ: " اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط "(٢)، وكما قال من قال من قوم موسى عليه السلام: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾. (٣)

وأخيرًا طلب الحواريين من يسوع مائدة يأكلون منها، وقصة العشاء الرباني كما في الكتاب المقدس عند النصارى.

أولًا: طلب الحواريين من يسوع مائدة يأكلون منها:

في إنجيل يوحنا (٦/ ٣٠: ٣٢) أنهم طلبوا آية من السماء: **فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ ٣١آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا». ٣٢فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ.**

إنهم طلبوا مائدة من السماء؛ لأنهم قالوا: آباؤنا أكلوا المن في البرية بعد قولهم فأية آية تصنع لنرى و نؤمن **بك.**

واستدلوا على أكل آبائهم للمن بقولهم مكتوب في التوراة: أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا وهذا يدل على أن آبائهم أكلوا المن والسلوى في سيناء.

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٧/ ٢٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢١٠٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٤٠٨).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٢)، وتفسير المنار (٧/ ٢٥٠).

والنص هو: و أمطر عليهم منا للأكل و بر السماء أعطاهم (مزمور ٧٨/ ٢٤).

فهل نزل المن من السماء وقد سماه داود ﷺ مائدة في قوله عنهم: قالوا هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية (مزمور ٧٨/ ١٩).

فمعنى نزوله من السماء أنه من جهة الله لا من جهة إله آخر.

ونص إنجيل يوحنا يبين أنهم طلبوا مائدة من السماء، ذلك أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا. وقول المعترض (ولعل قصة القرآن عن نزول مائدة من السماء. . .) نشأت من عدم فهم بعض آيات الإنجيل الوارد في متى ٢٦/ ٢٠: ٢٩، ومرقس ١٤/ ١٧: ٢٥، يوحنا ١٣/ ١: ٣٠

قصة العشاء الرباني الذي رسمه المسيح تذكارًا لصلبه.

ولعل الكلام السابق الذي ذكرناه يرد على قوله هذا.

وثم أمر آخر وهو كأنه يريد أن يصرف المسلمين وغيرهم عن موضع المائدة في الأناجيل؛ لأنها كلام صدر عن المسيح في شأن نبينا محمد ﷺ[1] كما في إنجيل يوحنا.

وأخيرًا كيف ينكرون المائدة مع أنهم يحتفلون بها ولهم عيد يسمى بعيد المائدة؟ [2]

قال ابن تيمية: الخميس الذي يسمونه الخميس الكبير يزعمون أن في مثله نزلت المائدة التي ذكرها الله في القرآن حيث قال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (المائدة: ١١٤) فيوم الخميس هو يوم عيد المائدة. [3]

ثانيًا: قصة العشاء الرباني. [4]

---

(١) راجع إنجيل يوحنا الإصحاح السادس.

(٢) في الأسبوع الأخير من صيامهم يعظمون هذا الأسبوع فيسمون الخميس بالخميس الكبير والجمعة بالجمعة الكبيرة.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢١٤).

(٤) باختصار من كتاب (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) د/ أحمد علي عجيبة.

العشاء الرباني من أهم أسرار المسيحية، ولذلك دعي عندهم سر الأسرار، وسمِّي أسرار الكنيسة، ولقد أطلق النصارى على هذا السر أسماء كثيرة فهو (سر الشكر)، (العشاء الرباني) (العشاء السري)، (العشاء الإلهي)، (مائدة الرب)، (مائدة المسيح)، (والمائدة السرية)، (خبز الرب)، (وكأس الحياة الخلاصية)، إلى غير ذلك من الأسماء.

وأنسب العبارات للإشارة إلى هذا السر في كلام الإنجيليين: (عشاء الرب)، أو(العشاء الرباني)، أو(مائدة الرب)، وكسر الخبز.

بينما أنسب العبارات بالنسبة للكاثوليك (الأفخارستيا)، وعند الأرثوذكس(القربان)، أو (التناول)، أو (الشكر).

وهذا السر يعرف عند النصارى بتعريفات مختلفة، والاختلاف راجع إلى اختلافهم حول غاية العشاء الرباني.

الإنجيليون يعرفونه بأنه سر يدل على موت المسيح بإعطاء خبز وخمر، وقبولها حسبما رسم المسيح، والقابلون باستحقاق يتناولون جسده ودمه مع جميع فوائده لا تناولًا جسميًا أو جسديًا؛ بل تناولًا روحيًا بالإيمان.

أما الكاثوليك فيعرفونه بأنه سر حضور ربهم يسوع حضورًا حقيقيًا بجسده ودمه ونفسه ولا هوته تحت أعراض الخبز والخمر، والخبز في نظرهم يتحول إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه.

أما الأرثوذكس فيعرفونه بتعريف يشبه تعريف الكاثوليك، وذلك لأنهم متفقون في الغاية من العشاء الرباني.

فالإنجيليون يرون أن حضور المسيح وقت تناول العشاء الرباني حضورًا روحيًا، أما الكاثوليك والأرثوذكس فيرون أن المسيح يحضر هذا السر وقت الاحتفال به حضورًا حقيقيًا، وأن الخبز يتحول إلى جسد المسيح، والخمر يتحول إلى دمه تحولًا حقيقيًا، وذلك أمر غريب في العقل لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهوله؛ بل لا يستطيع أن

يستسيغه قط؛ إذ كيف يتحول الخبز لحمًا، وكيف يصير لحم شخص معين معروف؟ وكيف تتحول الخمر دمًا وتصير دم شخص معين معروف؟

ذلك غريب؛ بل مستحيل التصور والقبول في العقل.

- **العناصر التي تستعمل في العشاء الرباني:**

الخبز والخمر هما عنصرا العشاء الرباني، وقد اختارهما المسيح في نظرهم؛ لأنهم هما مادتان بسيطتان تشيران إلى جسده ودمه.

وقد استدل المسيحيون على ذلك بما جاء في إنجيل متى: وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز بارك و كسر و أعطى التلاميذ، و قال: **خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي». ٢٧وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلًا: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ.** (متى ٢٦/ ٢٦: ٢٧).

وقد اختلفت الكنائس حول استعمال الفطير في العشاء الرباني بدلًا من الخبز، ونشأت بينها منازعة شديدة حول هذا الموضوع في القرن الحادي عشر فالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية رفضت؛ لأنه حُسِبَ عندها من الموائد اليهودية التي ليسوا هم ملتزمين بها بعد.

أما الكنيسة الغربية (الكاثوليك) فقد حكمت بمناسبة استعمال الفطير بأنه النوع الوحيد الجائز استعماله باعتبار قانون الكنيسة، غير أن استعمال خبز الخمير يجوز بمعنى أن ذلك لا يفسد السر.

ولم يزل كل منهما باعتقاده القديم إلى اليوم.

- **فاعلية تناول العشاء الرباني في نظر النصارى.**

اشتهر في تاريخ الكنيسة في هذه المسألة أربعة أقوال، وهي بإيجاز:

أولًا: تعليم زوينكلي، وهو أن العشاء الرباني مجرد علامة محسوسة تشير إلى موت المسيح بدون أن يكون فيه أدنى فاعلية في حد ذاته، ولا يحضر فيه المسيح على الإطلاق لا جسديًا ولا روحيًا؛ فيكون بذلك تذكارًا لموت المسيح وشهادة الإيمان المشترك.

ثانيًا: تعليم مارتن لوثر، وهو أن العشاء الرباني له فاعلية حقيقية ذاتية، وتأثير فاعلي

في كل من يقبله، وهذا القول ناتج عن القول بحلول المسيح جسديًا بكيفية خارقة للعادة في الخبز والخمر.

وهذا لا يعقل ولذا يقال لهم. هل المسيح الإله هو الذي حل في الخبز والخمر أم المسيح الإنسان؟

إذا كان المسيح الإله فيلزمكم على هذا القول أن يشار إلى الخبز والخمر على أنهما قديمان حديثان؟ وهو محال، ويلزمكم أيضًا على إثبات القدم للخبز والخمر، فيكونوا قد قالوا: لا بثلاثة أقانيم بل خمسة أقانيم، أما إذا قالوا إن المسيح الإنسان هو الذي حل في الخبر والخمر؛ فهو باطل أيضًا إذ لا يمكن أن يحل جسد المسيح ودمه في الخبز والخمر في أماكن متعددة في وقت واحد.

ثالثًا: تعليم الكنيسة الكاثوليكية وتشاركها الأرثوذكسية مع اختلاف يسير، وهو أن العشاء الرباني نعمة ذاتية لا إشارة إليها وأنه واسطة فعالة في إيصال النعمة إلى قلوب المشتركين (فعلًا ومفعولًا)، وأن نوال الفائدة لا يتوقف على إيمان المشترك؛ بل إنما يقتضي عدم مقاومته لذلك السر. وهذا القول ناتج عن القول بأن الخبز والخمر يستحيلان بطريقة حقيقية إلى جسد المسيح ودمه.

فهم يعتقدون أيضًا أن العشاء الرباني بجانب أنه سرفهو أيضًا ذبيحة تقدم لله بمعنى أنه تكرار ذبيحة المسيح بتقديم جسده ودمه كفارة عن الخطيئة.

ولقد ثار أحد النصارى على هذا التعليم، فقال: إنني أتساءل كيف يتصور إنسان عاقل أن خدام الله يذبحون سيدهم؟ إن الوثنية بكل شرورها وانحرافها وما وصلت إليه من حالة مزرية ومؤسفة لم تعلم مثل هذه التعاليم.[1]

رابعًا: تعليم كلفن، يرى أن قوته وفاعليته روحيه.

- **تأثر النصارى بالأديان الوضعية في العشاء الرباني**

كان الوثنيون يمارسون طقوسًا كثيرة من بينها فكرة (الوليمة المقدسة)يدعون فيها بالأكل من لحوم آلهتهم والشرب من دمائهم لكي تكون فيهم. (أي في أجسادهم صفات

---

(١) وقد رد الشيخ رحمت الله الهندي في كتاب إظهار الحق على هذا التعليم بردود قوية فلتراجع (٣٢٦: ٣٣٧).

وقوة آلهتهم) فكانت فكرة التناول منتشرة بين: الهنود، والفارسيين، واليونانيين، والرومانيين، وغيرهم، ولذلك يمكن القول أن العشاء الرباني أصله شعيرة وثنية استقته المسيحية من الأديان الوثنية الشرقية واليونانية، والتي كانت منتشرة وقت ظهور المسيحية، وهي التي كان يطلق عليها اسم الأديان السرية، وذلك بواسطة بولس وأتباعه.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن الاسم نفسه مأخوذ من الوثنية.

يقول أرنولد توينبي: والعشاء الرباني المسيحي قد استعير اسمه من أحد الطقوس الرومانية الوثنية حين ينذر المجند نفسه للجيش الروماني. [1]

* * *

(١) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية د/ أحمد علي عجيبة من (٦١٠ - ٦٢١) باختصار وبتصرف يسير.

سورة الأنعام

وفيها:

١- شبهة: حول خلط الأسماء.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾.

٣- شبهة: حول التهرب من المعجزات.

١- شبهة: حول خلط الأسماء.

نص الشبهة:

جاء في سورة الأنعام (٨٤-٨٦) قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

والسؤال: كيف صُفت هذه الأسماء بلا نظام، ولا ترتيب، بما فيها من تقديم وتأخير يدعو للتشويش والخلط؟ فما الداعي لذكر داود وسليمان قبل أيوب ويوسف وموسى وهارون، وما الداعي لذكر زكريا ويحيي وعيسى قبل إلياس؟ وما الداعي لذكر إسماعيل بعد إسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس، وما الداعي لذكر اليسع ويونس قبل لوط؟ مع أن الترتيب التاريخي معروف قبل القرآن بمئات السنين، وهو: أيوب في بلاد عوص. وإبراهيم وابن أخيه لوط وابناه إسماعيل وإسحاق وحفيده يعقوب وابن حفيده يوسف ومن بعدهم موسى وهارون. ومن بعدهم داود وسليمان ابنه. ومن بعدهما إلياس واليسع تلميذه. ومن بعدهما يونس. هؤلاء كلهم في العهد القديم ومن بعدهم زكريا ويحيى وعيسى في العهد الجديد.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن حرف الواو لا يوجب الترتيب.

الوجه الثاني: أنه يوجد في هذه الآية ترتيب.

الوجه الثالث: خلط الأسماء في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حرف الواو لا يوجب الترتيب.

إن حرف الواو لا يوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية؛ فإن

حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان[١].

الوجه الثاني: يوجد في هذه الآية ترتيب

يوجد في هذه الآية ترتيب، وذلك لأن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطي داود وسليمان من هذا الباب نصيبًا عظيمًا.

المرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.

المرتبة الثالثة: من كان مستجمعًا لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

المرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات، وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة، والصولة الشديدة، وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقرب العظيم، والتكريم التام وذلك كان في حق موسى وهارون.

المرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق وذلك كما في حق زكريا ويحيي وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله تعالى بأنهم من الصالحين.

المرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم بين الخلق أتباع، وأشياع، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط.

فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه. [٢]

الوجه الثالث: خلط الأسماء في الكتاب المقدس.

نبدأ بخلط أسماء في نسب يسوع نفسه الذي يعتبرونه إلهًا أو أُقنومًا أو كليهما، والله المستعان:

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٣/ ٦٤)، وانظر تفسير القاسمي (٦/ ٦١٣).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٣/ ٦٤)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٧٦)، ومحاسن التأويل (٦/ ٦١٣)، و تفسير المنار (٧/ ٥٨٧)، والخازن (٢/ ١٣٢).

و نبدأ بسؤال: هل للإله نسب؟

و الإجابة: نعم، يكون للإله نسب إذا كان إلهًا مزيفًا من صنع البشر مثل اللات، و هبل، و قيصر، وفرعون، كل هؤلاء لهم نسب الآلهة الباطلة ممكن أن يكون لها نسب، في حالة المسيح ـ كما سنرى ـ فإن له أكثر من نسب، والأمر واضح إذا وجدت من يكتب نسبًا لربه فاعرف مباشرة أن هذا الرب مزيف، لا يحترمه من يكتب له نسبًا؛ بل أظن أنه في داخله لا يؤمن أنه إله على الإطلاق.

وتناقضات نسب المسيح و خلط الأسماء مذكورة في كتب كثيرة سنذكر واحد منها فقط هنا:

١ـ متّى يقول: يوسف بن يعقوب، و لوقا يقول: يوسف بن هالي.

لاحظ أن الشخص المذكور نسبه المتناقض هنا هو يوسف النجار رجل مريم، وهذا من أفحش الأخطاء و أشنعها، يبدأ بذكر نسب المسيح وينتهي بيوسف النجار؛ فأي تخبط أسوأ من هذا؟

ولا ندرى كيف يمكن "لابن الله" أن يكون ابن داود من ناحية زوج أمه؟ ألا يعزز هذا اتهام اليهود لأمه والعياذ بالله، عليهم جميعًا من الله ما يستحقون.

و لوقا أو بمعنى أدق كاتب إنجيل لوقا تنبه لهذا العجب فحاول تصحيحه فجاء كما يقول المثل: (يكحلها فعماها) أو زاد الطين بلة، فقال: "على ما كان يظن ابن يوسف" و لا ندري من هم الذين ظنوا ذلك إلا اليهود أعداء المسيح الذين اتهموه بأنه ابن غير شرعي ليوسف النجار، و بناء على هذا الاتهام الفاسد ينسبه لوقا إلى يوسف ويتبع كلامهم كأنه يريد أن يثبت التهمة ـ يعني لوقا ـ يقول: هذا نسب المسيح على حسب ظن الناس، و بديهي أنه لا يمكن الأخذ برواية أيٍّ من متى أو لوقا عن النسب المزعوم هذا، و لو اعتبرنا أحدهما صحيحًا لكان الآخر مخطئًا بلا شك.

التناقض: يقول البطريرك شنودة في كتاب سنوات مع أسئلة الناس (٦٣) باختصار: إن هالي هو أخو يعقوب الذي مات، وتزوج يعقوب أخوه امرأته و أنجب يوسف، ويذكر

دليلًا من الكتاب المقدس على وجهة نظره هذه وأن متى أخذ النسب الطبيعي، و لوقا أخذ النسب الشرعي.

وكذلك يقول القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره، و يوافق البابا تمامًا ويضيف: أن هذا النسب حسب الدم واللحم (في صفحة(٤١)، و هذا باطل فلا علاقة دم، ولحم بين يوسف و المسيح على الإطلاق، و موضوع النسب الطبيعي و النسب الصناعي تحتاج إلى فهامة، و اعتقد أنها لا تنطلي على أحد.

و منيس عبد النور يختلف معهما ويقول: إن هالي هو والد مريم (في صفحة ٢٥٦)؛ لأن الشخص الواحد يحمل اسم أبوين أحدهما بالميلاد الطبيعى و الآخر بالمصاهرة، و يذكر دليلًا من العهد القديم هو أيضًا.

أما الدكتور إبراهيم سعيد في تفسير بشارة لوقا (٨٠) أوضح أن مريم حفيدة هالي طبقا لشهادة التلمود.

و في التفسير التطبيقي (٢٠٧٥)يقول: إن نسب متى هو من يوسف الأب الرسمي ليسوع وليس الأب الحقيقي، و نسب لوقا هو من مريم، ويضيف كاتب التفسير التطبيقي: لعل لوقا نقل هنا عن لسان مريم.

و في التفسير الحديث للكتاب المقدس لإنجيل متى بقلم ر. ت. فرانس (٧٠) يقول: "بالنسبة لما قيل من أن سلسلة نسب لوقا هي نسب مريم هو أمر غير محتمل "، و لم يوضح كيف يحل هذا التناقض.

والخلاصة: هناك من يقول: هالى أو يعقوب عم يوسف، وهناك من يقول جد مريم، وهناك من يقول والد مريم. أي أن تفسيرهم للتناقضات أصبح هو نفسه متناقض، و كل واحد من النصارى ينضح بعصارة مخه و تحليلاته الموثقة بما جاء في العهد القديم، لاحظ أن هذا تناقض واحد في خلط الأسماء في نسب يوسف النجار الذي ليس له علاقة أصلًا بالمسيح إلا في مخ متى و لوقا، و من نصدق! البابا، أو منيس عبد النور، أو التفسير

الحديث، أو إبراهيم سعيد؟! و ما فائدة ذكر نسب يوسف النجار في كتاب مقدس؟ ولماذا لا توحي الروح القدس لمتى هذا، أو لوقا بنسب المسيح من مريم مباشرة دون لف ودوران و أخطاء و تبريرات للأخطاء تزيد الموقف تعقيدًا؟ ثم تجد أحدهم يتحدث عن خلط الأسماء و لا يستحي.

و نستمر مع خلط الأسماء:

نجد في النصوص العبرية الواحدة اختلفت الأسماء واختلطت؛ بل حتى لتجد في إصحاحين متتابعين خلطاً شديداً في الأسماء، لنبدأ بعون الله:

ورد في يشوع (١ :٧) اسم "عخان" بالنون، بينما في أخبار واحد(٢: ٧) ورد هكذا"عخار" بالراء بدل النون.

ولنقارن الآن الأسماء:

في إصحاح ٨ من صموئيل الثاني وإصحاح ١٨ من أخبار الأول: - هدد عزر - هدرعزر -باطح -طبحة -بيروثاي ـ خون ـ توعي ـ توعو -يورام هدورام ـ آرام ـ أدوم ـ أخيمالك بن أبياثار ـ أبيمالك بن أبياثار ـ سرايا ثم شوشا فما رأي النصارى بهذا الخلط والتضارب؟ ؟ سرايا يتحول إلى شوشا؟ ؟

لنتابع: في أسماء الذين عادوا من السبي لو حللنا المسألة قليلاً - بغض النظر عن القول بالتعارض - نلاحظ أن:

ـ بني حاريف في نحميا(٧: ٢٤) هم بنو يورة في عزرا (٢: ٨)

ـ بني سيعا في (٧: ٤٧) هم بنو بنو سيعها في عزرا (٢: ٤٢)

فلا ندري من اختلط عليه الأمر هنا، هل هو عزرا أم نحميا؟ ؟

والآن المصيبة الكبرى: ففي سفر الأخبار الأول نجد أن الإصحاح ٨ يختلف مع الإصحاح الذي يليه أي مع الإصحاح ٩، لنتابع سويًا:

٣١-وجدور واخيو وزاكر. في الإصحاح الثامن.

٣٧-وحدور واخيو وزكريا ومقلوث. في التاسع.

نلاحظ هنا أنه قال: "حدور" بالحاء بدل"جدور" بالجيم.

ونلاحظ أنه قال: "زكريا" بدل "زاكر.

فهل يوجد من يشرح لنا لماذا هذا الاختلاف والخلط؟ ؟

٣٢ ـ ومقلوث ولد شماة.

٣٨-ومقلوث ولد شمآم. هل تلاحظوا، مرة "شماة" ومرة "شمآم"؟ ؟

٣٥-وبنو ميخا فيثون ومالك وتاريع وآحاز.

٤١-وبنو ميخا فيثون ومالك وتحريع وآحاز.

كذلك نفس الخلط المستمر، مرة يقول: "تاريع" ومرة يقول: "تحريع. . . .

٣٦ -وآحاز ولد يهوعدّة ويهوعدة ولد علمث وعزموت وزمري. وزمري ولد موصا

٤٢- وآحاز ولد يعرة ويعرة ولد علمث وعزموت وزمري. وزمري ولد موصا نفس المسلسل، "يهوعدة" أصبح "يعرة". لنكمل. . .

٣٧ -وموصا ولد بنعة ورافة ابنه والعاسة ابنه وآصيل ابنه

٤٣ -وموصا ولد بنعا ورفايا ابنه والعسة ابنه وآصيل ابنه.

هنا يقول مرة: "رافة" ومرة: "رفايا"، وسوف نغض النظر عن بنعة والعسة بالرغم من اختلافهم في العبرية، والذي يلفت النظر هنا أن الاختلاف هنا موجود بلغة واحدة وسفر واحد وفي إصحاحين متتاليين، أليس غريبًا هذا الخلط؟ ؟

* * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ (الأنعام: ٩٣). فهل أوحي إليه ولم يوح إليه؟

والرد عليها من وجوه:

الوجه الأول: الآية لا يصح فيها سبب نزول.

الوجه الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الوجه الثالث: القرآن يتحدى أهل الفصاحة.

الوجه الرابع: عقوبة من يفتري على الوحي.

الوجه الخامس: نبذة عن عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية لا يصح فيها سبب نزول.

اختلف أهل العلم في سبب نزول هذه الآية علي أربعة أقوال:

القول الأول: نزلت في شأن مسيلمة الكذاب والأسود العنسي(صدر الآية)، وعبد الله ابن أبي السرح (ختام الآية).

وقد جاء هذا من ستة طرق لا يخلو طريق منها من ضعف:

الطريق الأول: طريق ابن عباس رضي الله عنهما[1]

الطريق الثاني: طريق شرحبيل بن سعد. [2]

الطريق الثالث: طريق السدي. [1]

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا.** أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٧) من طريق محمد بن سعد بن عطية (العوفي)، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (٤٤٨، ٤٤٩) من طريق الكلبي وهو متروك الحديث، (تهذيب الكمال٢٥/ ٢٤٦).

(٢) **إسناده ضعيف.** أخرجه الحاكم (٣/ ٤٥)، والواحدي في أسباب النزول (٤٥٠) فيه: أحمد بن عبد الجبار، ضعيف (التقريب١/ ١٧).

الطريق الرابع: قتادة بن دعامة. [٢]

الطريق الخامس: طريق أبي خلف الأعمى. [٣]

الطريق السادس: طريق عكرمة. [٤]

هذا هو القول الأول في سبب نزول الآية، لا يصح فيه طريق إلا في طريق قتادة، وعلى صحته فهو مرسل.

القول الثاني: نزلت في المختار بن أبي عبيد. [٥]

القول الثالث: نزلت في النضر بن الحارث. [٦]

القول الرابع: نزلت في عبد الله بن أبى بن سلول. [٧]

الوجه الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٣)، و ابن أبي حاتم (٧٦٢٦) فيه: أسباط بن نصر، صدوق كثير الخطأ يغرب (التقريب١/ ٤٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٦٢٧)، ومن طريقه ابن أبي حاتم (٧٦٢٥)، والطبري من طريق معمر (٧/ ٢٧٤)، ومن طريق سعيد (٧/ ٢٧٣)، و ابن أبي حاتم (٧٦٢٥) من طريق شيبان، جميعًا (معمر، سعيد، شيبان) عن قتادة به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٤) فيه: معان بن رفاعة، ضعفه يحيي بن معين وابن عدي (تهذيب الكمال٢٨/ ١٥٨)، (الكامل٦/ ٣٢٨)، وقال ابن حبان: روي عنه أهل بلده، منكر الحديث، يروي مراسيل كثيرة ويحدث عن أقوام مجاهيل، لايشبه حديثه حديث الأثبات فلما صار الغالب علي روايته ماتنكر القلوب؛ استحق ترك الاحتجاج به. (المجروحين٣/ ٣٦).

(٤) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٣) وزاد نسبته إلى أبي الشيخ، السيوطي في الدر (٣/ ٣١٧) فيه: ابن جريج ثقة لكنه عنعن وهو مدلس، وفيه الحسين (سنيد) ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٣) إسناده ضعيف، فيه عمرو بن عبد الملك لم يسمع من عبد الله بن مسعود (جامع التحصيل٢٤٧)، ومسهر بن عبد الملك: لين الحديث (التقريب١/ ٥٨٤).

(٦) **إسناده ضعيف**. ذكره السيوطي في الدر (٧/ ٣١٨) وعزاه إلى عبد بن حميد، وذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ٤٣)، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعيف (التقريب١/ ١٣١).

(٧) **إسناده ضعيف جدًا**. أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٨) فيه جابر الجعفي: متروك الحديث.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ (الأنعام: ٩٣). ولا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: إني قد قلت مثل ما قال محمد، وأنه ارتد عن إسلامه ولحق بالمشركين، فكان لا شك بذلك من قيله مفتريًا كذبًا، وكذلك لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسي الكذابين ادعيا على الله كذبًا أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما: إن الله أوحى إليه، وهو كاذب في قيله؛ فإذا كان ذلك كذلك؛ فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقًا على الله كذبًا وقائلًا في ذلك الزمان وفي غيره: أوحى الله إلي، وهو في قيله كاذب لم يوح الله إليه شيئًا؛ فأما التنزيل فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم، وجائز أن يكون عنى به جميع المشركين من العرب؛ إذ كان قائلو ذلك منهم فلم يغيروه؛ فعيرهم الله بذلك، وتوعدهم بالعقوبة على تركهم نكير ذلك، ومع تركهم نكيره هم بنبيه محمد ﷺ مكذبون، ولنبوته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون؛ فقال لهم جل ثناؤه: ومن أظلم ممن ادعى علي النبوة كاذبًا وقال: ﴿أوحي إلي﴾ ولم يوح إليه شيء، ومع ذلك يقول: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فينقض قوله بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته، وذلك إذا تدبره العاقل الأريب علم أن فاعله من عقله عديم.(١)

وقال القرطبي: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن، فيقول: وقع في خاطري كذا أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص

---

(١) الطبري (٧/ ٢٧٤)، وانظر: أيضًاالمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٢)، والرازي (١٣/ ٨٤)، والخازن (٢/ ١٣٦)، والتحرير والتنوير (٧/ ٣٧٤: ٣٧٥).

فلا يحتاجون لتلك النصوص، وقد جاء فيما ينقلون"استفت قلبك وإن أفتاك المفتون"[١] ويستدلون على هذا بالخضر وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم، وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ[٢].

الوجه الثالث: القرآن يتحدى أهل الفصاحة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن قال: سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزلَ الله، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾ (الأنفال: ٣١)، وقد بين الله تعالى كذبهم في افترائهم هذا حيث تحدى جميع العرب بسورة واحدة منه، كما ذكره تعالى في البقرة بقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣)، وفي يونس بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (يونس: ٣٨)، وتحداهم في هود بعشر سور مثله في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ (هود: ١٣)، وتحداهم به كله في الطور بقوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: ٣٤).

ثم صرح في سورة بني إسرائيل بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة.[٣]

الوجه الرابع: عقوبة من يفترى على الوحى.

عَنْ أَنَسٍ ﷺقَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِى مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ الله فَدَفَنُوهُ،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨)، وقال الألباني: إسناده حسن (صحيح الترغيب٢/ ١٥١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤١: ٤٢).

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ١٨١: ١٨٢).

فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوهُ. فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا؛ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ. فَحَفَرُوا لَهُ، وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ. (١)

الوجه الخامس: نبذة عن عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه يكنى أبا يحيى كذا قال ابن الكلبي: في نسبه حبيب بن جذيمة بالتخفيف. وقال محمد بن حبيب: حبيب بالتشديد، وكذا قال أبو عبيدة، أسلم قبل الفتح وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركًا وصار إلى قريش بمكة.

وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه أيام الفتح فحسن إسلامه، ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك، وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم، ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين، وفتح على يديه إفريقية سنة سبع وعشرين، وغزا منها الأساود من أرض النوبة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم، وغزا الصواري من أرض الروم سنة أربع وثلاثين؛ فلما رجع من وفادته منعه ابن أبي حذيفة من دخول الفسطاط فمضى إلى عسقلان فأقام فيها حتى قتل عثمان رضي الله عنه. وقيل: بل أقام بالرملة حتى مات فارا من الفتنة ودعا ربه فقال: اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح فتوضأ ثم صلى فقرأ في الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفي الثانية بأم القرآن وسورة ثم سلم عن يمينه ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه، ذكر ذلك كله يزيد بن أبي حبيب وغيره، ولم يبايع لعلي ولا لمعاوية رضي الله عنهما، وكانت وفاته قبل اجتماع الناس على معاوية. وقيل: إنه توفي بإفريقية والصحيح أنه توفي بعسقلان سنة ست أو سبع وثلاثين. (٢)

* * * *

(١) البخاري (٣٦١٧)، و مسلم (٢٧٨١).

(٢) الاستيعاب (١/ ٢٧٩)، أسد الغابة (١/ ٦١٧).

٣- شبهة: حول التهرب من المعجزات.

نص الشبهة:

في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يونس: ٢٠).

السؤال: يطلب الناس من النبي محمد آية حتى يؤمنوا به كغيره من الأنبياء، فيرد أن الغيب لله؛ فجوابه لا دخل له بالسؤال، والسائلون يعلمون أن الغيب لله، والغيب لا دخل له في صنع العجائب والسؤال؛ أليس هذا تهربًا منه لعدم قدرته على صنع العجائب؟ ، وللآية نظائر منها قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٩) وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ (الرعد: ٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الرعد: ٢٧).

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية يفهمك العلة من هذا الرد عليهم.

الوجه الثاني: لماذا كان هذا الجواب الذي خالف السؤال في ظاهره؟.

الوجه الثالث: آية الإسراء أظهرت العلة من عدم إنزال الآية التي طلبوها.

الوجه الرابع: عدم نزول الآية التي طلبوها استجابة لرسول الله ﷺ.

الوجه الخامس: الله أنزل آيات ولكنهم لم يؤمنوا.

الوجه السادس: بعض معجزات النبي ﷺ التي فاقت سائر المعجزات.

الوجه السابع: لا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **معنى الآية يفهمك العلة من هذا الرد عليهم.**

قال ابن كثير: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي: ويقول هؤلاء الكفرة الملحدون المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه؛ يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ (الفرقان: ١٠، ١١) وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩). يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا، وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة ﷺ ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيه إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبتًا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١١١)،

ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر ١٤، ١٥)، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ (الطور: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧)، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.[1]

قال الزمخشري: وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات. وجعلوا نزولها كلا نزول، فكأنه لم ينزل عليه قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد، وإنهماكهم في الغي فقل ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به، لا علم لي ولا لأحدٍ به. يعني: أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه، فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات.[2]

وقال ابن عطية: آية من ربه، آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا من المعجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة النظر ليهتدي قوم ويضل آخرون، فقل: إنما الغيب لله إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على غيبه في ذلك أحد. وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ وعيد، وقد صدقه الله تعالى بنصرته محمدًا ﷺ.[3]

وقيل: الآية التي اقترحوا أن ينزل ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٨).

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٧).

(٣) تفسير ابن عطية (٣/ ١١٢).

﴿تَفْجُرَ لَنَا﴾، وقيل: آية كآية موسى وعيسى كالعصا واليد البيضاء، وإحياء الموتى، طلبوا ذلك على سبيل التعنت.[(١)]

و قال الشوكاني: قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ذكر سبحانه هاهنا نوعًا رابعًا من مخازيهم، وهو معطوف على قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾، وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه. قيل: والقائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفي به دليلًا بينًا ومصدّقًا قاطعًا: أي: هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي نقترحها عليه، ونطلبها منه، كإحياء الأموات، وجعل الجبال ذهبًا، ونحو ذلك؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: أن نزول الآية غيب، والله هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لنزولها، وقيل: المعنى: انتظروا قضاء الله بيني وبينكم بإظهار الحق على الباطل.[(٢)]

الوجه الثاني: لماذا كان هذا الجواب الذى خالف السؤال في ظاهره؟.

قال الفخر الرازي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس: ٢١).

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺآية أخرى سوى القرآن، وأجاب الجواب الذي قررناه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (يونس: ٢٠) ذكر جوابًا آخر وهو المذكور في هذه الآية، وتقريره من وجهين:

الوجه الأول: أنه تعالى بين في هذه الآية أن عادة هؤلاء الأقوام المكر، واللجاج،

(١) البحر المحيط لأبى حيان الأندلسي (٥/ ١٣٩).

(٢) فتح القدير (٢/ ٦٠٧).

والعناد، وعدم الإنصاف، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى، فإنهم لا يؤمنون؛ بل يبقون على كفرهم وجهلهم، فنفتقر ههنا إلى بيان أمرين: إلى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة.

أما المقام الأول: فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران. فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ المراد منه تلك الأمطار النافعة. وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ المراد منه ذلك القحط الشديد. وقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ (يونس: ١٢) إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة، ويطلبون الغوائل، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل.

وأما المقام الثاني: وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة من إظهار سائر الآيات، لأنه تعالي لو أظهر لهم جميع ماطلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها؛ لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك

استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم.

الوجه الثاني في تقرير هذا الجواب: أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦، ٧) وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة؛ إنما كان لأجل ما هم فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم. (١)

الوجه الثالث: آية الإسراء أظهرت العلة من عدم إنزال الآية التي طلبوها.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩ ﴾ (الإسراء٥٩).

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة سألوا ذلك مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجلوا، فلم نرسل إلى قومك بالآيات؛ لأنَّا لو أرسلنا بها إليها فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها. وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. (٢)

قال ابن كثير: قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك؛ فإنه سهل علينا، يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها كما قال الله تعالى: ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

(١) تفسير الفخر الرازي (١٧/ ٦٤).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٧).

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المائدة: ١١٥) قال تعالى عن ثمود حين سألوا آيةً ناقةً تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوه، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله وعقروها فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود: ٦٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩)؛ أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كفروا بها، ومنعوها شربها، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال ـ يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا". [١][٢]

الوجه الرابع: عدم نزول الآية التي طلبوها استجابة لرسول الله ﷺ.

الله تبارك وتعالى أنزل آيات كثيرات ومع ذلك كذبوا واستكبروا كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنعام: ٤)، ومع ذلك طلبوا آيات كالتي نزلت على الأنبياء السابقين، وذلك كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله

(١) البخاري (٩٩، ١٠٠٠)، ومسلم (٩٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠).

عنهما قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا؛ فإن كفروا أُهلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: لا، بل أستأني بهم؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾[1].

الوجه الخامس: الله أنزل آيات ولكنهم لم يؤمنوا.

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (طه: ١٣٣) يعني القرآن الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٠-٥١).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: " مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]، وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها ﷺ وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٤)، وصححه، والطبراني في الكبير (١١٢٩٠)، وعبد بن حميد في مسنده (٧٠٠)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٥٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٦)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ (يونس: ٩٧) كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الآية وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾[1]

الوجه السادس: بعض معجزات النبي ﷺ التي فاقت سائر المعجزات.

١- معجزة القرآن:

أعطى الله ﷻ كل نبي من الأنبياء عليهم السلام معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه وأهل زمانه، فلما كان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، بعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العزيز الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعثه الله في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد؟ وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك نبينا بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من عند الله ﷻ، فاتهمه أكثرهم أنه اختلقه وافتراه من عنده، فتحداهم

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٦).

ودعاهم أن يعارضوه ويأتوا بمثله، وليستعينوا بمن شاءوا؛ فعجزوا عن ذلك كما قال تعالي: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨) وكما قال الله تعالي: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور: ٣٣ - ٣٤).

ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في (سورة هود): ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

ثم تنازل إلى سورة فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس: ٣٨)، وكذلك في سورة البقرة وهي مدنية أعاد التحدي بسورة منه، وأخبر تعالى أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا لا في الحال ولا في المآل فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣-٢٤). وهكذا وقع، فإنه من لدن رسول الله ﷺ وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبدًا؛ فإنه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فأنى يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟.

وقد انطوى كتاب الله العزيز على وجوه كثيرة من وجوه الإعجاز: ذلك أن القرآن الكريم معجز في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف، ولا يتفاوت ولا تختلف خصائصه، معجز في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تتناسب وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية دون أن تصطدم بالفطرة الإنسانية، معجز في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها.

٢ـ انشقاق القمر:

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ (القمر: ١). أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.[١]

وعن أنس بن مالك ﷺ "أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ"[٢].

وفي رواية عبد الله بن مسعود ﷺ "قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة قال: فقالوا: انتظروا ما تأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال: فجاء السفار فقالوا: ذاك.

وسيأتي تفصيل هذه المعجزة في إثبات المعجزات للنبى الاكرم ﷺ.

٣- الإسراء والمعراج.

٤- نبع الماء من بين أصابعه ﷺ

٥- تكثير الطعام ببركته ودعاءه.

٦ - كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

٧- حنين الجزع لفراق النبى ﷺ.

٨ - تسليم الحجر على النبى ﷺ.

٩- إخبار الشاة له ﷺ بأنها مسمومة.

١٠ - إبراءه للمرضى ﷺ.

١١ - إجابة دعائه ﷺ.

١٢ - إخباره ﷺ بالأحداث التى لم تقع وقد وقعت.

---

(١) الشفا القاضي عياض (٢٨٩).

(٢) البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢).

وغيرها كثير من المعجزات التي أجراها الكريم ﷻ -إذ الفضل منه وإليه- على يدي النبي المعصوم ﷺ ولكن من استكبر وعاند طلب أكثر من ذلك، ماذا طلب؟ إنه طلب العذاب، طلب أن ينزل الله عليه آية من السماء كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢)، ولكن الله استجاب لنبيهﷺ كما فى الحديث "أَنَّ رَسولَ الله ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بني مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ: " سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فأعطاني ثِنْتَيْنِ ومنعني وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أمتي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا"[1].

وقد ذكر الحقﷻ العلة من عدم إ جابته لسؤال هؤلاء القوم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء٥٩)، وقد سبق بيان ذلك، ولكننا نثبت أن الله تبارك وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يد نبيه ﷺ وسيأتى تفصيل ذلك فى بابه فلتراجع فإنها مهمة.

الوجه السابع: لا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون كما في الكتاب المقدس. [2]

فكما تبين من فهم الآيات السابقة نفي المعجزة المقترحة، ولا يلزم من هذا النفي، نفي المعجزات مطلقًا، ولا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون؛ بل هم لا يظهرون إذا طلب المنكرون عنادًا أو امتحانًا أو استهزاء، وأورد لهذا الأمر شواهد من **العهد الجديد**:

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٩٠).

(٢) هذا الوجه من كتاب إظهار الحق للهندي (٢/ ٣٧٧)، وراجع أيضا ما كتب في شبهتي: محمد لا يستطيع عمل المعجزات، وإنكار معجزة انشقاق القمر.

(الأول) في الباب الثامن من إنجيل مرقص(١٢: ١١): هكذا: فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَابْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ. ١٢فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: «لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هذَا الْجِيلُ آيَةً!.

فالفريسيون طلبوا معجزة من عيسى عليه السلام على سبيل الامتحان، فما أظهر معجزة، ولا أحال في ذلك الوقت إلى معجزة صدرت عنه فيما قبل، ولا وعد بإظهارها فيما بعد أيضًا؛ بل قوله لن يعطى هذا الجيل آية، يدل على أن المعجزة لا تصدر عنه فيما بعد هذا البتة؛ لأن لفظ الجيل يشمل الجميع الذين كانوا في زمانه.

(الثاني) في الباب الثالث والعشرين من إنجيل لوقا(١١ : ٨): وَأَمَّا هِيرُودُسُ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ فَرِحَ جدًّا، لأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيل أَنْ يَرَاهُ، لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَتَرَجَّى أَنْ يَرَى آيَةً تُصْنَعُ مِنْهُ. ٩وَسَأَلَهُ بِكَلاَمٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ. ١٠وَوَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ بِاشْتِدَادٍ، ١١فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسًا لاَمِعًا، وَرَدَّهُ إِلَى بِيلاَطُسَ.

فعيسى عليه السلام ما أظهر معجزة في ذلك الوقت، وقد كان هيردوس يترجى أن يرى منه آية، والأغلب أنه لو رأى لألزم اليهود على اشتكائهم ولما احتقر مع عسكره ولما استهزأ.

(الثالث) في الباب الثاني والعشرين من إنجيل لوقا(٦٥: ٦٣): ٦٣وَالرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا ضَابِطِينَ يَسُوعَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَهُمْ يَجْلِدُونَهُ، ٦٤وَغَطَّوْهُ وَكَانُوا يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ وَيَسْأَلُونَهُ قَائِلِينَ: «تَنَبَّأْ! مَنْ هُوَ الَّذِي ضَرَبَكَ؟ » ٦٥وَأَشْيَاءَ أُخَرَ كَثِيرَةً كَانُوا يَقُولُونَ عَلَيْهِ مُجَدِّفِينَ.

ولما كان سؤالهم استهزاء وتوهينًا، ما أجابهم عيسى عليه السلام.

(الرابع) في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى هكذا: وَكَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ ٤٠قَائِلِينَ: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ! ». ٤١وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضًا وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ قَالُوا: ٤٢«خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا!

إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ! ٤٣قَدِ اتَّكَلَ عَلَى اللهِ، فَلْيُنْقِذْهُ الآنَ إِنْ أَرَادَهُ! لأَنَّهُ قَالَ: أَنَا ابْنُ اللهِ! ». ٤٤وَبِذلِكَ أَيْضًا كَانَ اللِّصَّانِ اللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ يُعَيِّرَانِهِ.

فما خلص نفسه عيسى عليه السلام في هذا الوقت، وما نزل عن الصليب وإن عيره المجتازون، ورؤساء الكهنة، والكتبة، والشيوخ، واللصان. ورؤساء الكهنة، والكتبة، والشيوخ كانوا يقولون: إنه إن نزل عن الصليب نؤمن به، فكان عليه لدفع العار، ولإلزام الحجة أن ينزل مرة عن الصليب ثم يصعد. . ولكنهم لما كان مقصودهم العناد، والاستهزاء، ما أجابهم عيسى عليه السلام.

(الخامس) في الباب الثاني عشر من إنجيل متى(٤٠ : ٣٨): حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ.

فطلب الكتبة والفريسيون معجزة، فما أظهرها عيسى عليه السلام في هذا الوقت، وما أحالهم إلى معجزة صدرت عنه فيما قبل هذا السؤال؛ بل سبهم وأطلق عليهم لفظ الفاسق والشرير، ووعد بالمعجزة التي لم تصدر عنه؛ لأن قوله كما كان يونان في بطن الحوت الخ، غلط بلا شبهة كما علمت في الفصل الثالث من الباب الأول، وإن قطعنا النظر عن كونه غلطًا، فمطلق قيامه لم ير الكتبة، والفريسيون بأعينهم، ولو قام عيسى عليه السلام من الأموات، كان عليه أن يظهر نفسه على هؤلاء المنكرين الطالبين آية ليصير حجة عليهم، ووفاء بالوعد. وهو ما أظهر نفسه عليهم، ولا على اليهود الآخرين، ولو مرة واحدة، ولذلك لا يعتقدون هذا القيام؛ بل هم يقولون من ذاك العهد إلى هذا الحين، إن تلاميذه سرقوا جثته من القبر ليلًا.

(السادس) في الباب الرابع من إنجيل متى(٧: ٣): فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا». ٤فَأَجَابَ وَقَالَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ

وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ». ٥ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، ٦وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلَ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ». ٧قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لاَ تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ.

فطلب إبليس على سبيل الامتحان من عيسى عليه السلام معجزتين، فما أجاب بواحدة منهما، واعترف في المرة الثانية أنه لا يليق بالمربوب أن يجرب ربه، بل مقتضى العبودية مراعاة الأدب وعدم التجربة.

(**السابع**) في الباب السادس من إنجيل يوحنا (٣١: ٢٩): ٢٩ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُوَ عَمَلُ اللهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ». ٣٠ فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ ٣١ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا.

فاليهود طلبوا معجزة فما أظهرها عيسى عليه السلام، ولا أحال إلى معجزة فعلها قبل هذا السؤال؛ بل تكلم بكلام مجمل، لم يفهمه أكثر السامعين؛ بل ارتد كثير من تلاميذه بسببه. كما هو مصرح به في الآية السادسة والستين من الباب المذكور، وهي في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا: (ومن هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه). وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٣٥ : (ومن ثم ارتد كثير من تلاميذه على أعقابهم ولم يماشوه بعد ذلك أبدًا).

(**الثامن**) في الباب الأول من الرسالة إلى أهل قورنيثوس(٢٣: ٢٢): فإن اليهود يسألون معجزة، واليونانيون يطلبون حكمة، ونحن نكرز بالمسيح المصلوب وذلك معثرة لليهود وحماقة لليونانيين.

فاليهود كما كانوا يطلبون المعجزة من المسيح عليه السلام كانوا يطلبونها من الحواريين أيضًا، وأقر مقدسهم بولس بأنهم يطلبون المعجزة ونحن نكرز بالمسيح المصلوب.

فظهر من هذه العبارات المنقولة أن عيسى عليه السلام والحواريين ما أظهروا معجزة بين أيدي الطالبين في الأوقات التي طلبوا المعجزات فيها، ولا أحالوا المنكرين إلى معجزة فعلوها قبل هذه الأوقات، فلو استدل أحد بالآيات المذكورة على أن عيسى عليه السلام والحواريين ما كان لهم قدرة على إظهار أمر خارق للعادات، وإلا لصدر عنهم في الأوقات المذكورة وأحالوا المنكرين إلى أمر خارق صدر عنهم قبل هذه الأوقات. فلما لم يظهر منهم أحد الأمرين ثبت أنهم ما كان لهم قدرة على إظهاره، يكون هذا الاستدلال عند القديسين محمولًا على الاعتساف ويكون قوله خلاف الإنصاف، فكذا قول القسيسين عندنا بالتمسك ببعض الآيات القرآنية التي عرفت حالها خلاف الإنصاف وعين الاعتساف، كيف لا؟ والمعجزات المحمدية مصرح بها في القرآن والأحاديث الصحيحة. كما سبق بيان ذلك.

* * *

سورة الأعراف

وفيها:

١- شبهة: حول اللباس والريش.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٤- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾.

١- شبهة: حول اللباس والريش.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف: ٢٦) تُرى ما هو ذلك اللباس الذي يواري السوءات؟ وما هو الريش ولباس التقوى؟ فالقرآن لا يشرح لنا شيئًا عن ذلك؛ مع أنه في غاية الأهمية لستر الإنسان الذي أذله الشيطان وعراه وفضحه، ولكن القرآن جاء فيه لأصحابه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، فإن سفر التكوين في التوراة يقول لنا: إن آدم و حواء لم يفلحا في ستر نفسيهما وهما يخصفان عليهما من ورق الجنة، فصنع الرب الإله لآدم و امرأته أقمصة من جلد و ألبسهما (تكوين٢١: ٣) إذن كانت هناك ذبيحة سفك دمها وأخذ جلدها لستر آدم وحواء، لقد فداهما الله بذبح عظيم؛ لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (العبرانيين ٢٢: ٩)، وهذا رمز للمسيح المخلص الآتي الذي هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم (يوحنا٣٦، ٢٩: ١)، ويقول نبي الله إشعياء في التوراة: فرحًا أفرح بالرب تبتهج نفسي ياإلهي؛ لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص كساني رداء البر. (إشعياء١٠: ٦١).

و الجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: سبب نزول هذه الآية.

الوجه الثاني: تفسير الآية.

الوجه الثالث: معنى اللباس.

الوجه الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾.

الوجه الخامس: اللباس في الكتاب المقدس، وبطلان عقيدة الصلب والفداء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: سبب نزول هذه الآية.

عن عكرمة في قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ قال: نزلت في الحمس من قريش، ومن كان يأخذ مأخذها من قبائل العرب الأنصار: الأوس، والخزرج، وخزاعة، وثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وبطون كنانة بن بكر كانوا لا يأكلون اللحم، ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها، ولا يضطربون وبرًا ولا شعرًا؛ إنما يضطربون الأدم ويلبسون صبيانهم الرهاط، وكانوا يطوفون عراة إلا قريشًا، فإذا قدموا طرحوا ثيابهم التي قدموا فيها، وقالوا: هذه ثيابنا التي تطهرنا إلى ربنا فيها من الذنوب والخطايا، ثم قالوا لقريش: من يعيرنا مئزرًا؟ فإن لم يجدوا طافوا عراة، فإذا فرغوا من طوافهم أخذوا ثيابهم التي كانوا وضعوا.

وقال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أُحله

فأمر الله سبحانه بالستر فقال: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ يستر عوراتكم[1].

معنى قوله تعالى ﴿وَرِيشًا﴾:

قال أهل اللغة: (ريش) الرِّيشُ كِسْوةُ الطائر، والجمع: أَرياش ورِياشٌ، وقُرئ: (ورِياشًا ولِباسُ التَّقْوى).

والرِّيشُ والرِّياشُ: الخِصْبُ والمعاشُ والمالُ والأَثاثُ واللِّباسُ الحَسَنُ الفاخرُ وفي التنزيل العزيز: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾، وقد قرئ: (رِياشًا) على أَن ابن جني قال: رِياشٌ قد يكون جمعَ ريش كلِهْبٍ ولِهابٍ.

وقال محمد بن سَلامٍ: سمعت سلامًا أَبا مُنْذِرٍ القارئ يقول: الرِّيشُ الزِّينةُ، والرِّياشُ كلُّ اللباس، قال: فسأَلت يونسَ فقال: لم يقل شيئًا هما سواءٌ؛ الرِّيشُ والرِّياشُ ما ظهَر من اللباس، والرِّياشُ القِشْرُ وكلُّ ذلك من الرِّيشِ[2].

---

(١) الدر المنثور (٣/ ٤٣١-٤٣٤)، والبغوي في التفسير (٢/ ١٥٤).

(٢) لسان العرب (٦/ ٣٠٨)، والصحاح (٣/ ٨٤٧)، والقاموس المحيط (١/ ٨١١).

وقال الأزهري: وقال القتيبي: الرِّيش والرِيَاش واحد، وهما ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستره الله تعالى به[(١)].

وقال ابن عاشور: والرّيش لباس الزّينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطّير لأنّه زينته، ويقال للباس الزّينة: رِياش[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: وريشًا: المال، وصله ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: (ورياشًا) قال: مالًا، ومن طريق مجاهد والسدي وعروة بن الزبير والضحاك فرقهما قال في قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ قال: المال[(٣)].

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال[(٤)].

وقال ابن جرير: والرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر منها من المتاع والثياب مما يلبس، والريش إنما هو المتاع والأموال عندهم[(٥)].

الوجه الثاني: تفسير الآية.

قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ (الأعراف: ٢٦).

يقول جل ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرَّون للطواف، اتباعًا منهم أمرَ الشيطان، وتركًا منهم طاعةَ الله، فعرفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم مِنْ ستر الله الذي أنعمَ به عليهم، حتى أبدى سوءاتهم وأظهرها من بعضهم لبعض، مع

---

(١) تهذيب اللغة (١١/ ٤٠٩).

(٢) التحرير و التنوير (٨/ ٧٥).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ١٤٨)، وتفسير الطبري (٨/ ٢٤٨) وابن أبي حاتم (٥/ ٨٣٣١) وابن كثير (٦/ ٢٧٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/ ١٤٨) وابن كثير (٦/ ٢٧٧)، وفيه عبد الرحمن بن زيد (ضعيف) كما في تقريب التهذيب (١/ ٣٩٧٤).

(٥) جامع البيان ٨/ ١٤٧، وذكر البناء في (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ٢٨١) قراءة (ورياشًا) عن الحسن البصري.

تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوءاتهما فعرّاهما منه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا ﴾ يعني بإنزاله عليهم ذلك: خلقَه لهم ورزقَه إياهم، واللباس: ما يلبسون من الثياب، ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، فهذه منة يمتن الله بها على عباده، بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور ها هنا لستر العورات وهي السوآت[1].

الوجه الثالث: معنى اللباس.

قال ابن منظور: اللُّبْسُ بالضم مصدر قولك: لبست الثوب أَلْبَس. . واللِّبَاسُ ما يُلْبَس وكذلك المَلْبَس، واللِّبْسُ بالكسر مثلُه. ابن سيده: لَبِسَ الثوب يَلْبَسُه لُبْسًا، وأَلْبَسَه إياه، وأَلْبَس عليك، ثوبَك، وثوب لَبِيس إذا كثر لُبْسُه. .

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ ﴾ (الأنبياء: ٨٠)، يعني: الدروع، وتلبس بالأمر وبالثوب، ولابست الأمرَ: خالطته، ولابست فلانًا: عرفت باطنه، وما في فلان ملبس أي: مستمتع، والتبس عليه الأمر أي: اختلط واشتبه.

ولباس كل شيء: غشاؤه، ولِباس الرجل امرأَتُه، وزوجُها لِباسُها، وقوله تعالى في النساء: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ ﴾ (البقرة: ١٨٧) أَي: مثل اللِّباسِ.

والعرب تسَمِّي المرأَة لِباسًا وإِزارًا. . ولباس التقوى: الحياء هكذا جاء في التفسير، ويقال: الغليظ الخشن القصير[2].

وقال ابن عاشور: واللّباس اسم لمايلبَسه الإنسان أي: يستُر به جزءًا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال: لبس التّاج ولبس الخاتم؛ قال تعالى:

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٦)، والخازن (٢/ ١٩٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٦).

(٢) لسان العرب (٦/ ٢٠٢)، والصحاح (٢/ ٨٢٠)، والقاموس المحيط (١/ ٧٨٣).

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤)، ومصدر لبس: اللُّبس بضمِّ اللاّم[١].

وقال ابن عرفة: اللباس من الملابسة أي: الاختلاط والاجتماع[٢].

الوجه الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

قال ابن الأنباري: لباس التقوى: هو اللباس الأول؛ وإنما أعاده إخبارًا أنَّ ستر العورة من التقوى وذلك خير، وقيل: إنما أعاده لأجل أن يخبر عنه بأنه خير؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت، فأخبر أن ستر العورة في الطواف هو لباس التقوى وذلك خير.

وقال زيد بن علي - رحمه الله تعالى-: لباس التقوى آلات الحرب التي يتقى بها في الحروب كالدروع و المغفر ونحو ذلك. وقيل: لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التي يلبسها أهل الزهد والورع، وقيل: هو ستر العورة في الصلاة؛ قاله ابن زيد[٣].

ومن حمله على معناه المجازي: فجمهور مفسري السلف على أنه اللباس المعنوي المجازي، فعن عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال: هو خير مما يلبس أهل الدنيا. [٤] وقال قتادة: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإيمان[٥]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: يتقي الله فيواري عورته؛ ذلك: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وعن زيد بن علي تفسيره: بالإسلام، ومنهم من قال: إنه الحياء؛ وهو قول الحسن، وعن عروة ابن الزبير﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خشية الله[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٦٤).

(٢) تاج العروس (١/ ٤١٢٠).

(٣) الخازن (٢/ ١٩١)، والبغوي (٢/ ١٥٥) وابن الجوزي (٣/ ١٨٣)، والشوكاني (٢/ ٢٧٩).

(٤) **إسناده حسن**. رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ٨٣٤١).

(٥) **إسناده صحيح**. أخرجه ابن جرير (٨/ ١٤٩).

(٦) ابن جرير (٨/ ١٤٩)، وابن كثير (٦/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٥٨).

وقيل: هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخبات والعمل الصالح، وقيل: هو العفاف والتوحيد[١].

وأما المختار من هذه الأقوال فقد قال ابن جرير في تفسيره:

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾: استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمتَ الحسن؛ لأن مَنْ اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يُرَى عند ما يكرهه من عباده مستحييًا، ومَنْ كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه فحسن سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجة الإيمان ونوره[٢].

وقال الشوكاني: والمراد بلباس التقوى: لباس الورع، واتقاء معاصي الله؛ وهو الورع نفسه والخشية من الله، فذلك خير لباس وأجمل زينة، وقال: وهو الأولى؛ وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال[٣].

وكذا قال القرطبي في تفسيره[٤].

الوجه الخامس: **اللباس في الكتاب المقدس، وبطلان عقيدة الصلب والفداء.**

قصة آدم في الكتاب المقدس:

يعتقد النصارى أن بسبب خطيئة آدم عليه السلام أبي البشر في أكله من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة -قامت نظرية الصلب والفداء، وتعني صلب المسيح عليه السلام نيابة عن الجنس البشري وفداءً له؛ إذ كان على الله بمقتضى صفة العدل أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة المشار إليها والتي ارتكبها أبوهم، لكن بمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئاتهم،

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ١٥٥)، وفتح البيان (٤/ ٣٢٣)، والتفسير الكبير (١٤/ ٥٢).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٥١).

(٣) فتح القدير (٢/ ٢٧٩).

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ١٨٤).

ولم يكن هناك طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط المسيح ابن الله -في اعتقادهم-، وقبوله أن يظهر في شكل إنسان، وأن يعيش كما يعيش الناس، ثم يُقتل ويُصلب ظلمًا؛ وذلك ليكفر خطيئة آدم أبي البشر في ذريته، وهذا ما يعبر عنه النصارى بالخلاص، وهنا تمت المصالحة بين الله والناس. والرد على هذا الكلام يسير طبقًا للآتي:

أولًا: أين كان عدل الله ورحمته إذًا منذ طرد آدم من الجنة حتى صُلب المسيح في زعمهم؟ فهل كان الله حائرًا بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قبل مجيء المسيح منذ ألف عام فقط حتى يُصلب للتكفير عن خطيئة آدم عليه السلام؟!

ثانيًا: من عدل الله عز وجل ألا ينقص أحدًا من حسناته، ولا يعاقبه إلا بذنبه، ولا يجوز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم.

ثالثًا: الزعم بأن خطيئة آدم قد عمت سائر أولاده، وأنه لا يطهرهم عن خطاياهم إلا قتل المسيح! ! التوراة والنبوات ترد هذه المقالة الشوهاء كما في كتابهم المقدس: (لاَ يُقْتَلُ الآبَاءُ عَنِ الأَوْلاَدِ، وَلاَ يُقْتَلُ الأَوْلاَدُ عَنِ الآبَاءِ، كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيَّتِهِ يُقْتَلُ) (التثنية ٢٤/ ١٦).

إن آدم عليه السلام قد ارتكب خطيئة وأخذ جزاءه، وهو الخروج من الجنة، ثم أدرك خطأه فتاب لله فقبل الله توبته واجتباه؛ قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه: ١٢١-١٢٢).

والرد على عقيدة الصلب والفداء وبطلانها من الناحية العقلية:

إذا كان الله سبحانه لم يرد الانتقام من آدم عليه السلام لمعصية، فمن باب أولى أن يتوب على صاحب الذنب ويعفو عنه، ولا يحمِّله لغيره من باب العدل الإلهي.

النصارى تقول: إن عيسى إله! فكيف وقع على الناسوت فقط؟ وهم يقولون: إن الناسوت في اللاهوت كالماء في اللبن جوهران أصبحا جوهرًا واحدًا، فكيف يُعقل هذا؟!

إذا كان عيسى عليه السلام إلهًا قد صُلب ودُفن كما يقولون، فمن الذي أمسك السموات من

السقوط؟ والأرض أن تميد؟ ومن دبر شئون الخلق في هذه اللحظات التي غاب فيها الإله؟!

لماذا لم تذكر التوراة أمر لصوق الخطيئة ببني آدم وفيهم الأنبياء، وقد ذكرت ما هو أدنى من ذلك مع أن هذا الأمر من الأهمية بمكان؟ وكيف لا وهو قد حكم على جميع بني آدم حتى الأنبياء بتوارثهم خطيئة أبيهم آدم، حتى جاء عيسى عليه السلام ليخلصهم بذلك.

وأيضًا نقول: إن النص في سفر التكوين: (وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا). يدل على غفران الله لذنبهما، فالرب بنفسه صنع لهما هذه الأقمصة، فلو لم يغفر لهما لتركهما يصطادان ويعالجان الجلد ليصنعا لأنفسهما هذه الأقمصة إمعانًا في إجهادهما، وتنفيذًا لوعيده لهما أن يشقيا في الأرض.

وبذلك يتضح لنا بطلان عقيدة الصلب والفداء، يحاولون أن يستدلوا على عقيدة باطلة بأن المسيح مات على الصليب فداءً لخطايا البشر بأن ذبح، ويقولون: إن أي ذبح هو إشارة لدم المسيح؛ كقوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾، أو غير ذلك من الآيات التي يحاولون تفسيرها بما يليق بمعتقدهم الفاسد، فلا المسيحُ صُلب، ولا الذبيحُ كان، ولا الخلاص لهم تم على الصليب كما يزعمون[1].

* * *

(١) انظر شبهة: (الصلب والفداء وبطلانها).

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾.

نص الشبهة:

ما كان جواب قومه؟ جواب قوم لوط في سورة الأعراف مختلف عن سورة العنكبوت ففي سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأعراف: ٨٣).

وفي الموضع الآخر قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت: ٢٨-٢٩).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

كان نبي الله لوط عليه السلام ثابتًا على الإرشاد مكررًا عليهم التغيير والنهي والوعيد، فقالوا أولًا: ائتنا، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوا، ثم إن لوطًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن الله لا يحب المفسدين: حتى ينجز النصر[1].

زيادة وتوضيح:

لما أنكر لوط عليه السلام ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي ما أجابوا بشيء إلا بهذا القول رجوعًا منهم إلى التكذيب واللجاج والعناد وقد تقدم في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٥/ ٥٨)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ١٤٦).

وتقدم في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾

وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطًا كان ثابتًا على الإرشاد ومكررًا للنهي لهم والوعيد عليهم، فقالوا له أولًا: ائتنا بعذاب الله كما في الآية، فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما في سورة الأعراف والنمل، وقيل: إنهم قالوا أولًا: أخرجوهم من قريتكم ثم قالوا ثانيًا: ائتنا بعذاب الله[1].

(**فائدة**): في آية العنكبوت اختلف فيها الجواب عن سورة الأعراف وهي: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ومتى كان الكلام مفهومًا كان صحيحًا فصيحًا وإن أشكل على جامدي النحاة إعرابه.

فإن قيل: إن في حكاية الجوابين تعارضًا في المعنى محكيًا بصيغة النفي والإثبات فيهما فكيف وقع هذا في كتاب الله تعالى وما الذي يدفع هذا التعارض؟ قلنا: إنه لا تعارض ولا تنافي بين الجوابين لحملها على الوقوع في وقتين، ولا شك أنه كان ينهاهم كثيرًا فكان يسمع في كل وقت كلامًا ممن حضر منهم، وقد قلنا: إن قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ؛ بل العبرة والموعظة فيما يذكر في كل سورة من القصة الواحدة من المعاني والمواعظ مالا يذكر في الأخرى، ومجموعها هو كل ما أراد الله تعالى أن يعظ به هذه الأمة. فمن المعهود أن الرسل عليهم السلام -وَكَذَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْوُعَّاظِ الذين ينهون الضالين والمجرمين عن المنكر -يُكَرِّرُونَ لهم الوعظ بمعان متقاربة. وقد حكى الله تعالى من قول رسوله لوط عليه السلام لقومه في سورة العنكبوت ما لم يحكه في سورتي الأعراف والنمل فزاد على إتيانهم الرجال قطع السبيل، وإتيانهم المنكر في النادي الحافل والمجلس الحاشد، فكأنهم ضاقوا به ذرعًا واستعجلوا العذاب الذي أنذرهم إذا أصروا على عصيانه. والأظهر أن هذا كان بعد أمرهم بإخراجه وأن

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٨٢).

التوعد بالإخراج كان قبل الأمر به والله أعلم[١].

نكته بلاغية:

حصر الله جوابه في هذا المعنى المؤدي بهذا اللفظ لا ينافي آية العنكبوت القائلة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن إطلاق الجواب على هذا يجوز، والمعنى: فما كان قولهم في جوابه إلا إتيانهم بما لا يصلح جوابًا، وذلك مضمون هذا القول وغيره مما لا يتعلق بالجواب، أو أن هذا الجواب لما كان فيه من التكذيب والإيذان بالإصرار والإغلاظ لرسول الله ﷺ مستلزمًا للعذاب، كانوا كأنهم نطقوا به فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ جعل نطقهم بالسبب نطقًا بالمسبب، أو أنهم استعملوا لكل مقام مقالًا، ويؤيده أن المعنى لما اتحد هنا وفي سورة النمل: حصر الجواب في هذا، أي: فما كان جوابهم هذا القول إلا هذا، ولما زادهم في العنكبوت في التقريع فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أتوه بأبلغ من هذا تكذيبًا واستهزاء فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٢].

* * * *

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥١٢).

(٢) نظم الدرر لأبي الحسن البقاعي (٣/ ٦٤).

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ من القائل؟ فرعون أم الملأ؟

قال الله تعالى في سورة (الأعراف: ١٠٩): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾، وقال الله في سورة(الشعراء: ٣٤): ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

والرد عليه من وجوه

الوجه الأول:

لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم، فذكر الله تعالى قوله ثَمَّ، وقولهم ههنا[١].

الوجه الثاني:

أن فرعون قاله ابتداء فتلقته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة للعامة.

نكتة بلاغية:

في سورة الشعراء أسند الله هذا الكلام إلى فرعون؛ لأن السياق كله لتخصيصه بالخطاب لما تقدم، ونظرًا إلى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤).

لأن خضوعه هو خضوع من دونه، فدلالته على ذلك أظهر، ولا ينفي ذلك أن يكون قومه قالوه إظهارًا للطواعية كما مضي في الأعراف[٢].

* * *

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٩)، وانظر التفسير الكبير للرازي (١٤/ ١٩٦)، وأنموذج جليل لأبي بكر الرازي (١٥٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٣٥٨).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٣٥٧).

٤- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾.

نص الشبهة:

جاء في سورة (الأعراف)قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، ومعروف أن موسى كتب الشريعة على اللوحين كتب الوصايا العشر فقط وليس كل شيء.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: هذه المعرفة المدعاة ليست بلازمة فقد ثبت تحريف كتابكم فلا حجة فيه على ما عندنا

عن ابن عباس قال: أعطى الله موسى عليه السلام التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء، وموعظة التوراة مكتوبة من يديه فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه، فرفع الله منها ستة أسباع وبقى سبعًا.[1]

الوجه الثاني: إنما سماها الله تعالى ألواحًا على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية[2].

الوجه الثالث: جاءت ألواح على صيغ الجمع؛ لأنهما كانا مكتوبين على كلا وجهيهما، كما يقتضيه الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج فكانا بمنزلة أربعة ألواح[3].

فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. (سفر الخروج ٣٢/ ١٥).

الوجه الرابع: اعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

* * * *

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٣).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢٥٨)، وانظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٧٥).

(٣) السابق (٩/ ٩٦).

سورة الأنفال

وفيها:

١- شبهة: حول الطمأنينة، ووجل القلوب.

٢- شبهة: حول متى يُستجاب للرسول ﷺ؟

٣- شبهة: حول هل الإنسان يحمل وزر الآخرين؟

٤- شبهة: حول نفي العذاب وإثباته.

٥- شبهة: حول العشرون والمائة.

٦- شبهة: حول آيات متعارضة بين سورتي الأنفال والتوبة في نفي وإثبات الولاية.

١- شبهة: حول الطمأنينة، ووجل القلوب.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢)، وهذه الآية لها نظائر منها قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (الزمر: ٢٣)، وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨)، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، تدل على أن وجل القلوب عند سماع ذكر الله من علامات المؤمنين، وقد جاءت في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك، وهي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨)، فالمنافاة بين الطمأنينة ووجل القلوب ظاهرة.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى الوجل الذي في الآية.

الوجه الثاني: جمع الله بين المعنيين في آية واحدة ليتضح المراد.

الوجه الثالث: قد يحمل الوجل عند ذكر وعيده، ويحمل الاطمئنان عند ذكر وعده.

الوجه الرابع: أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى.

الوجه الخامس: أن المراد: أن علمهم يكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم.

الوجه السادس: أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الوجل الذي في الآية.

قال القرطبي: "الوجل": الخوف[1].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٩).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: قال الراغب: "الوجل" استشعار الخوف يعني ما يجعل القلب يشعر به بالفعل وعبر غيره عنه بالفزع والخوف. [(١)]

قال القنوجي: "وجلتا" أي فزعت وخضعت وخافت ورقت قلوبهم لذكر الله استعظامًا له وتهيبٌ من جلاله، والوجل: الخوف والفزع ويقال بإثبات الواو في المضارع، والمراد أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله[(٢)].

الوجه الثاني: جمع الله بين المعنيين في آية واحدة ليتضح المراد

فقال الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣).

قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات -القينات- أي المغنيات. . .

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا و بكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (الأنفال: ٢)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝٧٣﴾ (الفرقان: ٧٣)؛ أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليه فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٨٩).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ١٢٩).

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ﷺعند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم؛ بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك.(١)

قال القرطبي: وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)؛ أي تسكن من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطَّغَام.(٢)

الوجه الثالث: قد يحمل الوجل عند ذكر وعيده، ويحمل الاطمئنان عند ذكر وعده

قال الشيخ محمد رشيد رضا: فيقابل بين هذه الآية – أي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وما في معناها وبين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ (الرعد: ٢٨)، فيظن أن بينهما تعارضًا، فيحاول التقصي منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال، وذكر آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالإيمان بالله تعالى والثقة بما عنده.(٣)

قال صاحب فتح البيان: فإن قيل قال هنا: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، فكيف الجمع بينهما؟

قلت: الاطمئنان بذكره بصفات الجمال، والوجل إنما هو بذكر وعيده.(٤)

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٩)، والرازي (١٥/ ١١٨).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٥٩٠).

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ١٣٠).

قال الرازي: إنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي، فهناك وصفهم بالوجل، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم إلى ذلك، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر؛ لأن الوجل هو بذكر العقاب، والطمأنينة بذكر الثواب، ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات. [1]

الوجه الرابع: أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى. [2]

فكلما ذكر المؤمن ربه كلما اطمئن قلبه وانشرح صدره إلى الحق، ومعرفة التوحيد، ومعرفة شرائع الله جل وعلا، وهذه حاله تنتابه، وإذا ذكر ربه أيضًا وجل وخاف أن يقع في المعصية، أو يبعد عن الرشاد والهدى، وقد أشارت آيات كثيرة إلى مثل هذا، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨)، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

قال القاضي عبد الجبار: وجوابنا: أن الطمأنينة المذكورة هاهنا المراد بها المعرفة وسكون النفس إلى المجازاة مع الوجل والخوف من المعاصي؛ فالكلام متفق عليه؛ لأن المؤمن ساكن النفس إلى معرفة الله تعالى، وإلى المجازات على الطاعات، ومع ذلك خائف مما يخشاه من التقصير ووجل القلب، فظن في مثل ذلك أنه مختلف إذ قد نادى على نفسه بقلة المعرفة، ولذا قال تعالى بعده: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (الرعد: ٢٩). [3]

الوجه الخامس: أن المراد: أن علمهم بكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد ﷺ نبيًا حقًّا من عند الله؛ أما شكهم في أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم. [4]

---

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٤٩).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٠٣).

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار (٢٢٩).

(٤) تفسير الرازي (١٩/ ٤٩).

الوجه السادس: أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده وأن محمد ﷺ صادق في كل ما أخبر عنه، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب، أم لا؟ و هل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا؟. (١)

* * *

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٤٩).

٢- شبهة: حول متى يُستجاب للرسول ﷺ؟

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾ (الأنفال: ٢٤)

وهذه الآية تدل بظاهرها على أن الاستجابة للرسول ﷺ - التي هي طاعته- لا تجب إلا إذا دعانا لما يحيينا ونظيرها: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، وقد جاء في آيات أخرى ما يدل على وجوب اتباعه مطلقًا من غير قيد كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقوله: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)﴾.

والجواب على ذلك كما يلي:

الوجه الأول: معنى الآية تدل على عموميتها.

الوجه الثاني: أن آيات الإطلاق مبينة أنه ﷺ لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة.

الوجه الثالث: حديث أبي سعيد بن المعلي وغيره يدلُّ على أن الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين.

الوجه الرابع: لا يمكن حمل الحياة ها هنا على نفس الحياة لأمور.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الآية تدل على عموميتها.

بعد أن ذكر أقوالًا كثيرة لمعنى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال في الصواب قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم لما يحييكم من الحق، وذلك أن ذلك إذا كان معناه كان داخلًا

فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا فيقال الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها(١).

قال البخاري: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ أي أجيبوا ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ لما يصلحكم(٢).

الوجه الثاني: أن آيات الإطلاق مبينة أنه ﷺ لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة.

فالشرط المذكور في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ متوفر في دعاء النبي ﷺ لمكان عصمته كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤)، والحاصل أن آية: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ مبينة أنه لا طاعة إلا لمن يدعو إلى ما يرضي الله، وأن الآيات الأخر بينت أن النبي ﷺ لا يدعوا أبدًا إلا إلى ذلك، صلوات الله وسلامه عليه(٣).

الوجه الثالث: حديث أبي سعيد بن المعلي وغيره يدلُ على أن الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين. (٤)

قال ابن عاشور: فالآية تقتضي الأمر بالامتثال لما يدعو إليه الرسل سواء دعا حقيقة بطلب القدوم أم طلب عملًا من الأعمال، فلذلك لم يكن قيد لما يحييكم مقصودًا لتقييد الدعوة ببعض الأحوال؛ بل هو قيد كاشف، فإن الرسول ﷺ لا يدعوهم إلا وفي حضورهم لديه حياة لهم، ويكشف عن هذا المعنى في قيد: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ ما رواه أهل الصحيح عن أبي سعيد بن المعلي قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: " ألم يقل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢١٤).

(٢) البخاري (٤/ ١٧٣٤).

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٣).

(٤) تفسير الرازي (١٥/ ١٤٦).

ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحديث. [١]، فوقفه على قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ يدل على أن: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيد كاشف.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يَا أُبَيُّ». وَهُوَ يُصَلِّي، فَالْتَفَتَ أُبَيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبَيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ! مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟ ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلاَةِ. قَالَ: « أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى الله إِلَيَّ أَنِ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ". قَالَ: بَلَى وَلاَ أَعُودُ إِنْ شَاءَ الله. قَالَ: « تُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا». قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلاَةِ؟ ». قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ ". [٢]

ثم ذكر ابن عاشور أمثلة أخرى في مثل هذا ثم قال: فتكون عدة قضايا متماثلة، ولا شك أن القصد منها التنبيه على هذه الخصوصية لدعاء الرسول ﷺ[٣].

الوجه الرابع: لا يمكن حمل الحياة ها هنا على نفس الحياة

وذلك لأمور؛ منها: أن إحياء الحي محال؛ فوجب حمله على شيء آخر وهو الفوز بالثواب، وكل ما دعا الله إليه ورغب فيه، فهو مشتمل على الثواب، فكان هذا الحكم عامًا في جميع الأوامر، وذلك يقيد المطلوب. [٤]

* * *

(١) البخاري (٤٦٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٧٨)، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند (٢/ ٤١٢)، والنسائي في الكبرى (١١٢٠٥)، وابن خزيمة (٨٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٣١٣).

(٤) تفسير الرازي (١٥/ ١٤٦).

٣- شبهة: هل الإنسان يحمل وزر الآخرين؟

نص الشبهة:

كيف يتفق قول الله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ (الأنفال: ٢٥)، وحديث " **إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة. . .** "[1] مع آية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، وآية: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

الوجه الثاني: استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الوجه الثالث: العقاب أو الفتنة التي تنزل على الكل أو العامة طهرة للمؤمنين، نقمة للفاسقين.

الوجه الرابع: أن ذلك على سبيل التحذير حتى لا يكون جزاء من خالف العقوبة.

الوجه الخامس: أن الله إذا أنزل العقوبة على من أذنب ومن لم يذنب بعث كل واحد على نيته.

الوجه السادس: قد تنزل العقوبة على العوام؛ لأنهم سبب في نشر المعاصي والفتن.

الوجه السابع: الفتنة سببها الإنسان فيضر المفسد الصالح، وهي في ذلك ابتلاء للطائع والعامي.

الوجه الثامن: إن الله تعالى قد ينزل الموت والفقر والعمى والزمانة بعبده ابتداء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

قال ابن كثير: أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جان إلا على نفسه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾[1].

---

(١) وتكملته" حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة ". رواه أحمد (٣٨/ ٢٣٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٨)، وفي سنده مولى لبني عدي، وهو مجهول، وقال في مجمع الزوائد (٧/ ٥ ٢): رواه الطبراني ورجاله ثقات. وحسن إسناده ابن حجر (فتح الباري١٣/ ٤)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣١١٠).

قال القرطبي: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية في الآخرة، فأما التي في الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجرم بعض[٢].

قال الطبري: ولا تأثم نفس آثمة بإثم أخرى غيرها، ولكنها تأثم بإثمها وعليه تعاقب دون إثم أخرى غيرها.[٣]

قال البيضاوي: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾.[٤]

قال ابن عاشور: فمعنى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا تحمل حاملة، أي لا تحمل نفسٌ حين تحمل حمل أي نفس أخرى غيرها، فالمعنى: لا تغني نفس عن نفس شيئًا تحمله عنها أي: كل نفس تزر وزر نفسها، فيفيد أن وزر كل أحد عليه، وأنه لا يحمل غيره عنه شيئًا من وزره الذي وزره، وأنه لا يتبعه أحد من وزر غيره من قريب أو صديق، ولا تتبع نفس بإثم غيرها، فهي إن حملت لا تحمل حمل غيرها، وهذا إتمام لمعنى المشاركة[٥].

الوجه الثاني: استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[٦]

قال الكرخي: واستشكل هذا ـ أي قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

وأجيب: بأن الناس إذا تظاهروا بالمنكر، فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادرًا على ذلك، فإذا سكت فكلهم عصاه هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله بحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة، وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٥٤).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١١٣).

(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٢٢١).

(٥) تفسير ابن عاشور (٨/ ٢٠٧).

(٦) فتح الباري (٥/ ٣٤٩).

بالمنكر فنقمة العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار[١].

وقال ابن العربي: فقد أخبرنا ربنا أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد، وإنما تتعلق كل عقوبة بصاحب الذنب بيد أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عنه فكلهم عاص، هذا بفعله وهذا برضاه به، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم الذنب بالعقوبة ولم يتعد موضعه، وهذا نفيس لمن تأمله. [٢]

وقد بينت سنة النبي ﷺ هذا الأمر، وهو أن المنكر إذا ظهر ولم ينكره الناس أنزل الله العقاب من عنده.

عن زينب بنت جحش أنها سألت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون! قال: " نعم إذا كثر الخبث". [٣]

وقد أوضح النبي ﷺ ذلك بالمثال كما في حديث النعمان بن البشير قال ﷺ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا"[٤].

قال ابن حجر: وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف. [٥]

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، وإني سمعت رسول الله يقول: إن الناس إذا

(١) نقلًا عن فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ١٦٠).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٨٤٧)، و تفسير القرطبي (٧/ ٣٧٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٨٠).

(٤) البخاري (٢٣٦١).

(٥) فتح الباري (٥/ ٣٤٩).

رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه[1].

قال النووي: وأما قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾، فليس مخالفًا لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المذهب الصحيح في معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصيركم غيركم، مثل قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، وإذا كان كذلك مما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا فعله لم يمتثل المخاطب، فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه.

وقد وضح النبي ﷺ هذا الأمر في حديث آخر فقال: " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"[2].

ولذا ذم الله بني إسرائيل ولعنهم بسبب أنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾ (المائدة: ٧٨-٧٩).

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داوود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه.

ثم قال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ . . . .﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليُحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.[3]

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٤٩)، والحديث صححه الألباني في المشكاة (٥١٤٢).

(٢) الترمذي (٢١٦٩)، وقال حديث حسن.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١١٦، ١١٧).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: وَقَدْ بَيَّنَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - ذَلِكَ الْعِصْيَانَ وَسَبَبَ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى تَعَدِّي حُدُودِ الله وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أَيْ كَانُوا لَا يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ مُنْكَرٍ مَا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، مَهْمَا اشْتَدَّ قُبْحُهَا وَعَظُمَ ضَرَرُهَا، وَإِنَّمَا النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ حِفَاظُ الدِّينِ وَسِيَاجُ الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ، فَإِذَا تُرِكَ تَجَرَّأَ الْفُسَّاقُ عَلَى إِظْهَارِ فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَمَتَى صَارَ الدَّهْمَاءُ يَرَوْنَ الْمُنْكَرَاتِ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَسْمَعُونَهَا بِآذَانِهِمْ، تَزُولُ وَحْشَتُهَا وَقُبْحُهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ يَتَجَرَّأُ الْكَثِيرُونَ أَوِ الْأَكْثَرُونَ عَلَى اقْتِرَافِهَا. فَالْإِخْبَارُ بِهَذَا الشَّأْنِ مِنْ شُئُونِهِمْ إِخْبَارٌ بِفُشُوِّ الْمُنْكَرَاتِ فِيهِمْ، وَانْتِشَارِ مَفَاسِدِهَا بَيْنَهُمْ ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْعِلَّةِ يَقْتَضِي وُجُودَ الْمَعْلُولِ، وَلَوْلَا اسْتِمْرَارُ وُقُوعِ الْمُنْكَرَاتِ لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ التَّنَاهِي شَأْنًا مِنْ شُئُونِ الْقَوْمِ، وَدَأْبًا مِنْ دُءُوبِهِمْ. (١)

الوجه الثالث: العقاب أو الفتنة التي تنزل على الكل أو العامة طهرة للمؤمنين نقمة للفاسقين. (٢)

وفي ذلك وردت أحاديث عامة عن النبي ﷺ منها قوله: " مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ". (٣)

ولذلك قال النبي ﷺ لما سألته زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم "إذا كثر الخبث". (٤)

قال النووي: معنى الحديث: إن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون. (٥)

وفي الحديث " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها. . . "(٦)

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٤٩٠).

(٢) قاله القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٧٤).

(٣) رواه البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) رواه مسلم (٢٨٨٠).

(٥) شرح النووي (٩/ ٢٣١).

(٦) رواه البخاري (٢٣٦١).

وقال ابن حجر: قال المهلب وغيره: في هذا الحديث تعذيب العامة بذنب الخاصة، وفيه نظر؛ لأن التعذيب المذكور إذا وقع في الدنيا على من لا يستحقه فإنه يكفر من ذنوب من وقع به أو يرفع من درجته.(١)

الوجه الرابع: أن ذلك على سبيل التحذير حتى لا يكون جزاء من خالف العقوبة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتنة الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلي بناره فعلًا، وبين المؤاخذ به لتقصيره في درئه وإقراره على فعله فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ أي: واتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنازع على مصالحها العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة والانقسام إلى الأحزاب الدينية: كالمذاهب، والسياسة: كالحكم، فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة.(٢)

الوجه الخامس: أن الله إذا أنزل العقوبة على من أذنب ومن لم يذنب بعث كل واحد على نيته.

ففي حديث عائشة: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ». قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ. ؟ قَالَ: « يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ ".(٣)

قال ابن حجر: أي: يخسف بالجميع لشؤم الأشرار ثم يعامل كل أحد عند الحساب بحسب قصده، قال المهلب في هذا الحديث: إن من كثر سواد قوم في المعصية مختارًا أن العقوبة تلزمه معهم(٤).

الوجه السادس: قد تنزل العقوبة على العوام؛ لأنهم سبب في نشر المعاصي والفتن. (٥)

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٤٩).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٩/ ٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٩٩).

(٥) تفسير السعدي (الآية).

قال القرطبي: فمن كان إمامًا في الضلالة ودعا إليها، وأُتبع عليها، فإنه محمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المضل شيء.[(١)]

ثم قال: يحملون وزر من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شيء، وفي الخبر عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"[(٢)].

ومن للجنس لا للتبعيض، فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم وقوله: ﴿بغير علم﴾ أي يضلوا من الخلق جهلًا منهم بما يلزمهم من الآثام؛ إذ لو علموا لما أضلوا[(٣)].

الوجه السابع: الفتنة سببها الإنسان فيضر المفسد الصالح، وهي في ذلك ابتلاء للطائع والعاصي.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها مقتل عمر ﷺ، ومقتل عثمان ﷺ في الفتنة، ومقتل علي ﷺ بسبب الفتن، ومقتل كثير من الأخيار بسبب الفتنة وإليك تفصيل ذلك:

أ- قُتل عمر ﷺ، وكان معروفًا بالعدل أمير المؤمنين الخليفة الراشد وله من الفضائل الكثيرة[(٤)]، ومع ذلك نزلت الفتنة؛ فكانت سببًا في مقتله على يد أبي لؤلؤة المجوسي، فكانت هذه الفتنة شهادة لعمر ﷺ، ووبالًا على هذا الكافر الذي مات على كفره، وإليك قصة مقتله التي فيها دروس كثيرة تبين فضل وورع وعدل عمر ﷺ:

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيَّامٍ بِالْمَدِينَةِ وَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: كَيْفَ فَعَلْتُمَا أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ؟ قَالاَ: حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ، مَا فِيهَا كَبِيرُ فَضْلٍ. قَالَ: انْظُرَا أَنْ

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٥٤).

(٢) مسلم (٢٦٧٤).

(٣) القرطبي (٧/ ١٥٤).

(٤) انظر فضائل ومناقب عمر ﷺ في البخاري مع الفتح المجلد السابع، وصحيح مسلم ـ باب فضائل عمر ـ وترجمة عمر بن الخطاب في سير أعلام النبلاء الجزء الأول.

تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ، قَالَ: قَالاَ: لاَ؛ فَقَالَ عُمَرُ لَئِنْ سَلَّمَنِي الله لأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لاَ يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا. قَالَ: فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ. قَالَ: إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الْكَلْبُ. حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ لاَ يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلاَ شِمَالًا إِلاَّ طَعَنَهُ حَتَّى طَعَنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ. . . . . الحديث"[1].

ب- وعثمان ﷺ الذي له من الفضائل الكثيرة، ومن الخير الوافر الكبير، ولما كان يوم مقتله بعد ما حاصره السبئيون، وأراد الصحابة أن يدافعوا عن أميرهم عثمان بن عفان، فأبى إخمادًا للفتنة، وتضحية بنفسه، فقد قال: عزمت على أحد كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل، فاستسلم الصحابة لكلام أميرهم وطاعة خليفتهم، فدخل عليه من أرادوا قتله؛ فقام عليه الأفاكون الآثمون وقتلوه، فسقطت قطرة من دمه على المصحف على قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فكان بعد ذلك أن بعث الله على قتلة عثمان من قتلهم جميعًا، ولعل الآية تشير إلى هذا الانتقام[2].

فسبحان الله العلي القدير الذي أمر بالصبر عند البلاء وعند الفتنة، فنادى أهل الإيمان قائلًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، وبيَّن النبيُّ ﷺ ذلك فقال عن حال المؤمن: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خير له. . . "[3].

---

(١) البخاري (٣٧٠٠).

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٨٠-١٩٠)، والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي من (١٤٠-١٥٠).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ.

قال ابن القيم: الصبر في البلاء يكون بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوالف النعم، ثم قال: وأجمع عقلاء الأمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإن قدر التعب تكون الراحة ". [١]

أما عن المفسد الذي يكون سببًا في هذه الفتنة، فسينال جزاءه –قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨).

الوجه الثامن: إن الله تعالى قد ينزل الموت والفقر والعمى والزمانة بعبده ابتداء، إما لأنه يَحْسُن منه تعالى ذلك بحكم المالكية: [٢]

قال رب العالمين في كتابه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦).

قال الطبري: يعني بذلك: يا الله، يا مالك الملك، يا من له ملك الدنيا والآخرة خالصًا دون غيره، تعز من تشاء بإعطائه الملك والسلطان وبسط القدرة له، وتذل من تشاء بسلبك ملكه وتسليط عدو عليه، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾أي: كل ذلك بيدك وإليك، لا يقدر على ذلك أحد؛ لأنك على كل شي قدير دون سائر خلقك ودون من اتخذه المشركون من أهل الكتاب والأميين من العرب إلهًا، وربًا يعبدونه من دونك، كالمسيح والأنداد التي اتخذها الأُمِّيون ربًا[٣].

قال الفخر الرازي: أما قوله ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، فقال الجبائي في تفسيره: إنه تعالى إنما يذل أعداءه في الدنيا والآخرة، ولا يذل أحدًا من أوليائه، وإن أفقرهم وأمرضهم وأحوجهم إلى غيرهم؛ لأنه تعالى إنما يفعل هذه الأشياء ليعزهم في الآخرة؛ إما بالثواب

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ٨).

(٣) ذكره الطبري (٣/ ٢٢٢).

وإما بالعوض فصار ذلك كالفصد والحجامة؛ فإنهما وإن كانا يؤلمان في الحال إلا أنها لما كانا يستعقبان نفعًا عظيمًا لا جرم لا يقال فيهما: إنهما تعذيب. قال: وإذا وصف الفقر بأنه ذل فعلى وجه المجاز سمى الله تعالى لِين المؤمنين ذُلًّا بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. [1]

* * * *

(١) تفسير الرازي (٨/ ٨).

٤- شبهة: حول نفي العذاب وإثباته.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنفال: ٣٣ - ٣٤).

والسؤال:

- كيف يصح أن ينفي العذاب أولًا، ثم يثبته آخرًا؟
- كيف يجد النبي ﷺ عذرًا لقومه خاصة، وأنهم طلبوا العذاب مع أن الأنبياء قبل ذلك لم يحاولوا أن يجدوا أعذارًا للكفار من قومهم؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الآية فيها أن الله أمَّنهم من العذاب في أحد الحالين.

الوجه الثاني: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة.

الوجه الثالث: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾أي: المشركين.

الوجه الرابع: أن معنى ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يسلمون.

الوجه الخامس: قيل: إن العذاب الأول غير العذاب الثاني.

الوجه السادس: قيل: إن الآية الثانية ناسخة للأولى.

الوجه السابع: ماذا عن حال الأنبياء في الكتاب المقدس؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية فيها أن الله أمَّنهم من العذاب في أحد الحالين.

فالنبي ﷺ خرج مهاجرًا، واستغفارهم معدوم لإصرارهم على الكفر، فاستحقوا الوعيد الآخر، أو أنه تعالى نفى ذلك -أي العذاب- بشرطٍ وأثبته مع فقد الشرط[1].

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦/ ٢٣٦)، " تنزيه القرآن عن المطاعن"للقاضي عبد الجبار (١٨٤).

قال الطبري: معنى ذلك: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد، وما كان الله معذب المشركين وهم يستغفرون، أي: لو استغفروا. قالوا: ولم يكونوا يستغفرون، فقال جل ثناؤه: إذ لم يكونوا يستغفرون ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ونقل ذلك بسنده عن قتادة، والسدي وابن زيد فقال عن قتادة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال: إن القوم لم يكونوا يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا، وكان بعض أهل العلم يقول: هما أمانان أنزلهما الله فأما أحدهما فمضي نبي الله، وأما الآخر فأبقاه الله رحمة بين أظهركم، الاستغفار والتوبة[1].

فالعذاب لا يتنزل بهم في حالة استغفارهم لو استغفروا، ولا في حالة وجود نبيهم فيهم، لكنه خرج من بين أظهرهم، ولم يستغفروا لكفرهم، ومعلوم أن الحال قيد لعاملها، وصْف لصاحبها، فالاستغفار مثلًا قيد في نفي العذاب، لكنهم لم يأتوا بالقيد، فتقرير المعنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ لو استغفروا، وبعد انتفاء الأمرين عذبهم بالقتل والأسر يوم بدر[2].

وقد رجح هذا الوجه ابن جرير الطبري في تفسيره فقال: وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب قول من قال: تأويله، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أخرجك من بين أظهرهم؛ لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم، وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك؛ بل هم مصرون عليه فهم للعذاب مستحقون، كما يقال: ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليَّ - يراد بذلك لا أحسن إليك، ولكن أحسن إليك؛ لأنك لا تسيء إلي وكذلك ذلك، ثم قيل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بمعنى: وما شأنهم وما

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٦)، والأثر عن قتادة.

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٤)، وانظر تفسير الرازي (١٥/ ١٥٨).

يمنعهم أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرون الله من كفرهم، فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام.

وإنما قلنا هذا القول أولى بالأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن القوم – أعني مشركي مكة- كانوا استعجلوا العذاب فقالوا: اللهم إن كان ما جاء به محمد هو الحق، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فقال الله لنبيه: ما كنت لأعذبهم وأنت فيهم، وما كنت لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا أعذبهم بعد إخراجك منهم، وهم يصدون عن المسجد الحرام، فأعلمه جل ثناؤه أن الذين استعجلوا العذاب حائق بهم ونازل، وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياه من بين أظهرهم، ولا وجه لإبعادهم العذاب في الآخرة، وهم مستعجلوه في العاجل، ولا شك أنهم في الآخرة إلى العذاب صائرون؛ بل في تعجيل الله لهم ذلك يوم بدر الدليل الواضح على أن القول في ذلك ما قلنا[١].

قال ابن الجوزي: المعنى: لو استغفروا لما عذبهم الله، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب، وهذا كما تقول العرب: ما كنت لأهينك وأنت تكرمني؛ يريدون ما كنت لأهينك لو أكرمتني، فأما إذا لست تكرمني، فإنك مستحق لإهانتي[٢].

الوجه الثاني: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة.

فلما هاجر النبي ﷺ وخرج المؤمنون الذين كانوا يستغفرون وبسببهم دفع العذاب، استحق الكفار العذاب بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

قال ابن الجوزي: وما كان الله معذبهم يعني المشركين وهم – يعني المؤمنين الذين بينهم – يستغفرون، قال ابن الأنباري: وصفوا بصفة بعضهم؛ لأن المؤمنين بين أظهرهم، فأوقع العموم على الخصوص كما يقال قتل أهل المسجد رجلًا، وأخذ أهل البصرة فلانًا، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد[١].

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٨).

(٢) زاد المسير (٣/ ٣٢٠).

قال الشنقيطي: المراد بقوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة، وعليه فالمعنى: أنه بعد خروجه ﷺ، كان استغفار المؤمنين سببًا لرفع العذاب الدنيوي عن الكفار المستعجلين للعذاب بقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وعلى هذا القول فقد أسند الاستغفار إلى مجموع أهل مكة الصادق بخصوص المؤمنين منهم، ونظير الآية عليه قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ مع أن العاقر واحد منهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح: ١٥-١٦) أي: جعل القمر في مجموعهن الصادق بخصوص السماء التي فيها القمر؛ لأنه لم يجعل في كل سماء قمرًا، وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٠) أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس على الأصح إذا ليس من الجن رسل.

وأما تمثيل كثير من العلماء لإطلاق المجموع مرادًا بعضه بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢) زاعمين أن قوله ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من مجموعهما الصادق بخصوص البحر الملح؛ لأن العذب لا يخرج منه لؤلؤ ولا مرجان، فهو قول باطل بنص القرآن العظيم.

فقد صرح تعالى باستخراج اللؤلؤ والمرجان من البحرين كليهما حيث قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (فاطر: ١٢).

فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ نص صريح في إرادة العذب والملح معًا، وقوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان، وعلى هذا القول، فالعذاب الدنيوي يدفعه الله عنهم

---

(١) زاد المسير (٣/ ٣٥٠).

باستغفار المؤمنين الكائنين بين أظهرهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بعد خروج المؤمنين الذين كان استغفارهم سببًا لدفع العذاب الدنيوي، فبعد خروجهم عذّب الله أهل مكة في الدنيا بأن سلط عليهم رسولهﷺ حتى فتح مكة، ويدل لكونه تعالى يدفع العذاب الدنيوي عن الكفار بسبب وجود المسلمين بين أظهرهم ما وقع في صلح الحديبية كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فقوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي: لو تزيل الكفار من المسلمين لعذبنا الكفار بتسليط المسلمين عليهم، ولكنا رفعنا عن الكفار هذا العذاب الدنيوي لعدم تميزهم من المؤمنين، كما بينه بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، ونقل ابن جرير هذا القول عن ابن عباس والضحاك وأبي مالك وابن أبزي، وحاصل هذا القول أن كفار مكة لما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنزل الله قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، ثم لما هاجر النبي ﷺ بقيت طائفة من المسلمين بمكة أنزل الله قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أي شيء ثبت لهم يدفع عنهم عذاب الله، وقد خرج النبي ﷺ والمؤمنون من بين أظهرهم فالآية على هذا كقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[١].

الوجه الثالث: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: المشركين.

فيكون أن الله تعالى يرد عنهم العذاب الدنيوي بسبب استغفارهم، أما عذاب الآخرة فهو واقع بهم لا محالة، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: في الدنيا في حالة استغفارهم، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في الآخرة وقد كانوا كفارًا في الدنيا[٢].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٥، ١٠٦).

(٢) المصدر السابق (١٠٧).

روى الطبري بسنده عن ابن عباس قال: إن المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون: لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي ﷺ: قد قد، فيقولون: لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك تملكه، وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فقال ابن عباس: كان فيهم أمانان نبي الله والاستغفار، قال: فذهب النبي وبقى الاستغفار ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فهذا عذاب الآخرة قال: وذاك عذاب الدنيا[(١)].

قال الشنقيطي: وعلى هذا القول فعمل الكافر ينفعه في الدنيا، كما فسر به جماعة قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: أثابه من عمله الطيب في الدنيا[(٢)].

الوجه الرابع: أن معنى ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يسلمون.

قال الشنقيطي: فيكون المعنى أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وقد سبق في علمه أن منهم من يسلم ويستغفر الله من كفره، وعلى هذا القول فقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الذين سبقت لهم الشقاوة لأبي جهل وأصحابه الذين عذبوا بالقتل يوم بدر[(٣)].

وقد ذكره الطبري بإسناده عن عكرمة: قال سألوا العذاب فقال: لم يكن ليعذبهم وأنت فيهم، ولم يكن ليعذبهم وهم يدخلون في الإسلام[(٤)].

وبإسناده أيضًا عن مجاهد قوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ قال: بين أظهرهم، وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال يسلمون. [(٥)]

الوجه الخامس: قيل: إن العذاب الأول غير العذاب الثاني.

---

(١) رواه الطبري بإسناده في تفسيره (٦/ ٢٣٥).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٠٦).

(٣) المصدر السابق (١٠٧).

(٤) أورده الطبري في تفسيره (٦/ ٢٣٦)، وإسناده صحيح.

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٧).

فقيل: إن العذاب الثاني قتل بعضهم يوم بدر، والأول استئصال الكل، فلم يقع الأول لما قد علم من إيمان بعضهم وإسلام بعض ذراريهم ووقع الثاني، أو أن العذاب الأول عذاب الدنيا، والثاني عذاب الآخرة، فيكون المعنى، وما كان الله معذب المشركين لاستغفارهم في الدنيا، وما لهم ألا يعذبهم الله في الآخرة.[1]

الوجه السادس: قيل: إن الآية الثانية ناسخة للأولى.[2]

قال الطبري: بل معنى ذلك: وما كان الله ليعذب المشركين وهم يستغفرون. قالوا: ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[3].

وهذا مردود.

قال ابن الجوزي: وفيه بُعد؛ لأن النسخ لا يدخل على الأخبار باتفاق أهل العلم[4].

قال ابن جرير: لا وجه لقول من قال ذلك منسوخ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأن قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ خبر، والخبر لا يجوز أن يكون فيه نسخ، وإنما يكون النسخ للأمر والنهي[5].

أما عن سؤالهم كيف يجد النبي ﷺ عذرًا لقومه خاصة، وأنهم طلبوا العذاب مع أن الأنبياء قبل ذلك لم يحاولوا أن يجدوا أعذارًا للكفار من قومهم؟.

والجواب على ذلك نقول:

إن في ذلك إعلام بكرامة الرسول ﷺ عند الله، حينما يرفع الله العذاب عن الأمة بسبب نبيه محمد ﷺ.

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٣٥٢)

(٢) ذكره الطبري في التفسير (٦/ ٢٣٨)، وابن الجوزي (٣/ ٣٥٠).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٨).

(٤) زاد المسير (٣/ ٣٥٠).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٨)، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٠٧).

قال ابن عاشور: فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ كناية عن استحقاقهم، وإعلام بكرامة رسوله ﷺ عنده؛ لأنه جعل وجوده بين ظهراني المشركين، مع استحقاقهم العقاب سببًا في تأخير العذاب عنهم، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ، فجعل وجوده في مكان مانعًا من نزول العذاب على أهله، فهذه الآية إخبار عما قدره الله فيما مضى.

ثم قال: وفي توجيه الخطاب بهذا إلى النبي ﷺ، واجتلاب ضمير خطابه بقوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لطيفة من التكرم؛ إذ لم يقل: وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله.[1]

وقولهم: إن الأنبياء لم يحاولوا أن يجدوا أعذرًا للكفار من قومهم، كلام خطأ، حيث كان النبي يدعو قومه ولا ييأس معهم، وهم معرضون حتى يأمر الله بهلاكهم، والنبي ينذرهم وهم معرضون، والأمثلة على ذلك بدليل واضح من القرآن، وأيضًا من الكتاب المقدس.

ها هو نبي الله نوح عليه السلام دعا قومه لعبادة الله وهم يعرضون، يدعو وهم يعرضون أكثر، وهذه رحمة الأنبياء التي وصفوا بها، قال تعالى في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٣).

لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ (نوح: ١-٢٨).

وشعيب عليه السلام يدعو قومه ويسترسل معهم في الدعوة إلى الله تعالى وهم معرضون في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ (هود: ٨٤-٩٥).

وهكذا جميع الآيات التي تتحدث عن دعوة الأنبياء مع أقوامهم تبين أن الأنبياء كانوا رحمة للقوم، وكان النبي يسترسل معهم في الدعوة حتى يأبوا ويعرضوا إعراضًا تامًا حتى يأذن الله بهلاكهم بسبب عدم استجابتهم لأنبيائهم.

الوجه السابع: ماذا عن حال الأنبياء في الكتاب المقدس؟

أما عن الكتاب المقدس ففيه أيضًا دليل على مثل هذا، ولكن مع إيماننا الكامل الذي لا نشك فيه بتحريف هذا الكتاب، والذي فيه ما فيه من الأمور العظام التي تقدح في الأنبياء باتهامهم بشرب الخمر، وبالزنا، وبالجور، وبالفواحش ما ظهر منها وما بطن، وهذا لا يليق بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام أجمعين.

ففي سفر التكوين: في صلاة إبراهيم من أجل سدوم: وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا. ٢١أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ». ٢٢وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ. فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟ ٢٤عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ ٢٥حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلًا؟ » ٢٦فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». ٢٧فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ. ٢٨رُبَّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتُهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟ » فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ». ٢٩فَعَادَ يُكَلِّمُهُ أَيْضًا وَقَالَ: «عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ أَرْبَعُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الأَرْبَعِينَ». ٣٠فَقَالَ: «لاَ يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ ثَلاَثُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ ثَلاَثِينَ». ٣١فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عِشْرُونَ». فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعِشْرِينَ». ٣٢فَقَالَ: «لاَ

يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ هذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عَشَرَةٌ». فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعَشَرَةِ». ٣٣وَذَهَبَ الرَّبُّ عِنْدَمَا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَانِهِ. (التكوين ١٨/ ٢٦: ٣٢).

وأيضًا في الكتاب المقدس لما تذمر بنو إسرائيل على موسى، وكاد الله أن يلاشيهم غير أن موسى صلى صلاة طويلة بأن لا يؤاخذ بني إسرائيل على شرهم وعنادهم(العدد ١٣، ١٤).

وفيه (١٤/ ١٩): اِصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ هذَا الشَّعْبِ كَعَظَمَةِ نِعْمَتِكَ، وَكَمَا غَفَرْتَ لِهذَا الشَّعْبِ مِنْ مِصْرَ إِلَى ههُنَا». ٢٠فَقَالَ الرَّبُّ: «قَدْ صَفَحْتُ حَسَبَ قَوْلِكَ.

* * *

٥- شبهة: حول: العشرون والمائة.

نص الشبهة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ ظاهر الآية أن الواحد من المسلمين يجب عليه مصابرة عشرة من الكفار، وقد جاء في الآية التي بعدها خلاف ذلك فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ. . . ﴾ (الأنفال: ٦٦).

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن الأول منسوخ بالثاني.

الوجه الثاني: أن الثاني تخفيف للأول.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن الأول منسوخ بالثاني.

دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[1].

الوجه الثاني: أن الثاني تخفيف للأول.

قال أبو جعفر النحاس: وهذا شرح بَيِّنَ حُسْنَ أن يكون هذا تخفيف لا نسخًا؛ لأن معنى النسخ رفع حكم المنسوخ، ولم يرفع حكم الأول؛ لأنه لم يقل فيه: لا يقاتل الرجل عشرة؛ بل إن قدر على ذلك فهو الاختيار له[2].

والراجح الوجه الأول على أن الأول منسوخ بالثاني؛ لأنه رفع حكم استقر، وهو وجوب مصا برة الواحد للعشرة بحكم آخر، وهو وجوب مصا برته للاثنين فقط، وهذا هو النسخ بعينه وفي ضمنه التخفيف كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، وهذا نسخ الأثقل بالأخف[3].

* * * *

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (١٠٧)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٨٧)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤١).

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣/ ٣٨٨).

(٣) راجع شبهة النسخ ففيها الفائدة.

٦- شبهة: حول آيات متعارضة بين سورتي الأنفال والتوبة في نفي وإثبات الولاية.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ (الأنفال: ٧٢)، هذه الآية تدل على أن من لم يهاجر لا ولاية بينه وبين المؤمنين حتى يهاجر، وقد جاءت آية أخرى يفهم منها خلاف ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، فإنها تدل على ثبوت الولاية بين المؤمنين وظاهرها العموم.

والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: أن الولاية المنفية هي ولاية الميراث، والولاية المثبتة هي ولاية النصر لا المؤازرة.

الوجه الثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا نصيب لكم في المغانم ولا في خمسها إلا فيما حضرتم في القتال.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن الولاية المنفية هي ولاية الميراث.

والولاية المثبتة هي ولاية النصر لا المؤازرة وهذه الولاية لم تقصر بالنفي في قوله ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

قال الطبري: فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض، فكانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر ورثه الأنصاري بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي في قول الله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾، وكان حقًّا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قاتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم

وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذين لا ميثاق لهم، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين هاجروا والذين آمنوا ولم يهاجروا، فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبًا مفروضًا بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وبقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[1].

وساق الطبري ـ بسنده - إلى ابن عباس فقال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام قال الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ يقول: مالكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في الميراث فنسخت التي قبلها، وصار الميراث لذوي الأرحام[2].

قال الشنقيطي: فدل على أن الولاية المنفية غير ولاية النصر فظهر أن الولاية المنفية غير الولاية المثبتة فارتفع الإشكال[3].

الوجه الثاني: معنى ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

أي: لا نصيب لكم في المغانم ولا في خمسها إلا فيما حضرتم في القتال.

قال ابن كثير: في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا فيما حضروا فيه القتال، كما روى بريده بن الحصيب الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه في نفسه بتقوى الله وبمن

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٥٢). والأثر عن ابن عباس وإسناده ضعيف.

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٥٢) والإسناد ضعيف.

(٣) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (١٠٨)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٥٧).

معه من المسلمين خيرًا، " اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تَمْثُلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَىْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ"[1][2].

قال الشنقيطي بعد ذكر هذا الوجه: وعليه فلا إشكال في الآية، ولا مانع من تناول الآية للوجهين، فيكون المراد بها نفي الميراث بينهم، ونفي القسم لهم في الغنائم والخُمس، والعلم عند الله.[3]

* * *

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٧).

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٩).

سورة التوبة

شبهة: حول محبة الله.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

والسؤال: هل يعني هذا الكلام أن الذي يفضل البشر والأمور الزمنية على الله ويخاف فقدانها، عليه أن ينتظر فتوى من الله أو أمرًا منه، كيف يكون هذا التعليم وما هذا الإيمان المادي؟ كيف أن الله يساوم البشر هكذا على الإيمان؟

و في الكتاب المقدس يقول: **مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي**.

كيف أن الله يغير رأيه هكذا ويعطي تعليمًا يناقض شخصه؟ ونجد أن القرآن يعطي تعليمًا يناقض شخصه، ثم يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، من يهدي إذًا القوم المؤمنين؟

والسائل يستنكر ما ورد في الآية وغيرها من الآيات عن الله ﷻ بأنه لا يهدي القوم الظالمين، وأنه سبحانه لا يهدي القوم الفاسقين، ويتعجب السائل: هل المؤمنون هم المحتاجون للهداية أم العصاة والمذنبون؟! ويري أن ذلك مناقضًا لما ورد في كتابهم المقدس بأن الله لا يهدي الأبرار، إنما يتوجه بالهداية إلى العصاة.

ويتلخص الرد على هذه القضية في هذه الوجوه:

الوجه الأول: تصحيح الفهم.

الوجه الثاني: معنى الآية.

الوجه الثالث: اتفاق معنى الآية مع شرح ما ورد من تعاليم في كتابهم المقدس.

الوجه الرابع: الفارق بين محبة الله ﷻ عند أهل الإسلام والنصارى.

الوجه الخامس: الهداية على أنواع؛ وليست هداية واحدة.

الوجه السادس: الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم.

الوجه السابع: كيفية تبرئة الخطاة عند النصارى، والوصول إلى الهداية عندهم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **تصحيح الفهم**.

السائل يفهم الآية على غير معناها، ويترتب على ذلك أن يستنبط ويتصور أمورًا منها ليست فيها، فإن الأمر ليس فيه مساومة بين الله ﷻ وخلقه كما يدَّعي السائل أن الآية تقصد ذلك؛ إنما غاية الأمر أن الله ﷻ يحذر ويتوعد الخلق (البشر) الذين يؤثرون الأشياء (الأباء، الأبناء، المساكن) على محبة الله ﷻ ويركنون إلى الدنيا بأن تحل عليهم عقوبته سبحانه وتعالى.

الوجه الثاني: **معنى الآية**.

إن معنى الآية هكذا ليس فيه تعارض وبين ما ورد في كتابهم المقدس الذين يخبرون فيه أن الله يقول: (من أحب أبًا أو أمًا أو إخوةً أو حقولًا أكثر مني لا يستحقني)، فالمعنى متطابق ولا تناقض ولا تعارض، فإنه هنا ينفي الاستحقاق للمحبة والرضا للذي يُؤْثِرُ محبة شيء من الدنيا على محبة الله ﷻ، ويتضح المعنى بجلاء عندما نذكر بعض ما ورد في تفاسير أهل الإسلام لمعاني هذه الآية، ونذكر منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة: ٢٤).

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: (قل) يا رسول الله، للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المُقام مع آبائكم، وأبنائكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم، وكانت (أموالٌ اقترفتموها) أي اكتسبتموها، (وتجارةٌ تخشون كسادها) بفراقكم بلدَكم، (ومساكنُ ترضونها) فسكنتموها (أحبَّ إليكم) من الهجرة إلى الله ورسوله، من دار الشرك، وأحب إليكم من الجهاد في سبيله، يعني: في نصرة دين الله الذي ارتضاه (فتربصوا) يعني: فتنظَّروا؛ أي: انتظروا (حتى يأتي الله بأمره) حتى يأتي الله بفتح مكة (والله لا يهدي القوم الفاسقين)، أي: والله لا يوفِّق للخير الخارِجين عن طاعته المنغمسين في معصيته[1].

فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله تعالى وعلى رسوله وجهاد في سبيله؛ أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه و نكاله بكم[2].

هذه آية شديدة، لا نرى أشد منها، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقدة الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه: هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشائر، والمال، والمساكن، وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أي طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيَّره. [3]

الوجه الثالث: اتفاق معنى الآية مع شرح ما ورد من تعاليم في كتابهم المقدس.

لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ، مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا، ٣٥ فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا، ٣٦ وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ

---

(١) جامع البيان للطبري (١٠/ ٩٩: ٩٨).

(٢) تفسير القرآن لابن كثير (٧/ ١٦٤).

(٣) محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي (٨/ ١٥٢).

أَهْلُ بَيْتِهِ، ٣٧مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، ٣٨وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي (متى ١٠/ ٣٤: ٣٨).

قد يفرق الالتزام المسيحي بين الأصدقاء والأحباء، ولم يكن الرب يسوع في قوله هذا يشجع عصيان الوالدين أو الصراع في البيت؛ بل بالحري أراد أن يبين أن وجوده يستلزم قرارًا، وحيث إن البعض سيتبعونه والبعض الآخر لن يتبعوه، فلا بد أن ينشب الصراع، فحالما نحمل صليبنا ونتبعه، فإن قيمنا وأخلاقياتنا وأهدافنا وغايتنا المختلفة لابد أن تفصلنا عن الآخرين، يجب ألا تهمل عائلتك، كما يجب ألا تهمل دعوتك العليا؛ إذ يجب أن يكون لله الأولوية المطلقة في حياتك.

ويدعونا المسيح إلى رسالةٍ أسمى في الحصول على الراحة والهدوء في هذه الحياة؛ فمحبة العائلة وصية من وصايا الله، ولكن هذه المحبة يمكن أن تكون لخدمة الذات، ومبررًا لعدم خدمة الله أو إنجاز عمله، لكي نحمل صليبنا ونتبع المسيح يلزم أن نطرح عنا كل الهموم والأولويات الأخرى، فعندئذٍ فقط نبدأ فقط في تحقيق التزامنا للمسيح، يجب أن نستسلم تمامًا لله في استعداد كامل لمواجهة أي شيء، ولو كان الموت والألم من أجله. (١)

قلت: فإنه بقراءة شرح عبارة كتابهم المقدس يتطابق معنى الآية وتفسيرها في أنه يجب أن يكون لله الأولوية المطلقة في حياتك، فلا تؤثر محبة شيء في الدنيا على محبة الله عز وجل.

الوجه الرابع: الفارق بين محبة الله عز وجل عند أهل الإسلام والنصارى.

و لكن هناك فارق بين أهل الإسلام والنصارى في المراد من (محبة الله).

فعند أهل الإسلام: محبة الله هي توجب عبوديتَه وطاعتَه وتَتَبُّعَ مرضاته واستفراغَ الجهد في التعبد له والإنابةِ إليه، وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها حتى لو فُرِضَ تجرده عن الأمر والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع واستخلص القلب للمعبود الحق. (٢)

(١) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس (١٩٠٥: ١٩٠٦).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٤١).

فهو سبحانه يستحق غاية الحب، والطاعة، والثناء، والمجد، والتعظيم لذاته ولما له من أوصاف الكمال، ونعوت الجلال، وحبه و الرضى به وعنه، والذل له والخضوع، والتعبد هو غاية سعادة النفس وكمالها، والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته. [١]

فعبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسولهﷺ.

بينما (محبة الله) عند النصارى تعني: أن الذي دفع الله إلى قتل المسيح على الصليب هو محبته للعالم، وفي ذلك هم يقولون: إن موت المسيح كان إعلانًا لمحبة الله، وأن الله هو الذي أخذ الخطوة الأولى في عملية الفداء، وذلك محبته للإنسان: (لأن الله كان في محبته لنا ونحن بعدُ خطاةُ مات المسيح لأجلنا)، ثم (أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ) رومية (٨/ ٣). ، ثم (اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟). (رومية٨/ ٣٢).

فمحبة الله التي تظهر في ذبيحة المسيح هي الأساس الذي يبني عليه الرسول (بولس) فكره اللاهوتي كله.

فانظر، هل يُعقل أن يحب الله البشر الخطاة أكثر من حبه للمسيح البار؛ فيضحي به من أجلهم؟! وهو لم يرتكب ذنبًا، فيُضرب ويُشتم ويُهان ويُعذب ويُصلب! ! ، وهم يقولون: إن الله فعل ذلك محبةً، فالمسألة إذن أن النصارى وإن كانوا يتفقون معنا في أن المؤمن يجب أن يؤثر محبة الله وأمره على كل شيء؛ إلا أنهم يختلفون معنا في المقصود بمحبة الله، فهم يعتقدون أن محبة الله تعني أنه مات وصُلب من أجل خطية آدم فداءً للبشر الخطاة.

بينما المسلمون يعنون بمحبة الله: تعظيمه وطاعته وتنفيذ أوامره، عبودية بكمال الحب والخضوع والذل، وبالتالي فإن النصارى يرفضون أي قول يخالف معتقدهم، ويحاولون

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤١٦).

التشكيك أو التحريف لمعاني الآيات؛ وذلك لتوافق مذهبهم الباطل.

الوجه الخامس: الهداية على أنواع؛ وليست هداية واحدة.

١- هداية مشتركة بين جميع المخلوقات: بأن أعطى الله ﷻ كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

٢- هداية البيان والتعريف والدلالة لطريق الخير والشر: وهي التي يقدر عليها الرسل وأتباعهم، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام؛ فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا لا ينبغي الهدى معها.

٣- هداية التوفيق والإلهام: وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، وهذه الهداية تفرد بها الله ﷻ، وهي تجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب.

٤- الهداية إلى الجنة والنار: المراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المؤدية إليها؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤-٥).

وسنذكر هذه الأنواع بشيء من التفصيل لتتضح الصورة-إن شاء الله-:

أولًا: إن المقصود والمراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤)، وما شابهها من الآيات هو أن الله ﷻ نفى عن هؤلاء القوم الظالمين والقوم الفاسقين حصول هداية التوفيق والإلهام والتأييد منه -سبحانه وتعالى- لهم، والتي تجيء بمعنى خلق الإيمان في قلوبهم، فمنعهم الله ﷻ هذه الهداية لخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى؛ ولظلمهم ولفسقهم، وإن كان لم يمنعهم الله ﷻ هداية البيان والدلالة التي تقوم بها على عباده في طاعتهم لله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

والقول بأن المؤمنين غير محتاجين إلى الهداية هذا قول غير صحيح أيضًا، فإن المؤمن يسأل ربه الهداية دومًا وباستمرار؛ ولذا يتوجه بهذا الدعاء في كل صلاة لحاجته إلى ذلك ولجهله بكثير مما يصلحه، وحاجته إلى عونه سبحانه في تحصيل ماينفعه، وأن يُثبِّته على الحق، وأن يزيده الله هدى ويلهمه رشده، وأن الله ﷻ هدى هؤلاء القوم الظالمين

والفاسقين هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا؛ فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه.

فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طـه: ٥٠) أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له؛ فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به؛ فَهَدَى الرِجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين، ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر، وأول وهلة، وأحسن طريق، وأشدها اختصارًا، وأبعدها من كل شبهة؛ فإنه لم يهمل هذه الحيوانات سدًى، ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه مهمَلًا، وسدًى معطَّلًا، لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته؟! هل يتركه معطَّلًا، لا يأمره، ولا ينهاه، ولا يثيبه، ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا منافٍ لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله؟!

ولهذا أَنْكَرَ ذلك على مَنْ زَعَمَه، ونَزَّهَ نفسه عنه، وبَيَّنَ أنه يستحيل نسبةُ ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى

ﵟاللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّﵞ (المؤمنون: ١١٥-١١٦)، فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانُه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع وكما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فَهِمَ هذا فَهِمَ سرَّ اقتران قوله تعالى: ﵟوَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ﵞ (الأنعام: ٣٨) بقوله: ﵟوَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَﵞ (الأنعام ٣٧: ٣٨) وكيف جاء ذلك في مَعْرِضِ جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأَنَّ مَنْ لم يهمل أمرَ كلِّ دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أُممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها، وكيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنَجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينتفي الهدى معها كقوله تعالى: ﵟوَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰﵞ (فصلت: ١٧). أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله: ﵟوَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍﵞ (الشورى: ٥٢).

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﵟفَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُﵞ (فاطر: ٨)، وقوله تعالى: ﵟإِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّﵞ (النحل: ٣٧)، وفي قول النبي ﷺ: "من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له"[1]، وفي قوله تعالى: ﵟإِنَّكَ

(١) النسائي (١٧٠٩)، والبيهقي في الكبرى (١٣٦٠٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٦٠)، وإرواء الغليل (٦٠٨).

﴿لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

النوع الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ (يونس: ٩)، وقال أهل الجنة فيها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ (الأعراف: ٤٣)، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ (الصافات ٢٣: ٢٢)[1].

والأمر الذي يحتاج إلى التفصيل(النوع الثاني، والثالث).

يقول القرطبي في تفسيره: الهدى هديان: هدى دلالة؛ وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ (القصص: ٥٦)، فالهدى على هذا يجيء بمعنى: خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ (البقرة: ٥)، وقوله: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ (يونس: ٢٥).

مرتبة البيان العام:

وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه بحيث يصير مشهودًا للقلب كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١٥﴾ (التوبة: ١١٥)، فهذا

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣٥: ٣٧).

الإضلال عقوبة منه لهم حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا به فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عَرفْت هذا عَرفْت سرَّ القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله مَنْ يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فالأول كفر عناد، والثاني كفر طبع، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له، فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فهذا هدى بعد البيان والدلالة وهو شرط لا موجب، فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء وهو هدى التوفيق والإلهام. وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية؛ وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله، وأسمائه، وصفاته، وكماله، وصدق ما أخبرت به رسلُه عنه؛ ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكير في آياته المشهودة، ويحضهم على التفكر في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضلُّ الله مَنْ يشاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾، فالرسل تبين والله هو الذي يضل مَنْ يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

البيان الخاص:

وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة؛ وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية البتة؛ قال تعالى في هذه

المرتبة: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾، فالبيان الأول شرط وهذا موجب؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (فاطر ١٩: ٢٣).

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ؛ فإن ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الآذان والقلب وتعلق بهما؛ فسماع لفظه حظ الأذن وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن؛ قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنبياء ٢: ٣)، وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه؛ بل يخرج السامع قائلًا للحاضر معه: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (محمد: ١٦)، والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن؛ ومرتبة الإفهام أعم فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه؛ ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته، ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب، ويترتب على هذا السماع سماع القبول فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة[1].

---

(١) مدارك السالكين لابن القيم (١/ ٤٤).

الوجه السادس: الهدى والضلال ومراتبهما، والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم

هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال. وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه، ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدى فأربع:

إحداها: الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى: البيان والدلالة و التعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى، وإرادته يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

المرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة.

المرتبة الأولي: الهداية العامة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ (الأعلى١: ٣)، فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير؛ قال عطاء: خلق فسوى: أحسن ما خلقه وشاهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة: ٧)، فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يُخُلُّ بالتناسب والاعتدال، وهذه الهداية العامة هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده، قال تعالى إخبارًا عن فرعون أنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه ٤٩: ٥٠)، قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان، وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى؛ قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته، وقال الحسن: أعطى كل شيء صلاحه، والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه؛ هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: (قدر فهدي)، فالله سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته[1].

المرتبة الثانية: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين:

وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرط فيه أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب؛ بل قد يتخلف عنه المقتضى؛ إما لعدم كمال السبب، أو لوجود مانع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة: ١١٥)، فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى، فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه، وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٣٥)، وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤) أي: جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها، وقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا

(١) شفاء العليل لابن القيم (١٤٠: ١٦٥).

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (آل عمران: ٨٦).

وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ونفى عنه ملك الهداية الموجبة؛ وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس: ٢٥)، فجمع سبحانه بين الهداء يتبين العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلًا، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلًا، وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامتها عليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الزمر٥٦: ٥٧).

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾﴾ (الملك ٨: ٩).

فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه؟ قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم، وأراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانًا، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرًا وباطنًا، ولم يَحُلْ بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه، نعم قطع عنهم توفيقه ولم يُرِدْ من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فما حال بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا

يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور لهم وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه، فتأمل هذا الموضع، وأعرف قدره والله المستعان.

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل.

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهذه المرتبة تستلزم أمرين: أحدهما فعل للرب تعالى وهو الهدى، والثاني فعل العبد وهو الاهتداء؛ وهو أثر فعله سبحانه، فهو الهادي والعبد المهتدي؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد؛ قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ (النحل: ٣٧).

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية: ٢٣)، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ (السجدة: ١٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)، ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم؛ بل الهدى كله منه، ولولا هدايتُه لهم لما اهتدوا وقال تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ (الزمر ٣٧: ٣٦).[١]

يتضح مما سبق: أن المقصود بالهداية في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وما شابهها من الآيات المقصود منها هداية التوفيق والإلهام والتأييد.

والهدى هنا يجيء بمعني: خلق الإيمان في القلب، وهذا لايكون إلا لله ﷻ وحده، وقد استحق هؤلاء القومُ الظالمون والفاسقون ذلك لخروجهم عن طاعة الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قولان: الأول: فتح مكة، الثاني: العقاب[٢].

وقال الحسن: بعقوبة آجلة أو عاجلة، أي: بقضائه، وهذا تهديد وتخويف[٣].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ يعني: الخارجين عن طاعته، وفي هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلمين ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا[٤].

ولما كان من آثر حب شيء من ذلك على حبه تعالى، كان مارقًا من دينه راجعًا إلى دين من آثره، وكان التقدير: فيصيبكم بقارعة لا تطيقونها ولا تهتدون إلى دفعها بنوع حيلة؛ لأنكم اخترتم لأنفسكم منابذة الهداية، ومعلوم أن من كان كذلك فهو مطبوع في الفسق، عطف عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الجامع لصفات الكمال، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ أي: لا يخلق الهداية في قلوب ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: الذين استعملوا ما عندهم من قوة القيام فيما يريدون من الفساد حتى صار

(١) شفاء العليل لابن القيم (١٦٩: ١٧١).

(٢) تفسير زاد المسير (٣/ ٤١٣).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٩١).

(٤) تفسير الخازن (٢/ ٣٤٤).

الفسق - وهو الخروج مما حقه المكث فيه و التقيد به وهو هنا الطاعة - خلقًا من أخلاقهم ولازمًا من لوازمهم؛ بل يَكِلُهم إلى نفوسهم فيخسروا الدنيا والآخرة[١].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونحوها من الآيات، ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة؛ فإنه حجته على عباده، وتأويل بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها: هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب؛ فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة، وهذا التأويل من أبطل الباطل؛ فإن الله سبحانه يخبر أنه قسم هدايته قسمين: قسمًا لا يقدر عليه غيره، وقسمًا مقدورًا للعباد فقط، في القسم المقدور للغير: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وقال في غير المقدور للغير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وقال: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾، ومعلوم قطعًا أن البيان والدلالة قد تحصل له ولا تُنفى عنه، وكذلك قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ لا يصح حمله على هداية الدعوة والبيان؛ فإن هذا يُهدى وإن أضله الله بالدعوة والبيان؛ قال ابن مسعود: ﷺ "علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة، والتشهد في الحاجة: إن الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ويقرأ ثلاث آيات: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾[٢].

وعند أبي داود عن عبد الله بن الحارث قال: خطب عمر بن الخطاب بالجابية، فحمد الله وأثنى عليه، وعنده جاثليق يترجم له ما يقول، فقال: من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، فنفض جبينه كالمنكر لما يقول، قال عمر: ما يقول؟

قالوا: يا أمير المؤمنين، يزعم أن الله لا يضل أحدًا، قال عمر: كذبت أي عدو الله؛ بل

---

(١) تفسير نظم الدرر للبقاعي (٣/ ٢٩٢).

(٢) الترمذي (١١٠٥) قال الترمذي: حديث صحيح، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٢٥٥).

الله خلقك وقد أضلك ثم يدخلك النار، أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك، إن الله ﷻ خلق أهل الجنة وما هم عاملون، وخلق أهل النار وما هم عاملون، فقال: هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه، قال: فتفرق الناس وما يختلفون في القدر(١).

حاجة المؤمن للهداية:

قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة: ١٦) أمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها وأمور هُدِيَ إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدىً، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خالٍ عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾؛ قال ابن كثير: أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها وألهمهم رشدهم(٣).

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان

(١) شفاء الغليل لابن القيم (١٧٤: ١٧٨).

(٢) شفاء الغليل (١٧٢).

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٧.

والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه وتزيينه في القلب وجعله مؤثرًا له راضيًا به راغبًا فيه، وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام[١].

فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة؛ لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه[٢].

الوجه السابع: كيفية تبرئة الخطاة عند النصارى، والوصول إلى الهداية عندهم.

النصارى يرون أن سبيل الحصول على الخلاص من الخطية هو الإيمان بالمسيح مخلصًا، وأنه مات على الصليب فداءً للبشر من خطية آدم، وهم يشرحون طريقة الخلاص كالآتي:

التبرير[٣]: هو إعلان البر: أي إعلان لا ذنب لمن اعتُبر مذنبًا. . وهو قبول الإنسان لنعمة بها يمنحه الله مغفرة ذنوبه ومصالحته معه، وتدل اللفظة على أن الإنسان المذنب يتقبل برَّ الله فيصبح بارًا بفعل شاءته نعمة الله، فيحصل على دينونة لصالحه، مع أن هذا ليس أمرًا عاديًا، ولا يمكن للإنسان أن يتوقعه.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٦١).

(٣) انظر المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم (٣١٥ وما بعدها).

مراحل التبرير:

بما أن الخطيئة (أكل آدم من الشجرة) التي هي تمرد على مشيئة الله تسود العالم- قرر الله أن يحرر الإنسان من العبودية ومن لعنة الخطيئة؛ هذا هو السبب (في نظر المسيحي) الذي لأجله أرسل الله ابنه الذي يتم فداء الإنسان من يد الشر (موت المسيح على الصليب فداءً لخطايا البشر كما يزعمون).

هذا يسمى سر الفداء، فالله بالمسيح يظهر في نعمته بره الذي يتلاقى مع حبه، به يعطي الله حقًّا بره للإنسان.

يليق بالإنسان أن يتقبل في ذاته نعمة الفداء، والطريقة التي بها يدرك نداءه وخلاصه هي التبرير بحصر المعنى، وهكذا يكون للمؤمن البَرِّ الذي يقدم له، بما أنه يؤمن فهو يدخل في مخطط الله ويعلن اتفاقه مع الله من أجل تحقيق خلاصه.

وتحصل حركة أخيرة في الإنسان الذي تأكد الآن من خلاصه؛ فالذي يعرف أنه تبرر بالمسيح يحس بنفسه مدفوعًا ليعبر بدوره عن امتنانه وحبه بأعمال تبرهن على أنه ارتبط بمشروع الله؛ هذا ما يسمى التقديس.

والتقديس يعني: أن المؤمن انفتح على قداسة الحياة، بهذه الطريقة يكتمل عمل خلاص الله، ونحن عارفون أن هذه الحركات الثلاث تتداخل من وجهة الله فتكوِّن وحدةً واحدةً.

فالله (يفتدي) لكي (يبرر)، ويبرر لكي يقدِّس، فهدفه واحد، وهو يفعل في الإنسان بحيث يخلصه.

* * *

سورة يونس

وفيها:

١- شبهة: حول نجاة فرعون من الغرق.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١- شبهة: حول نجاة فرعون من الغرق.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ (القصص: ٤٠)، ذكرت آية أن فرعون غرق، وفي الأخرى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (يونس: ٩٢) أي: أنه لم يغرق، ثم إن التوراة لم تذكر خبرًا عن غرق فرعون، وقد أيدت التواريخ أن فرعون موسى لم يغرق؛ لأنه لم يخرج مع جيشه.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى ننجيك ببدنك.

الوجه الثاني: الجمع بين الآيتين.

الوجه الثالث: تأييد العلم الحديث ما أخبر به القرآن عن غرق فرعون.

الوجه الرابع: تناقض في التوراة حول غرق فرعون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (يونس: ٩٢)

إن المعترض على الآية الكريمة فهم منها أن الآية تخاطب فرعون بأنك اليوم ستنجو ببدنك من الغرق؛ بمعنى: أنك لن تموت غريقًا مع جنودك -هكذا ظن-، في حين أن الآية الأخرى تثبت له الغرق مع جنوده، ولو دقق النظر في هذه الآية لما استشكل فهمها عليه، وقد ذكر المفسرون عدة معاني لهذه الآية الكريمة منها:

(١) يقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ ينظر إليك هالكًا من كذَّب بهلاكك، والنجوة: الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض[1].

(٢) ويجوز أن يكون المعني: نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق[1].

---

(١) تفسير الطبري١١/ ١٦٤ بتصرف، تفسير الرازي١٧/ ١٥٦، فتح الباري٨/ ١٩٩.

(٣) ويجوز أن يكون المعنى على سبيل التهكم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كأنه قيل له: ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال: نعتقك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت[٢].

ولعل في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: في تنصيص الآية على كلمة ﴿بِبَدَنِكَ﴾ ما يشير إلى أنه قد مات بعد أن أغرقه الله؛ لأنه لا تكون النجاة بغير البدن، فإذا نجا الإنسان فلا حاجة إلى القول (نجا ببدنه)، فلما نص تعالى على كلمة ﴿بِبَدَنِكَ﴾ علم أنه نجا البدن بغير روح، إذا كان جائزًا أن ينجيه بهيئته حيًا[٣].

الوجه الثاني: الجمع بين الآيتين.

وبعد أن عرضنا للمعاني المتنوعة للآية الأولى - وهي معانٍ متوافقة وليست متعارضة- يمكن الآن الجمع بين الآيتين:

فالأولى التي في سورة القصص: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تبين الغرق للجميع لفرعون وجنوده؛ وهو كذلك، وتؤيده الآية الثانية أن فرعون غرق مع الغارقين إلا أنه تميز عنهم بأنه نجا ببدنه بعد أن فارقته الروح، ولكن الآخرين لم يعثر لهم على أثر، وسبب نجاة بدن فرعون ذكرته الآية الكريمة: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ فكان في نجاة فرعون ببدنه ووجود بدنه إلى عصرنا هذا أكبر آية على قدرة الله تعالى وإهلاكه للظالمين، وفيه آية لمن اتعظ واعتبر.

وعن ابن عباس ﷺ قال: فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف في المدائن من قوم

---

(١) تفسير الرازي١٧/ ١٥٦.

(٢) تفسير الرازي ١٧/ ١٥٧.

(٣) الطبري١١/ ١٦٦، الرازي١٧/ ١٥٦ بتصرف يسير.

فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه، ولكنهم في جزائر البحر يتصيدون، فأوحي إلى البحر أن الفظ فرعون عريانًا، فلفظه عريانًا أصلع أخيبس قصيرًا، فهو قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[1].

الوجه الثالث: تأييد العلم الحديث ما أخبر به القرآن عن غرق فرعون.

وها أنا أنقل هذه القصة بنصها عن أشهر الجراحين الفرنسيين (موريس بوكاي) رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس، اعتنق الإسلام عام (١٩٨٢م)، وكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت حياته وغيرت كيانه وهي:

(اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتمامًا بالآثار والتراث، وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام (١٩٨١م) طلبت فرنسا من (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة، فتم نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر، وهناك وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسي منحنيًا هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور (موريس بوكاي)، وكان البروفيسور(موريس بوكاي) يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائي، لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقًا، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فورًا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه، لكن ثمة أمرًا غريبًا مازال يحيره؛ وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٦٨) بإسناد ضعيف، وانظر في هذا (دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر)٣٢٧.

استخرجت من البحر؟! كان (موريس بوكاي) يُعد تقريرًا نهائيًا عما كان يعتقده اكتشافًا جديدًا في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلًا: لا تتعجل فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء، ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، فقال له أحدهم: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق، فازداد ذهولًا وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا؟ وهذه المومياء لم تكتشف أصلًا إلا في عام (١٨٩٨) ميلادية أي: قبل مائتي عامٍ تقريبًا، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئًا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟

جلس (موريس بوكاي) ليلته محدقًا بجثمان فرعون يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق، بينما كتابهم المقدس (إنجيل متى ولوقا) يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة... وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟! وهل يعقل أن يعرف محمدُهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟!

لم يستطعْ (موريس) أن ينام، وطلب أن يأتوا له بالتوراة فأخذ يقرأ في سفر الخروج من التوراة قوله: (فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ) (الخروج: ١٤/ ٢٨)، وبقي (موريس بوكاي) حائرًا، حتى الإنجيل لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون،

ولكن (موريس) لم يهنأ له قرار، ولم يهدأ له بال منذ أن هزَّه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة.

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين، وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق. . . فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (يونس: ٩٢).

لقد كان وقع الآية عليه شديدًا، ورجت له نفسه رجةً جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن).

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذى ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثًا مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هزَّ الدول الغربية قاطبة، ورج علماءها رجًا، لقد كان عنوان الكتاب: (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. . . دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة). . . فماذا فعل هذا الكتاب؟ من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات[1].

الوجه الرابع: تناقض في التوراة حول غرق فرعون.

فقد ورد في التوراة أن فرعون لم يغرق، وأنه موجود فيها مايدل على غرقه، وهذا هو التناقض الذي نسبه إلى القرآن، ونسأله هو أن يوفق بين المعنيين المتناقضين، وما يجيب به في التوفيق يكون إجابةً لنا.

---

(١) (رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا) لعبد الرحمن محمود.

ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج (١٤/ ٢٨): (فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ) وفي الإصحاح الخامس عشر من نفس السفر: (**تُغَطِّيهِمُ اللُّجَجُ. قَدْ هَبَطُوا فِي الأَعْمَاقِ كَحَجَرٍ**).

وفي التوراة ما نصه: (ولا سبيل لنا هنا إلى الحكم بغرق فرعون، إذ لا دلالة عليا في هذا النبأ، ولا من قول المرنم) (مزمور ٥٣: ٧٨، ١١: ١٠٦)، وساق المفسرون أربع حجج على عدم غرقه، ومعنى قوله: إن قول المرنم لا يدل على غرقه هو أن داود ﷺ في المزمور٧٨ والمزمور١٠٦ قال كلامًا عن فرعون لا يدل صراحةً على غرقه؛ ونص(٣: ٧٨) هو: (أما أعدائهم فغمرهم البحر)، ونص(١١: ١٠٦)هو: (وَغَطَّتِ الْمِيَاهُ مُضَايِقِيهِمْ. وَاحِدٌ مِنْهُمْ لَمْ يَبْقَ.).

هذا عن عدم غرق فرعون، أما عن غرقه ففي المزمور(١٥: ١٣٦): (ودفع فرعون قوته في بحر يوسف، لأبه إلى الأبد رحمته)، وفي ترجمة أخرى: (أغرق فرغون وجيشه في البحر الأحمر إلى الأبد رحمته)، و مفسروا الزبور – وهم أنفسهم الذين صرحوا بعدم غرق فرعون- كتبوا عن فرعون: (فإن هذا الأخير قد حاول جهد المستطاع أن يرجع الإسرائيليين إلى عبوديتهم، فما تم له ما أراد، بل اندحر شر اندحار).

فنحن نطالب المعترض أن يجيب أولًا عن هذا التناقض الموجود في كتابه الذي يؤمن به ثم يعترض على القرآن.

* * * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

نص الشبهة:

قال تعالى في سورة (يونس: ٩٤): ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

والسؤال: هذا حال كل مسلم عندما يرى الاختلافات بين القرآن والكتاب المقدس ويتساءل أين الحقيقة؟ عليه حسب هذه الوصية أن يسأل الذين يقرءون الكتاب أي: أهل الكتاب؟ وهذه وصية لا تطاع عند المسلمين، وكررها أيضًا في (الأنبياء: ٧): ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ثم إذا كان الله يتكلم إلى نبي الإسلام، لماذا يعطيه كلامًا فيه شك؟ وإذا سأل أهل الكتاب وقالوا له الحقيقة المغايرة لما كتب في القرآن ماذا يفعل؟!

والرد من وجوه:

الوجه الأول:

ليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلًا؛ فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾. (١)

وقد يتعلق الحكم بشرط ممتنع لبيان حكمه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأنعام٨٨).

فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون مع انتفاء الشرك عنهم؛ بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا، ولأن الأنبياء معصومون من الشرك، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٦)، تفسير البحر المحيط (٥/ ١٩٠).

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الزمر٦٥)، والنبي ﷺ لم يكن شاكًا ولا سأل أحدًا منهم[١].

وقد روي عن قتادة مرسلًا عن النبي ﷺ قال: "والله لا أشك ولا أسأل"[٢].

الوجه الثاني:

ذكر المفسرون أن الخطاب في الآية الكريمة إما أنه للنبي ﷺ، وإما أنه لغير النبي ﷺ، **فإذا كان الخطاب للنبي ﷺ يكون المعنى على أوجه:**

الأول: أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٠). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ٩٧) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ (الأنعام: ٢٠)

فالمقصود: بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه:

(**أحدها**) أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك، فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف: ٤٥).

(**ثانيها**) أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم؛ لم يرسل ملكًا، فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكًا، أو بشرًا معه ملك، ويتعجبون من

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١).

إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٤) وغيرها من الآيات الكثيرة. . . فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا ليقيم الحجة بذلك على مَنْ أنكر إرسال بشر كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء).

(**ثالثها**) أنه أمر بسؤال أهل الكتب عما جرى للرسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

(**رابعها**) أنهم يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والنهي عن الشرك، والظلم والفواحش.

(**خامسها**) أنهم يسألون أهل الكتاب عما وصف به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد ﷺ أم لا؟

وهذه الأمور المسئول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلومًا لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلومًا لهم بالتواتر.

(**سادسها**) أنهم يسألون أيضًا عما عندهم من البشارات والشهادات بنبوة محمد ﷺ، وقد أخبر الله بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقال تعالى عن مَنْ أثنى عليه من النصارى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (المائدة: ٨٣).

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم، وكان أهل الكتاب قبل أن يبعث النبي ﷺ تجري حروب بين العرب وبين أهل الكتاب فيقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به[١].

الثاني: أن الخطاب للنبي ﷺ في الظاهر، والمراد غيره ممن شك، وعندئذ يكون معنى الآية:

قل يا محمد: يا أيها الإنسان الشاك إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد ﷺ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب يخبروك بصحته[٢].

ويشبه هذا الخطاب آيات كثيرة في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وكقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومن الأمثلة المشهورة: (إياك أعني واسمعي يا جارة).

والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه:

(**أولها**): قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

(**ثانيها**): أن الرسول لو كان شاكًا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية.

(**ثالثها**): أن بتقدير أن يكون شاكًا في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار؟ وإن حصل فيهم من كان مؤمنًا إلا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل، فالكل مصحف محرف، فثبت

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٢٩٤-٢٩٧)، وممن قال بهذا المعنى أيضًا ابن حزم في الملل والنحل (١/ ٢٧٠).

(٢) تفسير الخازن (٢/ ٤٦٤)، تفسير القرطبي (٨/ ٣٥٢)، زاد المسير (٤/ ٦٣).

أن الحق هو أن هذا الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ إلا أن المراد هو الأمة، ومثل هذا معتاد فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع؛ فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه إليهم؛ بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير الذي جعله أميرًا إليهم؛ ليكون ذلك أقوى تأثيرًا في قلوبهم(١).

الوجه الثالث: أنه تعالى علم أن الرسول ﷺ لم يشك في ذلك؛ فيكون المراد بهذا التهييج إنه ﷺ إذا سمع الكلام يقول: لا أشك يا رب، ولا أسأل أهل الكتاب، بل أكتفي بما أنزلته عليَّ من الدلائل الظاهرة(٢).

ونظيره قول الله تعالى للملائكة: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ: ٤٠)، والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤١)، وكما قال لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦)، والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذلك هنا(٣).

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٨٧) ولزيادة التثبيت والعصمة(٤).

الوجه الرابع: هو أن محمدًا ﷺ كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٠-١٦١).

(٢) تفسير الخازن (٢/ ٤٦٤).

(٣) تفسير الرازي (١٧/ ١٦١).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٣٧٠).

صَدۡرُكَ﴾ (هود: ١٢)، وتمام التقرير في هذا الباب أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ فافعل كذا وكذا قضية شرطية، والقضية الشرطية لا إشعار فيها البتة بأن الشرط وقع أو لم يقع، ولا بأن الجزاء وقع أولم يقع، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمه لماهية ذلك الجزاء فقط.

والدليل على هذا أنك إذا قلت: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهو كلام حق؛ لأن معناه أن كون الخمسة زوجًا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ها هنا هذه الآية، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا، فأما إن كان هذا الشك وقع أو لم يقع، فليس في الآية دلالة عليه.

والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول ﷺ أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة[1].

الوجه الخامس: أن المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات، وذلك الاستحياء صار مانعًا لهم عن قبول الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل، يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلًا على نبوته هو نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فإنه ليس فيه عيب، ولا يحصل بسببه نقصان فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى.

فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات[1].

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٦١)، فتح البيان (٦/ ١٢٣).

الوجه السادس: أن الشك في الآية ضيق الصدر؛ أي: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم. والشك في اللغة أصله الضيق، يقال: شك الثوب أي: ضمه بخلال حتى يصير كالوعاء، وكذلك السفرة تمد علائقها حتى تنقبض، فالشك يقبض الصدر، ويضمه حتى يضيق(٢).

الوجه السابع: هو أن لفظ (إن) في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ للنفي أي: ما كنت في شك قبل، يعني: لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك، لكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى يقينًا(٣).

الوجه الثامن: أنه كنى بالشك عن العجب أي: فإن كنت في تعجب من عناد فرعون، ومناسبة المجاز أن التعجب فيه تردد، كما أن الشك تردد بين أمرين(٤).

الوجه التاسع: أن (إن) في هذه الآية ليست التي بمعنى الشرط؛ لأن من المحال العظيم الذي يتمثل في فهم من له مسكة من فهم أن يكون إنسان يدعو إلى دين يقاتل عليه، وينازع فيه أهل الأرض، ويدين به أهل البلاد العظيمة ثم يقول لهم: إني في شك مما أقاتلكم عليه أيها المخالفون، ولست على يقين مما أدعوكم إليه وأحققه لكم أيها التابعون، وإنما معنى (إن) هنا: الجحد، فهي هنا بمعنى: (ما) وهذا المعنى هو أحد موضوعاتها في اللغة العربية، كما قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨) بمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون، كما ذكر الله ﷻ عن الأنبياء أنهم قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم: ١١) وكما قال تعالى مخبرًا عن النسوة إذ رأين يوسف عليه السلام فقلن: ﴿إِنْ

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٣٥٢)، فتح البيان (٦/ ١٢٣).

(٣) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢)، زاد المسير (٤/ ٦٣)، الكشاف (٢/ ٣٧١).

(٤) تفسير البحر المحيط (٣/ ١٩١).

﴿هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١) بمعنى: ما هذا إلا ملك كريم، وكما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٧) أي: ما كنا فاعلين، فعلى هذا المعنى خاطب نبيه ﷺ: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (يونس: ٩٤) بمعنى: ولا أعدائك الذين يقاتلونك من الذين أوتوا الكتاب من قبلك ما هم أيضًا في شك مما أنزلنا إليك؛ بل هم موقنون بصحة قولك وإنك نبي حق رسول الله ﷺ، لا شك عندهم في أن الذي جاءك الحق، ومثل هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦) تهوينًا له، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف: ٨١) بمعنى: ما كان للرحمن ولد، فأنا أول الجاهدين لا يكون له ولد[1].

الوجه العاشر: أن يكون التقدير أنك لست شاكًا البتة، ولو كنت شاكًا لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ والمعنى: أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعًا لزم منه المحال الفلاني فكذا هاهنا.

ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل، وهذه الشبهة باطلة[2].

الوجه الحادي عشر: إن كنت في شك أن هذا عادتهم مع الأنبياء؛ فسلهم كيف كان صبر موسى عليه السلام حين اختلفوا عليه؟[3].

الوجه الثاني عشر: المعنى أن الله ﷻ خاطب النبي ﷺ وذلك الخطاب شامل للخلق، فالمعنى: إن كنتم في شك فاسألوا، والدليل على ذلك قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) رسالة لابن حزم في الرد على ابن الفريلة اليهودي (٣/ ٥٣-٥٤).

(٢) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢)، فتح البيان (٦/ ١٢٣).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٩١) نقلًا عن الكسائي.

ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (يونس: ١٠٤).

فأعلم أن الله ﷻ خاطب النبي ﷺ ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك، والدليل على أن المخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة للناس قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقال: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ولفظ أول الخطاب للنبي ﷺ وحده[1].

الوجه الثالث عشر: أن معنى الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ذكره ـ يقول لنبيه ﷺ: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقية ما أخبرناك وأنزل إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولًا إلى خلقه؛ لأنهم يجدونك عندهم مكتوبًا، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل؛ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك من أهل التوراة والإنجيل كـ(عبد الله بن سلام) ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم دون أهل الكذب والكفر بك منهم. وبهذا المعنى قال ابن عباس، وابن زيد، ومجاهد، والضحاك.

فإن قال قائل: أَوَ كان رسول الله ﷺ في شك من خبر الله أنه حق يقين حتى قيل له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس: ٩٤)؟

قيل: لا، وبهذا قال جماعة من أهل العلم مثل: سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

فإن قال: فما وجه مخرج الكلام إذن إن كان الأمر على ما وصفت؟

قيل: قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا استجازة العرب قول القائل منهم لمملوكه:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٢)، ولكن نقل الرازي في تفسيره عن القاضي ردًا على قول الزجاج السابق فقال (يعني القاضي): هذا بعيد؛ لأنه متى كان الرسول ﷺ داخلًا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال، سواءً أريد معه غيره أو لم يرد وإن جاز أن يراد هو مع غيره، فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر، تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢).

إن كنت مملوكي فانته إلى أمري، والعبد المأمور بذلك لا يشك سيده القائل له ذلك أنه عبده، كذلك قول الرجل منهم لابنه: إن كنت ابني فَبِرَّنِي، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، وإن ذلك من كلامهم صحيح مستفيض فيهم، وذكرنا ذلك بشواهد، وأن منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك، وهذا من ذلك لم يكن ﷺ شاكًا في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضًا؛ إذ القرآن بلسانهم نزل[1].

وإذا كان الخطاب لغير رسول الله ﷺ: فيكون المعنى: أن الناس في زمانه ﷺ كانوا فرقًا ثلاثة: المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ ولم يرد في جميع هذه الآيات إنسانًا بعينه؛ بل المراد هم الجماعة فكذا ههنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾[2].

* * *

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٦٧-١٦٩)، المنار (١١/ ٤٨٠).

(٢) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٣)، التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٤)، الخازن (٢/ ٤٦٤).

سورة هود

شبهة: حول ضيوف إبراهيم.

نص الشبهة:

ضيوف إبراهيم أكلوا، وأنه لم يخف من شيء، وكيف لامرأته أن تصك وجهها، وكيف لها أن تخدمهم وتجلس معهم؟ وكذلك القرآن لم يذكر عدد الضيوف؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: الرد على إنكارهم أن الضيوف لم يأكلوا، وأنه لم يخف من شيء.

الوجه الثالث: الرد على إنكارهم خدمتها لهم.

الوجه الرابع: الرد على إنكارهم لصك امرأة إبراهيم وجهها، وأن القرآن لم يذكر عدد الضيوف.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود: ٦٩- ٧١).

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ من الملائكة، وهم فيما ذُكر كانوا جبريل وملكين آخرين، وقيل: إن الملكين الآخرين كانا ميكائيل وإسرافيل معه، ﴿بالبشرى﴾ يعني بالبشارة بإسحاق[(١)]. وقال بعضهم: هي البشارة بهلاك قوم لوط[(٢)].

---

(١) وهذا الراجح لقوله بعد ذلك: (فبشرناها بإسحاق. . .)، وانظر أضواء البيان (٣/ ٢٥- ٢٦).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٦٨).

قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ سارة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ؛ وهي ابنة عم إبراهيم، ﴿ قَآئِمَةٞ ﴾ قيل: كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيم عليه السلام، وقيل: كانت قائمة تخدُم الرسل، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل(١).

وقوله: ﴿ فَضَحِكَتۡ ﴾: اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿ فَضَحِكَتۡ ﴾ وفي السبب الذي من أجله ضحكت، وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بالصواب قولُ من قال: معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ فعجبت من غفلة قوم لوط عما قد أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب؛ لأنه ذكر عقيب قولهم لإبراهيم: ﴿تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ (هود: ٧٠)، فإذا كان ذلك كذلك، وكان لاوجه للضحك والتعجب من قولهم لإبراهيم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ كان الضحك والتعجب إنما هو من أمر قوم لوط(٢).

الوجه الثاني: الرد على إنكارهم أن الضيوف لم يأكلوا، وأنه لم يخف من شيء.

أما قولهم: إن الرجال في الحقيقة أكلوا، فهذا خلاف ما جاء في القرآن، واحتجاجهم بالتوراة لا يجوز؛ لأنها محرفة، فالضيوف لم يأكلوا وأصاب إبراهيم من ذلك خوف؛ لأن العرب كانت إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم، ظنوا أنه لم يجئ بخير، وأنه يحدِّث نفسه بشرّ(٣).

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ . . . ﴾ دليل على أنهم لم يأكلوا، ولأنهم في الأصل ملائكة؛ وهم لا يشر بون، ولا يأكلون، ولا ينامون، ولا يتزوجون، ولا يتغوطون.

الوجه الثالث: الرد على إنكارهم خدمتها لهم.

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٧١).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٧٤).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٧١).

وأما قولهم: إن عبارة القرآن تفيد أنها كانت مع الضيوف تخدمهم فعبارة القرآن: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ فلعلها كانت قائمة من وراء الستر تستمع كلامهم(١).

وإن كانت معهم تخدمهم فليس هذا عيب، فلا بد أنها كانت بحجابها، ثم هي امرأة عجوز من القواعد، ثم إن إبراهيم عليه السلام رجل مسن لا يستطيع أن يخدمهم بنفسه، وقد ورد حديث عن سهل بن سعد قال: دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله ﷺ في عرسه، فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهى العروس، قال سهل: أتدرون ما سقت رسول الله ﷺ؟ أنقعت له تمرات من الليل في تور، فلما أكل سقته إياه(٢).

وترجم له البخاري " باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس ".

قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عرسها، وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويستخدمهن لهم، ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب، والله أعلم(٣).

قال ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث جَوَاز خِدْمَة الْمَرْأَة زَوْجهَا وَمَنْ يَدْعُوهُ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ مَحَلّ ذَلِكَ عِنْد أَمْن الْفِتْنَة وَمُرَاعَاة مَا يَجِب عَلَيْهَا مِنْ السِّتْر، وَجَوَاز اِسْتِخْدَام الرَّجُل اِمْرَأَته فِي مِثْل ذَلِكَ، وَشُرْب مَا لَا يُسْكِر فِي الْوَلِيمَة، وَفِيهِ جَوَاز إِيثَار كَبِير الْقَوْم فِي الْوَلِيمَة بِشَيْءٍ دُون مَنْ مَعَهُ(٤).

وقال أبو حيان: وكانت نساؤهم لا تحتجب كعادة الأعراب، ونازلة البوادي والصحراء، ولم يكن التبرج مكروهًا، وكانت عجوزًا، وخدمة الضيفان مما يعد من مكارم الأخلاق(٥).

الوجه الرابع: الرد على إنكارهم لصك امرأة إبراهيم وجهها.

وأما قولهم: إن امرأته لم تقبل في صرة، ولم تصك وجهها، وأن هذا لا يليق وغير جائز.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧٦-٥١٨٢)، مسلم (٢٠٠٦).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٧١).

(٤) فتح الباري (٩/ ١٦٠).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٤٣).

فقد قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أقبلت على أهلها، وذلك لأنها كانت في خدمتهم، ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: صيحة، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئًا من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب، ويحتمل أن يقال: تلك الصيحة كانت بقولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ تدل عليه الآية التي في سورة (هود: ٧٢) وصك الوجه أيضًا من عادتهن، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما:

أحدهما: كبر السن، والثاني: العقم؛ لأنها كانت لا تلد في صغر سنها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت[١].

ثم هي ليست بمعصومة، ثم إن الأمر في غاية العجب.

وقال أيضًا أبو حيان: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمته، وكذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه، وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء[٢].

وأما قولهم: إن القرآن لم يذكر عدد ضيوف إبراهيم.

فنقول: وما الفائدة من ذكر عدد الضيوف؟ هذا الأمر لا يقدم ولا يؤخر، بل هذا تنطع، وعلينا أن نسكت عما سكت عنه القرآن، ولم يرد في السنة تحديد عددهم، خاصةً عند عدم الفائدة.

فالقرآن يقص علينا نبأ المرسلين للعبرة والعظة، وأما ما لا منفعة فيه فالقرآن منزه عن ذلك، ولكن القوم تعودوا من كتابهم المحرف ذكر القصص التي لا منفعة فيها، وإليك أمثلة على ذلك:

فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. (التكوين ٣/ ١٤).

---

(١) تفسير الرازي (٢٨/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٤٣).

(لوقا١٤/ ١٩): وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ خَمْسَةَ أَزْوَاجِ بَقَرٍ، وَأَنَا مَاضٍ لأَمْتَحِنَهَا. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي.

السمك المجاني: قَدْ تَذَكَّرْنَا السَّمَكَ الَّذِي كُنَّا نَأْكُلُهُ فِي مِصْرَ مَجَّانًا، وَالْقِثَّاءَ وَالْبَطِّيخَ وَالْكُرَّاثَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ. (سفر العدد١١/ ٥).

كلام غريب: وَيَدْخُلُ مَاءُ اللَّعْنَةِ هذَا فِي أَحْشَائِكِ لِوَرَمِ الْبَطْنِ، وَلإِسْقَاطِ الْفَخْذِ. فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: آمِينَ، آمِينَ. (سفر العدد٥/ ٢٢).

وفي سفر(الرؤيا ٦/ ٦): وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي وَسَطِ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلًا: «ثُمْنِيَّةُ قَمْحٍ بِدِينَارٍ، وَثَلاَثُ ثَمَانِيِّ شَعِيرٍ بِدِينَارٍ. وَأَمَّا الزَّيْتُ وَالْخَمْرُ فَلاَ تَضُرَّهُمَا

وفي(الرؤيا ١٧/ ٦): وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا تَعَجُّبًا عَظِيمًا!

* * * *

سورة يوسف

وفيها:

١- شبهات عن يعقوب و يوسف عليهما السلام.

٢- شبهة: أن يوسف همَّ بالفساد.

٣- شبهة: يوسف عليه السلام استغاث بغير الله تعالى.

٤- شبهة: أن تعبير يوسف عليه السلام للرؤيا لم يكن على الحقيقة، بدليل قوله تعالى: ﴿ظَنَّ﴾.

٥- شبهة: حول قول يوسف عليه السلام: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

٦- شبهة: أن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه عز وجل.

٧- شبهة: كيف يطلب يوسف عليه السلام الولاية؟.

٨- شبهة: يوسف عليه السلام يزكي نفسه.

٩- شبهة: حول عمل يوسف عليه السلام عند الكفار.

١٠- شبهة: حول إيواء يوسف أبويه قبل الدخول، وقوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ بعد دخولهم عليه.

١١- شبهة: حول السجود للآدمي.

١- شبهات عن يعقوب ويوسف عليهما السلام.

الشبهة الأولى: كيف يفضل يعقوب عليه السلام بعض أولاده على بعض؟

والرد عليها كما يلي:

١- أن يعقوب عليه السلام ما فضلهما (يوسف وأخوه) على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورًا.

٢- أن أمهما ماتت وهما صغار.

٣-كان يعقوب عليه السلام يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد.

٤-لعل يوسف عليه السلام وإن كان صغيرًا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع الخدمة أشرف وأعلى بما كان يصدر عن سائر الأولاد.

فهذه المسألة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس، وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه[(١)].

فحب يعقوب عليه السلام ليوسف وأخيه لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر، وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يبرأ. [(٢)]

٥- واعلم - هداك الله -: إن دعواهم أنّ يوسف عليه السلام وأخاه أحبّ إلى يعقوب عليه السلام منهم يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدّةُ الغيرة من أفضليّة يوسف عليه السلام وأخيه عليهم في الكمالات، وربّما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف عليه السلام وأخيه في أعمال تصدر منهما، أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما، أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمّهما، فتوهّموا من ذلك أنّه أشدّ حبًّا إيّاهما منهم توهّمًا باطلًا. ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبّته إيّاهما أمرًا لا يملك صرفه عن نفسه لأنّه وجدان، ولكنّه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات، والأمور الظاهريّة، ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبّة أبيهم

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٩٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٢١).

إيّاهما من التوسّم، والقرائن، لا من تفضيلهما في المعاملة فلا يكون يعقوب ﷺ مؤاخذًا بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة.

وجملة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ في موضع الحال من ﴿أَحَبُّ﴾ أي: ونحن أكثر عددًا، والمقصود من الحال التعجّب من تفضيلهما في الحبّ في حال أنّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدّ من رجائه منهما بناءً على ما هو الشائع عند عامّة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنوا مدارك يعقوب ﷺ مساوية لمدارك الدّهماء، والعقولُ قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أنّ ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره مَن دونهم[1].

وقارن بين أدب يوسف وهو يقص على أبيه الرؤيا وهو يقول: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾، وبين قولهم عن أبيهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لتعلم الفرق الذي من أجله أحب يعقوب ﷺ يوسف ﷺ أكثر منهم فلم يكن تفضيله إياه عن هوى نفس، أو إعجاب بهيئة، وجمال ظاهر، أو تفضيل زوجة على زوجة أخرى بتفضيل أولادها، فإن نبي الله منزه عن ذلك، إنما كان تفضيله ليوسف ـ إن كان حدث التفضيل ـ لما رأى من صفات النجابة، وحسن الأدب، وكمال العقل، وعلامات الاجتباء، والاصطفاء، ودلائل التفضيل الإلهي، والإعداد لوراثة النبوة.

ولا شك أن المؤمن يحب في الله من يراه أكثر طاعة، وموافقته لدين الله الذي يحبه ويرضاه سبحانه لعباده، والأب الذي يفضل في المحبة ابنه المطيع على ابنه العاصي ليس بظالمٍ، ولا معتدٍ، وإنما الجور الذي حذر منه النبي ﷺ هو في العطية الدنيوية، فلا يجوز تفضيل بعض الأولاد فيها على بعض بغير سبب كمرض، أو أمانة، أو فقر، أو حاجة وسمى النبي ﷺ تفضيل بعض الولد في العطية جورًا، فقال للبشير والد النعمان بن بشير

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٥).

لما أراد أن يخصه بهبة: "لا تشهدني على جور»[١]، وقال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم"[٢]، وظاهر هذه الأحاديث وجوب العدل بين الأولاد والتسوية بينهم في العطية.

والمقصود أن التفضيل في المحبة بناءً على الصفات والأخلاق ليس من التفضيل المنهي عنه لذلك لم يكن يعقوب عليه السلام مخطئًا، ولا مخالفًا للأولى في شدة محبته ليوسف عليه السلام وأخيه على بقية أبنائه[٣].

الشبهة الثانية: كيف يفعل إخوة يوسف هذا الكذب والحسد وتضييع الأخ، وكل هذا يقدح في عصمتهم ونبوتهم، فكيف يليق هذا بهم وهم أنبياء؟

والرد عليها كم يلي:

١- الأمر كما ذكرتم، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت حصول النبوة، وأما قبلها فذلك غير واجب، والله أعلم.

٢- وقيل إنهم كانوا في هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين.

٣- وقيل أن هذا الفعل من باب الصغائر[٤].

٤- أين الدليل على أنهم أنبياء؟ اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف عليه السلام، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوَى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ (البقرة: ١٣٦)، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب. يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٣) تأملات في سورة يوسف (ص: ٣٥، ٣٦).

(٤) تفسير الرازي (٩/ ٢).

دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم[١].

واعلم أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم، مقرين بكونه رسولًا حقًّا من عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالًا مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد، وذلك لأنهم كانوا يقولون: هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن، والعقل، والكفاية، والمنفعة، وكثرة الخدمة، والقيام بالمهمات، وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل[٢].

الشبهة الثالثة: كيف يصف أولاد يعقوب عليه السلام أباهم بالضلال المبين في القرآن؟

والرد عليها كما يلي:

الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- في هذه الآية الكريمة إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ (يوسف: ٩٥) وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ (الضحى: ٧) أي: لست عالمًا بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها، وعلمكها بما أوحي إليك من هذا القرآن العظيم، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلًا أراها في الضلال تهيم

يعني: أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغي بها بدلًا وهو لا يبغي بها بدلًا.

ولم يرد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢).

(٢) التفسير الكبير (٨/ ٤٩٨).

أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشؤونه، وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين: أحدهما: الضلال في الدين، أي: الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن، ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الصافات: ٧١)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يس: ٦٢) إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالًا؛ لأنه تغيب في الأرض يؤول على استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميمًا وتمتزج بالأرض، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (السجدة: ١٠).

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٣) أي: غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية   وغودر بالجولان حزم ونائل

فقوله: (مضلوه) يعني: دافنيه، وقوله: (بعين جلية) أي: بخبر يقين، والجولان: جبل دفن عنده المذكور.

ومن الضلال بمعنى: الغيبة والاضمحلال قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد   قذف الأتي به فضل ضلالا

وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار   عن الحي المضلل أين ساروا[1]

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٢: ٥٤).

فهذه الأنواع من الضلال أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمدًا، ولا عن تأويل، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝﴾ (إبراهيم: ٢- ٣)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝﴾ (الملك: ٩).

فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي الذي ليس شيء أكبر منه وعلامته: أن يوصف بوصف بعيد، أو كبير، أو مبين، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر، وإنما وصف أبناء يعقوب عليه السلام ضلال أبيهم بأنه مبين تشددًا في البذاءة وغلوا في السفاهة على جناب والدهم عليه السلام[1].

والخلاصة: أن مقصد أولاد يعقوب عليه السلام بالضلال أمور.

١- أن يعقوب عليه السلام لفي خطأ من رأيه، وأخطئ مسلك الصّواب، وإنّما: أراد وأخطأ التّدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد، والتخطئة في أحوال الدّنيا لا تنافي الاعتراف للمخطئ بالنبوءة.

٢- أن يعقوب عليه السلام لفي شقاء.

٣- لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة بيننا لأن نفعنا له أعم[2].

٤- جملة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ تعليلًا للتعجّب وتفريعًا عليه، لا وصفًا على الحقيقة ظهر عفوًا عند الغضب[3].

---

(١) تفسير سورة يوسف (١/ ٢٧٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٨٣)، التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٦) بتصرف.

وقولهم: كيف يصف أولاد يعقوب إياه بالضلال؟

ولم ينظر أصحاب الكتاب المقدس في كتابهم، وما فيه من صفات للأنبياء بل للرب.

وفي سفر الملوك الأول أن إيليا (إلياس) النبي خاطب الله.

يقول السفر (**وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي، أَأَيْضًا إِلَى الأَرْمَلَةِ الَّتِي أَنَا نَازِلٌ عِنْدَهَا قَدْ أَسَأْتَ بِإِمَاتَتِكَ ابْنَهَا؟ »** (الملوك الأول ١٧: ٢٠).

في سفر الخروج (٥/ ٢٢: ٢٣): **فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ ٢٣ فَإِنَّهُ مُنْذُ دَخَلْتُ إِلَى فِرْعَوْنَ لأَتَكَلَّمَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ. وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ»**.

في سفر إشعياء (٦٣/ ١٧) أن إشعياء النبي خاطب الله قائلًا: **لِمَاذَا أَضْلَلْتَنَا يَا رَبُّ عَنْ طُرُقِكَ، قَسَّيْتَ قُلُوبَنَا عَنْ مَخَافَتِكَ؟ ارْجعْ مِنْ أَجْلِ عَبِيدِكَ، أَسْبَاطِ مِيرَاثِكَ.**

ونحن نسأل إذا كان الأنبياء بهذه الوقاحة وهم حملة كلمة الله الهادية فماذا بقي للفساق والسفهاء؟

بل وفي كتابكم المقدس وصف الأنبياء بالزنى وأما هذا هو عين الضلال أم هذا عبادة عندكم فإن كان ذلك فما الفرق بينكم وبين من ليس لهم كتاب؟ وهذه بعض النقاط من كتابكم عن الأنبياء.

نبي الله حزقيال يشجع النساء على الزنى والفجور (حزقيال ١٦/ ٣٣: ٣٤)

نبي الله رأوبين يزني بزوجة أبيه بلهة (تكوين ٣٥/ ٢٢، ٤٩/ ٣: ٤)

شمشون يذهب إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها (قضاة ١٦/ ١) لوط يسكر ويزني بابنتيه (تكوين ١٩/ ٣٠: ٣٨).

الشبهة الرابعة: كيف ترك يوسف عليه السلام الاستثناء؟

فإن الأحسن أن يقول: (إني حفيظ عليم إن شاء الله) بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣- ٢٤).

والرد عليها كما يلي:

أولا: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء[١].

فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجبًا عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولًا حقًّا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

والثاني: وهو أنه ﷺ علم بالوحي أنه سيحصل القحط، والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك، ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه ﷺ كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجبًا عليه ولما كان واجبًا سقطت الأسئلة بالكلية[٢].

* * *

(١) التفسير الكبير (٩/ ٦٣)، واللباب (٦/ ٢٤٢).

(٢) اللباب (٦/ ٢٤٢).

٢- شبهة: أن يوسف همَّ بالفساد.

نص الشبهة:

جاء في سورة يوسف (٢٤): ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: قصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهمُّ بالشيء قصده والعزم عليه، ومنه الهَمَام وهو الذي إذا قصد شيئًا أمضاه، وهذا القول يناقض التاريخ المقدس الذي يقول: إنها لما طلبت إليه الشر استنكر طلبها وقال: كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟ (ولما أمسكت بثوبه تركه معها وهرب) (تكوين ٣٩: ٩)؟

والرد على هذه الفرية من وجوه:

الوجه الأول: منزلة يوسف في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: معنى: (هَمَّ بها).

الوجه الثالث: الأدلة على براءة يوسف عليه السلام.

الوجه الرابع: مقارنة بين القصة في التوراة والقرآن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل نبي الله يوسف عليه السلام من القرآن والسنة.

فضل يوسف عليه السلام في القران والسنة:

أولًا: في القرآن الكريم:

فقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم لِيُتَدَبَّرَ ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم؛ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ...﴾ يوسف (١: ٤).[1]

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (١/ ٢٠٠).

ثانيًا: في السنة النبوية:

١-فعن ابن عمر ﷺ: عن النبي ﷺ أنه قال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"

٢- عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبث في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي"[١].

ففي هذا الحديث يبين النبي ﷺ طول صبر يوسف ﷺ، وأنه لو كان مكانه ودعي إلى الخروج من السجن لأجاب على الفور، ولا شك أنه قاله تواضعًا ﷺ.

٣- وفي رحلة المعراج قال ﷺ: "ثم عُرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، و إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير"[٢].

الوجه الثاني: معاني قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾:

المعنى الأول: أن يوسف ﷺ لم يقع منه همٌّ البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، وكأن معنى الآية الكريمة: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، فكان موجدًا لهمَّ على انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم.

وهذا المعنى مبني على قاعدة نحوية وهي: أن جواب (لولا) في الآية الكريمة محذوف يدل عليه ما قبله كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: (أنت ظالم إن فعلت) فيقررونه (إن فعلت فأنت ظالم) ولا يدل قوله: (أنت ظالم) على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (١٦٢) واللفظ له.

ولهذه القاعدة نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم[٢].

المعنى الثاني: أن معنى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ المقصود به خطرات النفس فالهم: اسم جنس تحته نوعان؛ كما قال الإمام أحمد: (الهم) همان: هم خطرات، وهم إصرار، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: "إن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب حسنة ولا تكتب عليه سيئة"، ويوسف عليه السلام هم همًّا تركه لله، وكذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[٣].

وهذا مثل الصائم الذي يميل بطبعه إلى الماء البارد مع أن تقواه تمنعه من الشراب وهو صائم..

ونظير هذا في القرآن أيضًا هَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد فقال تعالى عنهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ لأن قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية[٤].

والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه: (هذا ما يهمني)، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، بخلاف هم امرأة العزيز؛

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٢٩٤، ٢٩٥)، تفسير القاسمي (٩/ ٢١٢).

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥٣)، وانظر أيضًا المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٢٣٥).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٤) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥٢).

فإنه هَمُّ عزمٍ وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه، ومثل هذا التصميم على المعصيةِ معصيةٌ يؤاخذ بها صاحبُها؛ بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه"، فصرح النبي ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصيةٌ أدخله الله بسببها النار[1].

المعنى الثالث: أن المراد بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح؛ لأن الهم هو القصد، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع، ثم إنها أيضًا همت أن تبطش به إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهي سيدته وهو عبدها، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه وكان الهم منه امتنع عنها واستكبر على أمرها معتزًا عليها بالديانة والأمانة والترفع عن الخيانة وحفظ شرف سيده وهو سيدها. . . ، وهم بها لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ولكنه رأى من ربه في سريرة نفسه ما جعله يمتنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها[2]. فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة؟

قلنا: بل فيه أعظم الفوائد، وبيانه من وجهين:

الأول: أنه سبحانه وتعالى أَعْلَمَ يوسف أنه لو هَمَّ بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صونًا للنفس عن الهلاك.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٣)، وانظر أيضًا زاد الميسر لابن الجوزي (٤/ ٢٠٤)، والتفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٩).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ١١٨)، وانظر أيضًا تفسير المنار (١٢/ ٢٧٧: ٢٧٩) ومن (٢٨٠: ٢٨٦)، تفسير المراغي (١٢/ ١٣٠)، والبرهان في علم القرآن للزركشي (٣/ ١٥٤).

الثاني: أنه ﷺ لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به، فكان تمزيق ثوبه من قدام، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن، ولو كان ثوبه ممزق من الخلف لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربًا عنها، حتى صارت شهادة الشاهد حجة على براءته عن المعصية(١).

المعنى الرابع: أن يكون معنى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: اشتهاها، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة، يقول القائل فيما لا يشتهيه: ما يهمني هذا، وفيما يشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، فسمى الله تعالى شهوة يوسف ﷺ همًا. إذن فمعنى الآية الكريمة: ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود(٢).

والشاهد على صحة هذا التأويل قيامُ الدلالة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يعزمون على الفواحش، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ والصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الآدميين: الدعاء، وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فالشهادة من الله تعالى إخبار وبيان، ومنهم إقرار(٣).

المعنى الخامس: وإما أن يكون معنى: الهم أنه هم بالإيقاع بها وضربها كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ . . .﴾ وكما يقول القائل: لقد هممت بك. لكنه ﷺ امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها، وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته على مظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بقد القميص(٤).

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ١١٨).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٨، ١١٩)، تفسير الماوردي (٣/ ٢٤).

(٣) الفروق اللغوية (٥٥٨)، أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٧٠).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤/ ١٠)، وهو مذهب ابن الأنباري، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٠٦).

المعنى السادس: [(١)] أن معنى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ﴿هم بها﴾ ما نقل عن ابن عباس وهو ما قاله الطبري: [حدثنا أبو كريب وسفيان بن وكيع وسهل بن موسى الرازي قالوا: ثنا ابن عيينة، عن عثمان بن أبي سليمان عن ابن أبي مليكة] عن ابن عباس أنه سُئل عن هم يوسف ما بلغ؟ قال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن[(٢)].

وكذا نُقِلَ نفسُ المعنى عن تلاميذ ابن عباس: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، والقاسم بن أبي بزة بأسانيد صحيحة أو حسنة عنهم[(٣)]: (فكان همه من جنس همها، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن وغيره. . .).

وقال ابن قتيبة: لا يجوز في اللغة: هممت بفلان، وهم بي، وأنت تريد اختلاف الهمين. . . قالوا: ورجوعه عما هم به من ذلك خوفًا من الله تعالى يمحو عنه سيء الهم، ويوجب له علو المنزلة، ويدل على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: "أن ثلاثة خرجوا فلجئوا إلى غار، فانطبق عليهم صخرة، فقالوا: ليذكر كل واحد منكم أفضل عمله، فقال أحدهم: اللهم، إنك تعلم أنه كانت لي ابنة عم فراودتها عن نفسها فأبت إلا بمائة دينار، فلما أتيتها بها، وجلست منها مجلس الرجل من المرأة، أرعدت، وقالت: إن هذا العمل ما عملته قط، فقمت عنها وأعطيتها المائة الدينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فزال ثلث الحجر"[(٤)]. وقد رَدَّ على هذا القول أئمة العلماء المحققين وضعفوه وإليك أقوالهم:

قال ابن تيمية: وأما ما ينقل من أنه حل سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يديه، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ﷺ، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على

---

(١) هذا المعنى غير صحيح، وإنما ذكرناه لبيان بطلانه كما هومبين في أعلاه.

(٢) إسناده صحيح. تفسير الطبري (١٢/ ١٨٣).

(٣) وانظر تفسير الطبري (١٢/ ١٨٣، ١٨٤).

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحدٌ عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا[١].

وقال ابن حزم: وقال بعض المتأخرين: إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة، ومعاذ الله أن يظن هذا برجل من صالحي المسلمين أو مستوريهم! فكيف برسول الله ﷺ؟ فإن قيل: إن هذا قد روي عن ابن عباس ﷺ من طرق جيدة الإسناد؟ قلنا: نعم، ولا حجة في قول أحد إلا فيما صح عن رسول الله ﷺ فقط، والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمن دون ابن عباس، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك؛ إذ إنما أخذه عمن لا يدري من هو ولا شك في أنه شيء سمعه فذكره لأنه ﷺ لم يحضر ذلك، ولا ذكره عن رسول الله ﷺ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به[٢].

وقال الشنقيطي: وهذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين:

- قسم لم يثبت نقله عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه.
- وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك.

فالظاهر الغالب على الظن المزاحم لليقين أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات؛ لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يُرفع منه قليلٌ ولا كثيرٌ إليه ﷺ، وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتمادًا على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها؛ لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق فما ظنك بخيار الأنبياء![٣].

وقال ابن الجوزي: ولا يصح ما يروى عن المفسرين أنه حل السراويل وقعد منها مقعد

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٧).

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٤/ ١٠).

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٦٠).

الرجل، فإنه لو كان هذا دل على العزم والأنبياء معصومون من العزم على الزنا[(١)].

وقال ابن عطية: ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك؛ لأن العصمة مع النبوة[(٢)].

وقال القاسمي: هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ما تلقفوه من أهل الكتاب ومن المتصولحين من تلك الأقاصيص المختلفة على يوسف عليه السلام في همه التي أنزه تأليفي عن نقلها بردها. . . [(٣)].

وقال ابن كثير: وأكثر أقوال المفسرين ها هنا مُتَلَقًّى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه، وبرأه، ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها، وصانه منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(٤)].

وقال أبو السعود: فُسّر همُّه عليه السلام بأنه عليه السلام حلَّ الهَمَيان وجلس مجلسَ الخِتان. . . ، وقيل: رؤيتُه للبرهان بأنه سمع صوتًا: إياك وإياها فلم يكترثْ. . . ، وقيل: إنْ كلّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ، وتردُّها العقول والأذهانُ، ويلٌ لمن لاكها ولفّقها أو سمعها وصدّقها[(٥)].

الوجه الثالث: الأدلة على براءة يوسف عليه السلام.

الدليل الأول: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (يوسف: ٥٣) فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٠٥).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٢٣٤) بتصرف.

(٣) تفسير القاسمي (٩/ ٢١٤).

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير (قصة يوسف عليه السلام).

(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٧، ٢٦٦)، وانظر إلى بحث: "الاسرائيليات" من هذه الموسوعة.

يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (يوسف: ٥٠: ٥٣).

فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنت في حال شهوده راودته فحينئذ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول. وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه[١].

الدليل الثاني: وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها[٢].

الدليل الثالث: أن الله تعالى لم يذكر عنه ذنبًا، فلم يذكر ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل إن من الباطل الممتنع أن يظن ظانٌّ أن يوسف عليه السلام هَمَّ بالزنا وهو يسمع قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فنسأل من خالفنا: الهم بالزنا بسوء هو أم غير سوء؟ لا بد أنه سوء، وقد صرف الله عنه

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٨).

(٢) الفصل لابن حزم (٤/ ١١).

السوء، ولو قال: إنه ليس بسوء لعاند الإجماع، فإذًا هو سوء فقد صرف عنه الهم بيقين[(١)].

الدليل الرابع: شهادة الجميع له ببراءته: شهد بذلك رب العالمين ﷻ، وشهد يوسف ﷺ، وتلك المرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود، وإبليس اللعين؛ أقروا ببراءة يوسف من المعصية، فليس للمسلم توقف في هذا الباب[(٢)].

- أما بيان أن يوسف ﷺ ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله ﷺ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، وقوله ﷺ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

- أما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وأيضًا قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

- وأما بيان أن زوج المرأة أقرّ بذلك فهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

- وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الآيات[(٣)].

- وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات:

أولها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

---

(١) مجموع فتاوى بن تيمية (١٠/ ٢٩٦)، وانظر الفصل لابن حزم (٤/ ١١)، والتفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٥، ١١٦)، قاعدة في المحبة لابن تيمية (صـ٧٧)، قصص الأنبياء لابن كثير (قصة يوسف ﷺ).

(٢) نقلًا من التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٦: ١١٧) بتصرف.

(٣) وأشار إلى هذا المعنى ابن حزم في الفصل (٤/ ١١) فقال: فَصَحَّ أنها كذبت بنص القرآن، وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءًا، فما هَمَّ بالزنا، ولو أراد بها الزنا لكانت من الصادقين، وهذا بَيِّنٌ جدًّا.

ثانيها: قوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي: كذلك نصرف عنه السوء والفحشاء.

ثالثها: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾.

ورابعها: قوله: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل [المُخْلِصِين] وأخرى باسم المفعول [المُخْلَصِين]، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص، ووروده باسم المفعول يدل على أنه تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه.

- وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته، فلأنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص٨٢: ٨٣) فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فكان هذا إقرارًا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى، وعند هذا نقول لهؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف ﷺ هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى: فليتقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة.

كما قال الخوارزمي:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أُحْسِنُ بعده ... طرائقَ فسق ليس يحسنها بعدي

فثبتت بهذه الدلائل أن يوسف ﷺ بريء عما يقوله الجهال(١).

الدليل الخامس: أن الله تعالى لم يذكر عنه توبة:

أن يقال إن الله تعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر توبته منه. . . كما ذكر قصة آدم، وموسى، وداود، وغيرهم من الأنبياء. . . ويوسف ﷺ لم يذكر الله تعالى عنه في

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٦، ١١٧)، أضواء البيان (٣/ ٤٩، ٥١).

القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلًا، وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها، مثل ما يقولون أنه حل السراويل وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ، ولا مستندَ لهم فيه إلا النقلُ عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه؟!

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرًّا وإما تائبًا، والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائبًا، والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفارًا كما ذكر عن غيره من الأنبياء، فدلك ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة، والمساعي المشكورة، كما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

الدليل السادس: أن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضا الصبي إذا تربى في حضن إنسان وبقي مكفيَّ المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته - فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال، إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف ؑ كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع، ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ١٤٧: ١٤٩) بتصرف، تفسير الرازي (١٨/ ١١٦).

لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول ﷺ المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة[1]؟!!!

الدليل السابع: ونقول: هب أن هذه الآية وهي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح و الأثنية عقيب أن حكي عنه ذلك الذنب العظيم، فإنه مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه، فإن ذلك يستنكر جدًّا، فكذا هاهنا، والله أعلم[2].

الوجه الرابع: مقارنة بين نص القصة في التوراة والقرآن.

أولًا: نص القصة في التوراة:

(وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةَ سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتِ: «اضْطَجعْ مَعِي». ^٨ فَأَبَى وَقَالَ لامْرَأَةِ سَيِّدِهِ: «هُوَذَا سَيِّدِي لاَ يَعْرِفُ مَعِي مَا فِي الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدِي. ^٩ لَيْسَ هُوَ فِي هذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمْسِكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكِ، لأَنَّكِ امْرَأَتُهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟ ». ^١٠ وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا. ^١١ ثُمَّ حَدَثَ نَحْوَ هذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. ^١٢ فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: «اضْطَجعْ مَعِي! ». فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ. ^١٣ وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ، ^١٤ أَنَّهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتْهُمْ قَائِلَةً: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُلٍ عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. ^١٥

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٥).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٦).

وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ». ١٦ فَوَضَعَتْ ثَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. ١٧ فَكَلَّمَتْهُ بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ قَائِلَةً: «دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَيْنَا لِيُدَاعِبَنِي. ١٨ وَكَانَ لَمَّا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ». ١٩ فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلاَمَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمَتْهُ بِهِ قَائِلَةً: «بِحَسَبِ هذَا الْكَلاَمِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ»، أَنَّ غَضَبَهُ حَمِيَ. ٢٠ فَأَخَذَ يُوسُفَ سَيِّدُهُ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ) (سفر التكوين٣٩/ ٧: ٢٠).

ثانيا: الفروق بين نص القصة في التوراة والقرآن:

- في التوراة:

فالمراودة حدثت مرارًا ونصحُ يوسف لامرأة سيده كان قبل المرة الأخيرة.

أما في القرآن:

المراودة حدثت مرة واحدة اقترنت بعزم المرأة على يوسف لينفذ رغبتها.

- في التوراة:

تخلو من الإشارة على تغليق الأبواب، وتقول: إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب، وانتظرت هي قدوم زوجها، وقصت عليه القصة بعد أن أعلمت بها أهل بيتها.

أما في القرآن:

يشير إلى تغليق الأبواب، وأن يوسف هم بالخروج فقدَّت ثوبه من الخلف، وحين وصلا على الباب فوجئا بالعزيز يدخل عليهما فبادرت المرأة بالشكوى في الحال.

- في التوراة:

لم يكن يوسف موجودًا حين دخل العزيز، ولم يدافع يوسف عن نفسه لدى العزيز.

أما في القرآن:

يوسف كان موجودًا حين قدم العزيز، وقد دافع عن نفسه بعد وشاية المرأة، وقال: هي راودتني عن نفسي.

- في التوراة:

تخلو من حديث الشاهد، وتقول: إن العزيز حمى غضبه على يوسف بعد سماع المرأة.

أما في القرآن:

يذكر تفصيلًا شهادة الشاهد، كما يذكر اقتناع العزيز بتلك الشهادة، ولومه لامرأته، وتذكيرها بخطئها، وتثبيت يوسف على العفة والطهارة.

- في التوراة:

تقول: إن العزيز في الحال أمر بوضع يوسف في السجن، ولم يعرض أمره على رجال حاشيته.

أما في القرآن:

يشير إلى أن القرار بسجن يوسف كان بعد مداولة بين العزيز وحاشيته.

- في التوراة:

تخلو من حديث النسوة اللاتي لُـمْنَ المرأة على مراودتها فتاها عن نفسه، وهي فجوة هائلة في نص التوراة.

أما في القرآن:

يذكر حديث النسوة بالتفصيل، كما يذكر موقف امرأة العزيز منهن، ودعوتها إياهن ملتمسة أعذارها لديهن، ومصرة على أن ينفذ رغبتها.

هذه الستة فروق بارزة بين ما يورده القرآن الأمين، وما ذكرته التوراة - التي كانت أمينة قبل أن تعيث أيديهم فيها بالتحريف-.

والنظر الفاحص في المصدرين يرينا أنهما لم يتفقا إلا في أصل الواقعة من حيث هي واقعة وكفى، ويختلفان بعد هذا في كل شيء، على أن القرآن قام هنا بعملين جليلي الشأن:

أولهما: أنه أورد جديدًا لم تعرفه التوراة ومن أبرزه:

١ – حديث النسوة، وموقف المرأة منهن.

٢ – شهادة الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز.

ثانيهما: تصحيح أخطاء وقعت فيها التوراة ومن أبرزها:

١ –لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة بل كان لابسًا إياه ولكن قُطع من الخلف.

٢ – غياب يوسف حين حضر العزيز، وإسقاطها – أي: التوراة– دفاعه عن نفسه.

اعتراض وجوابه: قد يقول قائل: لماذا تفترض أن الخطأ هو ما في التوراة، وأن الصواب هو ما في القرآن؟ أليس ذلك تحيزًا منك للقرآن؛ لأنه كتاب المسلمين وأنت مسلم؟ ولماذا لا تفترض العكس؟! وإذا لم تفترض أنت العكس، فقد يقول به غيرك، وما تراه أنت لا يطابق ما يراه الآخرون؟! ! ! هذا الاعتراض وارد في مجال البحث، إذن فلا بد من الإيضاح.

والجواب: لم نتحيز للقرآن لأنه قرآن، ولأنه كتابنا نحن المسلمين، ولنا في هذا الحكم داعيان:

(الأول) لم يرد في القرآن قط ما هو خلاف الحق؛ لأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾، وقد ثبتت هذه الحقيقة في كل مجالات البحوث التي أجريت على مفاهيم القرآن العظيم في كل العصور، وهذا الداعي وحده كافٍ في تأييد ما ذهبنا إليه.

(الثاني) وهو منتزع من الواقعة نفسها موضوع المقارنة وإليك البيان:

كل من التوراة والقرآن متفقان على (عفة يوسف) وإعراضه عن الفحشاء، ثم اختلفا بعد ذلك، فالتوراة تقول: إن يوسف ترك ثوبه كله لدى المرأة وهرب.

والقرآن يقول: إنه لم يترك الثوب بل أمسكته المرأة من الخلف، ولما لم يتوقف يوسف عليه السلام اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة في ثوبة.

فأيُّ الروايتين أليق بعفة يوسف المتفق عليها بين المصدرين؟! أن يترك ثوبه كله؟ أم أن يُخرق ثوبه من الخلف؟!

إذا سلمنا برواية التوراة أنه ليس (عفيفًا) والمرأة على حق في دعواها؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه هكذا سليمًا إلا إذا كان هو الراغب وهي الآتية، ولا يقال: إن المرأة هي التي أخلعته ثوبه لأن يوسف رجل وهي امرأة، فكيف تتغلب عليه وتخلع ثوبه بكل سهولة؟ ثم لما يمتنع تحتفظ هي بالثوب كدليل ماديٍّ على جنايته المشينة؟! وهل خرج يوسف (عريانًا) وترك ثوبه لدى غريمته. . . ؟!

والخلاصة: أن رواية التوراة فيها إدانة صريحة ليوسف عليه السلام وهذا ينافي مع العفة التي وافقت فيها القرآن الأمين.

أما رواية القرآن فهي إدانة صريحة لامرأة العزيز، وبراءة كاملة ليوسف عليه السلام.

لقد دعته المرأة إلى نفسها ففر منها، فأدركته و أمسكته من الخلف بفعل المرأة، والثانية إلى الأمام بحركة يوسف فانقطع ثوبه من الخلف، وهذا يتفق تمامًا مع العفة المشهود بها ليوسف في المصدرين ولهذا قلنا: إن القرآن صحح هذا الخطأ الوارد في التوراة.

فهل القرآن مقتبس من التوراة؟

وهل تنطبق على القرآن أسس الاقتباس أم هو ذو سلطان خاص به فيما يقول ويقرر؟

المقتبس لابد من أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها، وها نحن قد رأينا القرآن يتجاوز هذه الأسس؛ فيأتي بجديد لم يذكر فيما سواه، ولم يذكر فيما زعموا أنه نقل منه، ويصحح خطًا وقع فيه ما سواه.

فليس الاختلاف فيها اختلاف حبكٍ وصياغة، وإنما هو اختلاف يشمل الأصول والفروع، هذا بالإضافة إلى إحكام البناء وعفة الألفاظ وشرف المعاني.

إن الذي روته التوراة هنا لا يصلح ولن يصلح أن يكون أساسًا للذي ذكره القرآن، وإنما أساس القرآن هو الوحي الصادق الأمين، ذلك هو مصدر القرآن"ا لوضيء" وسيظل ذلك هو مصدره، تتساقط بين يديه دعاوى الباطل ومفتريات المفترين في كل عصر ومصر[١].

* * *

(١) موقع وزارة الأوقاف المصرية على الإنترنت.

٣- شبهة: يوسف ﷺ استغاث بغير الله تعالى.

نص الشبهة:

يُستدلُّ من القرآن على لسان يوسف ﷺ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أنه استغاث بغير الله، فكيف يقع ذلك منه؟!

والردُ على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا من الأخذ بالأسباب المشروعة، ولا ينافي التوكل على الله.

الوجه الثاني: أرسل إلى الملك ليتوصل إلى دعوته إلى الله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: هذا من الأخذ بالأسباب المشروعة، ولا ينافي التوكل على الله.

في هذه الآية دليل على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة وإن كان مشركًا، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾، وقوله حكاية عن عيسى ﷺ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث: (والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه)[1]، وجلي أن ذلك من نظام الكون والعمران البشري، ولذلك ميز الإنسان بالنطق، وهذا من يوسف ﷺ على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه وجعله بإذن الله وتقديره سببًا للخلاص، كما كان رسول الله ﷺ يطلب من يحرسه، ففعلُ يوسفَ ﷺ دليل على جواز السعي و التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب، فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلةً وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين.

فاعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله و السعي في إزالة الظلم لا ينافي التسليم لقضاء الله، فإن التسليم الواجب هو التسليم لحكم الله وقضائه الشرعي الديني.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

أما القضاء والحكم القدري الكوني فإنه ثلاثة أنواع:

القسم الأول: الحكم الكوني الذي لا قدرة للإنسان فيه لا على أخذ الأسباب أو دفعها؛ مثل كونه ولد بصفة معينة، أوفي زمن معين، أو لأبوين معينين، ومثل كونه ذكرًا أو أنثى، ومثل موت بعض أحبابه وأقاربه، ومثل مرضه مرضًا لا يعرف له دواء ولا يرجى منه شفاء، فهذا قدر لابد فيه من التسليم المحض، وعدم المنازعة وعدم الفرار منه؛ إذ لا سبيل إلى ذلك، وترك التسليم ووجود المنازعة إنما هو السخط والشك، والاعتراض على الربوبية، وجرأة الإقدام، ووقاحة الاقتراح بأنه كان ينبغي غير ما كان و العياذ بالله.

القسم الثاني: الحكم الكوني الذي جعل الله للعباد على أخذ الأسباب أو دفعها قدرة و إرادة وكسبًا، و كونه ﷻجعل لهم قدرة و إرادة تتعلق بالأسباب تكسبًا:

لا ينافي أنه إنما يوجبه حكمه الكوني، فليست إرادة العباد موجبة وقدرتهم في الحقيقة أثرهم؛ إنما هو من آثار قدرة الله ﷻ فهو الذي شاء أن يشاؤا، وهو الذي أقدرهم؛ فهذا النوع من الحكم القدري يشرع فيه وجوبًا واستحبابًا أخذ الأسباب المباحة و المشروعة. فمن ابتلاه الله بقدر من الجوع دفعه بقدر من الأكل، ومن ابتلاه الله بقدر من العطش فرَّ منه إلى قدر من الشرب، ومن أصابه قدر من المرض نازعه بقدر من التداوي؛ مصداق ذلك قول النبي ﷺ: (لما سئل عن الأدوية التي يتداوون بها ترد من قدر الله شيئًا فقال: "هي من قدر الله")[1].

ومن ذلك قول عمر لأبي عبيدة: (أتفرُّ من قدر الله؟! قال: نعم، أفر من قدر الله إلى قدر الله)[2].

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي (٢١٤٨، ٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، أحمد (١٥٠٤٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٥٩) وضعيف ابن ماجة (٣٤٣٧) وحسنه الألباني في مشكلة الفقر (١١) بلفظ: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله». أما اللفظ المذكور فضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٧)، مسلم (٢٢١٩).

ومن هذا ما فعله يوسف عليه السلام، فحين أصابه قدر من الظلم والسجن شرع في دفعه بقدر طلب الشفاعة العادلة لدى الملك الذي أقدره الله على أن يرفع الظلم عنه، ويتأكد أخذ الأسباب في هذا النوع من الحكم الكوني القدري إذا كان في الذي تفر إليه طاعة لله و عبودية محبوبة له، وقد يكون واجبًا أن يأخذ بالأسباب، فمن ترك نفسه للجوع حتى هلك مع قدرته على الأكل كان آثمًا، ومن ترك أولاده بلا نفقة وهو قادر على الكسب برغم التسليم بالقدر كان آثمًا؛ مصداق قول النبي ﷺ: "وكفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت". (١)

القسم الثالث: من الحكم الكوني الحكم على العبد بالمعصية والخذلان، فهذا يجب عليه أن يفر منه وينازعه بقدر من الطاعة والتوبة و الإنابة و التضرع إلى الله أن يأخذ بناصيته إليه، وأن يوفقه لما يحب ويرضى، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وبهذا يحقق العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، وفي هذا النوع بعد تحقيق التوبة والإنابة والإصلاح ما استطاع - يكون القدر بالنسبة إلى ما قد دفع في الماضي بالفعل ولا قدرة على تغيير هذا الماضي، بل قدرته في إزالة آثاره وقد فعل؛ يكون القدر في هذه الحالة عذرًا للعبد وحجة يحتج بها (كما حَجَّ آدمُ موسى بذلك). (٢)

وكما قال كعب بن مالك ﷺ بعد توبته وقبولها: (فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت، غير أنه لم يقدر له ذلك). (٣) فهو باقٍ على ندمه على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ويتمنى أن لو كان لم يقع في الذنب، وهذا من كمال الندم، ولكنه يسلي نفسه ويعزيها بالقدر كما أنه في النوع الثاني؛ وهو الحكم الكوني الذي للعبد فيه قدرة على الأسباب - يكون الاستسلام للقدر مأمورًا به بعد استفراغ الوسع في أخذ الأسباب، وقد لا تثمر ثمرتها

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٦) بلفظ (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يقوت)، وأبو داود (١٦٩٢)، وأحمد (٦٤٥٩)، وحسنه الألباني في الجامع (٤٤٨١)، وأخرجه الطيالسي (٢٢٨١) وغيرهم من طرق عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا.

وفيه وهب بن جابر: قال ابن حجر: مقبول؛ كما في التقريب (٢/ ٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، مسلم (٢٦٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) بلفظ: (ثم لم يقدر)، وأحمد (١٥٣٦٣).

ولا تؤتي نتيجتها فقد نسي الرجل الساقي أن يذكر أمر يوسف للملك، فما كان من يوسف إلا التسليم والرضا بقضاء الله، فإن الأسباب ليست موجبة لنتائجها، فلا يحزن العبد ولا يغتم ولا يهتم، فقد جعل الله الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، فلابد من التسليم والتفويض والتوكل على الله والثقة به سبحانه وتعالى.

أطلنا الكلام على هذه المسألة المهمة؛ لأن البعض قد فسر الآية الكريمة على أن يوسف ﷺ لطلبه من الذي علم أنه ناجٍ من صاحبيه في السجن أن يذكره عند ربه، وأنه لو لم يفعل لما لبث فى السجن ما لبث، ويجعل ذلك حجة في ترك الأسباب زاعمًا أنها منافية للتسليم والرضا بالقدر، ومعلوم أن هدي الأنبياء جميعًا و سنتهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فإن جاء ما يعجز العبد وما لا قدرة له عليه وغلبه أمرٌ قال: قدر الله وما شاء فعل، وسلم الأمر لله وقضائه، فأخذ الأسباب ابتغاء الفرج من عند الله.

ولو وقع إنسان في بئر مثلًا وكان يستطيع أن ينادي مَنْ بالطريق بجوار البئر ليخرجه لزمه ذلك كما يلزمه إمساك الحبل لمن ألقاه إليه؛ خلافًا للمنقول عن بعض المتقدمين مِنْ تركه النداء أرسل الله إليه من ألقى إليه الحبل، فهل كان ترك النداء توكلًا و الإمساك بالحبل نقصًا في التوكل؟!

فالمسألة واحدة في الأمرين؛ كلاهما سبب.

إذن فطلب الشفاعة في الحق أمر مشروع لا ينافي كمال التوكل مع ثقة القلب به وكمال توكله عليه، وهذا هو الظن الواجب بيوسف ﷺ. (١)

واحتياج الإنسان للواسطة في قضاء حاجته أورفع الظلم عنه عادة قديمة، وفي الغالب لا يكون إلا إذا كانت الحكومات ظالمة مستبدة لا يعمل فيها بموجب الشرائع و الأنظمة؛ ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة، وهذه الحالة السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية الهكسوسية، فهي سائدة في جميع الأمم بنسب تتفاوت تبعًا للتربية و الأخلاق.

---

(١) تأملات إيمانية في سورة يوسف ﷺ (١٢٥: ١٢٢).

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال: إن الشريعة كما حصرت العبادة في الله تعالى فقد حصرت الاستعانة فيه أيضًا؛ إذ ورد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، فكما أمرنا الله تعالى أن لا نعبد غيره لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره؛ فكذلك أمرنا أن لا نستعين بغيره أيضًا؟.

فأجبته: إن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤداة إليه؛ وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه.

وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم و القوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقول بها في استطاعتنا من ذلك ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول و قوة، وأن نتعاون ويساعد بعضُنا بعضًا على ذلك ثم نفوض الأمر فيما وراء ذلك إلى القادر على كل شيء، و نلجأ إليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل و الموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه؛ إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب.

فقول يوسف ﷺ ههنا: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله تعالى و جعلها بتوفيقه ذريعة للمقصود، وهذا الضرب لا مانع منه كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، ولنضرب لذلك مثلًا: الزارع يبذل جهده في الحرث، والغرس، وتسميد الأرض، وريها، يفعل ذلك بنفسه، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أوالأرضية، وإشراق الشمس، وإنزال المطر الكافي على سبيل التعانت بين الشمس و المطر بمقدار اللزوم، فالاستعانة بالعبد على القسم الأول جائزة طبعًا وشرعًا، وأما الاستعانة على القسم الثاني فإنما هي بالله وحده[1].

الوجه الثاني: أرسل إلى الملك ليتوصل إلى دعوته إلى الله.

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٨٢: ٧٨١).

وقيل: إن هذه ليست استعانة، وإنما قال يوسف لساقي الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقى ورفيقه. [(١)]

بدليل قوله تعالى على لسان يوسف لما أرسل له الملك الرسول قال له يوسف عليه السلام: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٠)، ولم يتعجل و يخرج إلى الملك، بل لا فرق عنده بين السجن و بين خارج السجن؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

* * *

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٧٩).

٤- شبهة: أن تعبير يوسف ﷺ للرؤيا لم يكن على الحقيقة، بدليل قوله تعالى: (ظن).

نص الشبهة: قالوا: أن يوسف حينما عبَّر عن رؤيا الملك لم يكن على الحقيقة، بل كان ظن.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الظن أقوى من الشك، وقد يكون بمعنى اليقين كما في الآية.

الوجه الثاني: الظن في الآية بمعنى: (اليقين).

الوجه الثالث: الظن وإن كان خلاف اليقين، فهذا في حال الناس، أما في حال الأنبياء فهو على اليقين.

الوجه الرابع: بيان الحكمة من التعبير بهذا اللفظ القرآني.

واليك التفصيل

الوجه الأول: الظن أقوى من الشك، وقد يكون بمعنى اليقين كما في الآية

فالظن: مصدر من باب (قتل)، وهو خلاف اليقين؛ قاله الأزهري وغيره، وقد يستعمل بمعنى: اليقين كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾.

الظن: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم ظنون وأظانين، وقد يوضع موضع العلم، الظن العلم دون يقين أو بمعناه، وبابه (رد)، وتقول: ظننتك زيدًا وظننت زيدًا إياك، تضع الضمير المنفصل موضع المتصل، وفى التهذيب: الظن يقين وشك، وأنشد أبو عبيدة:

ظنى بهم كعسى وهم بتنوفة   يتنازعون جوائز الأمثال

يقول: اليقين منهم كعسى، وعسى شك، وقال شمر: قال أبو عمرو معناه: ما يظن بهم من الخير فهو واجب، وعسى من الله واجب.

وقال المناوي: الظن الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك، وقال الراغب: (الظن) اسم لما يحصل من أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت لم تجاوز حد الوهم، ومتى قوى أو تصور بصورة القوى استعمل معه أن المشددة أو المخففة، ومتى ضعف استعمل معه أن المختصة بالمعدومين من القول والفعل.

وقال الجوهري: الظن معروف (وقد يوضع العلم) قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالفى مدجج سراتهم في الفارسى المسرد

أي: استيقنوا وإنما يخوف عدوه باليقين لا بالشك، وفى حديث أسيد بن حضير: وظننا أن لم يجد عليهما أي: علمنا، وفى حديث عبيدة عن أنس سألته عن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فأشار بيده، فظننت ما قال أي علمت، وقال الراغب: في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أنه استعمل فيه الظن بمعنى: العلم. وفى البصائر: وقد ورد الظن في القرآن مجملاً على أربعة أوجه بمعنى: اليقين، وبمعنى: الشك، وبمعنى: التهمة، وبمعنى: الحسبان[1].

الوجه الثاني: الظن في الآية بمعنى: (اليقين).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ الظن هاهنا بمعنى: اليقين؛ لأن ما تقدم من قول: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود، و(ظن) هنا بمعنى: اليقين؛ هو قول أكثر المفسرين، وفسره قتادة على الظنِّ الذي هو خلاف اليقين، قال: إنما ظن يوسف نجاته، لأن العابر يظن ظنًا وربك يخلق ما يشاء.

الوجه الثالث: الظن وإن كان خلاف اليقين، فهذا في حال الناس، أما في حال الأنبياء فهو على اليقين.

والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء، وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنًا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع[2].

قال الطبري: وهذا الذي قاله قتادة، من أن عبارة الرؤيا ظن، فإن ذلك كذلك من غير الأنبياء، فأما الأنبياء فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائنٌ ثم لا يكون، أو أنه غير كائن ثم يكون، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرت عنه أنه كائن أو غير كائن، لأن ذلك لو جاز عليها في أخبارها، لم يُؤمَن مثل ذلك في كل أخبارها، وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها، سقطت

---

(١) المصباح المنير (٢/ ٢٨٦)، مختار الصحاح (٦/ ٤٠٧)، تاج العروس (١/ ٨١٠٢).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢٠٠).

حُجَّتها على من أرسلت إليه، فإذا كان ذلك كذلك كان غير جائزٍ عليها أن تخبر بخبرٍ إلا وهو حق وصدق. فمعلومٌ إذ كان الأمر على ما وصفت أن يوسف لم يقطع الشهادة على ما أخبر الفتيين اللذين استعبراه أنه كائن، فيقول لأحدهما: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾، ثم يؤكد ذلك بقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، عند قولهما: (لم ترَ شيئًا) إلا وهو على يقين أن ما أخبرهما بحدوثه وكونه، أنه كائن لا محالة لا شك فيه. وليقينه بكون ذلك، قال للناجي منهما: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فبيِّنٌ إذًا بذلك فسادُ القول الذي قاله قتادة في معنى قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾[1].

الوجه الرابع: بيان الحكمة من التعبير بهذا اللفظ القرآني.

قال الآلوسي: جاء على صيغة الماضي مبالغة في الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وهو السر في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يُقال للذي ظنه ناجيًا منهما من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيدًا لمناط التوصية بالذكر بما يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك.

والظان: هو يوسف عليه السلام لا صاحبه؛ لأن التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسف، وهو بمعنى: اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾، ولعل التعبير به من باب إرضاء الظانِّ والتأدب مع الله تعالى، فالتعبير بالوحي كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وقيل: هو بمعناه، والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضًا اجتهادي، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: سيدك وصِفْني له بصفتي التي شاهدتها[2].

* * * *

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٢).

(٢) روح المعاني (١٢/ ٢٤٧).

٥- شبهة: حول قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

نص الشبهة:

هل هناك رب غير الله مع أن الرب واحد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الرب في اللغة يطلق على غير الله إذا كان مضافًا.

الوجه الثاني: خاطَبهم على المُتعارَفِ عندهم، وهذا من عرفهم.

الوجه الثالث: الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وقول النبي ﷺ: "وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّى وَلْيَقُلْ سَيِّدِى مَوْلاَى"(١).

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الرب في اللغة يطلق على غير الله إذا كان مضافًا.

الرَّبُّ هو الله عز وجل، هو رَبُّ كلِّ شيءٍ؛ أَي: مالكُه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلْق لا شريك له، وهو رَبُّ الأَرْبابِ ومالِكُ المُلوكِ والأَمْلاكِ، ولا يقال: الربُّ في غَير الله إِلاّ بالإِضافةِ.

قال: ويقال الرَّبُّ بالأَلِف واللام لغيرِ الله، وقد قالوه في الجاهلية للمَلِكِ، قال الحارث بن حِلِّزة:

وهو الرَّبُّ والشَّهِيدُ عَلى يَوْمِ ... الحِيارَيْنِ والبَلاءُ بَلاءُ

والاسْم الرِّبابةُ قال:

يا هِنْدُ أَسْقاكِ بلا حِسابَهْ ... سُقْيا مَلِيكٍ حَسَنِ الرِّبابَهْ

وربُّ كلِّ شيءٍ: مالِكُه ومُسْتَحِقُّه، وقيل: صاحبُه، ويقال: فلانٌ رَبُّ هذا الشيءِ، أَي: مِلْكُه له، وكُلُّ مَنْ مَلَك شيئًا فهو رَبُّه، يقال: هو رَبُّ الدابةِ، ورَبُّ الدارِ، وفلانٌ رَبُّ البيتِ، وهُنَّ رَبَّاتُ الحِجالِ.

والرَّبُّ يُطْلَق في اللغة على المالكِ، والسَّيِّدِ، والمُدَبِّر، والمُرَبِّي، والقَيِّم، والمُنْعِمِ، ولا يُطلَق غيرَ مُضافٍ إلاّ على الله تعالى، وإِذا أُطْلِق على غيرِه أُضِيفَ؛ فيقالَ: ربُّ كذا، وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، مسلم (٢٢٤٩).

جاءَ في الشِّعْر مُطْلَقًا على غيرِ الله تعالى وليس بالكثيرِ، ولم يُذْكَر في غير الشِّعْر.

والعرب تقول: لأَنْ يَرُبَّنِي فلان أَحَبُّ إِلَيَّ من أَنْ يَرُبَّنِي فلان؛ يعني: أَن يكونَ رَبًّا فَوْقِي وسَيِّدًا يَمْلِكُنِي.

قال ابن الأنباري: الرَّبُّ يَنْقَسِم على ثلاثة أَقسام: يكون الرَّبُّ المالِكَ؛ ويكون الرَّبُّ السّيدَ المطاع؛ قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أَي: سَيِّدَه؛ ويكون الرَّبُّ المُصْلِحَ، رَبَّ الشيءَ أي: أَصْلَحَه، وأَنشد:

يَرُبُّ الذي يأْتِي منَ العُرْفِ إنه ... إذا سُئِلَ المَعْرُوفَ زادَ وتَمَّا[1]

الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام، ويقال: ربه ورباه ورببه، فالرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقًا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: ١٥)، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ (آل عمران: ٨٠) أي: آلهة، وتزعمون أنهم الباري مسبب الأسباب، والمتولي لمصالح العباد، وبالإضافة يقال له ولغيره نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١)، و﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الصافات: ١٢٦).

ويقال: رب الدار، ورب الفرس لصاحبها، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ (يوسف: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٥٠)، وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ (يوسف: ٢٣). قيل: عنى به الله تعالى، وقيل: عنى به الملك الذي رباه. وهو قول أكثر المفسرين، ويرجحه قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ والأول أليق بقوله[2].

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ١٧٧: ١٧٦، تاج العروس١/ ٥٠٤، النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٧٩، لسان العرب٣/ ١٥٤٧: ١٥٤٦.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٣٧٥) بتصرف.

الوجه الثاني: خاطَبَهم على المُتعارَفِ عندهم، وهذا من عرفهم.

فأَما قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فإنه خاطَبَهم على المُتعارَفِ عندهم، وعلى ما كانوا يُسَمُّونَهم به، ومنه قَولُ موسى عليه السلام للسامِرِيّ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أَي: الذي اتَّخَذْتَه إِلهًا.

وكانوا يطلقون "الرب" على السيد والكبير والملوك وهذا من عرفهم، حكم عليه بالربوبية؛ كما يقال: رب الدار ورب الثوب[1].

الوجه الثالث: الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وقول النبي: ﷺ "ولاَ يقُلْ أحَدُكُمْ ربِّى وَلْيَقُلْ سَيِّدِى مَوْلاَىَ"[2].

قال القرطبي: قال العلماء: قوله ﷺ: "لا يقل أحدكم، وليقل" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى، لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم، ولأنه قد جاء عنه ﷺ: "أن تلد الأَمَةُ ربها"؛ أي: مالكها وسيدها، وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ، فكان محل النهي في هذا الباب ألا نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين: أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى، ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه، وذلك غير جائز.

والثاني: أن المملوك يدخله من ذلك شيء في استصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزًا في شرع يوسف عليه السلام[3].

قال ابن حجر: وَفِيهِ نَهْي الْعَبْد أَنْ يَقُولَ لِسَيِّدِهِ: رَبِّي، كَذَلِكَ نَهْي غَيْره فَلَا يَقُول لَهُ أَحَد: رَبّك، وَيَدْخُل فِي ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ السَّيِّدُ ذَلِكَ عَنْ نَفْسه، فَإِنَّهُ قَدْ يَقُول لِعَبْدِهِ: اِسْقِ رَبّك، فَيَضَعُ الظَّاهِرَ مَوْضِع الضَّمِير عَلَى سَبِيل التَّعْظِيم لِنَفْسِهِ، وَالسَّبَب فِي النَّهْي أَنَّ حَقِيقَة الرُّبُوبِيَّة لله

(١) النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٧٩، تفسير الرازي ١٨/ ١٤٤، تفسير ابن كثير ٨/ ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، مسلم (٢٢٤٩).

(٣) تفسير القرطبي٩/ ٢٠١: ٢٠٠.

تَعَالَى؛ لِأَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَالِكُ وَالْقَائِمُ بِالشَّيْءِ فَلَا تُوجَدُ حَقِيقَةُ ذَلِكَ إِلَّا للهِ تَعَالَى.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: سَبَبُ الْمَنْعِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَرْبُوبٌ مُتَعَبَّدٌ بِإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ للهِ وَتَرْكِ الْإِشْرَاكِ مَعَهُ، فَكَرِهَ لَهُ الْمُضَاهَاةَ فِي الِاسْمِ لِئَلَّا يَدْخُلَ فِي مَعْنَى الشِّرْكِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ، فَأَمَّا مَا لَا تَعَبُّدَ عَلَيْهِ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فَلَا يُكْرَهُ إِطْلَاقُ ذَلِكَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ، كَقَوْلِهِ: رَبُّ الدَّارِ وَرَبُّ الثَّوْبِ. وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللهِ: رَبٌّ، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: إِلَهٌ، وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِاللهِ تَعَالَى إِطْلَاقُ الرَّبِّ بِلَا إِضَافَةٍ، أَمَّا مَعَ الْإِضَافَةِ فَيَجُوزُ إِطْلَاقُهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وَقَوْلِهِ ﷺ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: "أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا"(١)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ النَّهْيَ فِي ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلتَّنْزِيهِ، وَمَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلِبَيَانِ الْجَوَازِ.

وَقِيلَ: هُوَ مَخْصُوصٌ بِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا يَرِدُ مَا فِي الْقُرْآنِ، أَوِ الْمُرَادُ النَّهْيُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ وَاتِّخَاذِ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ عَادَةً، وَلَيْسَ الْمُرَادُ النَّهْيَ عَنْ ذِكْرِهَا فِي الْجُمْلَةِ.

قَوْلُهُ: "وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلَايَ" فِيهِ جَوَازُ إِطْلَاقِ الْعَبْدِ عَلَى مَالِكِهِ سَيِّدِي.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالسَّيِّدِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى اتِّفَاقًا، وَاخْتُلِفَ فِي السَّيِّدِ، وَلَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى. فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى فَالْفَرْقُ وَاضِحٌ إِذْ لَا الْتِبَاسَ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ فَلَيْسَ فِي الشُّهْرَةِ وَالِاسْتِعْمَالِ كَلَفْظِ الرَّبِّ فَيَحْصُلُ الْفَرْقُ بِذَلِكَ أَيْضًا، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُصَنِّفُ فِي (الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "السَّيِّدُ اللهُ"(٢).

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا أَطْلَقَهُ لِأَنَّ مَرْجِعَ السِّيَادَةِ إِلَى مَعْنَى الرِّيَاسَةِ عَلَى مَنْ تَحْتَ يَدِهِ، وَالسِّيَاسَةِ لَهُ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ لِأَمْرِهِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الزَّوْجُ سَيِّدًا، قَالَ: وَأَمَّا الْمَوْلَى فَكَثِيرٌ

---

(١) أخرجه مسلم (٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٥) من طريق قتادة، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود في سننه (٤٨٠٦) من طريق أبي نضرة؛ كلاهما (قتادة و أبو نضرة) عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه به. والحديث صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٥).

التَّصَرُّف فِي الْوُجُوهُ الْمُخْتَلِفَة مِنْ وَلِيّ وَنَاصِر وَغَيْر ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يُقَالُ: السَّيِّد وَلَا الْمَوْلَى عَلَى الْإِطْلَاق مِنْ غَيْر إِضَافَة إِلَّا فِي صِفَة الله تَعَالَى.

وَفِي الْحَدِيث جَوَاز إِطْلَاق مَوْلَايَ أَيْضًا، وَأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِم، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ طَرِيق الْأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي هَذَا الْحَدِيث نَحْوه وَزَادَ: "وَلَا يَقُلْ أَحَدكُمْ: مَوْلَايَ فَإِنَّ مَوْلَاكُمْ الله، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: سَيِّدِي"، فَقَدْ بَيَّنَ مُسْلِم الِاخْتِلَاف فِي ذَلِكَ عَلَى الْأَعْمَش، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الزِّيَادَة، وَمِنْهُمْ مَنْ حَذَفَهَا، وَقَالَ عِيَاض: حَذْفُهَا أَصَحُّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: الْمَشْهُور حَذْفُهَا، قَالَ: وَإِنَّمَا صِرْنَا إِلَى التَّرْجِيح لِلتَّعَارُضِ مَعَ تَعَذُّرِ الْجَمْع وَعَدَم الْعِلْم بِالتَّارِيخِ. وَمُقْتَضَى ظَاهِر هَذِهِ الزِّيَادَة أَنَّ إِطْلَاق السَّيِّد أَسْهَلُ مِنْ إِطْلَاق الْمَوْلَى، وَهُوَ خِلَاف الْمُتَعَارَف، فَإِنَّ الْمَوْلَى يُطْلَقُ عَلَى أَوْجُهٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا الْأَسْفَل وَالْأَعْلَى، وَالسَّيِّد لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الْأَعْلَى، فَكَانَ إِطْلَاق الْمَوْلَى أَسْهَلَ وَأَقْرَب إِلَى عَدَم الْكَرَاهَة، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ رَوَاهُ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِلَفْظِ الْمَوْلَى إِثْبَاتًا وَلَا نَفْيًا؛ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيّ، وَالْمُصَنِّف فِي" الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ " بِلَفْظِ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَلَا أَمَتِي، وَلَا يَقُلْ الْمَمْلُوك: رَبِّي وَرَبَّتِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ الْمَالِك: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَالْمَمْلُوك: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي؛ فَإِنَّكُمْ الْمَمْلُوكُونَ وَالرَّبُّ الله تَعَالَى»(١).

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَاد النَّهْي عَنْ الْإِطْلَاق كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَام الْخَطَّابِيّ، وَيُؤَيِّدُ كَلَامه حَدِيثُ اِبْن الشِّخِّير الْمَذْكُور، وَالله أَعْلَم. وَعَنْ مَالِك تَخْصِيص الْكَرَاهَة بِالنِّدَاءِ فَيُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي، وَلَا يُكْرَهُ فِي غَيْر النِّدَاء(٢).

*   *   *   *

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٤٢٣، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٢)، وأبو داود في سننه (٤٩٧٥) من طريق مُحَمَّد بْن سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة به. والحديث صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٤).

(٢) فتح الباري ٥/ ٢١٣: ٢١٢، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ١٠: ٩.

٦- شبهة: أن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه عز وجل.

نص الشبهة:

جاء في القرآن في سورة يوسف: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾، فيوسف عليه السلام نسي ربه، واستعان بالمخلوق، واعتصم به؛ فعوقب بذلك بأن بقي في السجن وقتًا طويلًا.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على ساقي الملك؛ وهو الصواب.

الوجه الثاني: عدم صحة الحديث المروي في حمل النسيان على يوسف عليه السلام.

الوجه الثالث: أن قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لا ينافي التوكل؛ لأن يوسف عليه السلام كان ذاكرًا لربه في كل أحواله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على ساقي الملك؛ وهو الصواب.

اختلف علماء التفسير في الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ على قولين:

الأول: أنه عائد على يوسف عليه السلام أي: أنساه الشيطان ذكرَ الله سبحانه وتعالى، فقال لساقي الملك حين علم أنه سينجو و يعود إلى حالته الأولى مع الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بالمخلوق فعوقب باللبث في السجن بضع سنين[(١)].

الثاني: أنه عائد على ساقي الملك الناجي فهو الناسي، أي: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه[(٢)].

قلنا: و الصواب القول الثاني للوجوه الآتية:

١- الضمير في لغة العرب يعود إلى أقرب مذكور، ما لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٣: ٢٢٢)، تفسير الرازي (١٨/ ١٤٥)، تفسير القرطبي (٩/ ٢٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥)، روح المعاني (١٢/ ٢٤٨).

٢- أن يوسف عليه السلام لم ينسْ ذكر ربه، بل كان دائمًا ذاكرًا له.

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا. . . ﴾ (يوسف: ٤٥، ٤٦) دليل واضح وبرهان لائح على أن ساقي الملك هو الناسي، ولذلك لما رأى الملك رؤيا وعجز جلساؤه عن تعبيرها تذكر ساقي الملك الناسي يوسفَ عليه السلام فولى وجهه نحو السجن يسأل يوسف عن تعبيرها، فالمراد أن ساقي الملك عندئذ تذكر يوسف، وقد كان قبل ذلك ناسيًا لوصية يوسف له عند الخروج من السجن.

وقد فصل شيخ الإسلام هذا المقام تفصيلًا حسنًا فقال: وقال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: أنسى يوسف ذكر ربه لما قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه؛ وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، والضمير يعود إلى القريب إذ لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك، ولأن يوسف لم ينس ربه بل كان ذاكرًا لربه.

وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يوسف: ٣٩، ٤٠)، وقال لهما قبل ذلك: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ أي: في الرؤيا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ يعني: التأويل، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (يوسف: ٣٧، ٣٨).

فبدأ يذكر ربه عز وجل، فإن هذا مما علمه ربه، لأنه ترك ملة قوم مشركين، لا يؤمنون بالله،

وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه، ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ﴾ (يوسف: ٤١)، ثم لما قضى تأويل الرؤيا: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف: ٤٢)، فكيف يكون قد أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر ربه؟! وإنما أنسى الشيطانُ الناجيَ ذكرَ ربه؛ أي: الذكر المضاف إلى ربه و المنسوب إليه وهو أن يذكر عنده يوسف.

والمقصود أن يوسف عليه السلام لم يفعل ذنبًا ذكره الله عنه، وهو سبحانه لا يذكر من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر استغفارًا منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارًا من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفارًا من مقدمات الفاحشة، فعلم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولا هذا، بل همَّ همًّا تركه لله فأثيب عليه حسنة، كما قُدم بسطُ هذا في موضعه، وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة، كما في قوله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا هم، ولا حزن، ولا غم، ولا أذى؛ إلا كفر الله به خطاياه»[1].

ولما أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) قال أبو بكر: يا رسول الله، جاءت قاصمة الظهر وأيُّنا لم يعمل سوءًا؟! فقال: " ألست تحزن؟ ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك مما تجزون به"[2].

فتبين أن قوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: نسي الفتى ذكر ربه؛ أن يذكر هذا لربه، ونسي ذكرَ يوسفَ ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه هذا الذكر الخاص، فإنه وإن كان يسقي ربه خمرًا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكر ربه وإذكار ربه لما قال: ﴿

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٣٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٣٦)، مسند أبي يعلى (١/ ٢٩) (٣٠/ ٢١)، وغيرهم كثير بسند ضعيف، لكن الحديث صحيح بشواهده، وانظر (عجالة الراغب المتمني ١/ ٤٤٦: ٤٤٥).

﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرًا، فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرًا ليوسف، والذكر: هو مصدر وهو اسم، فقد يضاف من جهة كونه اسمًا فيعم هذا كله أي: أنساه الذكر المتعلق بربه والمضاف إليه، ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ (يوسف: ٤٥)، وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ دليل على أنه كان ناسيًا فادكر[1].

قال محمد رشيد رضا: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: أنسى الساقي تذكر ربه، وهو أن يذكر يوسف عنده على حد: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ (الكهف: ٦٣)، ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ منسيًا مظلومًا، والفاء على هذا للسببية، وهو المتبادر من السياق والجاري على نظام الأسباب، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريبًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تَذَكَّرَ، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج إلى حذف وتقدير، ووجهوه بأنه أضاف المصدر إليه لملابسته له، وأنه على تقديرك: (ذكر إخبار ربه) من حذف المضاف وهو كثير، كما أن الإضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم.

وقيل: إن المعنى: أن أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه وهو الله عز وجل، فعاقبه الله تعالى بإبقائه في السجن بضع سنين. وقالوا: إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب أنه توسل إلى الملك لإخراجه ولم يتوكل على الله عز وجل، وجاءوا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه؛ لأنها تتضمن الطعن في نبي مرسل، وهو خلاف الظاهر من وجوه:

الأول: عطف الإنساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكرًا لله تعالى قبله إلى أن قاله، فلو كان قوله ذنبًا عوقب عليه لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه؛ أي: في تلك الحال، فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه فاستحق عقابه تعالى بإطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده.

---

(١) دقائق التفسير (٣/ ٢٦٣: ٢٥٩).

الثاني: أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سُنة الله تعالى في الأسباب والمسببات كما وقع بالفعل، فإنه ما خرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملكُ بإخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي بخبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فإذا كان قد وصاه بذلك ملاحظًا أنه من سنن الله في عباده متذكرًا ذلك وهو اللائق به؛ فلا يعقل أن يعاقبه ربه – تعالى- عليه، وعطفُ الإنساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية، فلا تكون هي ذنبًا ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب.

الثالث: إذا قيل: سلمنا أنه كان ذاكرًا لربه عندما أوصى الساقي ما أوصاه به، ولكنه نسيه عقب الوصية.

قلنا: إن زعمتم أنه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها -كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيمانًا، ولا بدَّ عليها من دليل، بل يبطلها وصف الله بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وأنه حذف عنه السوء والفحشاء وكيد النساء، وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له ﷻوذكره فهذا النسيان القليل لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الأنبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس.

الرابع: جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى.

الخامس: إن النسيان ليس ذنبًا يعاقب الله تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم النبيينﷺ: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٦٨) يعني: الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله[1].

(١) تفسير المنار (١٢/ ٣١٤: ٣١٢).

الوجه الثاني: الآثار التي تمسكوا بها على أن الناسي هو يوسف عليه السلام ضعيفة سندًا ومتنًا.

وقد تمسكوا بحديثين وبعض الآثار الموقوفة عن الصحابة؛ وهي ضعيفة:

أولًا: من ناحية السند:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "لو لم يقل يوسف - يعني: الكلمة التي قال- ما لبث في السجن طول ما لبث" يعني: حيث يبتغي الفرج من عند غير الله(١).

قال ابن كثير: وهذا الحديث ضعيف جدًّا؛ لأن سفيان بن وَكِيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد -هو الخُوزي- أضعف منه(٢).

وقال أيضًا: والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه؛ تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي وهو متروك(٣).

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن ما لبث"(٤).

قال ابن كثير: فإنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها، والذي في الصحيحين يشهد بغلطها(٥).

وقد جاء مثل هذا مرسلًا عن:

---

(١) ضعيف جدًّا. أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٢٣)، وابن أبي الدنيا في (العقوبات١٦٠)، الطبراني في الكبير (١١/ ١١٦٤٠) من حديث عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس به، وفيه إبراهيم بن يزيد: متروك الحديث (التقريب١/ ٣٥)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ١٤٦)، ميزان الاعتدال (١/ ٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٢١٣).

(٤) منكر. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٦٣٤)، ابن حبان في صحيحه (٦٢٠٦) من حديث مسدد: ثنا خالد ابن عبد الله، ثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. فيه محمد بن عمرو؛ قال ابن حجر: صدوق له أوهام (التقريب٢/ ٥٤٤)، وقد انفرد بالحديث، وعُدّ هذا الحديثُ من أوهامه.

(٥) البداية والنهاية (١/ ٢١٣).

١- عكرمة. قال: قال رسول الله ﷺ: "لولا أنه- يعني: يوسف- قال الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث"[(١)].

٢- قتادة. قال: قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: "لو لم يستعنْ يوسفُ على ربّه ما لبث في السجن طول ما لبث"[(٢)].

٣- الحسن. قال: قال نبيُّ الله ﷺ: "رحم الله يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن طولَ ما لبث» يعني قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. قال: ثم يبكي الحسن فيقول: نحن إذا نزل بنا أمرٌ فزعنا إلى الناس[(٣)].

قال ابن كثير: وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما، وهذه المرسَلات هاهنا لا تُقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن[(٤)].

وقد جاء موقوفًا عن أنس بن مالك ﷺ قال: أُوحي إلى يوسف: (يا يوسف، مَنْ استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه؟ قال: أنت يا رب. قال: من استنقذك من القتل إذ هَمَّ إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا رب. قال: فما لك نسيتني وذكرت آدميًا؟ قال: جزعًا بذنبي، وكلمة تكلم بها لساني. قال: وعزتي لأخلدنك السجن بضع سنين) قال: فلبث فيه سبع سنين[(٥)].

---

(١) **مرسل ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٢٣) من طريق ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة به.

(٢) **ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٢٣) من طريق سعيد، تفسير عبد الرزاق (١٣١٠) من طريق معمر؛ كلاهما (سعيد ومعمر) عن قتادة به.

(٣) **ضعيف**. أخرجه أحمد في الزهد (١٠٣)، تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٣)، تفسير ابن أبي حاتم (١١٦٣٥) من طريق يونس، وأخرجه الطبري من طريق أبي رجاء، كلاهما (يونس وأبو رجاء) عن الحسن به.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦).

(٥) **ضعيف**. تفسير ابن أبي حاتم (١١٦٤٢)، وعبد الله بن أحمد في الزوائد على الزهد (١٠٤) من حديث محمد بن أبي المقدمي، عن سلام بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس به.

فيه سلام بن أبي الصهباء؛ قال البخاري: منكر الحديث. وضعفه ابن معين. قال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قال أبو حاتم: شيخ - قوله: (هو شيخ) ليس هو عبارة جرح. . . ولكنها أيضًا ما هي عبارة توثيق،

ثانيًا: ضعف الأحاديث من ناحية المتن:

فلأن طلب الشفاعة لأخذ الحق ليس ابتغاءً للفرج من عند غير الله، وإلا لما قال النبي ﷺ لأصحابه إذا أتاه صاحب حاجة: "اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أراد"[(١)].

فأخذ الأسباب ابتغاء الفرج من عند الله، ولو وقع إنسان في بئر مثلًا وكان يستطيع أن ينادي مَنْ بالطريق بجوار البئر ليخرجه لزمه ذلك، كما يلزمه إمساك الحبل لمن ألقاه إليه خلافًا للمنقول عن بعض المتقدمين من تركه النداء حتى يرسل الله إليه الحبل، فهل كان ترك النداء توكلًا والإمساك بالحبل نقصًا في التوكل، فالمسألة واحدة في الأمرين؛ كلاهما سبب[(٢)].

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب؛ وإن كان فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين، والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر، وهذا بَيِّنٌ فتأمله[(٣)].

وقال الرازي: واعلم أن الاستعانة بالناس جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذا وإن كان جائزًا لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب[(٤)].

الوجه الثالث: **أن قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، لا ينافي التوكل؛ لأن يوسف عليه السلام كان ذاكرًا لربه في كل أحواله.**

والذين قالوا ذلك القول قالوا: كان الأولى أن يتوكل على الله، ولا يقول: ﴿ٱذۡكُرۡنِي

وبالاستقراء يلوح لك أنه ليس بحجة) من له رواية في كتب الستة للذهبي- التاريخ الكبير (٤/ ١٣٥)، الجرح والتعديل (٤/ ٢٥٧)، لسان الميزان (٣/ ٥٨).

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، مسلم (٢٦٢٧).

(٢) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٢٦: ١٢٥).

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٤: ٢٠٣.

(٤) تفسير الرازي١٨/ ١٤٤.

عِندَ رَبِّكَ﴾، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين؟

فيقال: ليس في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ كما أن قول أبيه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ (يوسف: ٦٧) لم يناقض توكله، بل قال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف٦٧).

وأيضًا فيوسف عليه السلام قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصًا مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركًا لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣)، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟

وقوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مثل قوله لربه – أي: ملك مصر-: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٥)، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل، ولاهو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مناقضًا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبث الناس، ولهذا بعد أن طُلِبَ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٠)، فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك ويقول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ فلم يكن في قوله له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ترك الواجب ولا فعل المحرم حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلمًا له مع علمهم ببراءته من الذنب؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ (يوسف: ٣٥)، ولبثه في السجن كان

كرامة من الله في حقه ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال، ولهذا قال: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠)، ولو أنه لم يصبرْ ويتقِ بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس.

وجاء في مؤتمر تفسير سورة يوسف: ونسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك وأسبابه هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق، حتى أنسى الشيطانُ الساقيَ أن يذكر يوسف للملك بدليل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾، فإن الإدكار إنما يكون بعد النسيان، هذا هو الصواب، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره إلا أن يكون قد اعتزل العقل والذوق؛ بحيث هو لا يعرفهما وهما لا يعرفانه، وإنما نسي الساقي ذكر يوسف للملك لوسوسة الشيطان إليه بما شغله عن ذكره له حتى ذهب عنه، وزال عن قلبه ذكره. فقربه من الملك أنساه بوعده السابق، وقصر الملك أنساه السجن، وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء، وأصحابه في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق والذل، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه وبأهله وذويه، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك أصبح شغله الشاغل، هذه هي الوسائط التي استعملها الشيطان حتى غفل الساقي عن يوسف، ولكون هذه الأشياء وما إليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء إليه، ولو أن يوسف عليه السلام استقبل من أمره ما استدبر لما كان قدم للساقي رجاءه ولكن لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل.

وهذا النوع من النسيان معهود وليس ببدع ولا مستبعد، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء، فكأيٍّ مَنْ يصحبك حال شدته وضيقه وينساك يوم الرخاء و الفرج، بل كثيرًا ما ينسى الناس خالقهم في أيام الرغد و الرخاء، فلا عجب من أن ينسى الساقي المصري (يوسف العبراني) العبد السجين، وكثيرًا من الأولاد لا يذكرون أتعاب والدتهم عليهم في صغرهم، والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى أسندت لعدتهم عمالة ما، كما أن كثيرًا من الأصحاب الفقراء إذا اغتنوا

وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الخشن، ونرى كثيرًا من أهل الأمراض متى صحوا وشفوا ينسون طبيبهم، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذهم إلى آخر ما هنالك من الضروب والأشكال، وقد قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦، ٧)، و قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾ (عبس: ١٧)، ثم إني لا أنسى من الأسباب الأساسية لنسيان الساقي ذكر (يوسف) للملك معاطاته شرب الخمر، فإن شربه كما يعمل تأثيرًا سيئًا في الأخلاق، والصحة، والإجرام، وفي المال، وفي قوة الإنتاج؛ فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار؟ وكم هالهم أن تكون المسكرات سببًا لإصابات الجنون؟

وهذا، وإن (الفاء) في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ ليست تفريعية، بمعنى: أن الإنساء كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه، بل هي عاطفية خلافًا للمفسرين، إذن المعنى على ما نفهم أنه حصل: أن يوسف قال كذا وكذا، ثم فورًا حصل أن الساقي نسي ما تكلم به معه، هذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام، والمناسب للواقع لا أقل ولا أكثر، فكن لما ذكرناه من الحافظين، وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين[1].

*   *   *   *

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٧٧: ٧٧٦).

٧- شبهة: كيف يطلب يوسف عليه السلام الولاية؟.

نص الشبهة:

كيف يطلب نبي الله يوسف عليه السلام الولاية في قوله للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع أن الإسلام نهى عن ذلك.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل في الإسلام أن لا يطلب الإنسان الولاية.

الوجه الثاني: جواز طلب الولاية لمن كان لها أهلًا أو تعينت عليه.

الوجه الثالث: بيان لماذا طلب يوسف عليه السلام الولاية؟

الوجه الرابع: وقيل: طلبُ يوسف عليه السلام الولاية خاصٌ بشريعته.

الوجه الخامس: أن يوسف عليه السلام طلب الولاية بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل في الإسلام أن لا يطلب الإنسان الولاية.

عَنْ أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خزي وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"(١).

وعنه أيضًا أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ"(٢).

قال النووي: هَذَا الْحَدِيث أَصْل عَظِيم فِي اِجْتِنَاب الْوِلَايَات، لَا سِيَّمَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ ضَعْف عَنْ الْقِيَام بِوَظَائِفِ تِلْكَ الْوِلَايَة، وَأَمَّا الْخِزْي وَالنَّدَامَة فَهُوَ حَقّ مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا، أَوْ كَانَ أَهْلًا وَلَمْ يَعْدِل فِيهَا فَيُخْزِيه الله تَعَالَى يَوْم الْقِيَامَة وَيَفْضَحهُ، وَيَنْدَم عَلَى مَا فَرَّطَ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْوِلَايَةِ وَعَدَلَ فِيهَا فَلَهُ فَضْل عَظِيم، تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة كَحَدِيثِ: "سَبْعَة

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٦).

يُظِلّهُمْ الله. . . "، وَالْحَدِيث الْمُذْكُور هُنَا عَقِب هَذَا: "أَنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُور. . . " وَغَيْر ذَلِكَ، وَإِجْمَاع الْمُسْلِمِينَ مُنْعَقِد عَلَيْه، وَمَعَ هَذَا فَلِكَثْرَةِ الْخَطَر فِيهَا حَذَّرَهُ ﷺ مِنْهَا، وَكَذَا حَذَّرَ الْعُلَمَاء، وَامْتَنَعَ مِنْهَا خَلَائِق مِنْ السَّلَف، وَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى حِين اِمْتَنَعُوا[١].

فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: "يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"[٢].

قال الشوكاني: وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ طَلَبَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُكْمِ مَكْرُوهٌ، فَيَدْخُلُ فِي الْإِمَارَةِ الْقَضَاءُ وَالْحِسْبَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَأَنَّ مَنْ حَرَصَ عَلَى ذَلِكَ لَا يُعَانُ وَيُعَارِضُ ذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَذْكُورُ فِي آخِرِ الْبَابِ – يعني: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: "مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَنَالَهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْرَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلَهُ فَلَهُ النَّارُ"[٣].

قَالَ الْحَافِظُ: وَيُجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يُعَانُ بِسَبَبِ طَلَبِهِ أَنْ لَا يَحْصُلَ مِنْهُ الْعَدْلُ إِذَا وَلِيَ؛ أَوْ يُحْمَلَ الطَّلَبُ هُنَا عَلَى الْقَصْدِ وَهُنَاكَ عَلَى التَّوْلِيَةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِذَا كَانَ الطَّالِبُ مَسْلُوبَ الْإِعَانَةِ تَوَرَّطَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ وَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، فَلَا تَحِلُّ تَوْلِيَةُ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ رُبَّمَا كَانَ الطَّالِبُ لِلْإِمَارَةِ مُرِيدًا بِهَا الظُّهُورَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالتَّنْكِيلَ بِهِمْ، فَيَكُونُ فِي تَوْلِيَتِهِ مَفْسَدَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ ابْنُ التِّينِ: مَحْمُولٌ عَلَى الْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ قَالَ يُوسُفُ ﷺ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وَقَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿وَهَبْ لِي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٢)، مسلم (١٦٥٢).

(٣) ضعيف. أخرجه أبو داود (٣٥٧٥)، ومن طريقه البيهقي (١٠/ ٨٨) من طريق موسى بن نجدة، عن جده يزيد بن عبد الرحمن و هو أبو كثير قال: حدثني أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: فذكره.

و هذا إسناد ضعيف. فيه: موسى بن نجدة؛ قال الذهبي: " لا يعرف "، و قال الحافظ: " مجهول "، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٨٦).

مُلْكًا﴾، قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قُلْتُ: ذَلِكَ لِوُثُوقِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ الْعِصْمَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَأَيْضًا لَا يُعَارِضُ الثَّابِتُ فِي شَرْعِنَا مَا كَانَ فِي شَرْعِ غَيْرِنَا، فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الطَّلَبُ فِي شَرْعِ يُوسُفَ عليه السلام سَائِغًا، وَأَمَّا سُؤَالُ سُلَيْمَانَ فَخَارِجٌ عَنْ مَحَلِّ النِّزَاعِ؛ إِذْ مَحَلُّهُ سُؤَالُ الْمَخْلُوقِينَ لَا سُؤَالُ الْخَالِقِ، وَسُلَيْمَانُ عليه السلام إِنَّمَا سَأَلَ الْخَالِقَ[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ"[2].

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَمِّي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلاَّكَ اللهُ عز وجل، وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "إِنَّا وَاللهِ لاَ نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلاَ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ"[3].

قال ابن حجر: قال المهلب: الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها؛ حتى سفكت الدماء، واستبيحت الأموال والفروج، وعظم الفساد في الأرض بذلك، ووجه الندم أنه قد يقتل، أو يعزل، أو يموت؛ فيندم على الدخول فيها؛ لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته.

قال: ويستثنى من ذلك من تعين عليه، كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال.

قلت: وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير طلب؛ بل في التعبير بالحرص إشارة إلى أن مَنْ قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطى بغير سؤال لفقد الحرص غالبًا عمن هذا شأنه، وقد يغتفر الحرص في حق مَنْ تعين عليه لكونه يصير واجبًا عليه[1].

---

(١) نيل الأوطار (٩/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، مسلم (١٧٣٣).

الوجه الثاني: جواز طلب الولاية لمن كان لها أهلًا أو تعينت عليه.

لقد دلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له أهلًا، فإن قيل: فقد روى مسلم عن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"[٢].

فالجواب: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية؛ لأنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل، وطلب ذلك لنفسه، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها، ترغيبًا فيما يرومه، وتنشيطًا لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها[٣].

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره؛ لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة، وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك؛ لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب - عليهم السلام-، فلا يعارض هذا ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة؛ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها"؛ لأن عبد الرحمن ابن سمرة لم يكن منفردًا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحًا على جميعهم.

ومن هذه الآية أخذ فقهاءُ المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل، وأنه إن لم يُول ضاعت الحقوق.

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٢)، مسلم (١٦٥٢).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٠).

قال المازري: يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعيُّ في طلب القضاء إن علم أنه إن لم يَلِهِ ضاعت الحقوق، أو وليه من لا يحل أن يولى، وكذلك إن كان وليه من لا تحل توليته ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله(١).

الوجه الثالث: بيان لماذا طلب يوسف عليه السلام الولاية؟

أولًا: طلب يوسف عليه السلام الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله.

فإنما طلب يوسف عليه السلام هذه الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد؛ ولعلمه أن غيره لا يقوم مقامه في ذلك(٢).

قال القرطبي: طلبَ الولايةَ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم؛ لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك مَنْ يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك؛ كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك مَنْ يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقول صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن: "لا تسأل الإمارة. . . "، وأيضًا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "وكل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ولخوفه من التقصير في حقوقها فرَّ منها، ثم إن ابتُلي بها فيرجى له التخلص منها؛ وهو معنى قوله: "أُعين عليها". (٣)

ثانيًا: أن التصرف في أمور الخلق كان واجبًا عليه فتعينت عليه الولاية.

فالأصل أن التصرف في أمور الخلق كان واجبًا عليه؛ فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجبًا عليه لوجوه:

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٩.

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤)، الكشاف (٣/ ١٨٤).

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢١.

الأول: أنه كان رسولًا حقًّا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

والثاني: هو أنه ﷺ علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك، ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضـرر عنهم -أمر مستحسن في العقول، وإذا ثبت هذا فنقول: إنه ﷺ كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ فكان هذا الطريق واجبًا عليه، ولما كان واجبًا سقطت الأسئلة بالكلية[(١)].

فوجه الجمع بين أدلة النهي عن طلب الإمارة وبين طلب يوسف ﷺ الولاية: أن الولاية إذا تعينت على شخص لعدم صلاحية غيره لها ولم يقدمه غيرُه لها؛ فالحاجة داعية إلى طلبها، فعند ذلك يجوز وربما وجب عليه طلبُها إذا لم يكن هناك سبيل إلى تولية القوى الأمين إلا بذلك، و المجتمع الإسلامي الأصل فيه أن العلم و العمل هما اللذان يبرزان الكفاءات حتى يقدمها أهل الحل و العقد، ويوسف ﷺ لم يكن في هذا المجتمع المسلم، ولا يوجد مَنْ يقدمه؛ ولذا طلب الولاية، فلا ينبغي اعتماد هذا دليلًا على مشروعية نظام الترشيح و الانتخاب الغربي في بلاد الإسلام؛ هذا النظام الذي يقوم على ذكر حسنات النفس وتزكيتها، وعيب الآخرين ونقصهم، ولا شك أن هذه الصورة ليست هي الصورة الصحيحة، ولا عرفها المسلمون عبر عصورهم المختلفة، فلا يجوز أن يُقال: إن الديمقراطية هي الشورى في الإسلام خصوصًا أن مردَّ الأمر عندهم إلى العامة والدهماء ممن لا يعرف صفات الولاة الواجبة ومَنْ يستحقها.

وإنما يعتمدون على العصبيات، والقرابات، والمصالح، والأموال؛ فما أقبحها من صورة تضع فيها الأمانات، ويوسد فيها الأمر إلى غير أهله! فلو اضطر بعض المسلمين إلى

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٦١، تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٢.

طلب الولاية بالشـرط الذي ذكرنا من تعينها ووجود الحاجة إلى الطلب- فلا يجعل هذا أصلًا شرعيًا يستمر عليه أو يعتمده المسلمون كنظام لحياتهم ومجتمعهم ووظائفهم[(١)].

ثالثا: طلب يوسف عليه السلام الولاية لثقته من نفسه بما آتاه الله من العصمة.

يحتمل أن يكون النهي عن تولي الولاية والنهي عن طلبها في غير الأنبياء، وذلك لوثوق الأنبياء من أنفسهم بسبب العصمة من الذنوب[(٢)].

الوجه الرابع: وقيل: طلبُ يوسف عليه السلام الولاية خاصٌ بشريعته.

فلا يعارض الثابت في شرعنا ما كان في شرع غيرنا، فيمكن أن يكون الطلب في شرع يوسف عليه السلام سائغًا[(٣)].

الوجه الخامس: أن يوسف عليه السلام طلب الولاية بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

لم يقل يوسف عليه السلام: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال، وأنه وصف نفسه بالأمانة والكفاءة؛ وهما مقصود الملوك ممن يُوَلُّونه؛ إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة، ولا خلل معهما لقائل[(٤)].

* * *

(١) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٥٤: ١٥٣).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٢٦).

(٣) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٥٤).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٩٢).

٨- شبهة: يوسف عليه السلام يزكي نفسه.

نص الشبهة:

يقولون أن الله قد نهى أن يزكِّي الإنسان نفسه، ولكن نبي الله يوسف عليه السلام قد زكَّى نفسه حينما قال للملك ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: يوسف عليه السلام ما كان يقصد المدح لذاته، فما قال: إني حسيب جميل، وإنما قال: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

الوجه الثاني: الملك زكى يوسف عليه السلام قبل أن يزكي يوسف عليه السلام نفسه.

الوجه الثالث: يوسف عليه السلام وصف نفسه بهذا الوصف حتى يعلم الملك أنه يفي بهذه المهمة.

الوجه الرابع: الأصل في التزكية الامتناع، وإن كان لضرورة أو حاجة فهو مباح.

الوجه الخامس: أن هذا خاصٌ بالأنبياء لعصمتهم.

الوجه السادس: لأنه كان يعيش في مجتمع لا تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: يوسف عليه السلام ما كان يقصد المدح لذاته، فما قال: إني حسيب جميل، وإنما قال: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

لم يقل يوسف عليه السلام: إني حسيب كريم، وإن قال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"، ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال، وأنه وصف نفسه بالأمانة والكفاءة

وهما مقصود الملوك ممن يولونه، إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة، ولا خلل معهما لقائل[(١)].

قال ابن عاشور: واقتراح يوسف عليه السلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٢، الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٨٢.

سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح، ولذلك لم يسأل مالًا لنفسه، ولا عَرَضًا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة، ليحفظ الأموال، ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها، وعلّل طلبه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إنّ) في صدر الجملة، فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بل كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه، ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقّق للائتمان، وصفة العلم المحقّق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى إتباعه وهذا من قبيل الحِسبَة(١).

الوجه الثاني: الملك زكى يوسف عليه السلام قبل أن يزكي يوسف عليه السلام نفسه.

قال ابن كثير: يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرْضه مما نسب إليه، قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي: أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة(٢).

قال الرازي: إن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه:

أحدها: أنه عظم اعتقاده في علمه، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع إليه.

وثانيها: أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته؛ وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج، بل صبر وتوقف وطلب أولًا ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم.

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٨، ٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١)، تفسير القرطبي (٩/ ٢١٦).

وثالثها: أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه؛ وذلك لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٥٠)، وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب.

ورابعها: براءة حاله عن جميع أنواع التُّهم، فإن الخصم أقرَّ له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم.

وخامسها: أن الشرابي – الذي كان يسقي الملك- وصف له جدَّه في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن.

وسادسها: أنه بقي في السجن بضع سنين. وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان، فكيف مجموعها؟ فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئًا جمع أسبابه وقواها.

واعلم أن قوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لا بد في كونه مكينًا من القدرة والعلم، أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة، وأما العلم فلأن كونه متمكنًا من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالمًا بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك، فثبت أن كونه مكينًا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم. أما كونه أمينًا فهو عبارة عن كونه حكيمًا لا يفعل الفعل لداعي الشهوة، بل إنما يفعله لداعي الحكمة، فثبت أن كونه مكينًا أمينًا يدل على كونه قادرًا، وعلى كونه عالمًا بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه. فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة إثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا: إنه تعالى لا يفعل القبيح؛ لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيًا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح، قالوا: وإنما يكون غنيًا عن القبيح إذا كان قادرًا، وإذا كان منزهًا عن داعية السفه[1].

(١) تفسير الرازي (١٨/ ١٥٩).

الوجه الثالث: يوسف عليه السلام وصف نفسه بهذا الوصف حتى يعلم الملك أنه يفي بهذه المهمة.

قال الرازي: لا نسلم أنه مدح نفسه- تفاخرًا- لكنه بين كونه موصوفًا بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب؛ وبين البابين فرق، وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف؛ لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالـمًا بأنه يفي بهذا الأمر(١).

الوجه الرابع: الأصل في التزكية الامتناع، وإن كان لضرورة أو حاجة فهو مباح.

لما خلا مدحُه لنفسه من بغي وتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه وعدل يُحييه وجور يبطله، كان ذلك جميلًا جائزًا، فهب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذمومًا إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ (النجم: ٣٢) المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أما إذا كان الإنسان عالمًا بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه، والله أعلم(٢). فدلت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل.

قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله فيجوز للرجل مدح نفسه إذا جهل أمره للحاجة والرخصة والضرورة(٣).

وقد دلَّ على الرخصة في موضع الحاجة والضـرورة قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، وذلك أن الملك كان لا يعرف فيه القدرة على الحفظ والضبط لبيت المال، وطرق

---

(١) التفسير الرازي (١٨/ ١٦١).

(٢) زاد المسير٣/ ٢٤٥، تفسير الرازي ١٨/ ١٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن١٨/ ٢٢٢، النكت والعيون ٣/ ٥٢، محاسن التأويل٦/ ٢٤٣.

حفظ الغلال ونحو ذلك، فاحتاج إلى البيان، وكما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ (مريم: ٤٣)، وذلك لترغيب أبيه وحثه على متابعة دين الحق، وكقول النبي ﷺ: "إني لأعلمكم بالله، وأشدكم منه خشية". [١]

وقوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر"[٢]، وذلك ليعلم الناس الاعتقاد الواجب فيه ﷺ، وأنه أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، وليحذرهم من الغلو المذموم في العبادة بتحريم ما أحل الله، أو إيجاب ما لم يوجبه، وكقول عائشة رضي الله عنها: (على الخبير سَقَطّتَ)[٣].

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: (لو أعلم أحدًا مني بكتاب الله تضرب إليه أكباد الإبل لذهبت إليه)[٤]، ونحو ذلك للترغيب في طلب العلم وأخذه عنه.

وعلى أي حال، فالأصل في هذا الباب الامتناع من مدح النفس و تزكيتها، و الحذر على النفس من ذلك، وهؤلاء الأفاضل منهم الأنبياء المعصومون، ومنهم الأولياء المتقون المشهود لهم بالفضل من النبي ﷺ، فمن يشهد للمادحِ نَفْسَهُ -منهم- مِنْ غيرهم؟! ومن يضمن له حسن نيته وهى تتقلب على المرء في الساعة الواحدة مرات؟ والسلامة لا يعدلها شيء، و الفرق بين الحق و الباطل في مثل هذا المقام ربما كان أدق من الشعرة وأحد من السيف، وربما تخفي حظوظ النفس على صاحبها ويوهم نفسه بأنه يعمل المباح، وحقيقة الأمر العجب المحرم و الغرور المذموم، فما لأمثالنا وتزكية نفوسهم ومدحها وذكر فضائلها؟

وما أكثر من تغره نفسه في الفضائل التي هي عارية عنها! وإنما هي دعوى وتشبع بما لم يعط، فإذا كان مدح الإنسان نفسه بما يتيقن من فضائلها الأصل فيه المنع، و الجواز فيه على قدر الضرورة والحاجة مع شروط سلامة النية وحسن القصد و الإخلاص الذي هو أعز شيء، والشرك في هذا المقام أخفى من دبيب النمل، فكيف بما يشك فيه أهو في النفس أم

---

(١) أخرجه البخاري(٦١٠١)، مسلم (٦٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٣٤٩).

(٤) أخرجه البخاري(٤٧١٥)، مسلم (٢٤٦٣).

لا؟ فكيف بما يعلم أنه دعوى؟ فكيف بما يعلم أن النية فيه لغير الله؟ فنسأل الله العافية ونعوذ به من الكبر والعجب والغرور.

وعندما ينظر المرء إلى المجتمعات المعاصرة والنظم التي اختارتها لنفسها في تولية الولايات وهي تزعم أنها في قمة الحضارة وأرقى ما وصلت إليه الإنسانية من الحرية و العدالة - يرى كيف يزكون أنفسهم بما ليس فيهم لنيل حظ من حظوظ الدنيا، ويغتابون غيرهم وينمون لإفساد صورتهم عند الناس ليصرفوهم عن اختيارهم، فتكون ما يسمونه بـ (المعارك الانتخابية)، وقد تسفك فيها الدماء، وقطعًا تنفق فيها الملايين من الأموال وتشترى الذمم والولاءات، عندما يرى المرء ذلك يعلم صدق ما قال رسول الله ﷺ في أشراط الساعة: "وأن ترى الصم البكم ملوك الأرض"[(١)]، ويرى كيف يتسبب جهل الناس بالشرع ومخالفتهم لهديه في تضييع الأمانة، وأن يوسد الأمر إلى غير أهله فيكون ذلك سببًا في خراب الدنيا وقرب نهايتها، كما قال رسول الله ﷺ: "إذ ضيعت الأمانة فانتظر الساعة"، قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: "إذا وُسِّدَ -أي: أسند- الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[(٢)]، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فعلى المرء المسلم أن يربأ بنفسه عن التمرغ في وحل هذه الأنظمة الجاهلية، ودنس المشاركة فيها، أو إضفاء الشرعية عليها، والله المستعان[(٣)].

الوجه الخامس: أن هذا خاص بالأنبياء لعصمتهم.

وهذا مفصل في محله.

الوجه السادس: لأنه كان يعيش في مجتمع لا تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس.

وقيل: مدح يوسف عليه السلام نفسه لأنه لم يكن يعيش في مجتمع تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية، كما أنه كان يرى أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩).

(٣) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٧٤: ١٧٣).

الظروف تمكن له من أن يكون حاكمًا مطاعًا لا خادمًا في وضع جاهلي، وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه، وقد توارى العزيز وتوارى الملك تمامًا[(١)].

* * *

(١) الظلال (١٣/ ٢٠١٣).

٩- شبهة عمل يوسف عليه السلام عند الكفار.

نص الشبهة:

كيف يعمل يوسف عليه السلام عند الكفار وتحت ولايتهم؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل جواز ذلك العمل بضوابط الشريعة.

إن في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر؛ بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك(١).

فيجوز عمل الرجل الصالح للرجل الفاجر بما يقتضيه الشرع والعدل، لا بما يختاره ويشتهيه مما لا يسيغه الشرع. (٢)

والأصح أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه؛ كالصدقات والزكوات، فيجوز توليته من جهة الظالمين؛ لأن النص على مستحقيه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التنفيذ.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به، ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليته من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حقٍ ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله وللاجتهاد فيه مدخل؛ كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد فيه محلول، فإن كان النظر تنفيذًا لحكم بين متراضيين أو توسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز(٣).

الوجه الثاني:

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٢٥٦)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٢٢٠).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٦/ ٢١٩).

(٣) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٣/ ٢٤٢).

وقيل: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز.[١]

الوجه الثالث:

فرعون يوسف عليه السلام كان صالحًا، وإنما الطاغي الكافر هو فرعون موسى[٢].

الوجه الرابع:

أن شرع يوسف عليه السلام لم يكن شريعة عامة تلزم جميع الناس في زمنه، وإنما هو ملتزم بها مع أبناء يعقوب، وإنما كانت دعوته لأهل مصر إلى التوحيد والإيمان، ولا دليل على وجود شريعة ملزمة أرسل بها يوسف إليهم، وكانت لازمة لهم فردوها ولم يعملوا بها، ولا يتم الاستدلال بجواز تولي الولايات للكفرة والظلمة وممارسة الظلم فضلًا عن الكفر إلا بإثبات ذلك، وإثبات أن يوسف بعد ردهم للشريعة ظلَّ يطبق فيهم شرعتهم الباطلة المخالفة لشرع الله، ولا سبيل إلى إثبات ذلك بوجه من الوجوه[٣].

الوجه الخامس: أن الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام في هذه المسألة مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه.

فلو سلمنا أن يوسف كان يباشر مخالفة الشرع والظلم - وحاشاه من ذلك عليه السلام، ونحن بحمد الله لا نسلم بذلك ولا نقره- لما كان في ذلك حجة؛ لأن شرعنا ورد بخلاف ذلك في مواطن مختلفة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾، ومن ذلك قول النبي ﷺ: "سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، ويقربون شرار الناس، فمن أدرك ذلك فلا يكونن لهم عريفًا، ولا شرطيًا، ولا خازنًا، ولا جابيًا"[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٠).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٢٤٢).

(٣) تأملات في سورة يوسف (١٥٦).

(٤) صحيح ابن حبان (٥٤٨٦)، وسكت عنه المنذري، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٦٠).

فمنع من هذه الوظائف لما تشتمل عليه من ظلم وعدوان ومباشرة للحرام، وامتناع السلف من تولي القضاء وغيره من الولايات للظلمة كثير مشهود مذكور في فضائلهم، فشرعُنا ينهى عن الإعانة على الظلم فضلًا عن مباشرة شيء من ذلك[(١)].

الوجه السادس: أن الشريعة التي بعث بها محمد ﷺ عامة باقية للأحمر و الأسود.

والكفار مخاطبون بفروعها – الشريعة المحمدية- على الصحيح من أقوال العلماء، فلا يسع أحدًا الخروج على شيء منها، وهي شريعة شاملة لكل الأمور والمسائل، لا يوجد أمر في دين أو دنيا ويخرج عن حكم من أحكامها، بخلاف ما سبقها شرائع الأنبياء السابقين، فقد كان يسع البعض الذين لم يرسل إليهم النبي أن يخرج عليها، ولم تكن شرائعهم شاملة لكل الأحكام، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾، فليس هناك ما يدل على أن يوسف كان ملزمًا أن يحكم في أهل مصر بشريعة يعقوب عليه السلام أو غيرها، وليس هناك ما يدل على أن عمل يوسف عليه السلام على خزائن الأرض يتضمن مخالفة لشريعة يعقوب عليه السلام، وليس هناك ما يدل على أن أهل مصر في ذلك الوقت كانوا مكلفين

بفروع شريعة إلهية زيادة على ما أُمروا به من توحيد الله وعبادته، و الله أعلم.

ولهذه الوجوه نرى عدم صحة الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على هذه المسألة أصلًا، ومثلها في عدم صحة الاستدلال قضية النجاشي، وأنه بقي في ملكه على مملكة الحبشة بعد إسلامه مع بقائهم على دينهم وشريعتهم؛ وذلك لأنه ليس هناك ما يدل على بلوغ تفاصيل الشريعة للنجاشي خلال مدة حكمه، فمعلوم أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وأن الأحكام التفصيلية إنما نزلت في المدينة بعد الهجرة، ولم يبلغ المسلمين في الحبشة ظهور النبي ﷺ فضلًا عن تفاصيل الشرائع إلا في السنة السابعة من الهجرة حين قدم جعفر ومن معه رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ وقد فتح خيبر، وأولى أن لا

---

(١) تأملات في سورة يوسف (١٥٦).

يصل إلى النجاشي تفاصيل الأحكام الشرعية حتى يلزمه العمل بها، فإن العمل يجب مع التمكن من العلم و القدرة على العمل، فإذا لم يتمكن من العلم أو كان عاجزًا عن العمل لم يجب عليه، والله المستعان(١).

الوجه السابع:

وقيل: إن يوسف عليه السلام نظر له في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه(٢).

الوجه الثامن: حكم السفر والعمل مع الكفار في بلاد الكفر.

إن السفر والإقامة في بلاد الكفار لا تجوز إلا بشروط بَيَّنها أهلُ العلم، وملخصها:

١- أن يأمن الإنسان على دينه، بحيث يكون عنده من العلم والإيمان ما يبعده عن الانحراف.

٢- أن يكون مضمرًا لعداوة الكافرين وبغضهم، مبتعدًا عن موالاتهم ومحبتهم.

٣- أن يتمكن من إظهار دينه من الصلاة وغيره.

٤- أن يكون بقاؤه هناك لضرورة أو مصلحة؛ كالدعوة إلى الله تعالى، أو تعلم علم لا يوجد في بلده.

قال ابن عثيمين: وأما الإقامة في بلاد الكفار فإن خطرها عظيم على دين المسلم، وأخلاقه، وسلوكه، وآدابه، وقد شاهدنا وغيرُنا انحرافَ كثير ممن أقاموا هناك فرجعوا بغير ما ذهبوا به؛ رجعوا فساقًا، وبعضهم رجع مرتدًا عن دينه، وكافرًا به وبسائر الأديان والعياذ بالله؛ حتى صاروا إلى الجحود المطلق والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك ووضع الشروط التي تمنع من الهوي في تلك المهالك.

فالإقامة في بلاد الكفر لا بد فيها من شرطين أساسين:

الشرط الأول: أَمْنُ المقيم على دينه؛ بحيث يكون عنده من العلم والإيمان وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمرًا لعداوة

---

(١) تأملات في سورة يوسف (١٥٧، ١٥٦).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٢٤٢).

الكافرين وبغضهم، مبتعدًا عن موالاتهم ومحبتهم، فإن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (المائدة: ٥١).

الشرط الثاني: أن يتمكن من إظهار دينه؛ بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تَجُزْ الإقامةُ لوجوب الهجرة حينئذ.

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسيين تنقسم الإقامة في دار الكفر إلى أقسام:

القسم الأول: أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه؛ فهذا نوع من الجهاد، فهي فرض كفاية على من قدر عليها، بشرط أن تتحقق الدعوة، وأن لا يوجد من يمنع منها، أو من الاستجابة إليها؛ لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين.

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هُمْ عليه من فساد العقيدة، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك؛ ليُحذر الناسَ من الاغترار بهم، ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا؛ لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه؛ لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

القسم الثالث: أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دولة الكفر كموظفي السفارات؛ فحكمها حكم مَنْ أقام من أجله، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة، ويندرئ بها شر كبير.

القسم الرابع: أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج، فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد نص أهل العلم - رحمهم الله- على جواز دخول بلاد الكفار للتجارة، وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم.

القسم الخامس: أن يقيم للدراسة وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة، وأن يكون العلم الذي سيتعلمه لا يوجد أو غير متاح في بلده.

القسم السادس: أن يقيم للسكن؛ وهذا أخطر مما قبله وأعظم، لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر، وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة، وموالاة، وتكثير لسواد الكفار، ويتربى أهلُه بين أهل الكفر فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم، وربما قلدوهم في العقيدة والتعبد، وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر؛ ويكون الحكم فيها لغير الله ورسوله، وهو يشاهد ذلك بعينه، ويسمعه بأذنيه، ويرضى به؟!

بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده، ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين، مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم(١).

* * * *

(١) "شرح الأصول الثلاثة" للشيخ ابن عثيمين؛ ضمن مجموع الفتاوى له (٦/ ١٣٢).

١٠- شبهة: إيواء يوسف أبويه قبل الدخول، وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بعد دخولهم عليه.

نص الشبهة:

كيف يقول يوسف عليه السلام: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بعد الدخول؟ وما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى الإيواء.

الوجه الثاني: ما قيل في معنى هذا الاستثناء.

الوجه الثالث: قال لهم ذلك بعدما دخلوا عليه.

الوجه الرابع: أن يوسف عليه السلام تلقاهم قبل دخولهم مصر.

الوجه الخامس: تعلقت المشيئة بالدخول مكيفًا بالأمن.

الوجه السادس: معنى الدخول أي: الإقامة والتمكن والاستقرار.

الوجه السابع: يوسف عليه السلام استقبلهم في بيت، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الإيواء.

إن الإيواء يطلق في اللغة على عدة معاني فتقول: أويت منزلي وإلى منزلي، وأويت وتأويت وأتويت كله بمعنى: عدت، لقوله ﷺ: «أما أحدهم: فأوى إلى الله»[1] أي: رجع إليه.

قال لبيد:

بصبوح صافية وجذب كرينة   بموتر تأتي له إبهامها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، مسلم (٢١٧٦)، واللفظ عند البخاري: عَنْ أَبِي وَاقِدٍ الليثي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: "بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى الله فَآوَاهُ الله، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا الله مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عَنْهُ".

قال الجوهري: المأوى كل مكان يأوي إليه شئ ليلًا أو نهارًا، وآونا أي: ردنا، وأوى إليه أويه وأية ومأوية ومأواة أي: رق ورثى له، قال زهير:

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا

وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يخوي في سجوده حتى كنا نأوي له بمنزلة.

وقولك: كنا نرثي له ونشفق عليه من شدة إقلاله بطنه عن الأرض ومدة ضبعيه على جنبه، وفي حديث آخر كان يصلي حتى كنت آوي له، أي: أرق له وأرثي، وفي حديث المغيرة: لا تأوي من قلة؛ أي: لا ترحم أوجهًا ولا ترق عند الإعدام.

فأنت ترى أن لفظة الإيواء عند تصريفها تطلق على عدة معانٍ أو عند إدخالها في جملة فتفيد معنى: الرجوع، والعود، والضم، والإحاطة، والنصرة، والإشفاق، والرثاء، والرحمة، فإطلاقها بمعنى: دخول المنزل لا دليل عليه، وحتى لو كان المقصود بالإيواء هو ما يفهمونه، فانظر إلى آخر الوجوه في الرد(١).

الوجه الثاني: ما قيل في معنى هذا الاستثناء.

إن الاستثناء وهو قول: ﴿إِن شَاء الله﴾ فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى الأمن لا إلى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧).

الثاني: وقيل إنه عائد إلى الدخول(٢). وحاصل ذلك أن في قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أربعة أقوال: **أحدها**: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا.

والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم. والثاني: أن الناس كانوا فيها خلا يخافون من ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم.

والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر؛ لأنه قال هذا حين تلقَّاهم.

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٥٦١)، غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٠٠).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ١١٢).

والرابع: أنَّ (إنْ) بمعنى: (إذ) كقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ (النور: ٣٣)(١).

قال الشوكاني: والتقييد بالمشيئة عائد إلى الأمن، ولا مانع من عوده إلى الجميع؛ لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلاّ بمشيئته(٢).

الوجه الثالث: قال لهم ذلك بعدما دخلوا عليه.

ما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ وضمَّنه: اسكنوا مصر: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط(٣).

الوجه الرابع: أن يوسف ﷺ تلقاهم قبل دخولهم مصر.

إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر، قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ بها قبل الدخول، وقال السُّدي: فحملوا إليه أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا مصر، كلَّم يوسف الملك الذي فوقه، فخرج هو والملوك يتلقَّونهم، فلما بلغوا مصر قال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾(٤).

الوجه الخامس: تعلقت المشيئة بالدخول مكيفًا بالأمن.

ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة، فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر، فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟ قلت: بالدخول مكيفًا بالأمن، لأن القصد إلى اتصافهم

(١) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٩).

(٢) فتح القدير (٣/ ٧٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٦٦) من طريق عمرو. تفسير ابن أبي حاتم (١١٩٨٦) من طريق عامر، كلاهما (عمرو، عامر) عن أسباط عن السدي به، فيه أسباط بن نصر: صدوق كثير الخطأ يُغرب (التقريب١/ ٤٠).

بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازي: ارجع سالمًا غانمًا إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقًا، ولكن مقيدًا بالسلامة والغنيمة، مكيفًا بهما. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال(١).

الوجه السادس: معنى الدخول أي: الإقامة والتمكن والاستقرار.

أي: أقيموا بها آمنين، سمى الإقامة دخولًا لاقتران أحدهما بالآخر، ويقال أيضًا: أي ادخلوا مصر تمكنوا منها واستقروا منها بعد أن دخلا عليه مصر(٢).

الوجه السابع: يوسف ﷺ استقبلهم في بيت، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

كأنه حين استقبلهم نزل في بيت هناك أو خيمة، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾(٣).

وعلى هذا فالدخول نوعان:

قال الآلوسي: وكأنه ﷺ ضرب في الملتقى خارج البلد مضربًا فنزل فيه فدخلوا عليه فيه فآواهما إليه ثم طلب منهم الدخول في البلدة فهناك دخولان: أحدهما: دخول عليه خارج البلدة، والثاني: دخول في البلدة(٤).

* * *

(١) الكشاف (٢/ ٥٠٥).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١١)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٨١)، البحر المحيط (٥/ ٣٤١).

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٥)، تفسير الرازي (١٨/ ٢١١)، فتح القدير (٣/ ٨٨).

(٤) روح المعاني (١٣/ ٥٧).

١١- شبهة: السجود للآدمي.

نص الشبهة:

كيف يسجدون للآدمي وقد نهى الإسلام عن ذلك؟ وكيف يسجد الأب لولده ويقبله الولد؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كان السجود لله.

الوجه الثاني: كانت تحية الملوك على هذه الهيئة.

الوجه الثالث: كانت تحية فيهم ولم تكن عبادة.

الوجه الرابع: هذا السجود كان تحية لا عبادة، وقد نُسخ ذلك في شريعتنا.

الوجه الخامس: أنهم جعلوا يوسف عليه السلام كالقبلة.

الوجه السادس: أن الضمير في قوله: ﴿وَخَرُّواْلَهُۥ﴾ غير عائد إلى الأبوين.

الوجه السابع: قد يسمى التواضع سجودًا.

الوجه الثامن: كان السجود تربية لأخوة يوسف عليه السلام.

الوجه التاسع: سجدوا لحكمة خفية.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كان السجود لله.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْلَهُۥ﴾، وفي هاء ﴿لَهُۥ﴾ قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف. قال الجمهور: فكان سجودهم كهيأة الركوع كما يفعل الأعاجم.

والثاني: أنها ترجع إلى الله. فالمعنى: وخرُّوا لله سجدًا، فيكون المعنى: أنهم سجدوا شكرًا لله إذ جمع بينهم وبين يوسف.[1]

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٩٠).

فالمراد بهذه الآية أنهم خروا له؛ أي: لأجل وجدانه سجدًا لله تعالى، وحاصل الكلام: أن ذلك السجود كان سجودًا للشكر فالمسجود له هو الله، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير، ثم سجدوا له، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع، فإن قالوا: فهذا التأويل لا يطابق قوله: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾، والمراد منه قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤). قلنا: بل هذا مطابق، ويكون المراد من قوله: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لأجلي، أي: أنها سجدت لله لطلب مصلحتي وللسعي في إعلاء منصبي، وإذا كان هذا محتملًا سقط السؤال. [(١)]

الوجه الثاني: كانت تحية الملوك على هذه الهيئة.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، يقول: وخرَّ يعقوب وولده وأمّه ليوسف سُجدًا... تحمّل يعني: يعقوب بأهله حتى قدموا على يوسف، فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه، دخلوا على يوسف، فلما رأوه وقعوا له سجودًا، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان أبوه وأمه وإخوته. [(٢)]

قال ابن عاشور: وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذٍ ممنوعًا في الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقًا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية؛ ولذلك فلا يعدّ قبوله السجودَ من أبيه عقوقًا لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم[(٣)].

الوجه الثالث: كانت تحية فيهم ولم تكن عبادة.

إن السجود كان تحية بينهم، أن ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض، ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديمًا قبل الإسلام على غير

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٢).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٨).

وجه العبادة من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة:

فَلَمَّا أَتَانَا بُعَيْدَ الكَرَى سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا العَمَارَا[١]

فكانت تحية من قبلنا، كان يحيي بعضهم بعضًا، فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة كرامة من الله تبارك وتعالى عجلها لهم نعمة منه، فسجودهم جارٍ مجرى التحية والتكرمة كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير.[٢]

الوجه الرابع: **هذا السجود كان تحية لا عبادة، وقد نُسخ ذلك في شريعتنا**.

قال ابن العربي: قَالَ الْعُلَمَاءُ: كَانَ هَذَا سُجُودَ تَحِيَّةٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ، وَهَكَذَا كَانَ سَلَامُهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَهُوَ الِانْحِنَاء، وَقَدْ نَسَخَ الله فِي شَرْعِنَا ذَلِكَ، وَجَعَلَ الْكَلَامَ بَدَلًا عَنْ الِانْحِنَاءِ وَالْقِيَامِ[٣].

قال القرطبي: وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة[٤].

قال ابن كثير: وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ﷺ فحرم هذا في هذه الملة، وجُعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى؛ هذا مضمون قول قتادة وغيره[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٦٩).

(٢) تفسير الآلوسي (١٣/ ٥٨).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١١٠٦).

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٢٧١)، وهذا الأثر عن قتادة صحيح، أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٣٤١)، تفسير الطبري (١٣/ ١٦) من طريق معمر، تفسير الطبري (١٣/ ٦٨) من طريق سعيد بن أبي عروبة، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٩٩٦) من طريق سعيد بن بشير، ثلاثتُهم (معمر، سعيد بن أبي عروبة، سعيد بن بشير) عن قتادة به.

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٤).

ومما يدل على تحريم السجود للآدمي حديث: "لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا"(١).

الوجه الخامس: أنهم جعلوا يوسف عليه السلام كالقبلة.

ثم سجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه، وهذا التأويل حسن فإنه يقال: صليت للكعبة كما يقال: صليت إلى الكعبة. قال حسان:

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن(٢)

الوجه السادس: أن الضمير في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ غير عائد إلى الأبوين.

فلو كان عائد إلى الأبوين لقال: وخروا له ساجدين، بل الضمير عائد إلى إخوته، وإلى سائر من كان يدخل عليه لأجل التهنئة، والتقدير: ورفع أبويه على العرش مبالغة في

---

(١) صحيح بشواهده. وقد ورد من حديث جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (١١٥٩)، صحيح ابن حبان (٤١٦٢)، البيهقي في "الكبرى"(٧/ ٢٩١) من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به.

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٩)، النسائي في "الكبرى"(٩١٤٧)، أبو نعيم في الدلائل (٣٣٠)، من طريق خلف بن خليفة، عن حفص، عن أنس به.

حديث عائشة رضي الله عنها: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٢)، مسند أحمد (٦/ ٧٦) من طريق علي بن زيد، عن سعيد ابن المسيب، عن عائشة به.

حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٧) من طريق الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ به.

حديث قيس بن سعد رضي الله عنه: أخرجه أبو داود (٢١٤٠)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٧)، البيهقي في" الكبرى"(٧/ ٢٩١) من طريق شريك عن حصين عن الشعبي عن قيس به.

حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٤/ ٣٨١)، ابن ماجة (١٨٥٣)، ابن حبان (٤١٧١)، البيهقي في "الكبرى"(٧/ ٢٩٣) من طريق أيوب عن القاسم الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى به. وبالجملة: فالحديث صححه الألباني في الإرواء (١٩٩٨).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٢).

تعظيمهما، وأما الإخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين. فإن قالوا: فهذا لا يلائم قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾.

قلنا: إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقًا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه، فسجود الكواكب والشمس والقمر تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له، ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا، فأما أن يكون التعبير مساويًا لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء[1].

الوجه السابع: قد يسمى التواضع سجودًا.

كقوله: ترى الأكم فيها سجدًا للحوافر. . . وكان المراد ههنا التواضع إلا أن هذا مشكل؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ والخرور إلى السجدة مشعر بالإتيان بالسجدة على أكمل الوجوه، وأجيب عنه: بأن الخرور قد يعني به المرور فقط قال تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ (الفرقان: ٧٣) يعني: لم يمروا[2].

الوجه الثامن: كان السجود تربية لأخوة يوسف عليه السلام.

فلعل إخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببًا لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها، فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببًا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم، ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبًا فإذا أراد

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٣).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٢).

ترتيبه مكّنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببًا في أن لا يبقى في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة، فكذا ههنا(١).

الوجه التاسع: سجدوا لحكمة خفية.

فالسجود كان لحكمة خفية، فلعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو، ويوسف ما كان راضيًا بذلك في قلبه، إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت. (٢)

قال ابن زيد: ذلك السجود تشريفة كما سجدت الملائكة لآدم تشريفة ليس بسجود عبادة. (٣)

* * *

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٣).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٣).

(٣) صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٦٩) من حديث يونس: أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد به.

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة